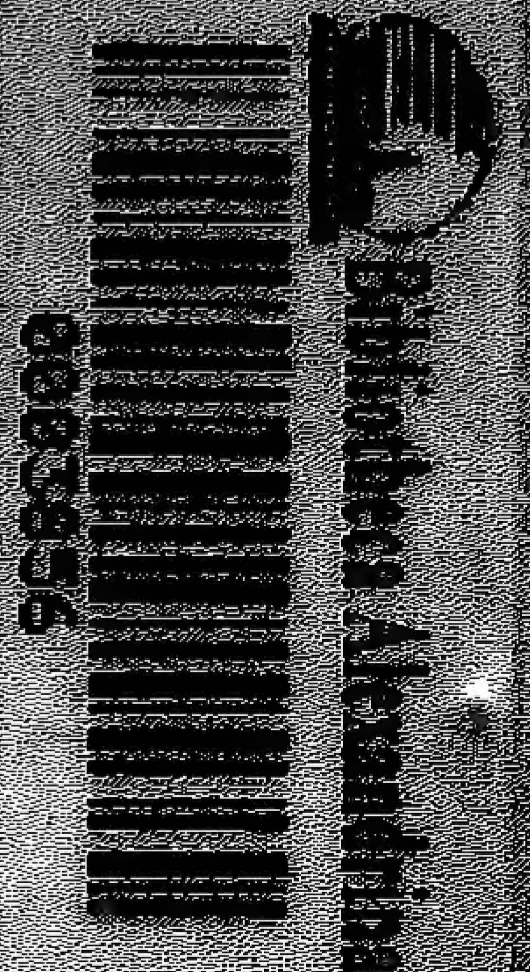
التاريخ الروماني

عصر الثورة

(من تيبريوس جراكوس إلى أكتافيانوس أغسطس)

دكتور
عبد اللطيف أحمد علي
أستاذ التاريخ اليوناني والروماني
كلية الآداب - جامعة القاهرة

طبعة منقحة
١٩٨٨



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

التاريخ الرومانى

عصر الثورة

(من تيبريوس جراكوس إلى أكتاڤيانوس أغسطس)

دكتور
عبد اللطيف أحمد على
أستاذ التاريخ اليونانى - الرومانى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

طبعة منقحة .
١٩٨٨

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

الفصل الأول

الثـــورة : الدور الأول

النضال بين الأرستقراطيين والديمقراطيين

(١٣٣ — ٧٨)

السناتو والزعماء الشعبيون :

كان القرن الأخير من عصر الجمهورية (١٣٣ — ٣٠) عصرا حافلا بالأحداث الجسام لا بالنسبة لروما وحدها بل بالنسبة للحضارة الغربية كلها . فقد بلغت الأخطار التي أحدقت بالدولة في الداخل والخارج مبلغا يتطلب ساسة وجنودا من الطراز الأول . وقد تحقق ذلك كمـا سنرى . ففي هذا القرن ظهرت أشهر الشخصيات الرومانية التي ألفنا سماع أسمائها : تيبريوس جراكوس وأخـــوه جايوس جراكوس ، وماريوس وسلا ، وپومپي وكراسوس وشيشرون وقيصر ، ثم أوغسطس الذين ساهموا جميعا بمختلف الوسائل في انقاذ ايطاليا والامبراطورية من الانحلال المبكر . كان العصر في الواقع عصر الشخصيات العظيمة ، وفيه أيضا أصبحت الأخـلاق الشخصية مثار الاهتمام الشـديد بين الناس كما لا تزال بيننا في العصر الحالي . وقد حدث أن تضاءل سلطان الدولة حتى عجزت عن فرض الطاعة والنظام على المواطنين ، فتهيأت للفرد فرصة اظهار قوته ، وبلغت هذه القوة في بعض الأحيان حدا قد يحملنا على تركيز الاهتمام في الأفراد البارزين ، واغفال الدوافـع المتداخلة والمصالح المتضاربة في العالم الذي عاشوا فيه . غير أننا نجانب الصواب اذا فعلنا ذلك ، لأن أي المام طفيف بالحقائق يظهر لنا هؤلاء الرجال العظام وهم يكافحون المشاكل القائمـة باستمرار ، ولكنهم ينحرفون عن طريقهم الطبيعي بتأثير تيارات مضادة . ومع هذا فلا جدال في أن هذه الحقبة بخيرها وشرها لا مثيل لها في التاريخ من ناحيـة

تأثرها بالسلوك الفردى . وكما استعرضنا من قبل الأخطار والمشاكل ، فسنستعرض فى هذا الفصل ومايليه الجهود التى بذلتها تلك الشخصيات الكبيرة لمكافحة هذه الأخطار وحل هذه المشاكل .

تيبريوس جراكوس :

قانون الاصلاح الزراعى

كانت أولى المشاكل التى تتطلب علاجا سريعا هى مشكلة اقفـار الريف من الفلاحين الأحرار وتدهور الزراعة (١) . وقد بدأت محاولة الإصلاح فى عام ١٣٣ لا على يد السناتو الذى كان الواجب يحتم عليه ذلك ، بل على يد شاب متحمس فى الثلاثين من عمره ، ينتمى الى أسرة شهيرة (nobilis) (٢) ، ويعد من بعض النواحى من أرفع الشخصيات

---

(١) انزعج تيبريوس من سوء الاحوال فى اتروريا أثناء مروره بها وهو فى طريقه الى اسبانيا ليتولى منصب الكويستور عام ١٣٧ وأثناء عودته الى ايطاليا اذ لاحظ انقراض طبقة صغار المزارعين الاحرار وتضخم اعداد العبيد فى الضياع الفسيحة (latifundia) لا لخبرتهم فى الاعمال الزراعية بل لرخص اثمانهم وسهولة ارغامهم على العمل بالسياط مما أوغر صدورهم حتى انهم هبوا ثائرين فى الضياع الكبيرة بصقلية على كبار الملاك الرومان واليونان عام ١٢٥ ، وانذروا بالتمرد والثورة فى جهات اخرى من جنوب ايطاليا وآسـيا الصغرى .

(٢) وهى أسرة « جراكوس » وكانت اسرة نبيلة (nobilis) بمعنى لامعة او شهيرة وتوصف الاسرة عند الرومان بانها نبيلة اذا لمع احد افرادها ببلوغ منصب رفيع يخول صاحبه سلطة الامبريوم كالقنصلية التى تقابل فى الواقع رئاسة الجمهورية . وكان ابو تيبريوس قد تولى القنصلية فى عام ١٧٧ ، والكنسورية عام ١٦٩ ، ثم القنصلية للمرة الثانية فى ١٦٣ . غير ان عشيرة سمبرونيوس (gens Sempronia) التى تنتسب اليها اسرته كانت تنتمى — طبقا للمفهوم السائد عند الرومان — الى طبقة العامة (plebs) لا الى طبقة الاشراف (patricii) وان كانت المساواة الاجتماعيـة والسياسية قد تحققت بين الطبقتين . ولو كانت عشيرة تيبريوس من الاشراف لما جاز له قانونا ان يرشح نفسه نقيبا للعامة . وقد زاد من شهرة اسرته ان اباه كان قد تزوج من كورنيليا ابنة اسكيبيو الاكبر « قاهر افريقيا » الذى هزم هنيبال فى موقعة زاما عام ٢٠٢ . وقد أنجب منها عدة ابناء كان من بينهم تيبريوس وجايوس واختهما سمبرونيا التى تزوجها اسكيبيو ايميليانوس القائد الشهير الذى دمر قرطاجنة فى الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦ ، كما انتصر على الاسبان فى نومانتيا عام ١٣٣ ، ولقب هو الآخر « بقاهر افريقيا » (الاصغر) « وقاهر نومانتيا » (Numantinus) .

ولعل اسم الاشراف Patricii مشتق من كلمة Patres "الاباء" وهو اسم يطلق ايضا على أعضاء السناتو القديم الذين كانوا الاكثر ثراء ونفوذا (وربما عراقة ايضا) من سواهم فـى

فى التـــاريخ الرومانى . كان تيبريوس سمبرونيوس جراكــوس (Tiberius Sempronius Gracchus) كأســلافه عميق الشـعور بالواجب ، وعلى غير ما عرف عن الرومان مثاليا يفيض رقة ونبلا . لكنه وقـد تلقى تعليما اغريقيا نظريا يتضمن البلاغة والفلسفة الرواقيـة ولا يتضمن دراسة الحقائق البحتة ، فقد كانت تعوزه الخبرة العملية والمعرفة الواسعة اللازمتان لمن يضطلع بمثل المشكلة الاقتصـــادية ـ الاجتماعية التى تصدى لها ، والتى لا يصدر اليوم بها قانون الا بعد أن يدرسها الخبراء من كافة جوانبها دراسة فاحصة عميقة .

كان تيبريوس قد ارتقى أول درجة فى سلم الوظائف العامة بفوزه بمنصب « الكوبستور » عام ١٣٧ الذى قضاه فى أسبانيا . وفى أواخر صيف عام ١٣٤ رشح نفسه نقيبا للعامة (tribunus plebis) وتقلد منصبه مع زملائه النقباء التسعة فى يوم ١٠ ديسمبر من السنة عينها . وسرعان ما أعلن برنامجه الاصلاحى فى مستهل عام ١٣٣ . وقد اجتذب اليه دهماء المدينة الذين كانت لهم أصوات كثيرة فى القبائل الريفية ، لأن بعضهم ممن وفدوا من الريف الى العاصمة فى السنوات الأخيرة كانوا تواقين الى العودة الى أسلوب حياتهم القـديم ، ولأن بعضهم الآخرين ، وان لم تكن لديهم أى رغبة فى اقتناء قطعـة من الأرض ، فـا نهم كانوا يأملون فى أن يؤدى المشروع الى تقليل عدد سـكان العاصمة وبذلك تزداد فرصهم فى العثور على عمل . وكان بين الدهماء فريق يؤيد المشروع بدافع من الحسد والحقد على الأثرياء . وثمة فريق آخر تأثر بفصاحة تيبريوس أو أعجب بمنطقه فى الدفاع عن مشروعه واستناده الى أسس أخلاقية سامية ووطنية صادقة . وأهم من ذلك أن نبأ المشروع انتشر بسرعة فى أرجاء الريف الايطالى فتدفقت جموع غفيرة من الفلاحين على العاصمة يوم الاقتراع عليه ، واكتظت قاعة الجمعية القبلية بناخبين من خارج روما قلما سبق لهم حضور جلساتها أو لم يحضروها قط من قبل . وفى وسعنا أن نتصور أن صغار المزارعين الذين

= مجتمع المدينة . وقد تضاءل عدد عشائرهم وأسرهم بمرور الزمن لكنهم ظلوا متمتعين ببعض امتيازات مقصورة عليهـم وقـــد

تدهورت أحوالهم وتهددهم الخراب قد بذلوا جهودا مضاعفة للحضور الى روما فى الموعد المضروب على أمل أن يتيح لهم المشروع فرصة لبدء حياتهم من جديد ، وأن الأجراء الزراعيين الأحرار كانوا مستعدين للتضحية من أجل المشروع على أمل أن يصبحوا بمقتضاه ملاكا لمزارع صغيرة بعد أن كانوا بالأمس أجراء . كذلك استطاع تيبريوس أن يستميل الى جانبه بعض أقطاب روما الأكفاء كأبيوس كلوديوس پولكر زعيم مجلس الشيوخ (princeps senatus) (١) وكراسوس موكيانوس المحامى(٢) ، وپوبليوس موكيوس سكيڤولا ، أول من اشتهر بالفقه بين أفراد أسرته وأحد قنصلى سنة ١٣٣ .

تقدم تيبريوس بمشروعه الى الجمعية القبلية وتمكن من أن يستصدر به قانونا فى وسعنا أن نسميه « قانون الملكيات الصغيرة » أو — مع شيء من التجاوز — «قانون الاصلاح الزراعى» . وينص على ألا يمتلك أحد أكثر من ٥٠٠ فدان رومانى (iugerum)(٣) من الأراضى العامة (ager publicus) (٤) يضاف اليها نصفها اذا كان لديه ولد واحد ،

---

(١) اى اقدم عضو فى السناتو ، وصاحب الاولوية فى التصويت عند الاقتراع على اي مشروع (rogatio) . وكان بولكر قد تولى القنصلية عام ١٤٣ . وقد تزوج تيبريوس ابنته كلوديا (Claudia) .

(٢) تولى القنصلية بعد ذلك فى عام ١٣١ ، وهو حمو جايوس جراكوس الذى تزوج ابنته لكينيا (Licinia) ، وهو شقيق سكيڤولا المذكور فى المتن .

(٣) اى حوالي ٢٠٠ فدان مصرى حيث أن الـ iugerum الرومانى يعادل تقريبا ثلاثة أخماس الفدان المصرى ، فالأول = ٢٥٠٠ م٢ بينما الثانى = ٤٢٠٠ م٢ .

(٤) جرت عادة روما أثناء فتوحاتها فى ايطاليا على أن تنتزع من المدن والشعوب المقهورة جزءا من أراضيها وتضمه لممتلكات الشعب الرومانى . وكانت الحكومة تقسم هذه الاراضى وتوزعها كأنصبة صغيرة على المواطنين الرومان الفقراء ، او تبيعها او تؤجرها لأمد قصير او طويل . لكن فى معظم الاحيان كانت الحكومة لا تفعل شيئا بهذه الاراضى اكثر من اعلان ملكية الدولة لها . وفى هذه الحالة كان فى وسع الراغبين من الافراد ان يحصلوا على تصريح بزراعتها والانتفاع بها نظير ايجار ضئيل . وغالبا ما كان المواطنون الرومان يستفيدون من هذه الرخصة . لكن حدث احيانا ان الحكومة لم تطرد الملاك الاصليين من اراضيهم المنزوعة وبذلك احتفظ كثير من الايطاليين فى الواقع باراضيهم التى كانوا تنازلوا عنها لروما تنازلا اسميا . وكان الافراد الذين وضعوا أيديهم على الاراضى العامة بهذه الطريقة

= تصاهروا وافراد طبقة " النبلاء " الصاعدين (الذين اسميناهم كذلك لمجرد التطابق الصوتى وهم " اللامعون " nobiles) ومن الفريقين تألف " الحزب الارستقراطى " .

ومثلها اذا كان لديه أكثر من ولد . وكانت الأراضي العامـــة أراضي تمتلكها الدولة ولكن بعض النبلاء من طبقة السناتو وغيرهم من ذوي الجاه والثراء تمكنوا من وضع أيديهم عليها وادعاء حيازتها (possessio) نظير ايجار لم يدفعوه بانتظام أو توقفوا عن دفعه . وقد نص القـــانون — الذي عرف باسم قانون الأراضي (lex Sempronia agraria) (١) — على مصادرة ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية من الأراضي العامـــة ، وتقسيمه مع سائر ما تملكه الدولة من أراض في ايطاليا الى أنصـبة صغيرة (٢) ، وتوزيعها على المعدمين من الرومان والايطاليين نظير ايجار رمزي ، على أن تحتفظ الدولة بملكيتها وتحرم بيعها — وهي محاولة يائسة لاعادة الناس الى الريف وربط الفلاحين بالأرض حتى ولو كرهوا ذلك (٣) . ويلاحظ أن المشروع لم يتناول الأراضي الخاصة (ager privatus) بل اقتصر على الأراضي العـــامة (ager publicus) ممـــا ينهض دليـــلا على أنه لم يكن ثوريا أو متطرفا بل كان متسما بالاعتدال ، وانه

= يعرفون بالحائزين للاراضي possessores (تمييزا لهم عن الملاك) وظلت الدولة محتفظة بحقها في طردهم في اي وقت تراه مناسبا لتتصرف في الاراضي على نحو آخر . ولما كان الاشراف ملاك الاراضي يسيطرون في العادة على الاداة الحكومية ، فقد تبين لهم منـــذ وقت مبكر ان مصلحتهم تقتضي ان تترك الحكومة معظم الاراضي العامة دون تصرف ثم يستحوذون عليها انفسهم . وقد جرت محاولات من وقت لآخر للحيلولة دون ذلك ونادى البعض بضرورة توزيع الاراضي العامة على الفقراء او بفرض حد اقصى لحيازة الفرد لهـــذه الاراضي . وبازدياد نفوذ الأشراف استطاعوا وقف توزيع الاراضي العامة على المعدمين ، وتخطي القيود القانونية المفروضة على حيازة هذه الاراضي . وهكذا صار كثير منهم حائزين لمساحة شاسعة من الاراضي العامة التي كان يمتلكها الشعب الروماني امتلاكا اسميا .

(١) لم يكن القانون عند الرومان ينسب الى اسم الشخص الذي اقترح مشروعه او الى لقب اسرته بل الى اسم عشيرته ولذلك عرف هـــذا القانون باسم « قانون سمبرونيوس للاصلاح الزراعي » . كذلك نجد القوانين التي تبناها اخوه جايوس منسوبة الى العشيرة ذاتها . وكان الاسم الروماني يتكون عادة من ثلاثة عناصر : الاسم الشخصي (Tiberius) واسم العشيرة (Sempronius) ولقب الاسرة (Gracchus) وغالبا ما يرمز الى الاسم الشخصي بالحرف او الحروف الاولى فقط ، (Ti = Tiberius) . وعن هذا الموضـوع ، راجع كتابنـا « مصـادر التاريخ الروماني » — ١٩٧٠ — ص ٤ ، حاشية ٢ .

(٢) كل منها حوالي ٣٠ فدانا رومانيا ، وان كان هذا الرقم مستمدا من فقرة مشوهة .

(٣) يقول بلوتارخوس ان الهدف من المشروع كان تخفيف وطأة الفقر عن الدهماء ، بينما يقول ابيانوس انه كان لتمكينهم مـــن بلوغ النصاب (العيني أو النقدي) المؤهل للخدمة العسكرية .

لم يهدف الى أكثر من تنفيذ قوانين قديمة مهملة كانت تنص على تحديد ما يجوز ان يبقى من الأراضى العامة فى حيازة فرد واحـــد(١) ، والى استرداد الدولة لأراضيها من أيدى الذين استحوذوا عليها عن طريق غير شرعى ، والى متابعة سياسة توزيع الأراضى العامة على المواطنين على نطاق أوسع من ذى قبل . هذا الى ان المشروع قد نص على أن تتنازل الدولة لكل واحد من حائزى الأراضى العامة (possessores) عن مساحة منها تتراوح بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ فـدان رومانى تبعا لحجم أسرته ، وتسلم له بملكيتها الكاملة الدائمة ، مع اعفائه من الضريبة والايجار ، بل قيل ان المشروع فى صورته الأصلية كان يتضمن نصا بدفع تعويضات لهؤلاء الحائزين نظير ما انفقوه من أموال فى استصلاح هذه الأراضى .

وقد وافقت الجمعية القبلية على هذا المشروع الذى قصد منـه النهـوض بالزراعة وتعمير الريف بالفلاحين الأصـحاء ، وهم عصب الجيوش الرومانية . وما ان تمت موافقة الجمعية حتى صار المشروع قانونا واجب النفاذ . واختيرت لجنة ثلاثية دائمة من تيبريوس نفسه(٢) ، وأخيـه جايوس وحميه أبيوس كلوديوس للاشراف على تنفيـذه . وخولت هذه اللجنة التى عرفت باسم Triumvīri agris iudicandis assignandis سلطة معاينة الأراضى العامة المطلوب مصادرتها واعادة توزيعها على فقراء الرومان والايطاليين ، وبعدئذ سلطة قضائية للفصل فى المنازعات التى تثور حول ملكية الأراضى التى تطالب بها الدولة . وما تزال تشاهد حتى الآن بعض الأحجار المنقوشة التى أقامتها لجنة الاصـلاح الزراعى كعلامات فاصلة بين حدود الملكيات الزراعية (٣) .

(١) هكذا — على ما يبدو — نص احد قوانين ليكينوس سكيتوس فى ٣٦٧ ق . م .

(٢) وفى ذلك تجاهل للقانون القائل بان من يقترح لجنه لا يجوز له ان يكون عضوا فيها . ولعل العضوية فى اللجنة كانت لمدة سنة قابلة للتجديد .

(٣) cippi terminales

ونستطيع أن نقطع من النظرة السطحية الى هذا المشروع بأنه كان من شأنه أن يؤدى الى زيادة كبيرة فى عدد صغار الملاك . ولقد تزايد بالفعل عددهم كما يتضح من قوائم تعداد المواطنين فى سنتى ١٣٠ ، ١٢٥ ، وان كان لا ينبغى أن نعزو هذه الزيادة الى نشاط لجنة الاصلاح الزراعى دون سواه (١) .

لقد أحرز المشروع نجاحا فى حل مشكلتى افقار الريف وتدهور الزراعة . غير أن هذا النجاح كان جزئيا ومؤقتا لأن المشروع لم يكن هو العلاج الجذرى الشامل لمشكلة الأراضى أو مشكلة دهماء العاصمة الذين لم يطرأ على حالتهم أى تحسن مستديم بدليل التجاء جايوس جراكوس فيما بعد الى وسائل جديدة لاصلاح حالة تلك الطبقة . وحتى اذا سلمنا بازدياد عدد صغار الفلاحين فى الريف نتيجة للمشروع فان مدى بقائهم مرتبطين بالأرض كان مرهونا بالأحوال الاقتصادية التى لا نعرف عنها شيئا مؤكدا ؛ بل نحن نشك فى أن تيبريوس نفسه قد عنى بهذا الجانب من المشكلة أو كان لديه معلومات أوفر مما لدينا عن حقيقة تلك الأحوال . كذلك لا نعرف كيف كانت طريقته فى اختيار المنتفعين بالأنصبة الزراعية وهل كان ينوى أن يختار صغار الزراع من بين دهماء المدينة أم كان لديه خطة معينة لاختيارهم من بين من كان لهم دراية بالفلاحة . وازاء جهلنا بالتفاصيل يتعذر علينا أن نحكم على

---

(١) ذلك لان قوائم التعداد كانت تشتمل على اسماء جميع المواطنين الرومان الذين تبلغ اعمارهم ١٨ سنة فاكثر ، وليس فقط على من كان يتوافر لديهم النصاب العقارى المؤهل للخدمة العسكرية . ولا شك فى ان كثيرين ممن كانوا قد قصروا فى قيد اسمائهم بقوائم التعداد بعد ان فقدوا مزارعهم الصغيرة قد بادروا الى قيد اسمائهم عندما تسلموا حصصهم الزراعية الجديدة . لكن لا شك أيضا فى ان كثيرين غيرهم ممن كانوا يأملون فى الحصول على نصيب من الاراضى العامة المصادرة قد تقدموا الى السلطات لقيد اسمائهم فى قوائم التعداد . وفى الوقت نفسه كان زعماء كل من الحزبين الارستقراطى والديمقراطى اثناء الصراع من أجل السيطرة على الجمعيتين حريصين على تدوين اسماء اتباعهم (clientes) وعلى الاخص عتقائهم وغيرهم ممن كانوا يعيشون عالة عليهم ، فى القبائل والوحدات المئوية .

المشروع حكما يقينيا ، وان ساورنا الشك فى احتمال نجاحه على نطاق واسع بحيث يؤدى الى تغيير جوهرى فى الأوضـاع القائمة ، أو الى وقف التحول الزراعى الذى كان سائرا فى مجراه ، لأنه لم يتخذ أى اجراء من شأنه أن يجعل الضياع الكبيرة غير مربحة أو أن يجعل مالك الأرض الصغير أكثر قدرة على الوقوف فى وجه منافسة جاره الاقطاعى الكبير . وكان قانون الاصلاح الزراعى يتضمن نصا يمنع صغار الفلاحين من التصرف فى حصصهم الزراعية سواء بالبيع أو الرهن أو التنازل أو غير ذلك من الطرق . واذا صح أن هذا القيد ألغى فيما بعـد ، فان تفتيت ضيعة كبيرة الى مزارع صغيرة لكى تتكون من الأخيرة ضيعة كبيرة أخرى بعد فترة قصيرة ، كان كفيلا بأن يجعل أثر القانون مؤقتا .

ولا جدال فى أن مشروع الاصلاح الزراعى كان له ما يركيه من وجهة النظر القانونية البحتة . غير أن المشكلة كان لها جانب آخر . ذلك أن الحائزين (possessores) الذين قضى المشروع بنزع ملكيتهم للأراضى العامة ، لم يكونوا فى الواقع هم عين الأفراد الذين استحوذوا عليها عن طريق وضع اليد (١) . ففى حالات كثيرة بقيت هذه الأراضى العامة أو تلك فى حيازة أسرة بعينها طوال أجيال عديدة حتى لم يعد هناك فى نظر الناس ما يميزها عن الملكية الخاصة . فقد تنقلت هذه الأرض من يد الى يد عن طريق الشراء والبيع والرهن والوصية حتى لم تعد هناك فى الغالب سوى صلة واهية أو صلة على الاطلاق بين الحائز الحالى للأرض وبين الحائز الأصلى الذى كان قد تحايل على القانون . لقـد قصرت الدولة فى تأكيد حقها أو المطالبة به الى أن طواه النسيان . بل انها توقفت عن تحصيل الايجار الضئيل الذى كانت قد فرضـته فى

---

(١) تمت حيازة الاراضى العامة التى تقع فى جنوب ايطاليا بعد عام ٢٠٠ . واما الاراضى العامة التى تقع فى اتروريا ووسط ايطاليا فان المرجح ان حيازتها تمت فى تاريخ سابق على ذلك .

الأصــل على حائز الأرض نظير انتفاعه بها . ولم تفعل شيئا لتذكيره بالفارق بين الأرض التى يمتلكها امتلاكا شرعيا وتلك التى احتازها لنفسه بوضع اليد [1]. وفى مثل هذه الظروف كان من المحتمل أن يقيم الحائز دعوى مستندة الى مبدأ العدالة ان لم يكن الى مبدأ القانون . وكان لابد من أن يشعر بأن حقــه الجوهرى قد انتهك تحت ستار من حرفية النص القانونى .

كان تيبريوس جراكوس مصلحا نظــريا . لقد رأى داء ويبــلا ، واعتقد أنه اكتشف الدواء ، وصمم على تنفيــذ مشروعه . ويتبين لنا مما نعرفه عنه أنه كان بالفطــرة غير قادر على رؤية جانبى قضية من القضايا ، بل غير قادر حتى على ادراك أنه قد يكون لها جانبان . ولما كان متوثقا من استقامته ، ومقتنعا تماما بصواب سياسته ، فقد عجز عن أن يتصور شيئا كالاختلاف فى الرأى . واذ كان قد افترض أن معارضة خصومه لمشروعه مبعثها الانحراف وسوء النية أو الغفلة ، فقد تعذر عليه أن يتصور أن يكون الاختلاف فى الرأى نزيها . ومع رجل من هذا الطراز لم يكن هناك أمل فى التفاهم للوصول الى حل وسط ، أو فى ارهابه لزحزحته عن موقفه . ولما كان من المستبعد أن يرضخ النبلاء من طبقة السناتو لقرار ينطوى على مصادرة جزء كبير مما استحوذوا عليه فقد أخذوا الأهبة لخوض المعركة ضده حتى الرمق الأخير .

ولقد ذكرت أن المشروع بعد تصديق الجمعية القبلية صار قانونا واجب النفاذ . وفى الحق ان رجال طبقة السناتو سلموا بشرعية القانون بعــد صدوره وان كانوا قد سعوا خلال السنوات القليلة التالية الى عرقلة أعمال لجنة الاصلاح الزراعى . لكن السناتو كان من سوء الحظ قد بذل قصارى جهده لاحباط المشروع منذ البداية لأن تيبريوس على غير العرف المتبع تجاهله وتخطاه فلم يستشره فيه بل طرحه على الجمعية

---

(1) ثمة فرق واضح بين الملكية الشرعية (dominium) وبين الحيازة بوضع اليد (Possessio) حيث يجوز للحائز حــق الانتفاع بالارض (= حق الارتفاق) نظير ايجار (VECTIGAL)

القبلية مباشرة اما كسبا للوقت أو تجنبا للمعارضة (١) . ولما لم يكن فى وسع السناتو أن يتصدى للمشروع فقد أوعز الى أوكتاڤيوس (M. Octavius) — وهو أحد زملاء تيبريوس — فى أن يعترض عليه . وكان اعتراض نقيب العامة (intercessio) اجراء دستوريا سليما لا غبار عليه ولا سبيل الى تجاهله أو الاستخفاف به . لكن تيبريوس بوصفه نقيبا هو الآخر لم يكن أمامه سوى عام واحد ، واذا لم ينجح فى استصدار قانونه خلال ذلك العام ، فمعنى هذا أنه سيضطر الى الكف عن المحاولة فترة طويلة من الزمن . وقد لام زميله على موقفه المعيب لوما شديدا ، ولكن أوكتاڤيوس لم يسحب اعتراضه . وأرجئت جلسة الجمعية الى يوم آخر على أمل أن يراجع نفسه ويعدل عن موقفه. لكنه عاد متمسكا برأيه . وعندئذ اقترح بعض المعتدلين طرح الخلاف على السناتو فقبل تيبريوس الاقتراح عن طيب خاطر لثقته الكبيرة فى سلامة مشروعه وعدالته . غير أن السناتو بدلا من الالحاح على أوكتاڤيوس ليسحب اعتراضه ، انقلب على تيبريوس منددا بمشروعه الذى ينم فى رأيه عن اتجاه غوغائى . ولما كان تيبريوس مؤمنا بضرورة انقاذ بلده ، ولم يكن هناك شىء يستطيع صده عن المضى فيما اعتزمه ، فان المعارضة لم تزده الا عنادا . وغلبت العجلة على التأنى فأخل تيبريوس بالدستور والعرف عامدا اذ تقدم الى الجمعية مقترحا عزل زميله المتواطىء مع مجلس الشيوخ . وكانت حجته هى أن أوكتاڤيوس تحدى ارادة العامة الذين انتخبوه ممثلا لهم ، ومن حق العامة اذن أن يعزلوه من منصبه . لكن الحق الصراح هو أنه كان من المستحيل عزله شرعيا طالما كان حاضرا الجلسة . وكان من حقه أن يعترض لا على المشروع فقط بل

---

(١) مقتديا فى ذلك بنقيب العامة جايوس فلامينيوس (C. Flaminius) الذى كان قد استصدر فى عام ٢٣٢ قانونا للاصلاح الزراعى يقضى بتوزيع اراضى غالة وبيكينوم على فقراء الرومان عن طريق الجمعية القبلية دون استشارة السناتو بل رغم معارضته . وكان لايليوس (Laelius) الملقب بالحكيم (Sapiens) ، قنصل عام ١٤٠ ، قد فكر هو الاخر فى الاصلاح الزراعى وتوزيع الاراضى العامة على الجنود المسرحين والفقراء .

المقصود بارض غالة — فى مشروع فلاميتيوس هى الـ Ager Gallicus تلك الأراضى قرب ساحل البحر الادرياتى (بين بلدتى اريمنوم وانكونا باقليم اومبريا) والتى كانت روما

على أى اقتراح يرمى الى تنحيته شخصيا عن منصبه . وهنا طغى الحماس على التروى فأصدرت الجمعية قرارا شعبيا بعزل أوكتافيوس الذى انسحب من القاعة خوفا على حياته ، ورشحت الجمعية تقيبا آخر أسلس منه انقيادا ليحل مكانه . هكذا تمت الموافقة على مشروع تيبريوس بعد أن أقدم على خطوة لا سابقة لها وتعتبر انتهاكا صارخا للدستور .

ولم يعد فى وسع السناتو أن يفعل شيئا مجديا بعد أن أصبح المشروع قانونا . لكنه سعى — على نحو ما ذكرنا — الى عرقلة أعمال لجنة الاصلاح الزراعى . ولذلك رفض السناتو اعتماد الأموال اللازمة لتمويل المشروع (كتزويد صغار الملاك الجدد بالماشية والآلات الزراعية ... الخ) . وعندئذ اضطر تيبريوس الى استصدار قرار شعبى آخر بتخصيص جزء من التركة التى أوصى بها أتالوس الثالث (Attalus III) ملك برجامون للشعب الرومانى ، لمساعدة صغار الفلاحين متحديا بذلك السناتو ومفتئتا على حقه فى الاشراف على أموال الدولة والشئون الخارجية (١) .

واذ كان الوقت يمضى بسرعة ، وكان خصوم تيبريوس يتربصون به شرا فقد رأى — حماية لنفسه من المحاكمة السياسية التى قد يتعرض لها بعد تجرده من حصانة المنصب ، وحرصا على تنفيذ مشروعه بصورة فعالة — أنه لابد من اعادة ترشيحه تقيبا للعامة فى السنة التالية ١٣٢ . وكانت اعادة الترشيح للمنصب عينه فى سنتين متواليتين أمرا محظورا

(١) هذه التركة لم تصل الى روما الا فى عام ١٢٩ أى بعد مصرع تيبريوس بسنوات . ويبدو أن كثيرين من رجال الاعمال الاثرياء (وهم من عرفوا فيما بعد باسم طبقة الفرسان) والذين كانوا قد عارضوا مشروع الاصلاح الزراعى ، قد أيدوا المشروع الخاص بتركة أتالوس الثالث نظرا لاتفاقه مع مصالحهم . وعن هذه التركة ، راجع :
OGIS 338; 438; Syll. 694 = Lewis-Reinhold, Roman Civilization I (1951), pp. 321-323.

قد صادرتها من قبائل الـ Senones الغالية بعد دحرهم وطردهم من هناك فى عام ٢٨٣ .

بمقتضى قانون ڤيلليوس (lex Villia annalis) الصادر فى عام ١٨٠ . ومع أنه ليس من المؤكد أن هذا القانون كان ينطبق على تريبونية العامة لعدم اعتبارها — من الناحية الفنية — منصبا عاما (magistratus) من مناصب الشعب الرومانى كافة ، فانه لم يحدث أن تكرر ترشيح أحد لعين المنصب مرتين متواليتين منذ النضال القديم بين طبقتى العامة والاشراف. لقد أقدم تيبريوس اذن على عمل جرىء آخر ، ومع أنه كان على ما يرجح غير متعارض مع الدستور الا أنه كان مجافيا لروحه لما فيه من خروج على القاعدة العرفية المستقرة منذ القرن الثالث .

وفى تلك الاثناء كان كثير من الفلاحين قد غادروا العاصمة الى الريف لحلول موعد الحصاد . وأما دهماء المدينة فقد فتر حماسهم بعد بلوغ مآربهم ولم تعد مسألة كاعادة الترشيح لنقابة العامة لتثير مثل اهتمامهم السابق . ومضت من الصيف فترة وحل يوم الانتخاب فدعا تيبريوس أنصاره للاجتماع به عند الفجر فوق تل الكابيتول حيث تنعقد الجمعية القبلية . وقد ثارت فيها مناقشات بين نقباء العامة حول شرعية ترشيح تيبريوس نقيبا للمرة الثانية . وتبين أن فريقا منهم لا يقر هذا الترشيح . وهنا أعطى تيبريوس لانصاره اشارة أولت على غير مقصدها فثار شغب شديد أدى الى مناوشات . وانسحب بعض نقباء العامة من الجلسة ، وتلبد الجو بشائعات مغرضة وأقاويل طائشة بلغت مسامع مجلس الشيوخ الذى كان منعقدا وقتذاك فى معبد « ربة الوفاء »(١) "العهد". لقد عرّض تيبريوس نفسه — على الرغم من أهدافه السلمية — لتهمة انتهاك سُنّة السلف (mos maiorum) بنية الاستئثار بالحكم . وكانت احدى القواعد العامة فى الدستور الرومانى تجيز استباحة دم من يسعى الى تنصيب نفسه طاغية . وطالب كثير من أعضاء السناتو القنصل سكيفولا بأن يتخذ اجراء رادعا يوقف تيبريوس عند حده ويحمى الدولة من خطره . لكن هذا القنصل رفض أن يتخذ أى اجراء غير

---

(١) وهى الربة FIDES التى كانت تجسيدا لمعانى الاخلاص =

قانونى . وعندئذ ثارت ثائرة المتطرفين من رجال السناتو الذين عقدوا العزم على الحيلولة دون اعادة انتخاب تيبريوس تقيبا بأى ثمن ، واندفعوا مع طائفة كبيرة من أتباعهم وعبيدهم نحو الكابيتول وعلى رأسهم سكيبيو ناسيكا (Scipio Nasica) ، الكاهن الأعظم والقنصل السابق ، وهاجموا تيبريوس وبعض أنصاره عند باب معبد چوپيتر الكاپيتولينى وصرعوهم بالقرب من تماثيل ملوك روما القدماء . ويبدو أن بعض أنصاره الآخرين قد بهتتهم رؤية أقطاب السناتو الغاضبين أو فزعوا من تدهور الموقف تدهورا فاق حد تصورهم فولوا هاربين دون أن يقوموا بمحاولة لانقاذ زعيمهم من أيدى خصومه . وفى الليل ألقيت جثث القتلى المتراوح عددهم بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ فى نهر التيبر . وبادر السناتو الى تشكيل محكمة خاصة برئاسة بوبيلليوس لايناس (P. Popillius Laenas) (١) لاجراء محاكمة صورية للبارزين من أنصار تيبريوس . وقضت هذه المحكمة باعدام البعض ونفى البعض الآخر ، بتهمة استعمال العنف أو التهديد باستعماله .

ولعل قصة تيبريوس جراكوس هى أكبر مأساة فى التاريخ الرومانى لأن قليلا من الصبر والتروى وقليلا من التساهل من جانب الطرفين كان كفيلا بانقاذ الموقف قبل أن يتدهور . وكان مبدأ النظام والطاعة الذى أخذ به الرومان قد تجنب منذ القدم كل مظاهر العنف ، وتغلب على المشاكل الدستورية بطريق التفاهم والتراضى . لكن تيبريوس هز الدستور بعنف فقوبل بالعنف من جانب حماته الأدعياء . ولم يقصد تيبريوس سوى تحقيق الاصلاح فانتهى به الأمر الى التمهيد للثورة .

---

(١) وهو ابن جايوس بوبيلليوس لايناس قنصل عام ١٧٢ ورئيس السفارة الرومانية التى عهد اليها بالذهاب الى مصر لمطالبه انطيوخوس الرابع ملك سوريا بالانسحاب من الاراضى المصرية عام ١٦٨ . فلما التقى بالملك السليوكى قرب الاسكندرية رسم بعصاه فى الرمال دائرة حول الملك وامره بلهجة جارحة أن يرد على قرار السناتو قبل ان يخطو خارجها ، راجع كتابنا "مصر الامبراطورية الرومانية" (ط ١٩٨٨) ص ٨ ، ٩ .

= والولاء للدولة ، وحسن النية والوفاء بالعهد عند ابرام معاهدة او ميثاق او عهد اتفاق بين طرفين وكان معبدها فوق الكابيتول بجوار معبد جوبيتر نفسه .

وكان هناك الى جانب اقفار الريف خطر داخلى آخر لا يقل جسامة عن سابقه وان لم يكن من اليسير تبينه . ونعنى بذلك خطر العبيد وقيام العمل على سواعدهم . ونلتمس العذر لتيبريوس الذى لم يقم بمحاولة جدية لمعالجة مشكلة العبيد نظرا لخفائها ، وان كان قد حدث قبل توليه منصب التريبونية مباشرة أن قام العبيـد فى صقلية بثورة كشفت عن الخطر العسكرى والاقتصادى الذى يهدد كيان الدولة . فقد روى أن حوالى ٧٠٫٠٠٠ عبد هبوا ثائرين فى وقت واحد ضد أصحاب الضياع الرومان والاغريق بتلك الجزيرة فى عام ١٣٥ . ولم تقمع ثورتهم الابعد صراع طويل فى عام ١٣٢ . وكانت هذه الثورات التى قام بها العبيـد فى فترات متباعدة وانتهت بثورة هائلة قام بها المجالدون (gladiatores) فى ايطاليـا بزعامة اسبرتاكوس (Spartacus) الطراقى بعـد ستين عاما (٧٣ — ٧١) أعراضا لداء يتطلب طبيبا بارعا . لكن هذا الطبيب لم يظهر الى أن جاء يوليوس قيصر . فحتى ذلك الحين لم يجـد الرومان متسعا من الوقت للتفكير فى ذلك الخطر ، فقد عاشـوا فى عالم غاص بالعبيد واعتقدوا أن العبيد مصـدر من مصادر رخائهم . واذ كانوا مصيبين فى اعتقادهم الى حـد ما بسبب تناقص عدد الأيدى العـاملة الحرة ، فقد بقيت المشكلة خافية عليهم . وعلى الرغم من جميع هـذه الثورات الخطيرة ، فليس فى مؤلفات ذلك العصر الكثيرة ما يشير الى الاحساس بمبلغ خطورة الداء الوبيل .

جايوس جراكوس

ظهور الحزب الديمقراطى

بعد مقتل تيبريوس بتسع سنوات انتخب أخوه الأصغر جايوس جراكوس (Gaius Sempronius Gracchus) تقيبا لعام ١٢٣ . وكان قد اختير عضوا فى لجنة الاصلاح الزراعى وهو فى سن الحادية والعشرين ثم شـغل منصب الكويستور فى عام ١٢٦ وخدم فى ولاية سردينيا .

وقد تعلم كأخيه تعليما اغريقيا ولكنه كان بالفطرة رجلا عمليا فعالا . وكان أشد من أخيه حماسا ، وأسرع انفعالا ، وأخصب خيالا ، وأوسع أفقا . ويشهد له شيشرون نفسه بموهبته الخطابية الفذة . وفى الحق انه قد توافرت فيه كثير من مؤهلات الزعامة كالذكاء وقوة الشخصية والمقدرة والحيوية والتصميم . ولدينا ترجمة لسيرته بقلم رجل كان يعرفه — فيما يلوح — معرفة شخصية ، وهى تصوير حى ينطق بهـذه المواهب لأول وهلة . كان جايوس وهو فى أوج نشاطه السياسى يبدو — فى نظر ذلك الشاهد للعيان — كأنه ملك منهمك فى تصريف شتى شئون الدولة . ولا جدال فى أنه كان رجل دولة من الطراز الأول . ويتضح من دراسة كل ما وصلنا عنه بامعان أنه كان فى حقيقة الأمر أحد هؤلاء الرجال القلائل الذين يعتقـدون اعتقادا راسخا — كيوليوس قيصر من بعده — أنهم أقدر من سواهم على الاضـطلاع بالمشروعات التى تحتاج اليها أممهم ، وأن اعتقادهم هذا كان له ما يبرره . وكان من الطبيعى أن يحتضن مشروع أخيه ولكنه ذهب الى أبعد مما ذهب اليه أخوه . فقد تبنى برنامجا اصلاحيا لا يدانيه فى شموله أى برنامج تبناه نقيب آخر للعامة فى عصر الجمهـورية . وكان جايوس يقوم بتنفيـذ مشروعاته بسرعة مذهلة ولا يألو جهدا فى ذلك مثيرا دهشة خصـومه بعزيمته التى لا تكل وبطريقته فى حث غيره على العمل . ولعل السر فى ذلك هـو أنه كان رجـلا مهذبا بكل معانى الـكلمة . ويروى لنـا بلوتارخوس (١) أنه كان دائما فى معاملاته مع الناس أبى النفس دمث الخلق معطيا كل ذى حق حقه .

الواقع أن شخصية هذا الرجل هى التفسير الصحيح لأعمـاله ، فلو أنه استطاع أن يحتفظ بنفوذه الشخصى وسلطته التشريعية بضع

---

(١) انظر بلوتارخوس « سيرة جايوس » وبخاصـة الفصلين ٥ ، ٦ حيث يردد المؤرخ رواية منقولة عن شاهد لقيه عيانا .

سنوات ــ كما يتوقع أى سياسى فى العصر الحديث ــ لكان من المحتمل أن تجتاز روما بسلام مرحلة الخطر والتدهــور . لكن ذلك لم يكن ميسورا لأن الطريق المؤدية الى الاصلاح كانت محفوفة بعقبات منهــا مواد الدستور القديم التى بلى أكثرها وأصبحت لا تتلاءم و حاجات دولة كبيرة ، وضيق أفــق هيئة السناتو الأولجركية التى عارضت كل تغيير حرصا على مصالحها الذاتية ، وأخيرا تقلب أهواء جمهور المدينة المختلط الذى كان صــاحب الكلمة الأولى فى التشريع والانتخاب . وتضاءل ما كان لجايوس من نفوذ شخصى بينما كان يحاول التغلب على هذه العقبات ، ووجد مشروعاته تنحرف عن هدفها الأصلى . وقد تولى التريبونية مرتين ، الأولى فى سنة ١٢٣ ، والثــانية فى سنة ١٢٢ (١) ، واستطاع خلالهما أن يقوم باصلاحات جد قيمة ، ولكنه أخفق بسبب دسائس السناتو فى انتخابات المرة الثالثة لسنة ١٢١ ، فأصبح مواطنا عاديا (privatus) .

* * *

لكن ينبغى قبل الكلام عن برنامجه الاصلاحى أن نستعرض الموقف فى الفترة ما بين الأخوين (١٣٢ ــ ١٢٤) . لقد اشتدت حركة المعارضة ضد السناتو على الرغم من مصرع تيبريوس جراكوس ، وظهــرت فى الأفق طبقة جديدة بدأت تتطلع الى نصيب من السلطة . كانت هــذه الطبقة هى هيئة الفرسان أو بالأحرى رجال المال والأعمال الذين ازدادت أهميتهم كعامل له وزنه على مسرح السياســة الرومانيه . وأما دهماء المدينة فقد تزايد نفــورهم من النبلاء بعد أن شــاهدوا بأعينهم نهاية

---

(١) أعيد انتخاب جايوس تقبيا لسنه ١٢٢ ون معارضة . ولعل هذا يرجــع الى احتفاظه بنفوذه وشعبيته مما جعل رجال السناتو يسلمون بالامر الـ " و. هذا مع اننــا نشك فى صدور اى قانون منذ مصرع تيبريوس يجيز تكرار الترشيح فى سنتين متعاقبتين . وكان احد التفباء قد تقدم فى عام ١٢١ او ١٢٠ بمشروع فى هذا الصدد وباء بالفشل . غير ان بعض الباحثين يرون انه ربما صدر مثل هذا القانون فى تلك الفترة ، راجع على سبيل المثال : M. Cary, A History of Rome (1949), p. 285 f. ; H. H. Scullard, From the Gracchi to Nero (1959), p. 31.

تيبريوس ومصير أعوانه مما ملأ نفوسهم أسى ومرارة (١) . ولقد علمتهم التجربة كيف لا يعلقون أملا على السناتو أو يتوقعون الخير على يديه . وليس أدل على تباعد الفرسان عن السناتو من صدور بعض تشريعات فى تلك الفترة ضد مشيئة السناتو . ولعل أقرب تفسير الى الصواب هو أن الفرسان وعزوا الى أتباعهم المسجلين فى القبائل الريفية بتأييد تلك التشريعات . ففى عام ١٣١ أو ١٣٠ نجح نقيب للعامة يدعى كاربو (C. Papirius Carbo) فى استصـــدار قانون بجعل الاقتراع سريا فى التشريع كما هو الحال فى الانتخابات . ثم تقـدم هو نفسه بمشروع قانون يجيز اعادة انتخاب نقباء العامة مرتين متعاقبتين ، ولكنه أخفق فى تنفيذه وان كان بعض الباحثين يظن أن قانونا بهذا المعنى ربما يكون قد صدر فى غضون السنوات القليلة التالية (٢) . وعلى أى حال فليس من المستبعد أن يكون هذا النقيب قد لقى تأييدا من الفرسان الذين لم يكن أى من المشروعين لينطوى على اضعاف لنفوذهم بقـــدر ما كان ينطوى على اضعاف لنفوذ النبلاء . وفى عام ١٢٩ جردت لجنة الاصلاح الزراعى من سلطتها القضائية فيما يتصل بأراضى "الحائزين" غير الرومان ونقلت الى أحد القنصلين . وفى العام نفسه مات فجأة سكيبيو أيميليانوس فى ظروف غامضة ، وكان هو صاحب ذلك الاقتراح ، وصاحب أقوى نفوذ فى روما . كان قد عرف بالاعتدال فى سياسته والنفور من التطرف والعنف . وبذلك ازاحت بموته عقبـــة كانت تعترض طـــريق الزعماء الشعبيين (٣) . وكان بين الايطاليين كثيرون من حائزى الأراضى العـــامة ، الذين أزعجهم نشاط لجنة الاصـــلاح الزراعى ونشر بينهم التذمـــر والسخط . ومع أن هذه اللجنة أصبحت عديمة السلطة وتوقف نشاطها

---

(١) فى عام ١٣٢ أوفد السناتو سكيبيو ناسيكا مع اربعة آخرين الى ولاية آســـيا الجديدة لتنظيمها ولتجنيبه موجة الكراهية التى ثارت ضده فى روما بسبب الدور الذى قام به فى مصرع تيبريوس جراكوس .

(٢) راجع الحاشية ١ ص ١٦ عاليه

(٣) من سكيبيو ايميليانوس ؛ راجع ص ٢ الحاشية (٢) وأنظر ايضـ

A.E. ASTIN, Scipio Aemilianus (1967)

تقريبا الا أن كثيرين من حائزى الأراضى الايطاليين ساورهم القلق من أن يأتى مصلح آخر وينادى باحياء هذه اللجنة فتستأنف نشاطها وتبدأ فى مضايقتهم من جـديد . وقد زاد من قلقهم أنه لم يكن لهم — على خلاف حائزى الأراضى الرومان — صوت مسموع فى الجمعية القبلية نظرا لعدم تمتعهم بكامل حقوق الجنسية الرومانية . وقد تبين لهم من تجاربهم مع الرومان أن الجنسية الرومانية هى أمضى سلاح يستطيعون به التعبير عن وجهة نظرهم والدفاع عن مصالحهم . كان ذلك — على ما يرجح — هو السبب الذى دفع الايطاليين وقتئذ الى المطالبة بالجنسية الرومانية . ولا مراء فى أنه كانت هناك أسباب أخرى كثيرة لاستيـاء الايطاليين كسوء معاملة السلطات الرومانية لهم ، واجبارهم على الخدمة فى الجيش الرومانى بأعداد متزايدة تجاوزت الحدود التى نصت عليها المعاهدات . ومع ذلك فنحن لا نجانب الصواب اذ نستخلص أن حركة الاصلاح الزراعى هى التى أدت الى اثارة تذمر الايطاليين من الأوضاع.

وحدث فى عام ١٢٦ أن عاد الى روما من ولاية آسيا الحاكم الذى عهد اليه بتنظيمها بمعاونة لجنة العشرة السناتورية ، فأقيمت عليه دعوى الابتزاز . لكن محكمة الابتزاز المشكلة من محلفين من طبقة السناتو برأته من التهمة برغم توافر الأدلة على ارتشائه . وأثارت القضية فضيحة فى روما وأثارت كذلك حنق الفرسان ، وجعلتهم يؤيدون ترشيح فولڤيوس فلاكوس (M. Fulvius Flaccus) وهو صديق تيبريوس وعضـو لجنة الاصلاح الزراعى بعد موته ، قنصلا لعام ١٢٥ (١) . وكان ذلك دليلا

---

(١) بعد مصرع تيبريوس جراكوس فى نهاية عام ١٣٣ ، حل موكيانوس محله كعضـو فى لجنة الاصلاح الزراعى . ولما لقى موكيانوس مصرعه فى آسيا الصغرى عام ١٣٠ حل محله فولفيوس فلاكوس . وفى تلك الاثناء كان ابيوس كلوديوس بولكر قد مات (آخر ١٣١) لحل محله نقيب العامة كاربو كعضو فى تلك اللجنة (١٣٠) . وعلى ذلك صار تشكيل اللجنة على النحو الآتى : جايوس جراكوس ، وبابيريوس كاربو ، وفولفيوس فلاكوس وظلت كذلك حتى عام ١٢٢ .

آخر على اشتداد حركة المعارضة ضد السناتو . وما أن تقلد فلاكوس منصبه حتى بادر الى تهدئة خواطر الحلفاء باقتراح مشروع يقضى بمنح الجنسية الرومانية للاتين والايطاليين أو منح من لا يرغبـون منهم فى الاندماج فى الدولة الرومانية حق التظلم من أحكام المندوبين الرومان . ولعل فلاكوس أقدم على ذلك مدفوعا اما برغبة صادقة فى حل المشكلة أو برغبته فى التخفيف من شدة معارضـة الايطاليين للجنة الاصـلاح الزراعى وتمهيد الطريق لاجراء يمكن اللجنة من استئناف نشاطها . لقد كان الايطاليون — وفقا لرواية المؤرخ أبيانوس — مستعدين للتنازل عما فى حيازتهم من أراض عامة فى مقابل اكتساب الجنسية الرومانية . غير أن المشروع لم يلق أى تأييد سواء من جانب السناتو أو حتى من العامة (وربما أيضا من الفرسان) فسحبه فلاكوس قبل الاقتراع عليه. ورحل الى جنوب غالة حيث أسندت اليه قيادة أحد الجيوش الرومانية للدفاع عن مرسيليا ضد البرابرة . كان فلاكوس اذن هو أول من أثار المسألة الايطالية . غير أن رفض مشروعه أيقظ الفتنة النائمة بين الحلفاء ولاسيما بعد أن حاول پنوس (M. Junius Pennus) أحد نقباء العامة ، أن يستصدر — بايعاز من السناتو كاجراء مضاد لمشروع فلاكوس — قانونا بتحـريم سكنى غير المواطنين فى المدن الرومانيـة وبطـردهم من العاصمة لكى يحرم اللاتين بوجه خاص من ممارسة حقهم فى الاقتراع بالجمعية القبلية . وأوشك صبر الايطاليين أن ينفـد لولا أن السناتو صرف النظر عن مشروع پنوس بعد رحيل فلاكوس عن العاصـمة ، ولولا أن رقيبى (censores) عام ١٢٥ تساهلا فى قيد أعداد كبيرة من الايطاليين فى قوائم تعداد المواطنين فى ذلك العام حتى أن العدد الاجمالى ارتفع من ٣١٨٫٠٠٠ الى ٣٩٤٫٠٠٠ . ومع هذا فقد انفجرت فريجللاى (Fregellae)، وهى احدى المستعمرات اللاتينية ، ثائرة فى وجه الرومان بسبب اخفاق مشروع الجنسية . واذ كان الحلفاء الايطاليون لم يوحدوا صفوفهم بعد ، وكانت سياسة السناتو ما تزال تجرى على عزل مدنهم

الواحدة عن الأخرى بقدر الامكان ، فقد ألفت فريجللاى نفسها وحيدة فى الميدان . ولم يجد الرومان صعوبة فى قمع ثورتها وتدميرها فى العام نفسه (١٢٥) . لقد عوقبت فريجللاى على تمردها عقابا رهيبا ، لكن تذمر الايطاليين ظل كامنا فى صدورهم كجذوة متقدة تحت الرماد .

* * *

خلال تلك الفترة التى امتـدت حوالى عشر سنوات كان جايوس جراكوس دائب التفكير فى برنامج للاصلاح وأفضل السبل الى تحقيقه. ورأى قبل الشروع فى أى خطـوة أن يؤمن طريقه حتى لا يتعثر أو يتعرض لما تعرض له أخوه من قبل . ولعله فكر حتى قبل ترشيح نفسه نقيبا فى تأليف جبهة من طبقتى دهماء العاصمة الفقراء والفرسان الأغنياء لكى تتحقق له الأغلبية اللازمة لتنفيذ مشروعاته ويتمكن من تحطيم سيطرة طبقة السناتو الارستقراطية . وكان سبيله الى ذلك هو أن يتبنى مشروعات من شأنها اجتذاب هاتين الطبقتين الى صفه على الرغم من تضارب مصالحهما فى بعض الأحيان . وبدهى أنه لم يغفل طبقة صـغار الفلاحين فى الريف فاحتضن مشروع أخيه حتى يضمن استمرار تأييد هذه الطبقة ، وان كان لم يعول عليها كثيرا نظرا لعـدم استقرارها فى العاصمة بصفة دائمة مما يقلل من تأثيرها عند الاقتراع فى الجمعية . وحاول أن يزيل أسباب تذمر الايطاليين بايجاد حل لمشكلتهم . لكن من الانصاف أن نؤكد أن بعض هذه المشروعات كان نابعا من رغبة صادقة فى اصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بمايحقق الخير والرفاهية لروما وايطاليا والولايات .

وقد استطاع جايوس خلال الفترتين اللتين تولى فيهما منصب نقيب العامة ان يستصدر عددا من القوانين . غير انه من المتعذر ان نرتبها ترتيبا زمنيا طبقا لتاريخ صدورها ، بل نحن لا نعلم بأى منها صدر فى الفترة الأولى وأى فى الفترة الثانية . ومن الملائم ان تصنف اما حسب الموضوع أو حسب الهدف الذى صدرت من أجله . وايا كان الأمر فقـد بدأ

جايوس باقتراح مشروع ينص على أن الشخص الذي عزل من منصبه بقرار من الشعب لا يجوز له ان يرشح نفسه لأى مناصب أخرى . ومع ان نص المشروع كان عاما مبهما ، فــان الباعث الحقيقى لم يخف على الناس الذين آدركوا أن المقصود به هو أوكتافيوس ، خصم تيبريوس الذي كان قد اعتزل الحياة السياسية . واحس جايوس بعدم ارتياح الرأى العام الى المشروع فسحبه — على ما يروى — استجابة لتوسلات أمه اليه . لكن اذا كان قد عدل عن مشروع أراد به الانتقام لأخيه ، فسرعان ما تقدم بآخر لتأمين مركزه كزعيم شعبى ، اذ اقترح اجراء اصلاح قضائى يحميه من مثل تلك المحاكمة التى قضت بالموت او بالنفى على أنصار تيبريوس ، وكانت أحكامها تنطوى على معنى الادانة لأخيه حتى بعد مقتله . لقد نجح فى استصدار قانون ينص على ادانة الحاكم الذى يقضى باعدام مواطنين رومانيين دون أن يخولهم حق التظلم امام الشــعب (١) . وقد جعل هذا القانون بأثر رجعــى لكى ينطبق على پوپيلليوس ، قنصل عام ١٣٢ ، الذى رأس المحكمة التى قضت باعدام تيبريوس . وقد أقيمت الدعوى على پوپيلليوس بمقتضى هذا القانون وأدين فغــادر البلاد الى المنفى ، وهــو ما ابتهج له جايوس . وكان غرضه الرئيسى من القانون تجــريد السناتو من سلطته الرهيبة التى

---

(١) كان حق استئناف احكام الاعدام امام الجمعية المئوية ، واحكام الغرامات الكبيرة الجمعية القبلية ، وهو ما يعرف بحق التظلم إلى الشعب (provocatio ad populum) بوصفهما محكمتين شعبيتين (iudicia populi) ، ركنا هاما من حقوق المواطن المدنية ويكاد يعادل بالنسبة لغير المواطن حق الجنسية الرومانية نفسها . وقد حصل العامــة على هذا الحق اثناء نضالهم ضد الاشراف من اجل المساواة الاجتماعية والسياسية بمقتضى قانون الالواح الاثنا عشر (اللوح رقم ٩) فى سنة ٤٤٥ . ثم تايد هذا الحق بقانون فاليريوس (lex Valeria de provocatione) الذى صدر فى سنة ٣٠٠ . وكان هذا الحق لا يسرى قديما الا داخل حدود المدينة (Pomerium) ومسافة ميل واحد وراءها ، ولكنه اصبح يسرى بعد ذلك فى اى جزء من اجزاء الامبراطورية بمقتضى قوانين بوركيوس (leges Porciae) التى صدرت فى سنتى ١٩٩ ، ١٩٨ والتى نصت على عدم جلد اى مواطن رومانى (verberatio) دون اعطائه فرصة استئناف الحكم . وكانت عبارة انا مواطن رومانى (civis Romanus sum) تخول المرء حق المحاكمة فى روما نفسها .

انتحلها بالباطل . واضطر السناتو الى الكف عن تشكيل المحاكم الخاصة ، ولكنه ابتكر سلاحا جديدا لمواجهة أحوال الطوارىء . وكان من سخرية القدر أن جربت فعالية هذا السلاح أول ما جربت ضد جايوس نفسه .

ولكي يسترضي دهماء روما (plebs urbana) ، وهم احدى الطوائف التى كان حريصا على كسب أصواتها لنجاح مشروعاته ، استصدر جايوس جراكوس قانونا يعرف بقانون الغلال (lex Sempronia frumentaria). كان اطعام جمهور العاصمة الفقير مشكلة قديمة نشأت عن تزايد عدده بنسبة فاقت حد التصور ، وعدم انتظام تموينه بالقمح ، وعن تقلب سعر الغلال المستمر بسبب التلاعب والمضاربة . وأدرك جايوس ان المشرع الذى لا يعمل على الحيلولة دون ارتفاع سعر القمح ارتفاعا فجائيا قد يتعرض لسخط الجمهور ، فحدد له سعرا ثابتا أقل من سعر السوق ، على أن تتحمل الدولة الفرق بين السعرين ، بغض النظر عما تتكبده من خسارة (١) . ولقد قيل فى نقد هذا المشروع بأن جايوس اشتط فيه لأنه أوهن به عزائم الدهماء وأفسدهم فصاروا اكثر تواكلا واستهتارا ، وهيأ به لهم الفرصة فيما بعد لاحداث مزيد من الشغب والضرر البليغ ، وتنكب طريق الصواب لأن الدولة أصبحت فى الواقع هى التى تطعم على نفقتها معظم جمهور المدينة منذ ذلك الحين ، كما شجع — دون أن يدرى — على تدفق أفواج

---

(١) بمعنى أن تشترى الحكومة من الخارج كميات كبيرة من الحنطة وتودعها فى المخازن بميناء اوستيا (Ostia) ثم تبيع كل شهر لمن يطلب من جمهور العاصمة كمية محددة من القمح (حوالى ٢ كيلة) بسعر يساوى تقريبا نصف سعر السوق ، اى بسعر اقصاه ستة آسات وثلث آس (اى نحو ٨٫٢٢ مليما لأن الآس = ٣٫١ مليما تقريبا) للموديوس الواحد modius (حوالى نصف كيلة) . وقد بولغ فى مدى الخسارة التى تتحملها الدولة من جراء هذا المشروع ، حيث ان الدولة كانت تبيع القمح بسعر يقرب من سعره فى أسواق مناطق انتاجه . ويبدو ان سعره وقت خروجه من المواني كان ادنى بكثير من سعره فى سوق روما . ومن ثم ندرك لماذا أثار المشروع معارضة كبار ملاك الاراضى والمضاربين فى سوق القمح اذ سد عليهم طريق التلاعب وجنى ارباح طائلة وبخاصة فى أوقات القحط والشدة .

جـديدة من الريف الى العاصمة ، وهو اتجاه مناقض لاتجاه أخيـه ومشروع الاصلاح الزراعى . غير أن مشروع الغلال لم يكن بدعة لأنه حدث حتى قبل زمن جايوس أن لجأت الحكومة الرومانية أحيانا الى اتباع هذه الوسيلة فى أوقات الشدة . وكانت رقابة الدولة على أسعار القمح أمرا مألوفا فى أثينا فى القرن الخامس ، بل وفى الاسكندرية زمن البطالمة فى القرن الثالث . وكان من بين المبادىء العامة المسلم بها وقتئذ فى المدن الكبرى بالشرق الهللينستى ان الدولة مسئولة عن إقاتة الفقراء من المواطنين . وفى أغلب الظن أن جايوس أحاط علما بهـذه النظريات ، وأنه تأثر بها ان لم يكن قد استوحى مشروعه منها . وبدهى انه لم يغب عن باله ان مشروع الغلال سيزيد فى الوقت عينه من شعبيته بين دهماء العاصمة وانه ربما يضعف الروابط بين الارستقراطيين وبين أتباعهم الذين قد يصبحون أقل اعتمادا عليهم فى الحصول على خبزهم اليومى . وأما عن النفقات التى قد تتحملها الحكومة نتيجة لبيع القمح بثمن زهيد فلعل جايوس بررها بأن العامة يستحقون نصيبا من الدخل المتحصل من الولايات الرومانية . ولما كان العامة ــ طبقا لقانونه ــ مطالبين بدفع ثمن ما يشترونه من قمح ، وكانوا لا يتسلمونه دون مقابل فان جايوس لا يعتبر مسئولا عن استحداث نظام هبات القمح المجانى . صحيح انه اتخذ خطوة فى هذا الاتجاه ، ودل على الطريق الذى يمكن أن يسلكه الساسة المتلهفون على التودد الى الدهماء على حساب الدولة. غير أنه من التجنى ان نحمله تبعة هذا الانحراف ، أو تبعة أى مشروع غوغائى صدر من بعده لتوزيع القمح بالمجان على دهماء روما بقصد ارضائهم أو اسكاتهم أو شراء ذمتهم ، الأمر الذى جعلهم يترددون فى حمأة العـوز والفاقة ويستمرئون البطالة والعيش عالة على الدولة . ولا شك فى أن جايوس لم يقصد ان تتحمل الدولة أى خسارة اذا نظمت عمليات انتاج القمح واستيراده وشحنه وتخزينه على النحو الذى رسمه. ولا شك أيضا أنه أراد بقانون الغلال أن يخفف من أزمة البطالة لأنه

كان بمثابة اعانة للمتعطلين . ولعله رأى أن ذلك الدواء المسكن للمشكلة (فهو ليس بالعلاج الجذرى) خير من ترك الأمور تتدهور فيحدث فى روما ما حدث فى بعض مدن بلاد اليونان ، ويثور الفقراء على الأغنياء ثورة لا تبقى ولا تذر ، وربما فى وقت يخيم فيه على الدولة شبح الخطر من الخارج فيتصدع صرح الجمهورية فجأة وينهار . وينبغى ان لا يغرب عن البال أن قانون الغلال لم يكن الا واحدا من عدة مشروعات تبناها جايوس لمعالجة مشكلة البطالة . ولما كانت روما تعتمد على القمح المستورد من صقلية وافريقيا فقد حرص جايوس على ان تخزن الحكومة مقادير كبيرة منه كافية لتموين روما حتى يتيسر لكل فرد من دهمائها الفقراء أن يشترى الحصة المقررة له شهريا بالسعر الرسمى . اذلك ضمن مشروعه اقتراحا ببناء صوامع غلال كبيرة . وكان يرمى أيضا الى أن يفتح لعدد كبير من الأيدى الحرة المتعطلة أبواب العمل فى بناء هذه الصوامع ، ولو بصفة مؤقتة .

واستصدر جايوس قانونا بانشاء شبكة من الطرق الريفية فى مختلف أنحاء ايطاليا ، وتحسين الطرق الريفية القديمة . وقد أولى هذا المشروع عناية خاصة حتى تكون الطرق نافعة وجيدة ، ولا تقل جودة عن الطرق العسكرية المنتشرة فى أرجاء شبه الجزيرة . وكان يرمى بذلك الى تيسير نقل الغلال والمحاصيل الزراعية الأخرى الى الأسواق القريبة فيسهل على صغار الزراع مهمة تسويقها محليا . وهنا نلمس أيضا حرصه على توفير العمل للمتعطلين من دهماء روما فى شق الطرق ، وعلى تشجيع المستعمرات الزراعية لأن الأراضى المتاخمة لهذه الطرق وزعت على فلاحين أخذوا على عاتقهم مسئولية صيانة الطرق نظير اعفائهم من الايجار . واذ كان قد أخذ على عاتقه مواصلة عمل أخيه ، فقد استصدر قانونا أحيا به قانون الاصلاح الزراعى ، وسعى الى تنفيذه بتلك الروح العملية المثابرة التى لمسناها فى ترجمة بلوتارخوس لحياته . ومن المرجح أنه أعاد للجنة الاصلاح الزراعى سلطتها القضائية التى سلبت منها فى

عام ١٢٩ بعد مصرع أخيه بسنوات قليلة . ولما كان معظم الأراضي العامة التى يمكن التصرف فيها قد تم توزيعها وقتئذ فقد بحث جايوس عن وسائل أخرى يدعم بها برنامجه فى الاصلاح الاقتصادى — الاجتماعى .

اقترح جايوس مشروعا بانشاء عدد من المستعمرات (coloniae) فى ايطاليا . وفى اكبر الظن أنه كان يستهدف أولا تخفيف أزمة تضخم سكان روما وغيرها من المدن . ومن بين المستعمرات التى ينسب اليه تأسيسها كانت اثنتان وهما نپتونيا (Neptunia) بالقرب من تارنتوم ومينرڤيا (Minervia) بالقرب من اسكولاكيوم (عند أصبع القدم الايطالية) مرافىء بحرية . ويبدو أنه اختير لتعميرها — الى جانب الفقراء — افراد يتوافر لهم قدر من رأس المال الذى يمكنهم من انشاء صناعات صغيرة والاشتغال بالأعمال التجارية . غير أن أهم مشروع جرىء له فى هذا الصدد هو محاولته تأسيس مستعمرة — لأول مرة — عبر البحر — مقتديا بالاغريق — فى مكان قرطاجة القديمة التى ظلت خاوية منذ تدميرها فى عام ١٤٦ أو على مقربة منها . وقد اعتمد تأسيس هذه المستعمرة بصدور قانون روبريوس (lex Rubria) نسبة الى نقيب العامة الذى تبنى المشروع بايعاز من جايوس . وكان القصد منها امتصاص الفائض من سكان العاصمة المتعطلين الذين يرهقون خزانة الدولة ، وارضاء فقراء الرومان والايطاليين ، اذ تقرر اشراك حوالى ٦٠٠٠ منهم فى هذه المستعمرة واعطاء كل واحد منهم حصة كبيرة تبلغ حوالى ٢٠٠ فدان رومانى لتكون امتلاكا خاصا معفى من الايجار . ومن الواضح أن هذه المستعمرة التى عرفت باسم يونونيا (Iunonia) كانت ذات طابع زراعى . وفى الحق ان الساسة الرومان من بعد جايوس لم يجدوا وسيلة أفضل من انشاء المستعمرات لمعالجة مشكلة البطالة التى بقيت بسبب انتشار الرق مشكلة مزمنة ، وبقيت معها الحاجة الى

مشروعات كتوزيع هبات القمح المجانى ابتغاء شراء سكوت غوغاء روما أو شراء ذمتهم .

واتبع جايوس ذلك بمشروعين أحدهما يهـدف الى التخفيف من صرامة الخدمة العسكرية الالزامية بمنع التجنيد قبل سن السابعة عشر ، والآخر ينص على أن تصرف الدولة للجنود الملابس مجانا دون خصم الثمن من رواتبهم .

وقد بدأ جايوس عمله السياسى باقتراح زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ الذى كان محور الدستور ، وذلك باضافة ٦٠٠ عضــو اليه يختارون من الطبقة التى تلى طبقة السناتو مباشرة من حيث النصاب المالى (١) . ولا ندرى ــ ازاء تضارب الأقوال ــ قصده الحقيقى من هذا المشروع ، وهل كان يهدف الى تطعيم هذا المجلس بدماء جديدة نشطة أم كان يهدف الى توسيع دائرته فقط بحيث يسهل اختيار محلفين من بين أعضائه لمحكمة الابتزاز لا يتصفــون بالتعصب فى آرائهم أو التحيز فى أحكامهم . وايا كان القصد فقد قوبل الاقتراح بمعارضــة شديدة من جانب السناتو فسحبه جايوس . غير انه تمكن من استصدار قانون ينص على فرض عقوبات على محلفى محكمة الابتزاز (وهم من رجال السناتو) الذين تثبت ادانتهم بالرشوة باعتبارها جريمة . وأخيرا كال للسناتو ضربة قاصمة باصدار قانون اكيليوس (lex Acilia) الذى يحمل اسم أحد زملائه وغير به تشكيل محكمة استرداد الأموال المبتزة (Quaesto de Repetundis) . كانت هذه المحكمــة المدنية مختصة بالنظر فى دعاوى الابتزاز المرفوعة على حكام الولايات السابقين والزامهم فى حالة ثبوت التهمة بدفع تعويضات عن الأضرار بعد أن أصبح الابتزاز من أهالى الولايات ظاهرة شائعــة مزعجة .

---

(١) وفى رواية اخرى انه اقترح اضافة ٣٠٠ عضــو ليصبح عـدد اعضاء مجلس الشيوخ ٦٠٠ .

ويستفاد من قانون اكيليوس برغم وصوله الينا مشوها أنه كان ينص على استبعاد حكام روما أثناء توليهم مناصبهم ، ورجال السناتو وأفراد أسرهم ، من هيئة المحلفين (حوالى ٤٥٠) التى كان يختار منها خمسون عضوا لينظروا فى كل قضية من قضايا الابتزاز . ومع ان النص قد ضاعت منه الشروط المحددة واللازم توافرها فى المحلفين الجدد ، فانه يكاد يكون من المؤكد أنها صيغت بحيث تنطبق على طبقة رجال الأعمال وملاك الأراضى الأثرياء الذين أصبح يطلق عليهم جميعا منذ ذلك الوقت اسم هيئة أو طبقة الفرسان (Ordo Equester) ، وكان الحد الأدنى لثروة الواحد منهم ٤٠٠٫٠٠٠ سسترتيوس (sestertius) (١) . ولعل هذه هى أول مرة يحدد فيها نصاب الفرد من هذه الطبقة ، وأول مرة يرد فيها تعريف لطبقة الفرسان بأوسع مفهوم لها . وبذلك يكون جايوس قد أكد الوضع السياسى لهذه الطبقة الاجتماعية التى كانت قد اكتسبت أهمية اقتصادية منذ عصر التوسع الاستعمارى . لقد أصبح الفرسان بمقتضى اسناد مهام رسمية اليهم اكثر احساسا بقوتهم ومصالحهم

---

(١) عملة فضية رومانية كانت فى الاصل تساوى ٢٫٥ آس (as) — راجع ص ٢٢ هامش — اى حوالى ٩ مليمات . وقد حلت محل الآس البرونزى كوحدة للحساب النقدى عند الرومان منذ الحرب البونية الثانية . والمبلغ المشار اليه فى المتن يعادل الان ... ٦ جنيه مصرى على وجه التقريب .

وعن قانون اكيليوس الخاص باسترداد الاموال المبتزة (lex Acilia Repetundarum) والذى ينسب الى مانيوس آكيليوس جلابريو احد زملاء جايوس فى نقابة العامة سنة ١٢٢ ق.م راجع :

S. Riccobono, **Fontes Iuris Romani Antejustiniani**, I (1941), 84 ff.; E. H. Warmington, **Remains of Old Latin**, IV (L.C.L., 1940), 317 ff.; Lewis-Reinhold, **Roman Civilization** (1952), 247-251; E. Badian, **Amer. Journ. Philol.** (1954), 374 ff.; M. I. Henderson, **Journ. Rom. Stud.** (1951), 71 ff.; A. N. Sherwin-White, **Journ. Rom. Stud.** (1952), 34 ff.

وقد يشار الى هذا القانون احيانا باسم قانون سمبرونيوس للاصلاح القضائى lex Sempronia iudiciaria.

ومن طبقة الفرسان ، انظر : H. Hill, **The Roman Middle Class.** (1952);
C. NICOLET, L'ordre équestre à l'époque républicaine, I (1966)

الذاتية ، وبدأت المنافسة تحتدم بينهم وبين رجال السناتو . وفى الحقيقة أن السيطرة على محكمة الابتزاز ستصبح فى الفترة التالية مثار نزاع مستمر بين أعلى طبقتين فى المجتمع . ومع أنه كانت هناك بعض اسباب تبرر تغيير هيئة محلفى هذه المحكمة التى دأبت على اصدار احكام مشوبة بالتحيز فى السنوات الأخيرة ، فـان قانون أكيليوس لم يكن من شأنه أن يؤدى الى اصلاح محكمة الابتزاز ، أو رفع مستوى نزاهتها أو احياء أمل أهالى الولايات فى العدالة بعد ان وضعت المحكمة فى قبضة رجال كان جل اهتمامهم منصبا على استثمار أمـوالهم فى الولايات واستغلال أهاليها . وكان فى استطاعتهم عندئذ ارهاب الولاة العادلين الذين كانوا يحاولون حماية الأهالى من جشع ملتزمى جباية الضرائب . لقد كان لرجال طبقة الفرسان مصالح كثيرة فى الولايات . وكانت هذه المصالح حليقة بأن تدفعهم الى الاصطدام بالولاة . وبينما كان للفرسان المشتغلين بالتزام جباية الضرائب مصلحة واضحة فى تحصيل أكبر ايراد ممكن من أهالى الولايات ، كان الواجب يملى على الولاة ــ وهم من طبقة السناتو ــ حماية هؤلاء الأهالى من التعسف والاغتصاب . واذا كان عدد غير قليل من الولاة قد آثر مهادنة ملتزمى جباية الضرائب ، فقد كان هناك قلة آخرون رفضوا التواطؤ معهم والتضحية بالأهالى من أجلهم . وقد زاد الطين بلة أن المحلفين الجدد من طبقة الفرسان لم ينطبق عليهم قانون جايوس الخاص بفرض عقوبات على المرتشين من المحلفين بحجة أن هذا القانون صدر قبل اعادة تنظيم محكمة الابتزاز ، ومن ثم فلا يقع المحلفون الجدد تحت طائلته . وترتب على ذلك أن أصبحت محكمة الابتزاز بتشكيلها الجديد أميل الى ادانة المتهمين منـه الى تبرئتهم . وشجع ذلك ملتزمى جباية الضرائب (publicani) والمرابين والصيارفة ومن اليهم (negotiatores) على الاسـتغلال والابتزاز والتعسف مع أهالى الولايات لاطمئنانهم الى أن الولاة لن يجسروا على التعرض لهم اما عن رهبة من الاصطدام بهم أو عن رغبة فى التواطؤ

معهم . وثمة واقعة صارت مضرب المثل على انحراف هيئـة المحلفين الجديدة وقضائها الظالم : كان روتيليوس روفوس(P. Rutilius Rufus) — نائب موكيوس اسكيفولا حاكم ولاية آسيا فى عام ٩٧ — رجـلا نزيها فوقف للملتزمى جباية الضرائب الجشعين بالمرصاد ، فلفقوا له تهمة وأقيمت عليه الدعوى امام محكمة الابتزاز المؤلفة من محلفين من طبقة الفرسان ، وأدانته المحكمة وقضت عليه بالنفى فى عام ٩٢ فرحل الى ولاية آسيا حيث عاش مكرما بين الأهالى الذين أتهم بأنه تعنت معهم وابتز أموالهم !

كان جايوس يدرك تماما مدى تأثير هذا القانون لأنه علق عليه قائلا بأنه حطم نفوذ السناتو وانه سيظل — حتى بعد موته — بمثابة شوكة فى جنب ذلك المجلس . ويكشف ذلك عن رغبة فى الانتقام كانت خليقة بأن تشوه نغاية الصادقة وقصده النزيه فى الاصلاح . ولا يجادل أحد فى أن الوقت كان قد حان لكى يتاح للفرسان نصيب من السلطة السياسية أكبر مما كان متاحا لهم . غير أن قانون جايوس جاء قاصرا فلم يستطع تحقيق ذلك الهدف . وكان الأثر السياسى الذى ترتب على تشريعه القضائى هو أنه حد من شوكة السناتو دون اصـلاح حاله ، وخول للفرسان سلطة دون تحميلهم أى مسئولية .

لقد كان من العسير الجمع بين سياسة الحرص على مصلحة أهالى الولايات وسياسة الحرص على كسب ولاء الفرسان . ويتضح ذلك من قانون العشور الذى يكشف عن تناقض فى الاتجاه ، وقد استصدره جايوس لاعادة تنظيم جباية ضريبة العشور (decuma) على كل المحصولات الزراعية فى ولاية آسيا (١) . وكانت مدن هذه الولاية هى التى تتولى جباية هذه الضريبة عن طريق جباة محليين . وجاء قانون جايوس لينص على أن عقود التزام جباية هذه الضريبة فى كل مدن تلك الولاية ينبغى ان تتم عن طريق مزاد يجريه الرقيبان (censores)

---

(١) يعرف هذا القانون احيانا باسم : Lex de provincia Asia.

فى روما بعد تحديدهما الشروط اللازمة . ولما كان المتعهد الذى يتقدم بأعلى عطاء مطالباً بأن يدفع للحكومة مبلغا اجماليا ضخما ، ثم يسعى هو الى تعويضه مع الأرباح بجباية ما يمكن له جبايته من أهالى المنطقة فان ذلك لم يكن بالأمر الميسور الا لشركة مقتدرة . كان القصد من القانون اذاً هو حرمان الجباة المحليين فى ولاية آسيا من تحصيل هذه الضريبة لأن شروط العقد كانت فى الغالب باهظة ، ولا تستطيع الوفاء بها الا شركة من شركات التزام الضرائب الغنيــة (societates publicanorum) التى كان كبــار المساهمين فيهــا هم رجال من طبقة الفرسان الرأسماليين . ولعل جايوس افترض ان القانون يساعد على حماية أهالى الولاية من جشع الحكام . ولعله افترض كذلك ان هذه الشركات الرومانية التى تحصل على امتياز جباية الايرادات الموحدة من الولاية برمتها ، كانت أقدر من سواها على التقدم الى الحكومــة بعطاءات عالية تحقق للخزانة العامة دخلا ثابتا ضخما . غير أنه فى حقيقة الأمر جعل من التزام جباية العشور فى ولاية آسيا احتكارا فى يدشركات الفرسان . ولما كانت هذه الولاية من أغنى الولايات الرومانية ، فقــد أتاح جايوس بقانونه ــ سواء عن قصد أو عن سهو ــ لرجال الأعمال الرومان فرصا لجنى أرباح طائلة من وراء هذه الصفقات . ولا شك فى أنه ارضاهم وضمن تأييدهم مثلما ارضاهم من قبل بقانون آكيليوس . غير أن قانون العشور تمخضت عنه عواقب وخيمة وكان فى جملته وبالا على أهالى ولاية آسيا ، الذين سلمهم جايوس ــ دون ان يفطن ــ الى يد شركات الملتزمين التى استغلتهم استغلالا فاحشا ، وكانت تدير نشاطها من مراكزها الكائنة بعاصمة الامبراطورية . وزاد الأمر سوءا أن هذه الشركات كانت قطاعا خاصا فلم يكن أعضاؤها يقعون تحت طائلة قانون مكافحة الابتزاز ، اذ لم يكن من الجائز اقامة الدعوى عليهم كما هــو الحال بالنسبة لحكام الولايات ، بينما كان من السهل ان تلفق هــذه الشركات القوية أى تهمة لحاكم الولاية الذى يعترض سبيلها ..

وما دمنا بصدد الكلام عن الولايات فينبغى أن نشير الى القانون الذى استصدره جايوس جراكوس لاضعاف سيطرة السناتو . كانت انتخابات القنصلية فى العصر الأخير للجمهورية تجرى أثناء الصيف قبل بداية السنة الرسمية بحوالى ستة أشهر . وكان السناتو بعد أن يعرف أسماء القنصلين المنتخبين للسنة التالية (consules designati) يخصص لكل منهما ولاية لكى يتولى حكمها بعد انقضاء مدته فى القنصلية . ومعنى ذلك أن السناتو كان يتحكم فى القنصلين بطريق غير مباشر لأنه كان فى وسعه أن يلوح باسم ولاية غنية للقنصل الذى يجده طيعا له مستجيباً لرغباته ، بينما يحرم القنصل المناوىء له من مثل تلك الولاية . لذلك نص قانون جايوس الخاص بالولايات القنصلية (lex Sempronia de provinciis consularibus) على الزام السناتو بتحديد أسماء الولايات قبل اعلان نتيجة انتخابات القنصلية فى كل عام وليس بعد اعلانها أو أثناء فترة تقلد القناصل مناصبهم ، حتى لا يكون قد عرف أسماء الفائزين ويبدأ فى مساومتهم ويحابى انصاره بولايات سمان ويعاقب خصومه بولايات عجاف . لقد كان القناصل يتطلعون الى ما بعد القنصلية ، الى يوم تسند اليهم — بوصفهم "قناصل بلا لاء" — حكم ولايات غنية تعوضهم عما أنفقوه من أموال فى الدعاية للفوز بالقنصلية. وثمة ملاحظتان على هذا القانون الذى قدر له البقاء احداهما أن السناتو قد اصبح ملزما بتحديد اسم الولاية مقدما وقبل التأكد من صلاحية المرشح لحكمها بمدة طويلة تبلغ حوالى ١٨ شهرا ، والأخرى هى أن هذا القانون تضمن نصا غريبا يقضى بحصانته من اعتراض نقباء العامة أى عدم سريان حق الاعتراض عليه . وفى هذا ما يكشف عن رأى جايوس نفسه فى النقض ، ذلك الحق القديم الذى كان بمثابة صمام امان ودرع لصيانة حريات العامة .(١)

وفى عام ١٢٢ أى فى مدة نقابة جايوس الثانية ، زامله فى المنصب ،

---

(١) المصطلح اللاتينى لحق النقض هو INTERCESSIO ومترجمة احيانا بحق الاعتراض ، ويعرف فى عصرنا الراهن بحق "الفيتو" وهى كلمة لاتينية ايضا (VETO) بمعنى "أنا أمنع" أو اعترض أو احول دون .

صديق قديم للأسرة وهو فولفيوس فلاكوس عضو لجنة الاصـلاح الزراعى ، الذى سبق أن تولى القنصلية فى عام ١٢٥ ، ولكنه لم يأنف من أن يرشح نفسه لمنصب أدنى ويتولى تريبونية العامة ليرضى نزعته الى الاصـلاح ويقف الى جانب جايوس . ويذكر القـارىء كيف حاول فلاكوس من قبل أن يزيل أسباب تذمر حلفاء روما فى ايطاليا وينصفهم من الرومان (١) . تناول جايوس مشروع فلاكوس القديم وعدله وتقدم بمشروع قانون يقضى بمنـح الحقوق اللاتينية للايطاليين والجنسـية الرومانية للاتينيين (٢) . غير أن هذا المشروع الذى ينهض أكثر من سواه دليلا على سعة أفقه السياسى ، كان أول خطوة فى طريق سقوطه السياسى. واذا كان جايوس قد لقى أثناء مدته الثانية تأييدا من جانب فلاكوس ، فقد فوجىء بمعارضة قوية من جانب زميل آخر من نقباء العامة يدعى ليفيوس دروسوس((M. Livius Drusus)) . هذا النقيب تواطأ مع السناتو الذى أوعز اليه فى محاربة جايوس بسلاحين أحدهما هو أن يضاربه بمشروعات براقة ليجتذب اليه الجماهير ويصرفهم عن معسكر جايوس ، والآخر هو أن يحبط مشروعاته — اذا اقتضى الأمر — بما يملك من حق الفيتو *. ولم يكن دروسوس قد اشتد ساعده بعد حتى يجرؤ على اشهار السلاح الثانى ، فتقدم مقترحا تعـديل قانون الاصلاح الزراعى باعفاء أصحاب الأنصبة الجدد من الإيجار السابق تحصيله منهم ، وتعديل مشروع جايوس الخاص بالمستعمرات باقتراح تأسيس اثنتى عشرة مستعمرة فى ايطاليا على ان يلتحق بكل منها حوالى ٣٠٠٠ من أفقر فقراء المواطنين دون أى مؤهل أو اشتراط مالى . وأفسد على جايوس مشروع الجنسية بأن كال له صاعا بصاع مقترحا استثناء اللاتينيين من أحكام الجلد حتى فى أثناء خدمتهم العسكرية تحت امرة القواد الرومان ، وهو ما يجعلهم فى وضع أفضـل من وضع المواطنين

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٩ .

(٢) يعرف هذا القانون احيانا باسم : Lex de sociis nomine Latino.

الرومان أنفسهم الذين كانوا يتمتعون فقط بحق التظلم من مثل هذه العقـوبة . ومع أنه لم تتخذ أى تدابير عمليـة لتأسيس المستعمرات الجديدة ، — وهى مستعمرات ظلت حبرا على الورق — الا أن مشروعات دروسوس صدرت كقوانين وعزى اليه فضل استصدارها . وتألفت لجنة لتخرجها الى حيز التنفيذ ، ولكنها لم تحقق منها الا النزر اليسير ، وهو ما ينهض دليلا على أن دروسوس لم يكن يبغى الاصلاح الاقتصادى بقدر ما كان يبغى تقويض نفوذ جايوس .

وقد تضاءل فعلا نفوذ جايوس ولم يعد لخطبه النارية ما كان لها من تأثير بعد ان ألفت الجماهير سماعها ، وفقدت ما كان لها من سحر فى نفوسهم . كذلك لم تعد الجمعية القبلية التى تقدم اليها جايوس بمشروع الجنسية صفا واحدا مواليا له بل بدت منقسمة على نفسها . بل ان فانيوس الذى عاونه جايوس فى الفوز بالقنصلية عام ١٢٢ ، فتر حماسه له وسرعان ما تخلى عنه وحرض الدهماء على الانفضاض من حوله . ولم يصادف المشروع هوى فى نفس السناتو أو العامـة ، اذ رفض السناتو ، وهو معقل العصبيات القديمة ، ادماج عناصر غريبة فى هيئة المواطنين ، ورفض العامة أنفسهم بدافع من الانانية والتعصب، اشراك الايطاليين معهم فى حق الانتخاب والامتيازات الأخرى . وتجنبا لما قد يحدث من شغب اوحى السناتو الى القنصلين أن يصدرا قرارا بطرد الايطاليين من روما والمنطقة المتاخمة لها فى حدود خمسة اميال حتى لا يؤثروا فى الجمعية يوم الاقتراع على مشروع الجنسية . واخفق المشروع الجليل — وان قدر له ان يثار مرة اخرى بصورة أعنف — اما لأن دروسوس تشجع وشهر ضده سيف الاعتراض أو لأن الجمعية خذلته عند الاقتراع عليه . واذ كان جايوس يفتقر وقتئذ الى التأييد الشعبى فانه لم يحاول مجاراة ما فعله أخوه تيبريوس فى مثل هـذا الموقف منذ سنين .

وكان من بين العوامل التى أدت الى تضاؤل نفوذ جايوس غيابه عن روما هو وفلاكوس مدة تزيد على شهرين ، اذ حدث ان رحل الى أفريقيا مع صديقه ليشرف بنفسه على تأسيس مستعمرة يونونيا . واستغل خصومه فرصة غيابه واتهموه بانه تجاوز العدد المعتمد للمستعمرين واقحم فيه زورا عددا آخر من المستعمرين غير الرومانيين. وروجوا شائعات كاذبة وأراجيف غريبة عن المستعمرة وما صاحب محاولة افتتاحها من نحس ونذر شر مستطير ، فزعموا ان مؤسسها قد استباح موضع قرطاجنة اللعين ، وان الزوابع المحملة بغضب السماء قد عصفت ببعض علامات الحدود فى المنطقة ، وأن الذئاب قد اقتلعت بعضها الآخر الى مكان ناء سحيق . ومع أن جايوس حرص — فيما يرجح — على أ ن يتجنب المنطقة الملعونة، فإن غيابه عن روما لم يتح له الفرصة للرد على خصومه وتكذيب الأراجيف . ولم يرجع الى العاصمة الا بعد فوات الفرصة . ولما رجع وجد نجمه قد أفل ، وشعبيته بين عامة المدينة القلب قد هبطت الى الحضيض . لذلك أخفق فى الانتخابات عندما رشح نفسه نقيبا للمرة الثالثة . هكذا صار فى آخر عام ١٢٢ مواطنا عاديا مجردا من حصانة المنصب ، (privatus)، وان ظل محتفظا بعضويته فى لجنة الاصلاح الزراعى . واذ كان السناتو وأعوانه قد استقر عزمهم على التخلص منه الى الأبد فقد أخذوا يستفزونه ويتحرشون به . وأ غروا . نقيباً للعامة يدعى مينوكيوس بأن يتقدم بمشروع لالغاء قانون روبريوس الخاص بانشاء مستعمرة يونونيا . لكن سرعان ما اتضح أنه لم تكن ثمة حاجة الى ذلك لأن النزاع بين جايوس والسناتو انحسم بأسلحة أخرى .

وبينما كان مشروع مينوكيوس معروضا على الجمعية لمناقشته ، حشد جايوس الذى تملكه الغضب أنصاره لمقاومة المشروع واحباطه . ولما كان قد شعر بأن حياته قد أصبحت مهددة فقد أحاط نفسه بحرس خاص . وحدثت بين أنصاره وخصومه مناوشات قتل أثناءها أحد

معاونى أوپيميوس (L. Opimius) قنصل عام ١٢١ الذى أخمد من قبل ثورة فريجللاى دون شفقة (١) ، وكان يمقت جايوس مقتا شديدا . واستطاع هذا القنصل أن يوغر صدر « الآباء » (٢) فاجتمع السناتو وقرر ازاء خطـورة الموقف أن يعهـد الى القنصل بحماية الدوله من الخطر . وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الجمهورية يصدر فيها مجلس الشيوخ قراره الذى عرف فيما بعد باسم قرار السناتوالنهائى أو الأخير (Senatus consultum ultimum) ، وكان بمثابة اعلان للأحكام العرفية فى حالة الطوارىء . ومنذ دلك الحين كان السناتو يستخدمه كسلاح قوى جديد ليسحق به خصومه (٣) . وكان هذا القرار ينطوى على تأييد أدبى للقنصل الذى كان يكلف فى الأزمات الطارئة باتخاذ ما يراه من تدابير لوقاية الدولة من الضرر وحمايتها من الخطر (٤) .

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٩ — ٢٠

(٢) الاباء (Patres) اسم يطلق على اعضاء مجلس الشيوخ الرومانى "الأشراف".

(٣) ينبغى ان نتذكر ما اثبته الاخوان من ان السناتو لم يكن سوى هيئة استشارية لا تتمتع بسلطة دستورية مباشرة ، ولم يجد امامه من حيلة سوى الالتجاء الى هـذا الاجراء الاستثنائى . وعن اكتساب هذا القرار صفة دستورية ، انظر ص ٣٦ حاشية ١ فيما يلى .

(٤) يبدو ان صيغة القرار النهائى لم تكن ثابتة لان شيشرون يقـول فى احـدى خطبه ضد ماركوس انطونيوس المشهورة باسم الفيليبيات (الثامنة — ٤ — ١٤) ان صيغته اول ما صدر جرت على النحو التالى :

"Quod L. Opimius consul verba fecit de republica de ea re ita censuerunt, uti L. Opimius consul rem publicam defenderet."

لكنه يعود فيقول فى موضع آخر (الخطبة الاولى ضد كتيلينا ، ٢ — ٤) ان صيغته جرت على هذا النحو :

"Decrevit quondam senatus, ut L. Opimius consul videret, ne quid res publica detrimenti caperet."

وقد أصدر السناتو قراره الاخير عشر مرات فى الفترة ما بين سنتى ١٢١، ٤٩ ، وخمس مرات فى الفترة ما بين سنتى ٤٩ و ٤٠ ، واصدره لاخر مرة فى سنة ٤٠ ق.م .

K. von Fritz, Ann. Rep. of the Amer. Hist. Assn. (1942), 221-237.

C. Wirszubski, Libertas as a Political Idea at Rome (Cambridge, 1950), 55 ff.: H. Last, CAH, IX (1932), 85 ff.

F.B. Marsh, A History of the Roman World from 146 to 30 B.C. 2nd ed. rev. by Scullard (London, 1953), 70 f.

وكان جايوس قد اعتصم هو وأنصاره بتل الأفنتين ، فبادر القنصل أوپيميوس الى تعبئةقوة مسلحة منأنصار السناتووأتباع الارستقراطيين وعبيدهم وغيرهم من أعداء جايوس، وأرسل فى طلبه للمثول أمامه ومحاسبته وأعوانه ، وطالبهم بالاستسلام دون قيد . غير أن فلاكوس صمم على المقاومة بالقوة على الرغم من عزوف جايوس نفسه عنالالتجاء الى العنف . عندئذ هاجم أوپيميوس تل الأفنتين . وفى الاشتباك الدامى لقى فلاكوس وابناه مصرعهم ، وأما جايوس جراكوس فقد عهد الى أحد عبيده بأن يطعنه بخنجره وينهى حياته حتى لا يقع فى أيدى خصومه . وألقى القنصل القبض على عدد كبير من أنصار جايوس وأودعهم السجن ثم أمر باعدامهم . وقيل أن عددهم بلغ ٣٠٠٠ قتيل ألقيت جثثهم فى نهر التيبر . وبعدئذ أجرى القنصل تطهيرا دينيا (lustratio) للمدينة من الدماء التى سفكت . وامتثالا لأمر السناتو رمم بناء معبد الوئام (Concordia) القديم فى السوق الرومانية (Forum) عند أسفل الكاپيتول . وفى احدى الليالى تسلل مجهول الى المعبد تحت جنح الظلام ودون تحت لافتته عبارة تقول « لقد بنت رعونة الخصام معبدا للربة[1] الوئام ! »

هكذا كانت نهاية جايوس جراكوس ، وهى نهاية مثيرة للأسى والأسف لأنه كان أول سياسى قدير تنجبه روما . ولا مراء فى أن مقتل رجل له هذه الأهداف السامية وهذا النبوغ يعد خسارة فادحة لايطاليا والجمهورية . وكانت روما قد صرعت أخاه بيديها من قبل . وبذلك تكون قد قضت على حياة رجلين من أنفع رجالها ، وستقضى فى القرن التالى على حياة كثيرين غيرهما .

---

(1) الربة Concordia (= HomoNoiA فى اليونانية) تعنى تجسيد لمعنى التآلف بعد التخالف او الوفاق بعد .....

وقد يبدو لأول وهلة أن السناتو خرج من المعمعة منتصرا (١) ، وأن جهود تيبريوس وجايوس ضاعت سدى ، وأن سيرة الأخوين لم تكن سوى عبرة لغيرهما من المصلحين لعلهم يدركون عدم جدوى الاستنجاد بالجمعية الشعبية واستعدائها على مجلس الشيوخ . ومع هذا فقد ترك الأخوان جراكوس أثرا مستديما فى التاريخ الرومانى . لقد أصابا يد السناتو لفترة ــ وان كانت قصيرة ــ بالشلل التام ، وأحدث نجاحهما العابر تأثيرا أقوى مما أحدثه فشلهما النهائى . وكان المثل الذى ضرباه حريا بأن يحفز كثيرين غيرهما من المصلحين إلى أن يجربوا قوتهم تحدّيا للسناتو ولا يتهيبوا منازلته .

وبقى أن نقيم أعمال تيبريوس وجايوس ونستعرض ما ترتب عليها من آثار . كان اخفاق الأخوين مأساة سياسية كبيرة . وقد ظلت ذكراهما ماثلة فى أذهان الناس حقبة طويلة من الزمن . وبينما احتلت هذه الذكرى موضع الاعزاز والاكبار فى قلوب أنصارهما ، كانت فى الوقت نفسه مثار استهجان واستنكار بين صفوف خصومهما الذين كان لهم تأثير كبير

كتّاب التاريخ الرومانى . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأخوين كانا وطنيين غيورين مقتنعين اقتناعا صادقا بضرورة حل المشكلات التى تصديا لها ، وأنهما كانا على يقين من صواب المشروعات التى احتضناها. لكننا لسنا على يقين من صواب الوسيلة التى اتبعاها أو المسلك الذى

---

(١) فى عام ١٢٠ اخبر مركز السناتو عندما قدم اوبيميوس ــ بعد انقضاء مدة قنصليته ــ للمحاكمة (ad populum) بسبب ما فعله بمقتضى قرار السناتو النهائى ، واعدامه مواطنين رومانيين دون محاكمة ودون اعتبار لقانون جايوس القائل بالا يعدم احد دون امر من الشعب : ne quis iniussu populi Romani capite damnetur

وكانت تبرئته بمثابة تصديق قانونى على مقتل جايوس ، وتبرير لصدور القرار النهائى ذاته . غير ان هذا القرار لم يكتسب صفة الشرعية المطلقة .

= الشقاق بين افراد او جماعات فى الدولة ، وترمز الى انتهاء اضطرابات أو قضاء على تمرد أو اخماد فتنة .

سلكاه . ولقد أنجزا كثيرا من المشروعات التي كانت فى نظرهما وسيلة الى غاية ، ولكنهما عجزا عن بلوغ هذه الغاية . وترتبت على اصلاحاتهما بعض نتائج مباشرة ، فعلى الرغم من أن كثيرا من المشكلات الاقتصادية ظلت قائمة ، فقد ساعدا على الأقل فى تخفيف حدة هذه المشكلات ، اذ ازداد عدد صغار ملاك الأراضى ، وعدد المهاجرين الى المستعمرات . وإلى هذا الحد يكون الأخوان قد خففا من ضراوة الاقطاع ومن أزمة البطالة . (١) ولعل مشروع الغلال ، وان اختلفت فيه الآراء ، قد هدأ من ثائرة عامة العاصمة المتعطلين وحال دون قيامهم بثورة هوجاء .

---

(١) فى الحق ان انتصار السناتو لم يكن تاما كاملا لانه باستثناء قانون روبريوس الذى الغى ، ظلت قوانين الاخوين جراكوس نافذة ،بل ان المهاجرين الى مستعمرة يونونيا ظلوا محتفظين بحيازة حصصهم الزراعية هناك .

لكن صدرت بعد ذلك ثلاثة قوانين حسمت نهائيا مشكلة الاراضى العامة التى كانت مثار نزاع طويل :

(ا) واول هذه القوانين صدر فى عام ١٢١ أو ١٢٠ق (ولعله احد تشريعات ليفيوس دروسوس) ، وقد اجاز لصغار ملاك الاراضى بيع انصبتهم الزراعية التى حصلوا عليها بمقتضى قانون الاصلاح الزراعى . وعلى ذلك بدأ كبار الملاك مرة اخرى فى شراء هذه الانصبة أو الضغط على صغار الفلاحين لارغامهم على التخلى عنها .

(ب) وثانى هذه القوانين هو قانون توريوس (lex Thoria) الذى صدر فى ١١٩ ويقول عنه أبيانوس إنه ألغى لجنة الاصلاح الزراعى ، وحرم توزيع الاراضى العامة بعد هذا التاريخ ، اى انه الغى نظام الحصص (ولهذا يبدو فى نظر كثير من الباحثين كانه ضربة قاصمة لمحاولة تيبريوس خلق طبقة من صغار الملاك) ، وكفل لحائزى الاراضى العامة (possessores) حق ملكيتها ، مع اشتراط دفع ايجار عنها ، على أن تستخدم حصيلته فى الانفاق على الفقراء (ربما باستيراد كميات كبيرة من القمح وبيعه لهم بثمن زهيد) .

(جـ) واما القانون الثالث الذى لم يصل الينا كاملا فقد صدر فى عام ١١١ ، وكان ينص على ان جميع الاراضى التى وزعتها لجنة الاصلاح الزراعى ، وجميع حيازات الاراضى العامة السابقة على الاخوين جراكوس تصبح ملكيات خاصة ومعفاة من الايجار بجميع صوره وصار من المحظور وضع اليد على المراعى العامة . ونظم استخدام هذه المراعى تنظيما دقيقا .

ومن العسير ان نقيس النتائج النهائية للتشريع الزراعى فى هذه الفترة قياسا صحيحا ، غير انه فى تقدير الباحثين ان مساحة الاراضى التى صودرت من كبار الملاك بلغت حوالى مليون وستمائة الف فدان رومانى (أى حوالى ٩٦٠٫٠٠٠ فدان مصرى) ، وان ذلك بالاضافة الى القيود التى وضعت على حجم قطعان الماشية والاغنام التى يجوز تسريحها فى اراضى

بيد أن النتائج غير المباشرة لأعمال الأخوين كانت هى الأكثر أهمية. لقد حاول جايوس حـل مشكلة اللاتين والايطاليين بمنحهم الجنسية الرومانية أو اللاتينية . وأخفق المشروح وطرح جانبا . غير أن ذلك أثار تذمرا شديدا بين هؤلاء الحلفاء ، مما سيؤدى الى اثارة المشكلة من جديد واتخاذها مظهـرا عنيفا بعد حين . وزادت تشريعـات جايوس الفرسان احساسا بقوتهم السياسية ، ولكنها مهدت الطريق الى مزيد من التعسف والابتزاز فى الولايات ، وبالتالى الى بذر بذور الكراهية نحو روما بين أهالى تلك الولايات التى كان من حظها التعس أن تولاها حكام من رجال السناتو أكثر انحرافا وجشعا من الفرسان . وكشف الأخوان عن مظهر جديد لنقابة العامة ، وان اتضح أنها سلاح ذو حدين. وتنبه العامة الى قوتهم وعرفوا شيئا عن سلطتهم ، وان لم يثبتوا على حال واحد بدافع من أنانيتهم . وأهم من ذلك أن السناتو وان كان قد خرج من المعركة ظافرا الا أن ضعفه انكشف وأغرى خصومه به .

غير أن كلا الأخوين سلك أثناء محاولته التغلب على المعارضة التى واجهته مسلكا عنيفا هز الدستور من أساسـه ، ووقف من السناتو موقف التحـدى المباشر لسيطرته على أداة الحكم . ولا نستطيع أن

=

الراعى العامة ، اصاب نفوذ طبقة السناتو بضربة شديدة . ولا سبيل الى معرفة عدد صغار الفلاحين الذين بقوا فى مزارعهم بعد ان اجيز لهم بيعها . ومن ثم فنحن لا نعرف مدى الزيادة المحتملة فى قوة روما العسكرية .

وعن هذه القوانين وبخاصة القانون الثالث الذى وجد مدونا على ظهر اللوحة البرونزية التى يحمل وجهها « قانون اكيليوس » ، وان كنا لا نعرف على وجه اليقين من هو صاحبه (اهو ثوريوس نفسه Sp. Thorius ام بايبيوس C. Baebius ؟ لاحظ أن الأول يسمى المخطوطات [illegible]) راجع الى جانب المؤرخ ابيانوس (الحرب الاهلية ، ك ١ ـ ٤ ـ ٢٧) والأديب شيشرون (بروتوس ٣٦ ، ١٣٦) :

Riccobono, FIRA I, No. 8 (102-121); Warmington, ROL IV. 370-437; Lewis-Reinhold, Roman Civilization I, 257-264.

وكتابنا : « مصادر التاريخ الرومانى » ص ١٢٠ ، حاشية ٢ ـ وعن تفسيرات أخرى انظر : E. Badian, HISTORIA (1963), 211 ff.

تهمهما بتجاهل السناتو عن نية مبيتة ايثارا منهما للجمعية القبلية التى ينتزعها نقيب شعبى يعاد انتخابه لهذا المنصب . غير أن ذلك كان على الأقل هو الأثر المؤقت لتصرفاتهما . وهنا يتعرض الأخوان للوم . لقد حاولا تمكين الجمعية المتقلبة الأهواء من توجيه دفة الحكم . ولم تكن هذه الخطوة موفقة من الناحية السياسية لأن الجمعية كانت أشد عجزا من السناتو وأكثر منه قابلية للرشوة ، بل انه لم يعد فى وسعها الادعاء بأنها تمثل كل هيئة المواطنين الرومان . ولما كانت الجمعية بهذا الوضع لا تستطيع أن تكون أداة للديمقراطية الصحيحة ، فان تقويض السناتو دون ايجاد بديل له أكثر منه صلاحية كان معناه حدوث فراغ قد يفضى الى كارثة . لقد ترتب على حركة الأخـوين جراكوس أن اشتد نبض الحياة السياسية وازداد على مر الأيام حدة وعنفا . ولا جدال فى أن عصرهما كان نقطة التحول الخطيرة فى تاريخ الجمهورية الرومانية لأنهما فتحا باب الثورة الاجتماعية على مصراعيه . وسواء اعتبرناهما زعيمين ثوريين أم لم نعتبرهما كذلك ، فمما لا ريب فيه أنهما عجلا بقيام الثورة التى لم تنته الا بسقوط الجمهورية . (١)

لقد استرد السناتو — على نحـو ما ذكرنا — مركزه وسيطرته ، وإن فَقَدَ كثيرا من نفوذه وهيبته . لكنه لم يحرز النصر بالوسـائل الدستورية بل أحرزه بسلاح العنف . وبذلك استن السناتو سنة سيئة

---

(١) يجد القارىء كل المصادر اليونانية واللاتينية عن الاخوين جراكوس مجموعة فى كتاب :

A. H. J. Greenidge & A. M. Clay, **Sources For Roman History** (133-70 B.C.) 2nd ed. rev. by E. W. Gray. (Oxford, 1960), 1-51.
F. R. Cowell. **The Revolutions of Ancient Rome** (London 1962), 77-105.
D. C. Earl, **Tiberius Gracchus: A Study in Politics** (Collection Latomus, vol. 66). Brussels. 1963; A. W. Lintott, VIOLENCE IN REPUBLICAN ROME, 1968.

سيقتدى بها خصومه عند سنوح الفرصة فيردون الى نحره نفس السلاح لينالوا بغيتهم . وقد أثبت تحالف الفرسان والعامة أنه أقوى من السناتو طالما كان هذا التحالف قائما . ولم يغب ذلك عن بال الساسة فى الأجيال اللاحقة . وقد أضعف السناتو الذى ضاعت منه بعض امتيازاته اندماج الفرسان فى تنظيم سياسى نشط كان يقف منه موقف المعارضة فى أغلب الأحيان . ولم يكن الفرسان ــ وهم رجال الأعمال الذين يمثلون الرأسمالية الرومانية ــ قد اشتركوا من قبل اشتراكا مباشرا فى الحكم ، ولم يحدث قط أن كانت لهم مثل أخلاقية كالتى كانت للأسر الرومانية العريقة حسبا أو جاها . وعندما اكتسبوا سلطة سياسية لأول مرة كان ذلك فى الوقت الذى بدأ النبلاء يتخلون فيه عن المثل الأخلاقية . ومن ثم فقد طبق الفرسان نفس قواعد السلوك الخلقى المتبعة فى المعاملات التجارية ، طبقوها على مسرح السياسة . واذ كانوا لم يشتركوا فى الحكم اشتراكا مباشرا فقد كانوا على جهل بمشكلات الامبراطورية[1] ، بل ان هذه المشكلات كانت لا تعنيهم الا بالقدر الذى فيه مساس بمصالحهم التجارية أو المالية . ولما كان الدافع وراء تصرفاتهم هو تنمية هذه المصالح فقد وجهوا ضرباتهم ، بعد ازدياد نفوذهم ، الى رجال السناتو الذين كانوا أول من قاوم أطماعهم وروح الجشع فيهم. لقد منح الفرسان سلطة سياسية بدون تحمل للمسئولية ولم تكن طبقتهم قد تشبعت بمثل المجتمع العليا . وعندما كانت مصالحهم تصطدم بهذه المثل ، فانهم كانوا يضربون بها عرض الحائط . لقد استغلوا سلطتهم الجديدة فيما يعود بالضرر على الدولة . وكان من سوء حظ روما أن المصالح التجارية والمالية أصبحت هامة فى وقت أزمتها الأخلاقية .

لكن أدهى الأخطار بالنسبة للمستقبل كان يتمثل فى تركة الكراهية

الكلمة مستعملة هنا (وفى مواضع اخرى) لا بمعنى =

الشديدة التى ورثها أبناء ضحايا السناتو ومن قاسوا الأمرين على يديه ، وفى انقسام المواطنين الى شيعتين أو حزبين سياسيين يناوىء أحدهما الآخر ، وهما حــزب الديمقراطيين (Populares) (١) ، وحزب الأرستقراطيين (Optimates) . ويعتبر جايوس جراكوس واضع نواة الحزب الديمقراطى الذى أصبح يضم العناصر التى كانت تنادى بتغيير الأوضاع القائمة ، وتطالب بالاصلاح عن طريق تشريعات تقدمية نافعة وان كانت احيانا متطرفة القصد منها ارضاء نزوات شعبية طارئة ، وتناصب السناتو العداء وتسعى الى كسر شوكته . وفى الحق ان هذا الحزب الشعبى كان بدون تنظيم فكان أقل تماسكا وارتباطا من الحزب الآخر وطائفة الفرسان . كان الحزب الديمقراطى يحوى بين دفتيه خليطا من عامة العاصمة والبروليتاريا الفقراء ، وبعض الايطاليين النازحين من الريف والعتقاء وغيرهم ممن كانوا يفتقرون الى روح المسئولية والتاريخ الأسرى ، ولا يعرفون شيئا عن تقاليد روما القديمة أو سنن السلف المجيدة أو لعلهم قد نسوها . ولم يكن لديهم ما يفقدونه ، فكانوا لا يتوجسون خيفة من اى انقلاب يؤدى الى تغيير أحوالهم ، وانما أصحاب الثروات هم الذين كانوا يخافون الانقلاب ويقفون حائلا دون قيام الثورة (res novae) . ولم تكن لهم مصالح واضحة محددة كمصالح الارستقراطيين والفرسان ، وانما كانت لهم مطامع ومطالب غير واضحة أيضا فى معظم الاحيان ، وان اتسمت عادة بالغلو والتطرف . وغالبا ما كانوا ينضوون تحت لواء شخصية كبيرة مدنية او عسكرية

---

(١) المعنى الحرفى حزب الشعبيين ، وفى الهان خصومهم بمعنى الديماجوجيين اى المتطرفين فى مشروعاتهم بقصد ارضاء نزوات الغوغاء دون اعتبار لما قد تتعرض له الدولة من هزات وعدم استقرار . لاحظ ان روما لم تعرف الاحزاب بالمعنى الحديث للكلمة ، ولذا كانت عبارة من طوائف او تكتلات ، كل منها تسعى الى تحقيق مصالحها الذاتية . وفى اللاتينية يسمى factio او partes .

= يمثل نظام الحكم (الامبراطورى) بل بمعنى الممتلكات الواسعة (الولايات) الخاضعة لسلطة عليا هى حكومة روما الجمهورية .

لا هَمّ لهـا إلا احراز السلطة أو المجـد الشخصي . وكثيرا ما كانوا يستغلون لتحقيق مآرب الشخصيات الكبيرة والطوائف الأخرى التى كانت تقيم وزنا لهم وتتودد اليهم رغبة فى استرضائهم عن طريق الرُشا أو التشريعات التى تحسن من احـوالهم وتشبع رغباتهم . كان هـذا الحزب اذاً يضم أخطر العناصر التى كانت مستعدة لتكون أداة لنشر العنف والفوضى . واما الحزب الارستقراطى (بمعنى حـزب الأخيـار حسبما سموا أنفسهم) (١) فهو حزب السناتو ومن يدور فى فلكه من الأشراف نسبا (patricii) والنبلاء منصبا (nobiles) وغيرهم من المحافظين الذين كانوا يعارضون الاصلاح الا فى أضيق الحدود ويتشبثون بالأوضاع القائمة حرصا على سلطتهم وامتيازاتهم ويرفضون تعديل الدستور الجمهورى القديم . ومن المؤسف ان أفق هذا الحزب كان يزداد ضيقا يوما بعد يوم ، وكان رجاله يزدادون انانية ضاربين صفحا عن القيم الخلقية الموروثة . واذ كان السناتو قد تعرض أثناء حركة الأخوين للهجوم وتزعزع مركزه فقد بدأ يستنفد كل طاقته فى الدفاع عن سلطته واسترداد امتيازاته ، وهو ما صرفه عن الاهتمام بمشكلات الامبراطورية .

هكذا انقسمت الدولة الى شيع وأحزاب ، وحل الانفصام فى المجتمع الرومانى محل الوئام القديم . ووسط ضجيج التطاحن الحزبى لم يسمع أحد الا نادرا صوت المقدرين للمسئولية وأصحاب الشـعور بالواجب نحو الدولة . وفى مثل هذا المجتمع الذى أصابه التصدع ، حل الحزب محل الدولة . وتحول الولاء — ان كان هناك ولاء — عن الدولة

---

(١) كلمة Optimates هى ترجمة لكلمة aristoi اليونانيـة بمعنى الارستقراطيين اى الاخيار . وقد درجوا على وصف انفسهم بصفات مثل :
boni, integri, sani, graves.

وعن حزبى الديمقراطيين والارستقراطيين ، انظر :
C. Wirszubski, **Libertas as a Political Idea at Rome** (1950), ch. 2.

الى الحزب الذى صار أكثر أهمية من الدولة ، كما أصبح الفرد فى حالة احتدام النزاع أكثر أهمية من الحزب . لقد اختفت المثل العليا أو كادت تختفى ، وفشت الخصومة والأثرة والفردية وعدم الاكتراث . وجذب الصراع الحزبى كل الجهود الى مسرحه الداخلى . ولم تتنبه الطبقة الحاكمة أو أغمضت طرفها عن مشكلات الامبراطورية . ولم تلبث أن طبقت نفس المبادىء الحزبية من رشوة وعدم امانة وانانية فى مسرح السياسة الخارجية . لقد تمكن الأخوان جراكوس فى حياتهما وبعد مماتهما من اضعاف نفوذ السناتو . غير أن هذه الهيئة لم تمسسها يد الاصلاح ولم تستبدل بها أخرى أصلح منها . ولهذا لم يعد هناك منذ ذلك الحين دستور يستأهل الاحترام من جانب المواطنين المخلصين . وأخذت فكرة الواجب نحو الدولة تتلاشى رويدا رويدا فى الأذهان مما أدى الى هبوط مستوى الكفاية فى مختلف فروع الادارة ، والى تفشى الفساد فى مختلف الطوائف وبخاصة فى الطبقة الحاكمة ، والى سريان روح التمرد فى الجيش . وحدث ذلك كله فى وقت تعرضت فيه روما والعالم المتمدين لأشد الاخطار من جانب الأعداء .

الفصل الثانى :

ماريوس وشلَّا

(١٠٧ – ٧٩)

بينما كانت روما منهمكة فى الصراع الحزبى الذى احتدم بين السناتو وجايوس جراكوس ، كانت الجيوش الرومانية مشتبكة على الحدود فى سلسلة من الحروب دفاعا عن سلامة أراضى الجمهورية (١) ولم تمض بضع سنوات على موت جايوس حتى اتضح الفساد وعدم الكفاءة واشتعلت من جديد نار التطاحن الحزبى أثناء ذلك القتال الذى خاضته روما فى شمال أفريقيا ضد الزعيم النوميدى يوجورتا (Iugurtha) . فقد استطاع هذا الرجل أن يخدع سفراء السناتو ويتحدى الجيوش الرومانية ، مستغلا نزوع هؤلاء للتمرد ، واستعداد أولئك للرشوة . لكن هذا الصراع الذى بدأ فى عام ١١١ أنجب – لحسن حظ روما – جنديا عظيما يدعى ماريوس وهو رجل عصامى ايطالى المولد ، وجنديا عظيما آخر يدعى شُلَّا ، وهو سليل أسرة شريفة . وبفضل هذين الرجلين اللذين قدر – لسوء حظ روما – أن

---

(١) فعلى تخوم مقدونيا واللوريكوم اشتبكت الجيوش الرومانية مع القبائل الكلتية فى جنوب الدانوب ، وقامت بصد غارات الشعوب الالبية فى شمال ايطاليا . واضطر الرومان ازاء أعمال السلب والنهب على يد القراصنة فى غرب البحر المتوسط الى احتلال جزر البليار (١٢٣ – ١٢١) مما اتاح لهم السيطرة التامة على الطريق البحرى المؤدى الى اسبانيا . واسس الرومان فى مايوركا (Majorca) وهى اكبر هذه الجزر ، مستعمرتين للمواطنين الرومان مع اشراك عدد من الايطاليين المستوطنين فى اسبانيا .

واهم من ذلك كان الزحف الرومانى فى غالة عبر الالب (او البعيدة) بعد عام ١٢٥ حيث استنجدت ماسيليا (وهى مرسيليا الحالية) ، وحليفة روما ، بالرومان فقاموا بحملة ضد السالوفيين (Saluvii) الغاليين ، وهم شعب كانت اراضيه تقع الى الشمال من ماسيليا . وتمكن الرومان بفضل اخضاع هذا الشعب والشعوب الليجورية المجاورة له فى عام ١٢٢ من السيطرة على الطريق الذى يجرى من ايطاليا الى وادى نهر الرون عبر جبال

=

يصبحا ألد عدوين ، انتهت الحرب ضد يوجورتا فى مصلحة الرومان فى عام ١٠٥ (١) .

ماريوس

الحرب ضد يوجورتا :

وكان مسرح هذه الحرب هو شمال أفريقيا حيث نشأت مملكة نوميديا (الجزائر تقريبا) بعد الحرب البونية الثانيــة مباشرة . وكان

=

الالب البحرية ، وقد امنوا سيطرتهم باحتلال اكواى سكستياى Aquae Sextiae (اكس آن بروفانس الحالية) وهى مركز حصين يقع على ذلك النهر .

وقد اثار انتصار الرومان الذعر بين القبائل الغالية القوية وبخاصة بين الاللوبروجيس (Allobroges) القاطنين بشرقى نهر الرون ، وبين الارفرنى (Arverni) القاطنين غربى النهر . وقد تحالف هذان الشعبان لمقاومة الزحف الرومانى ، بينما انحاز شعب منافس لهما وهم الايدوى (Aedui) الذين كانوا يسكنون فى شمالى منطقــة الارفرنى ، الى جانب الرومان . وقد بدات المناوشات عندما طالب الرومان الاللوبروجيس بتسليم الهاربين من السالوفيين . وفى عام ١٢١ انهزم الاللوبروجيس والارفرنى فى معركة كبيرة على مقربة من التقاء الرون بالايسير ، على يد القنصل فابيوس ماكسيموس ، والبروقنصل جنايوس دوميتيوس اهينوباربوس . واتاح الانتصار للرومان السيطرة على جنوب غالة من الالب حتى البرانس ، باستثناء منطقة ماسيليا . ونظم الرومان الاراضى التى كسبوها حينئذ كولاية باسم غالة الناربونية (Gallia Narbonensis) . وبرغم معارضة السناتو اسست مستعمرة للمواطنين المهاجرين من ايطاليا عند ناربو (Narbo) ، وذلك تحت ضغط رجال الاعمال فى روما عليها يرجح . وبغض النظر عن محاولة جايوس جراكوس الفاشلة لتاسيس مستعمرة يونونيا ، فان ناربو كانت اول مستعمرة من نوعها تنشأ خارج حدود ايطاليا (١١٨ ق.م) . وأما تاريخ انشاء الولاية رسميا فهو ١٠١ ق.م

(١) مصدرنا الرئيسى عن هذه الحرب هو كتاب المؤرخ سللوستيوس (C. Sallustius) بعنوان الحرب اليوجورتية (Bellum Iugurthinum) وهو كتــاب نشر فى عام ٤١ ، ويحتوى على مقدمة فلسفية ثم عرض لسيرة الامير النوميدى يورجــورتا واستيلائه على السلطة فى بلاده . وقد جمع المؤرخ المعلومات فى افريقيا عندما ولاه يوليوس قيصر حاكما على ولاية افريقيا الجديدة عام ٤٥ ، وتوافرت لديه مصادر ادبية قيمة من بينها ترجمات عن اللغة اليونية . ويعتبر فريدا بين المؤرخين الرومان (الذين وصلتنا مؤلفاتهم) فى عزوفه عن طريقة الحوليات واقباله على كتابة بحث مطول فى موضوع واحد . لكن يعاب عليــه عدم مراعاته التسلسل الزمنى للحوادث . وعدم دقة معلوماته الجغرافية والعسكرية . واهم من ذلك انه لا يقوم فى هذا الكتاب (او فى كتابه الآخر بعنوان « حرب كتيلينا ») بدور المؤرخ فقط ، بل بدور الكاتب السياسى الذى يحاول الدفاع عن سياسة وزعمــاء

=

أميرها قد انحاز الى القرطاجنيين فى موقعة زاما (٢٠٢) ، فلما انتصر الرومان نصبوا عليها بدلا منه غريما له وحليفا لهم يدعى ماسينسّا (Masinissa) . وحكم ماسينسا مدة طويلة ومات فى سنة ١٤٩ . وخلفه على العرش ابنه ميكيبسا (Micipsa) الذى أوصى بمملكته قبل وفاته فى سنة ١١٨ لابنيه وابن أخيه يوجورتا الذى كان قد تبناه . وكان يوجورتا رجلا قديرا جم النشاط ذا أطماع واسعة ، وكان فى الوقت ذاته مخادعا ملتويا لا ضمير له . وقد اكتسب خبرة عسكرية واسعة وعرف أخلاق النبلاء الرومان لأنه خدم فى جيش اسكيبيو ، قاهر نومانتيا ، فى عام ١٣٤/١٣٣ . وقد دفعته أطماعه الى تدبير مؤامرة تخلص بها من أحد ابنى عمه ، وأما الآخر وهو أدهربال (Adherbal) فقد أرغم على الفرار ، فالتجأ الى روما وطلب مساعدتها بمقتضى معاهدة قديمة معها . وعلى أى حال فلم يكن فى وسع الحكومة الرومانية أن تقف مكتوفة اليدين ازاء الأحداث الجارية فى مملكة تحت حمايتها واقعة على حدود ولاية أفريقيا الغنية (قرطاجنة) . لكن يوجورتا أوفد الى روما وكلاء مزودين بالأموال ليدافعوا عن قضيته أمام السناتو . وأفلح هؤلاء فى مهمتهم وأمر السناتو بتشكيل لجنة برئاسة أوبيميوس وجاءت الى نوميديا فى عام ١١٦ للتحكيم وتقسيم المملكة بين المتنافسين وأعطت يوجورتا المنطقة الغربية وهى أقل خصوبة من المنطقة الشرقية المتاخمة لقرطاجنة . ولكن يوجورتا كان يطمع فى الاستيلاء على كل المملكة ، فتحرش بأدهربال واستفزه للقتال وألحق به الهزيمة فى عام ١١٣ . ثم حاصره فى عاصمته كيرتا (Cirta) (قسنطينة أو الكف ؟) حيث كانت تقيم جالية كبيرة من التجار ورجال الأعمال

=

الحزب الديمقراطى والكشف عن فساد رجال الحزب الارستقراطى وارتشائهم ، وعدم كفايتهم ، والتنديد بأخلاقهم ، لكن يلاحظ أنه مع اعجابه بماريوس الذى يعتبره بطلا ، فانه يبرز دور سلا ، ولعل ذلك يرجع الى استخدامه مذكرات الدكتاتور عند كتابة الجزء الاخير من بحثه . وكان متأثرا بالاحوال السياسية السائدة فى أيامه ، وجعلها تنسحب على احوال العصر السابق (عصر ماريوس وسلا) . لذلك يرى بعض الباحثين أنه عرضه لموضوع « حرب يوجورتا » أقل حدة من عرضه لموضوع « مؤامرة كتيلينا » .

الايطاليين . وعندئذ استنجد أدهربال بروما فأرسلت لجنتين للتحقيق ودراسة الموقف ، ولكن يوجورتا احتال عليهما بلباقة الدبلوماسية أو بالرشوة ، فسلمتا بمطالبه . وأخيرا سقطت كيرتا فى يده عام ١١٢ فقتل منافسه وقضى على الجالية الايطالية التى كانت تسانده .

وقد أثار مقتل الايطاليين موجة من الاستياء فى روما واضطر السناتو تحت ضغط طبقتى الفرسان والعامة الى الموافقة على اعلان الحرب على يوجورتا مع أن كثيرين من أعضائه كانوا مستعدين للتغاضى عن أعماله . وفى عام ١١١ غزا جيش رومانى بقيادة القنصل بستيا (L. Calpurnius Bestia) مملكة نوميديا . وسرعان ماحصل يوجورتا بالرشوة على اتفاقية بوقف القتال وعقد الصلح بعد أن تظاهر بالاستسلام غير أن خصوم حزب السناتو لم تجز عليهم هذه الحيلة وأصروا على اجراء التحقيق اللازم . وبناء على اقتراح مميوس (C. Memmius) أحد نقباء العامة فى سنة ١١١ ، استدعى يوجورتا الى روما بعد أن أعطى الأمان لكى يدلى بما لديه من معلومات عن الحكام والقواد الرومان الذين اتصلوا به فى نوميديا . وفى روما استطاع أن يشترى ذمة اثنين من نقباء العامة ليتدخلا فى صفه ويحولا بما لهما من حق الاعتراض دون ادلائه بالشهادة المطلوبة . وبلغ من جرأته أنه دبر فى روما نفسها مؤامرة اغتيل فيها غريم له كان يطالب بعرش نوميديا . ولما افتضح أمر الجريمة أسقط فى يد أصدقائه الرومان ولم يجدوا فى أنفسهم الجرأة على حمايته او الدفاع عنه ، فألغت الحكومة الاتفاقية معه وأمرته بمغادرة العاصمة والعودة الى بلاده . وبينما كان يوجورتا يغادر روما تلفت وراءه قائلا فى سخرية لاذعة عبارته التى صارت مثلا « مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة ان تجد من يشتريها » :

Urbem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit.

(١) انظر : Sallustius, Bell. Iug. XXXV, 10

وتجدد القتال ، غير أنه انتهى فى أوائل عام ١٠٩ بهـزيمة الجيش الرومانى واستسلامه ليوجورتا الذى أمعن فى اذلاله ، وطالب بالاعتراف بمركزه فى نوميديا دون انتقاص كشرط لاطلاق سراح الجيش الرومانى. وقبل ألبينوس (A. Postumius Albinus) ، وهو قائمقام (legatus) القائد العام للحملة ، بمرتبة البريتور البديل (pro praetore) (١) هذا الشرط المهين لكى ينقذ جيشه . وقد لعبت الرشوة والخيانة دورا كبيرا فى هذا الانكسار المخزى . ورفضت روما شروط يوجورتا ، واقترح أحد نقباء العامة وهو ماميليوس (C. Mamilius Limetanus) تأليف محكمة خاصـــة من الفرسان (Equites) لمحاكمـــة المرتشين والمسئولين عن هذه الهزائم المشينة والمتواطئين مع يوجورتا . فأقرت الجمعية القبلية الاقتراح وتم تنفيذه . وأدين أربعة من ذوى المرتبة القنصلية وحكم عليهم بالنفى خارج البلاد .

وفى العام نفسه (١٠٩) أسندت قيادة الجيش الرومانى فى أفريقيا الى القنصل ميتيللوس (Q. Caecilius Metellus) ، وهو قائد من الأشراف كانت أسرته تتمتع بنفوذ كبير فى ذلك الوقت . وقد استطاع أن يغزو نوميديا (٢) ويهاجم زاما ولكنه فشل فى انهاء الحمـــلة لأن يوجورتا التجأ الى حرب العصابات ، وهى حرب تتفق وطبيعـــة تلك المنطقة الجبلية . ولم يعد هناك مناص من أسر يوجورتا نفسه أو قتله لكى تنتهى الحرب . وكان بين ضباط ميتيللوس رجل يدعى جايوس ماريوس (C. Marius) ، وهو من أسرة ايطالية الأصل تنتمى الى طبقة الفرسان نشأت فى أربينوم (Arpinum) وهى بلدة من بلاد الفولسكى فى حوض نهر ليريس (Liris) تقع على بعد حوالى ٦٠ ميلا

---

(١) كان قائد عام الحملة الافريقية فى عام ١١٠ هو القنصل سپوريوس ألبينوس (شقيق أولوس البينوس المذكور فى المتن) . وكان قد باء بالفشل فى حربه ضد يوجورتا ثم عاد الى روما لكى يشرف على الانتخابات فى أواخر عام ١٠٩ .

(٢) ولذلك اشتهر بلقب (Numidicus) أى « النوميدى » أو « قاهر نوميديا » .

جنوب شرق روما . وكان ماريوس (١٥٧ — ٨٦) قد تولى الكويستورية عام ١٢١ (؟) ، وتريبونية العامة سنة ١١٩ وأظهر أثناءها استقلالا فى الرأى ، والبريتورية فى ١١٥ . وقمع بوصفه بريتوراً بديلاً ثورة بعض القبائل الاسبانية فى عام ١١٤ ، ثم اختير فى عام ١٠٩ قائدا مساعدا أو قائمقام (legatus) لميتيللوس قائد الحملة فى أفريقيا ، والذى كانت لأسرته أفضال عليه . وقد بدأ يحقد على رجال الحزب الارستقراطى لأنهم كانوا ينظرون اليه شزرا بوصفه رجلا عصاميا أو رجلا جديدا فى المجتمع (novus homo) (١) . لكنه أحس بضعف مركزهم بعد الهزائم التى منى بها قوادهم فقرر ترشيح نفسه للقنصلية ، وطلب من ميتيللوس أن يسمح له بالعودة الى روما لكى يقوم بالدعاية الانتخابية . ولكنه رفض مطلبه ساخرا منه . وقد أوغر ذلك صدر ماريوس عليه فأخذ يكيد له ويؤلب الجنود عليه . وعندئذ اضطر ميتيللوس أن يجيبه الى طلبه ، فعاد ماريوس الى روما حيث فاز بفضل مساندة العامة والفرسان فى انتخابات القنصلية لعام ١٠٧ وتقدم أحد نقباء العامة وهو مانليوس مانكينوس (T. Manlius Mancinus) باقتراح الى الجمعية لاسناد قيادة الحملة الافريقية الى ماريوس ، فأقرت الجمعية الاقتراح وأذعن السناتو لمشيئة الشعب ، مستنكرا هذا الافتئات على حقه فى اطالة مدة قيادة ميتيللوس (prorogatio imperii) وفى توزيع القيادات على القناصل .

---

(٢) معنى « رجل جديد » انه لم يسبق لاحد من افراد اسرته ان تولى منصبا رفيعا يتمتع صاحبه « بالامبريوم » كالقنصلية بحيث يضفى على الاسرة صفة النبالة ، اى انه لم يكن من اسرة نبيلة (nobilis) بمعنى مرموقة او شهيرة . وكان من العسير على اى شخص مغمور ليس لاسرته ماض عريق فى خدمة الدولة ان يفوز بمنصب كبير كالقنصلية . وكان الشعب الرومانى بوجه عام لا يعطى أصواته فى انتخابات القنصلية الا لاشخاص ينتمون الى اسرة شريفة حسبا او نبيلة منصبا . لقد كانت الجمهورية الرومانية جمهورية ارستقراطية الطابع . وليس ادل على ذلك من انه اذا استعرضنا اسماء القناصل خلال القرن السابق على الاخوين جراكوس نجد انه من بين ٢٠٠ قنصل كان هناك ١٩٥ قنصلا ينتمون الى ٢٥ اسرة فقط ، وحوالى ٩٩ ينتمون الى ١٠ اسر . بل ان اسرة واحدة ، وهى اسرة سكيبيو من عشيرة كورنيليوس Cornelius Scipio اخرجت لروما ٢٢ قنصلا فى تلك الفترة التى كانت هذه الاسرة تتمتع ابناؤها باكبر نفوذ وجاه .

وفتح ماريوس باب التجنيد على مصراعيه للمتطوعين ،ورحل الى أفريقيا فى عام ١٠٧ ، حيث تولى قيادة الحرب ضد يوجورتا . وكان من بين مساعديه كويستور يدعى لوكيوس كورنيليوس سُلاّ (L. Cornelius Sulla) ، وهو جندى كفء ينتمى — كما ذكرنا — الى احدى الأسر الشريفة . ومع أن يوجورتا دعم مركزه بالتحالف مع حميه بوكوس (Bocchus) ملك مَوْريتانيا Mauretania (مراكش على وجه التقريب) ، الا أن ماريوس انتصر عليه وعلى حليفه فى معركتين عام ١٠٥ . وأخيرا جازف سلا وشق طريقه الى موريتانيا حيث استطاع أن يقنع ملكها بالتخلى عن يوجورتا والغدر به وتسليمه كأسير للرومان. وقد أرسل الأمير الافريقى الى روما حيث سيق فى موكب انتصار ماريوس فى أول يناير من عام ١٠٤ . ثم زج به فى السجن (Tullianum) وقتل شر قتلة . ووجد ماريوس أنه قد انتخب أثناء غيابه قنصلا لعام ١٠٤ — وهو أمر مناقض للدستور — ولكن الشعب أصر على انتخابه لأنه تخوف من خطر البرابرة الجرمان الذين كانوا يطرقون أبواب ايطاليا الشمالية ، ولأنه كان يثق به وبكفايته العسكرية على أثر انتصاراته فى أفريقيا (١) .

وقد أحدثت الحرب ضد يوجورتا آثارا بعيدة المدى فى روما نفسها، اذ فقد السناتو جانبا كبيرا من هيبته ، تلك الهيبة التى زعزعها الأخوان جراكوس من قبل ، ولاسيما بعد أن اتضح ارتشاء أعضائه وعجزهم الناضح وانعدام روح المسئولية بينهم ، حتى أن هذه المفاسد ألقت ظلا قاتما على انتصارات القواد الاشراف . كما أثبتت هذه الحرب مرة أخرى أن فى امكان العامة والفرسان — بتكوين جبهة متحدة —

---

(١) أعطت روما الجزء الشرقى من نوميديا لأخ غير شقيق ليوجورتا يدعى « جاودا » ، وأعطت الجزء الغربى منها لبوكوس . ملك موريتانيا مكافأة له على خدماته . ولم يستفد من هذه الحرب سوى « الفرسان » الذين استأنفوا أعمالهم التجارية فى أمان بشمال افريقيا .

أن يسيطروا على السياسة الخارجية . وبقى على ماريوس أن يدمج هذين الحـزبين تحت لوائه حتى يستطيع الوقوف فى وجه حـزب السناتو .

الحرب ضد الكمبرى والتيوتون

لكن سرعان ما احدق بايطاليا خطر أشد من سابقه . فلو نظرنا الى خريطة لايطاليا أو سنحت لنا فرصة مشاهدة ذلك السور الهائل ، سور جبال الالب الشاهقة ، من سهل البو فقد يحملنا مظهره على الاعتقاد بأنه سد منيع لا يمكن اختراقه ، غير أن سلاسل الجبال ليست دائما خطوطا دفاعية قوية . وفى التاريخ القديم والحديث ما يؤيد أن ايطاليا كانت عرضة للغزو من الشمال . فقد اجتاز هنيبال وأخوه الطـرف الغربى من سلسلةالالب ، حيث شقت فيما بعد طرق منتظمة واسعة بين روما وولاياتها الغربية . وأما فى الطرف الشرقى ، حيث ينخفض ارتفاع الممرات انخفاضا تدريجيا ، فكان الدخول الى ايطاليا ميسورا من الشمال الشرقى . وقد ساد الاضطراب وقتئذ فى تلك المنطقة الواقعة وراء ذلك الحاجز الجبلى ، وذلك عندما تحركت جموع غفيرة جائعة من السكان، تدفعها شعوب أخرى جائعة مثلها ، للبحث عن أراض خصبة تستقـر فيها . ففى عام ۱۱۳ تدفقت قبائل متنقلة جرمانية الأصل من منطقـة جتلاند ونهر البا ، وانضمت اليها قبائل أخرى أثناء تقدمها ، تدفقت جميعها على هذه المنطقة الضعيفة من جبال الألب الشرقية وأوشكت أن تقتحمها .

وحاول القنصل كاربو (Cn. Papirius Carbo) الذى كان مرابطا فى نوريكوم (Noricum)[1] على رأس جيش رومانى أن يقف زحف الكمبرى

(۱) منطقة من مناطق الالب ، جنوبى الدانوب (شرقى هلفيتيا = سويسرا) كان سكانها خليطا من الالليريين والكليتيين (الغال) عاصمتها القديمة نوريا (= نويماركى الحالية) .

فى الاقليم المعروف الآن باسم كارينثيا ، ولكنه منى بهزيمة فادحة على مقربة من نُورِيَا Noreia (١) عام ١١٣ . ولو كان على رأس هذه القبائل قائد نابغ لاقتحم ايطاليا لأنه لم يكن هناك وقتئذ — كما حدث مرة أخرى بعد قرن تقريبا — ما يعوق زحفها من الألب الى روما . ولكنها تابعت — لسبب مجهول — مسيرها عبر سويسرا نحو الغرب . وفى عام ١٠٩/١٠٨ ظهرت هذه القبائل فجأة وراء جبال الالب الغربية فى الولاية المعروفة باسم غالة الناربونية (Gallia Narbonensis) على مقربة من تولوسا (Tolosa) — وهى تولوز الحديثة — حيث مزقت شمل جيش رومانى آخر كان يقوده القنصل سيلانوس (M. Iunius Silanus) كما أباد التيجورينى (Tigurini) الغاليون فى وادى الجارون جيشا قنصليا ثالثا فى معركة هلك فيها قائده كاسيوس لونجينوس (L. Cassius Longinus) قنصل سنة ١٠٧ . وفى ٦ أكتوبر عام ١٠٥ بينما كانت القوات الرومانية تشق طريقها الى مرسيليا تحت قيادة القنصل ماالليوس (Cn. Mallius Maximus) والبروقنصل كاپيو (Q. Servilius Caepio) (٢) متجهة نحو ايطاليا ، منيت عند أراوسيو (Arausio) — وهى أورانج الحديثة — الواقعة فى الولاية الرومانية ، بهزيمة على يد الكمبرى والتيوتون وحلفائهم لا تقل فى فداحتها عن هزيمة كَنَّاى ، وأوشك نصف الامبراطورية أن يقع فى يد الغزاة الظافرين ، غير أنهم

(١) بالقرب من لوبليانا فى يوغسلافيا الحديثة .

(٢) كان كاپيو قنصلا فى ١٠٦ وماالليوس قنصلا فى ١٠٥ . وقد رفض الاول ان يتعاون مع الثانى بوصفه رجلا جديدا مما ادى الى الهزيمة المنكرة . ولكنه استطاع ان يسترد تولوز من يد الاعداء ، وعاقب المدينة بان نهب كنوز معبدها الضخم وهو معبد الربة مينرفا (Minerva) وقد حوكم كاپيو فيما بعد عام ١٠٤ ولعله ادين باختلاس هذه الغنائم التى اختفت فى ظروف غامضة واصبحت عبارة « ذهب تولوز (aurum Tolosanum) » يضرب بها المثل فيما يختفى فجأة . وصدر بايعاز من نقيب العامة نوربانوس فى ١٠٣ قرار شعبى (من الجمعية) بتجريده من « الامبريوم » وطرده من السناتو وسجنه ثم نفيه باعتباره مسئولا مع ماالليوس عن ضياع الجيش وكارثة اراوسيو . وكذلك حكم على ماالليوس بالنفى بتهمة الخيانة وذلك بايعاز من نقيب العامة ساتورنينوس .

والقرار المذكور هو قرار عامى Plebiscitum أصدرته الجمعية القبلية المنعقدة بدعوة من نقيب للعامة ولا يحضرها الا العامة ، ومن ثم تعرف هذه الحالة باسم "جمعية العامة القبلية"

تركوا فريستهم للمرة الثانية ، متابعين سيرهم غربا سعيا وراء فتوحات أيسر منالا .

اصلاحات ماريوس العسكرية

وأتيحت لروما فترة ثلاث سنوات تقريبا تنفست فيها الصعداء ، ووجدت خلالها أيضا الرجل القادر على انقاذها . فقد أعاد ماريوس تنظيم الجيش وغير طريقة تسليحه وتدريبه وأسلوب قتاله ونظامه التأديبي تغييرا جوهريا . (١) وأهم من ذلك أنه غير نظام التجنيد حتى يستطيع أن يعبيء القوات اللازمة ، وكانت الحكومة الرومانية تجد صعوبات فى تجنيد العدد الكافى من الرجال بمقتضى النظام القديم ، وذلك لنقص عدد من يملكون النصاب المالى المطلوب ، وضعف الروح العسكرية بين القادرين ، واقامة كثير من المواطنين خارج ايطاليا . ففتح ماريوس باب التجنيد على مصراعيه للمواطنين الفقراء (proletarii)

---

(١) ما تزال معلوماتنا طفيفة عن التغيرات التى طرأت على نظام الجيش الرومانى قبل عصر ماريوس . ومع هذا ففى وسعنا أن نقول ـ استنادا الى المؤرخ بوليبيوس ـ ان الجيش الرومانى كان يتألف قرب نهاية القرن الثالث من أربع فرق . وكانت كل فرقة (legio) تشتمل ـ بغض النظر عن الآلاى الفرسان (ala) الملحق بها والذى كان يتألف من ٣٠٠ رجل منقسمين الى ١٠ فصائل صغيرة (turma) ـ على ٤٢٠٠ جندى من المشاة منظمين فى ثلاثة صفوف أو طبقات (وفقا للثروة والسن) . وكان الصف الاول يتألف ممن يعرفون باسم الـ hastati (وعددهم ١٢٠٠) ، ـ والثانى من الـ principes (وعددهم ١٢٠٠) والثالث من الـ triarii (وعددهم ٦٠٠) . وهذه الصفوف الثلاثة تتألف من المشاة ثقيلى العدة . ثم يأتى بعدها الـ velites وهم المشاة خفيفو العدة المؤلفون من فقراء المواطنين وكانوا يوضعون فى الجناحين للقيام بالمناوشات .

وكانت الفرقة (legio) تنقسم الى ٣٠ جماعة موزعة بالتساوى بين الصفوف الثلاثة . وقد اشتملت كل جماعة (manipulus) على سريتين ، تضم كل سرية (centuria) منها ٦٠ جنديا فى الصف الاول والثانى و٣٠ جنديا فى الصف الثالث . وكان يلحق بكل سريه ٢٠ جنديا من المشاة خفيفى العدة . وكان القنصل هو الذى يتولى قيادة الفرقة ويعاونه فيها ستة ضباط يلقبون بترابنة الجنود (tribuni militum a populo) وكانوا فى منزلة الحكام (magistratus) لان الجمعية القبلية هى التى كانت تنتخبهم .

= وهي ما كانت تعرف من قبل " بمجلس العامة " واكتسبت قراراتها صفة الشرعية وصار لها قوة القوانين الملزمة لكل الشعب بعد عام ٢٨٧ .

فى جميع أنحاء الامبراطورية والذين كان عدم استيفائهم النصاب (capite censi) لا يؤهلهم فى الماضى للخدمة فى الفرق الرومانية ، على الرغم من أن هذا النصاب كان قد هبط الى حد كبير . واعتمد على التطوع أكثر منه على التجنيد الاجبارى لعدد معين من الحملات . وقد ترتب على هذه الخطوة نتائج خطيرة بعيدة المدى اذ تحولت الخدمة العسكرية من التزام نحو الدولة الى شبه حرفة تتعيش منها أعداد غفيرة من المواطنين المعدمين أو المتعطلين عن العمل . ولم يعد المجندون على هذا الأساس يتوقون — فيما يبدو — الى تسريحهم بعد انتهاء الحملات بل أصبحوا يفضلون البقاء فى الخدمة العسكرية سنوات عديدة تحت امرة قائدهم المظفر . ووجد ماريوس متسعا من الوقت لتدريبهم تدريبا حسنا ، واضعا بذلك أسس الدفاع المتينة عن حضارة البحر المتوسط .

وأفضت اصلاحاته العسكرية الى انتصار رائع أحرزه ضد قبائل التيوتون (Teutoni = Teutones) فى أكواى سكستياى (Aquae Sextiae) — وهى اكس آن بروفانس الحالية — على مقربة من مرسيليا فى عام ١٠٢ ، وانتصار آخر فى عام ١٠١ بالتعاون مع لوتاتيوس كاتولوس (Q. Lutatius Catulus) زميله السابق فى قنصلية عام ١٠٢ على قبائل

= فلما جاء ماريوس الغى نظام تشكيل الجيش القائم على أساس الثروة فتساوت الجنود وتسلحت كلها بعين السلاح وهو السيف والحربة الطويلة (pilum) . واصبحت الفرقة (legio) تتالف تقريبا من ٦٠٠٠ جندى (اذكان العدد يهبط احيانا الى اقل من ذلك بكثير) . وانقسمت الفرقة الى ١٠ كتائب واصبحت الكتيبة (cohors) هى وحدة القتال الرئيسية اى حلت محل الجماعة (manipulus) . وجعل لكل فرقة علما او شعارا فى شكل نسر (aquila) مزخرفا باكليل من الذهب او الفضة (corona) وكان ضياعه من الفرقة قد يتسبب فى تسريحها . على ان كل كتيبة ظلت تتالف من ٣ جماعات و ٦ سرايا ، والغى الآى الفرسان وكذلك المشاة ذوو السلاح الخفيف . ولم يحدث تغيير فى القيادات ، الى ان جاء يوليوس قيصر الذى قلل من اهمية ترابنة الجنود وبدأ يسند قيادة الفرقة الى قائد يحمل لقب legatus (legionis)
انظر :

R. E. Smith, Service in the Post-Marian Army, 1958

الكمبرى (Cimbri) فى ڤركللاى (Vercellae) فى حوض البو عند الطرف الغربى من شمال ايطاليا ، الذى كان هؤلاء البرابرة قد تسللوا منه أخيرا . وهكذا نجت ايطاليا من الخطر مرة أخرى (١) .

ولننظر الآن كيف أدى ذلك الخطر أو بالأحرى الجهود التى بذلت لدفعه الى تغييرات بالغة الأهمية فى السلطة الحكومية ونظام الدولة الرومانية . لقد أنقذت ايطاليا لا بفضل الجيوش الرومانية أو الحكومة الرومانية ، بل على يد ماريوس والجيش الذى أنشأه . وتولى ماريوس القنصلية خمس سنوات متوالية (١٠٤ — ١٠٠) ، وهو أمر يناقض جميع السوابق . وكان الجيش الذى أنشأه يتطلع اليــه لا الى روما للحصول على راتبه أو ترقيته أو تسريحه . وفى وسعنا أن نعتبر الجمع الغفير الذى انضوى تحت لوائه جيشا من جيوش البحر المتوسط تحت قيادة رجل ايطالى الأصل ، أشبه بجيش هنيبال منه بالجيوش الرومانية القديمة المؤلفة من المواطنين والتى أحرزت روما بها السيادة على ايطاليا . وكان جيشا شبه محترف يدين بالولاء لقائده ، وليس لديه سوى فكرة غامضة عن الدولة التى كان من المفروض أنه خادمها . ومنذ ذلك الحين ظلت الجيوش الرومانيــة تتألف من أتبــاع لماريوس وسلا وبومبى وقيصر ، مما جعلها مصدرا من مصادر القلق والخطر المستمــر على

---

(١) بينما كان الكمبرى والتيوتون يطرقون أبواب ايطاليا الشمالية ، انشغلت روما أيضا باخماد عدة اضطرابات وقعت فى مناطق أخرى من الامبراطورية :

(أ) ففى سنة ١٠٤ نشبت ثورة خطيرة تعرف بحرب العبيد الثانية فى صقلية . وقد أوقع العبيد الهزيمة بالقوات الرومانية وسيطروا على المناطق الداخلية بالجزيرة وعرضوا المدن الصقلية لخطر المجاعة . وقد تزعم هذه الثورة رجلان أحدهما سالفيوس الذى لقب نفسه « الملك تريفون » فى جنوب الجزيرة ، والآخر فى غربها ، واسمه أثينيون (وهو من كيليكيا) . ولم تقمع ثورتهما الا بعد جهود شاقة فى عام ١٠١/١٠٠ على يد القنصل مانيوس أكويليوس . وأما ثورة العبيد الأولى فى صقلية (١٣٥ — ١٣٢) فقد أخمدها القنصــل روبيليوس عام ١٣٢ ونظم بعدها شئون الولاية ووضع لها دستورا .

(ب) وقبل نهاية حرب العبيد فى صقلية واجهت روما خطرا آخر وهو خطر القرصنة التى استفحل أمرها فى البحر المتوسط منذ انهيار قوة رودس البحرية عقب الحــرب المقدونية الثانية ، اذ أن روما لم تهتم بالاحتفاظ بأسطول كاف للقيام بأعمال الحراسة

=

الدولة ، وان كانت فى الوقت نفسه أجهزة رائعة للقتال كفيلة بتأمين حدود الامبراطورية . واستمر الأمر كذلك الى أن أحيا أغسطس فى نفوس الرومان من جديد الشعور بالواجب نحو الدولة .

تريبونية جلاوكيا وساتورنينوس

وقد أساءت الحرب مع يوجورتا الى سمعة حزب السناتو الذى عرف باسم الحزب الارستقراطى (Opimates) وقللت من هيبته . وزاد من تزعزع مركزه الهزائم التى منى بها قواد هذا الحزب فى أثناء غزوات الكيمرى والتيوتون . وقد شجع ذلك زعماء الحزب الشعبى أو الديمقراطى (Populares) على شن سلسلة من الهجمات على حزب السناتو مستندين الى تأييد ماريوس والتفاف الشعب حوله والفرسان. فاستصدر جلاوكيا (C. Servilius Glaucia) — وهو أحد نقباء العامة المتطرفين فى سنة ١٠٤ (أو ١٠١ ؟) قانونا يعرف بقانون سرفيليوس (lex Servilia de repetundis) يقضى بالغاء قانون آخر كان قد صدر بايعاز من القنصل كاييبو وتحت ضغط السناتو باحلال محلفين من طبقة السناتو محل المحلفين من طبقة الفرسان فى المحاكم المختصة بقضايا الابتزاز . واستصدر نقيب آخر فى نفس السنة (١٠٤) قانونا يعرف بقانون دوميتيوس (lex Domitia de sacerdotiis) يهدف الى اضعاف

فى البحر بعد ان قضت على اعدائها وكان القراصنة فى الوقت نفسه تجار رقيق يشتغلون باختطاف الناس من شواطىء البحر وبخاصة فى الشرق ويسترقونهم ويزودون بهم سوق النخاسة العالى بجزيرة ديلوس . وكان كبار الرومان يغمضون اعينهم عن هذه التجارة لاحتياجهم الى الرقيق فى ضياعهم الواسعة . غير ان اعمال السلب والنهب الجريئة التى قام بها القراصنة اخيرا بلغت من الخطورة حدا لم يكن من المستطاع تجاهله او السكوت عليه . ولذلك منح البريتور ماركوس انطونيوس (M. Antonius) فى ١٠٢ — ١٠٠ سلطة حربية بروقنصلية للقضاء على معاقل القراصنة وأوكارهم وبخاصة فى غرب كيليكيا وبامفوليا . ومع هذا فان الخطر لم ينقشع تماما وظل جاثما عدة سنوات .

(ج) واضطرت روما الى مواجهة أخطار ثورات نشبت فى أسبانيا فى فترات متقطعة حتى ٩٥ ، واخطار غارات البرابرة المستمرة من طرافيا على ولايتى مقدونيا والليريكوم .

سيطرة الاشراف على المجالس الكهنوتية وذلك بجعل انتخاب الكهنة يتم عن طريق القبائل لا عن طريق المجالس الدينية . وفى ١٠٣ استطاع نقيب ثالث وهو ساتورنينوس (L. Appuleius Saturninus) ادانة كاييبو وماالليوس — وهما من أنصار السناتو — المسئولين عن هزيمة آراوسيو وذلك بمقتضى قانون استصدره بتأليف محكمة لمحاكمة الاشخاص المتهمين بالخيانة (١) ، ويعرف بقانون أبوليئوس (lex Appuleia de maiestate) واحتضن فى نفس العام أو فى تريبيونيته الثانية عام ١٠٠ قانونا يقضى بالعودة الى بيع الغلال بسعر أقل من سعر السوق ، وهو قانون كان قد توقف العمل به بعد موت جايوس جراكوس . ولاسترضاء ماريوس تبنى ساتورنينوس — برغم اعتراض بعض النقباء — قانونا آخر بمنح حصص زراعية فى ولاية أفريقيا لجنوده القدماء بمعدل ١٠٠ فدان رومانى لكل واحد منهم .

وترتب على هذه التشريعات أن تألفت جبهة شعبية من ماريوس وجلاوكيا وساتورنينوس كان الغرض منها تأييد ترشيح ماريوس للقنصلية السادسة فى عام ١٠٠ ، وترشيح جلاوكيا للبريتورية وساتورنيوس للتريبيونية الثانية ، ونجح الثلاثة فى الانتخابات ، ولكنهم لم يضعوا برنامجا سياسيا محددا سوى السيطرة على الجمعية القبلية لاصدار مشروعات متطرفة تشبع نزوات الغوغاء . غير أن أحد هذه المشروعات وهو الخاص بانشاء مستعمرات للمحاربين القدماء تتمتع بالحقوق اللاتينية فى صقلية وبلاد الاغريق ومقدونيا (وافريقيا ؟) لقى معارضة لا من جانب السناتو فحسب بل من جانب جمهور الناخبين الرومان فى المدينة ، لانه يسمح للحلفاء الايطاليين بالاشتراك فيها ويخوّل ماريوس سلطة منح الجنسية الرومانية لبعض الافراد المشتركين فى المستعمرات المقترحة . وتقدم ساتورنينوس بمشروع قانون آخر بتوزيع أراضى الكمبرى فى بلاد الغال على فقراء الرومان ، وكان يتضمن بندا بالزام أعضاء السناتو بحلف اليمين على اطاعته خلال خمسة أيام

---

(١) كلمة maiestas معناها الحرفى هيبة او جلال أو سلطات أو سلطة والخيانة عند الرومان هى الانتقاص من هيبة أو سلطة

بعد صدوره والا فقدوا مقاعدهم فى المجلس ودفعوا غرامة قدرها ٢٠ تالنتا . هذا المشروع الذى تم التصديق عليه وسط جو مشحون بالعنف وفى غياب الطوالع الحسنة ، حمل ميتيللوس « قاهر نوميديا » على الرحيل عن روما . وأعقبه اقتراح لساتورنينوس بمطالبة ماريوس « بحرمان ميتيلوس « النوميدى » من الماء والنار (aquae et ignis interdictio) أى نفيه مع تجريده من حق المواطنة ومصادرة أملاكه ، وتعرضه فى حالة عودته الى روما دون اذن لحرمانه من حماية القانون واستباحة دمه . ذلك لأنه حاول كرقيب فى عام ١٠٢ حذف اسم جلاوكيا وساتورنينوس من قائمة أعضاء السناتو . كما أن هـــذا النقيب التجأ الى العنف فى أثناء الانتخابات الخاصة بالتريبونية واستغل محاربى جيش ماريوس القدماء للقضاء على المعارضة . والواقع أن ماريوس نفسه لم ينظر بعين الارتياح الى سلوك زميليه المشوب بالعنف . وعندما لم يستمعا الى نصحه توترت علاقته معهما فتصدعت الجبهة الشعبية . على أن هذه الاعتبارات لم تثن الزعيمين ساتورنينوس وجلاوكيا عن ترشيح نفسيهما فى الانتخابات لعام ٩٩ . وقد أعيد انتخاب الأول للتريبونية للمرة الثالثة واما الثانى وهو جلاوكيا فانه الى جانب عدم شرعية ترشيحه ، لم يستطع التغلب على ممبيوس ، وهو منافسه فى القنصلية ، الا باغتياله مما أثار سخط الرأى العام عليه . واشتدت مخاوف طبقة الفرسان فتخلت عن مناصرة الحزب الديمقراطى وتألبت عليه . وعندئذ أصدر السناتو قراره النهـائى (Senatus consultum ultimum) ودعا ماريوس وزميله القنصل الآخر لاقـرار النظام وحماية سلامة الدولة ، فحاصر الزعيمين وأنصـارهما المعتصمين فـوق الكابيتول حتى استسلما، وتحفظ ماريوس عليهما فى قاعة مجلس الشيوخ (Curia Hostilia) بالسوق العامة توطئة لمحاكمتهما ولكن الجماهير هاجمت مكان اعتقالهما وقتلتهما فى العاشر من ديسمبر عام ١٠٠ (وهو اليوم الأول لتسلم مقاليد منصب التريبونية لعام ٩٩) .

= أو كرامة وشرف الشعب الرومانى maiestas minuta
وهو مصطلح مبهم ويشمل أى نشاط معاد للدولة .

وقد دمرت منازلهما وصودرت ممتلكاتهما وألغى من تشريعاتهما ماصدر عن طريق العنف (per vim)

وقد أضعفت هذه الحوادث مركز ماريوس وأدت الى أفول نجمه السياسى فترة من الزمن . فقد عجز عن السيطرة على أنصاره وعن حمايتهم من غضب الشعب عندما وضعهم تحت الحراسة . وأخفق القائد العسكرى القدير كزعيم سياسى . ولم يعد السناتو يخشاه ولم تعد العامة تحترمه . هكذا خرج السناتو من المعمعة ظافرا وانشق الحزب الديمقراطى على نفسه وساءت سمعته . واحتفل حزب السناتو بانتصاره فبدأ سلسلة من المحاكمات انتهت بادانة بعض أنصار الحزب الديمقراطى. وصدر قانون يقضى ببطلان ادماج مسائل غير مرتبطة فى مشروع واحد وضرورة انقضاء مدة لا تقل عن ١٧ يوما (trinum nundinum) (١) بين الاعلان الرسمى عن مشروع معين وبين الاقتراع عليه ، هذا القانون الذى عرف بقانون كايكيكليوس وديديوس (lex Caecilia Didia) نسبة الى عشيرتى القنصلين فى عام ٩٨ . كان القصد منه الحيلولة دون احتمال تضافر الفرسان والعامة وتخويل السناتو مهلة يحتاط فيها فلا يفاجأ بمشروعات لاتتفق ورغبته .

سُلاّ

الحرب الايطالية

هذا الجيش — جيش ماريوس (٢) — الذى كان الجنود يخدمون فيه فترات طويلة ؛ خلق لروما مشكلة ثانية وعرضها بطريق غير مباشر لخطر جسيم آخر . كانت المشكلة تتمثل فى الجنود المسرحين وموقف

---

(١) هذه العبارة معناها كل سوق ثالث اى حتى يوم السوق الثالث . ويوم السوق (nundinae = nundinum) عند الرومان هو اليوم التاسع لانه يحل بعد مرور الاسبوع المكون من ثمانية أيام . وقد تمتد المدة المشار اليها فى الذن الى ٢٤ يوما .

(٢) جعل ماريوس من جيشه اداة مرنه سريعة الحركة والتنقل ، ومعتمدة على نفسها لانه جعل الجنود يحملون كل متاعهم وادواتهم على ظهورهم ، ومن ثم فقد أطلق عليهم على سبيل الفكاهة « بغال ماريوس muli Mariani » .

الحكومة منهم وما ينبغى أن تصنع لهم عندما يعودون الى الوطن بعد سنوات من الخدمة فى جهات نائية . فكثير منهم ، وربما معظمهم ، لم يكن لديهم بيـوت يأوون اليها . وكان من البـديهى أن يطالب المحاربون القدماء (veterani) بمستعمرات يقيمون فيها بصفة دائمة . لكن السناتو لم يحرك ساكنا ، ولم يكن فى مقدور القائد بدون تعاون السناتو أن يفعل شيئا حيال هذه المشكلة . وترتب على ذلك أن نزح كثير منهم الى العاصمة المكتظة بالسكان سعيا وراء الرزق بشتى السبل ، معتمدين على القمح الذى كانت السلطات توزعه بأسعار زهيدة . وكان بين هؤلاء الجنود بلا ريب نفر من غير المواطنين لا يسمح لهم القانون بالتصويت فى الانتخابات أو الاقتراع على المشروعات فى الجمعيات التشريعية ، ولا يكفل لاشخاصهم أو ممتلكاتهم الحماية الكافية ، وذلك على الرغم من خدمتهم الطويلة فى الجيش . وقد بدأ هؤلاء الناس يقحمون أنفسهم كناخبين ، ويزاولون حقوق الجنسية بالباطل . ولم يكن ثمة سبيـل الى اكتشاف أمرهم نظرا لما كان يسود السجلات من فوضى واضطراب . وأخيرا اتضح بجلاء أن مجموعة المواطنين أصبحت تضم عناصر غريبة ، فأصـدر القنصـلان اللذان توليا الحـكم فى سـنة ٩٥ قانونا (lex Licinia-Mucia) للتمييز والفصل بين المواطنين وغير المواطنين وطرد الايطاليين المستوطنين بروما من العاصمة واعادتهم الى مواطنهم الأصلية .

لكن الأوان كان قد فات لاتخاذ مثل هذه الخطوة التى ذاع نبأها فى جميع أنحاء ايطاليا حيث فسرت بأنها محاولة مقصودة لمنع الايطاليين من الحصول على الجنسية الرومانية (civitas) . لكن سرعان ما وجد الايطاليون نصيرا لهم بين الرومان ، فقد حدث أن كان بين الفائزين بنقابة العامة لسنة ٩١ رجل يدعى ليفيوس دروسوس (M. Livius Drusus) وهو ابن نقيب العامة خصم جايوس جراكوس وحليف السناتو الذى يحمل نفس الاسم[1] . وبدا الابن فى أول الأمر كأنه سيقتدى بأبيه ويكون

---

(1) راجع ص ٣٢ فيما تقدم ، وجدير بالذكر أن الابن هو جد ليفيا (دروسيلا) التى تزوجها اكتافيانوس (اغسطس) فى عام ٣٩ .

أداة فى السناتو . غير أن ليفيوس دروسوس كان — رغم أرستقراطيته وثرائه وتجربته — على نقيض أبيه رجلا واسع الأفق ، ذا نزعة واضحة الى الاصلاح (١) . لذلك وضع برنامجا هادفا به الى التوفيق بين مصالح الطبقات وكسب تأييدها له ، فاقترح مشروعا لتوزيع الأراضى على العامة واضعا نفسه عضوا فى لجنة التوزيع ، ومشروعا آخر ببيع القمح لهم بثمن رخص . ولعله — اقتداء بجايوس جراكوس — اقترح اضافة ٣٠٠ عضو من طبقة الفرسان الى مجلس الشيوخ الرومانى ، واختيار هيئة المحلفين لمحاكم الابتزاز من المجلس بعد توسيع دائرته على أن تشتمل الهيئة على عدد من أعضاء السناتو مساو لعدد الفرسان . وأضاف الى ذلك بندا يقضى بسريان قانون رفع دعوى الرشوة على المحلفين من الفرسان لكن هذه المشروعات التقدمية لم يتحقق منها الا القليـــــل ، وحتى هذا القليل طعن فى شرعيته لمخالفته لقـــانون كايكيليوس وديديوس . غير أن كل الطبقات خذلته وباء بالفشل لاربع مشروعه لمنح الجنسية الرومانية للإيطاليين الذين تواترت الشائعات بأنه متواطئ معهم ضد الرومان (٢) . وفى ذات يوم اغتالته يد عميل مجهول . وهكذا انتهت آخـــر محاولة يقوم بها رجل سياسى لاصلاح أداة الحـــكم بالوسائل السلمية (٣) . وأعقب اغتياله مباشرة نشوب الثورة الايطالية التى لم يـ

---

(١) من الواضح ان دروسوس لم يكن يهدف الى تقويض نفوذ السناتو بقدر ماكان يريد تنبيه السناتو الى ضرورة الاصلاح تفاديا للخطر قبل وقوعه . فقد لقى مساندة كبيرة من بعض رجال السناتو المحـــافظين من امثال ليكينيوس كراسوس ، الخطيب الشهير ، وايميليوس سكاوروس ، رئيس السناتو . ولكنه لقى معارضة شديدة من جانب لوكيوس ماركيوس فيليپوس ، قنصل عام ٩١ ، ومن الفرسـان ، وبعض الإيطاليين ، وماريوس .

(٢) الامر غامض : فقد افشى دروسوس للقنصلين سر مؤامرة ايطالية لاغتيالهما مما يدل على عدم استعداده ليقود الايطاليين فى ثورة ضد بلده ، ولكنه يدل على مدى اتصاله الوثيق بهم واطلاعه على خططهم . وفى الحق انه كان يستضيف بعض زعمائهم بمنزله فى روما .

(٣) لم يترك اصدقاء دروسوس « الاصغر » وشأنهم من بعده ، اذ استصدر نقيب للعامة يدعى قاريوس هويريدا فى آخر السنة (٩١) قانونا (lex Varia de maiestate) بتشكيل محكمة من الفرسان لمحاكمة كل من تثور حوله شبهة التواطؤ مع الايطاليين . واسفر التحقيق عن إبعاد عدد من اقطاب الرومان . ومن سخرية القدر ان مقترح القانون نفسه وقع فى شراكه وادين بمقتضاه بتهمة الخيانة maiestas وحكم عليه بالنفى عام ٨٩ ، ربما بعد صدور قانون بلاوتيوس بتعديل تشكيل هيئة محلفى المحكمة .

هناك محيص عنها ، والتي لا يستبعد أن التفكير فيها استغرق مـدة طويلة . كانت الحرب الاجتماعية [1] (٩٠ — ٨٨) — كما تسمى أحيانا (وهى فى الواقـع حرب أهلية) — أزمة فى تاريخ تطور الحضـارة الأوروبية . وما ان وضعت أوزارها حتى كانت دولة المدينة الاغريقية والرومانية قد زالت من ايطاليا ، وحل مكانها نظام جديد للدولة لم يكن له اسم وقتئذ .

وقد أوجس السناتو الرومانى خيفة من انتشار التذمر فى ايطاليا فأوفد مندوبين الى مختلف أنحائها لمراقبة تطورات الموقف . وحدث فى مدينة أسكولوم Asculum (باقليم بيكينوم) ان ظن الشعب أن خطته قد انكشفت فتوترت أعصابه فهاجم بريتورا رومانيا زائرا ارعن التصرف ، وقتله هو وجميع الرومان الموجودين بالمدينة . وحضر الى روما وفد يمثل الحلفاء الايطاليين ليحتج على سوء معاملة روما لهم فى الماضى . غير أن السناتو رفض الاستماع الى الوفد ما لم يُقدِّم تعويض كاف عن أرواح حادثة أسكولوم . وتلبد الجو بالغيوم والتهبت المشاعر وتعذر التفاهم . لقد استقر عزم سكان جبال پيكينوم وسمنيوم على القتال للظفر بالاستقلال ، واتفق كل من الطرفين شتاء عام ٩١/٩٠ فى الاستعداد للحرب .

ولقد ذكرت أن الصراع الذى نشب يعرف أحيانا باسم الحـرب الاجتماعية (بمعنى حرب الحلفاء socii) . غير أن هذه التسمية مضللة لأنها تحجب حقيقة بالغة الأهمية : وهى أن الحلفاء اللاتين لم ينضموا الى الثورة ، بل بقوا جميعا — باستثناء مستعمرة ڤينوسيا —

---

(١) تعرف هذه الحرب خطأ باسم « الحرب الاجتماعية » (Social War) لكنها كانت حربا ضد الحلفاء المسمون فى اللاتينية socii ، ولذلك يكون من الاصوب تسميتها « بحرب الحلفاء » ، ولو أنها تنسب عادة الى شعب ايطالى واحد وهم المارسيون (Marsi) فاشتهرت ايضا باسم « الحرب المارسية » .

موالين للرومان (١) . واذا كان اللاتين لمجرد حصولهم على امتيازات أكثر من سواهم قد امتنعوا عن مقاتلة الرومان ، فما الذى دفع بسائر الحلفاء الايطاليين الى التطرف والعنف والثورة (٢) . ولا يجادل أحد فى أنه كانت للايطاليين شكاوى ومظالم . لكن لماذا استبدت بهم الرغبة فى الحصول على الجنسية الرومانية ؟ ما الذى كانوا يفيدونه من ورائها ؟ ان عددا قليلا منهم هو الذى كان بوسعه ان يتكبد مشاق السفر ونفقاته الى روما بصفة منتظمة ليمارس حقه السياسى فى الاقتراع على القوانين والتصويت فى الانتخابات ، وعددا أقل هو الذى كان يمكنه أن يشق طريقه الى الطبقة الارستقراطية الرومانية التى كانت شبه مغلقة ومقصورة على الحكام . كان الايطاليون فى أول الأمر — على أيام الأخوين جراكوس — يطمعون — على ما يبدو — فى الحماية القانونية التى تسبغها عليهم الجنسية الرومانية من ظلم الحكام الرومان واستغلالهم . وربما كان يرضيهم مجرد الحصول على حق التظلم من أحكامهم (المسمى ius provocationis) . لكن اصرار الرومان على رفض مطالبهم باستمرار

---

(١) يمكن تفسير ولاء المدن اللاتينية لروما تفسيرا جزئيا بان حكامها المحليين كانوا يمنحون الجنسية ربما منذ عام ١٢٤ . ولما كانوا يتغيرون سنويا ، فقد أصبحت نواة الطبقة الحاكمة فى كل من هذه المدن رومانية على مر الزمن ، وبالتالى كانت قد أصبحت موالية للرومان ساعة قيام الحرب فى عام ٩١ .

(٢) لا يوجد دليل كاف على وجود انقسام فى الولاء للثورة داخل المدن الايطالية لاسباب اجتماعية واقتصادية . لكن ربما يوجد ما يبرر الرأى القائل بان الارستقراطيات المحلية فى هذه المدن كانت أكثر ولاء لروما ، وأن الطبقات المتوسطة فى الريف الايطالى كانت هى نواة الثورة . وفى رأى باحث حديث أن طبقات التجار فى المدن الايطالية كانت أكثر من غيرها تذمرا لعدم تكافؤ فرصها مع المواطنين الرومان اثناء ممارستهم أعمالهم التجارية فى الخارج . ومن المسلم به أن التجار الايطاليين كانوا يساهمون فى استغلال الولايات الرومانية ؛ غير أن هؤلاء التجار كانوا من سكان كمبانيا والاقاليم الجنوبية لا من سكان منطقة الابنين الوسطى (الاوسكية) التى كانت بمثابة القلب النابض للثورة . وعن هذا الموضوع راجع :

E. Gabba, Athenaeum (1954), 3-129.
E. Badian, Foreign Clientelae (1958), 220 ff.

وإخفاق محاولات المصلحين من أنصارهم ، بدد آمالهم وزادهم احساسا بالتفاوت بين وضعهم السياسى والاجتماعى ووضع الرومان . ان روما ما كانت لتبلغ أبدا ما بلغته من مركز مرموق دون مساعدتهم . فلماذا لا يعامل الايطاليون معاملة الرومان ويتساوون بهم ؟ لقد حطمت روما باهمالها شكاواهم المشروعة (المترتبة مثلا على قوانين كقوانين الاصلاح الزراعى وغيرها)[1] روحهم المعنوية وجرحت كبرياءهم أكثر مما أضرت بمصالحهم المادية . لقد أحسوا بخيبة مساعيهم وانخداعهم فتملكهم اليأس ونفد صبرهم فجأة . وازاء انكار حقهم فى المساواة فقد وطدوا العزم على المقاتلة من أجل الاستقلال . ويتبين من العنف الذى اتسمت به المعارك مدى عمق شعورهم باليأس والكراهية .

كان سكان جبال الأبنين فى وسط ايطاليا هم عصب الثورة . وكانوا يشتملون على جماعتين أو شعبين رئيسيين وهما شعب المارسين (Marsi) فى الشمال (ومن هنا تأتى تسمية هذه الحرب بالحرب المارسية) وشعب السمنيين (Samnites) فى الجنوب . ولدينا عملة مرسوم عليها صورة ثمانية محاربين يؤدون القسم ، ولعلهم يمثلون الجماعات أو الشعوب الايطالية الأخرى التى اشتركت فى الثورة . وجدير بالذكر أن اللاتين لم ينحازوا الى الثوار باستثناء مستعمرة ڤينوسيا . وبقيت لاتيوم وشمال كمپانيا على ولائها للرومان . ولم يتلق الثوار أى مساعدة من اتروريا أو أومبريا فى مستهل الحرب . كما ظلت كلابريا وبروتيوم فى البداية بمنأى عن الحرب . لكن لم يلبث الثوار أن وجدوا أنصارا لهم فى جنوب كمبانيا ، ولوكانيا ، وأپوليا . وأقدمت هذه الشعوب الايطالية (Italici) على خطوة جريئة تجاوزت بها الأغراض العسكرية وكشفت عن أهدافها البعيدة ، فأقامت حكومة مناوئة لروما ، وهى خطوة كانت كفيلة ، لو حالفها النجاح ، أن تشل جهود روما سواء لخير العالم أو شره . وسرعان ما تبين أنهم ليسوا مجرد عصبة من الثوار المتضافرين على تدمير روما ، بل اتحاد قوى هدفه

(١) يلاحظ ان بعض الايطاليين لم يكونوا مستعدين للتنازل عن الاراضى العامة التى احتازوها بوضع اليد كثمن لحصولهم على الجنسية الرومانية .

تأسيس دولة مستقلة . واختار الايطاليون مدينة كورفينيوم (Corfinium) التى تقع فى قلب الابنين (بأراضى شعب اليايلجنى) على بعد حوالى مائة ميل الى الشرق من روما ، وأطلقوا عليها اسما جديدا له دلالته ، وهو « ايطاليا » (Italia) ، وجعلوها ، كمدينة واشنطون اليوم ، عاصمة لاتحاد فيدرالى حيث كان يجتمع مندوبو مدن الاتحاد فى شكل مجلس للشيوخ (سناتو) برئاسة قنصلين يعاونهما ثمانية حكام قضائيين (بريتوريس) أى على نسق النظام الرومانى (١) . ولم يلبث الاتحاد الايطالى أن حشد للمعركة مالا يقل عن ١٠٠٠٠٠ جندى متأهبين لخوض المعركة ضد الرومان . وتولى سيلو (Silo) قيادة المارسيين فى الشمال . وتولى بابيوس (Papius) قيادة السمنيين فى الجنوب . ووضع تحت امرة كل منهما ستة ضباط يقود كل منهم قسما من القوات .

وسك الاتحاد فئات خاصة من العملة لدفع رواتب الجند ، وهو ما ساعد أيضا على توحيد الصفوف ودعم القضية والدعاية لها . ورسمت على النقود صور لجماعات من المحاربين وهم يؤدون يمين الولاء ، وصورة رمزية تمثل « ايطاليا » ، وأخرى « للثور الايطالى » وهو ينطح « الذئب الرومانى » بقرنيه ، ودونت عليها أسماء القواد باللاتينية أو الأوسكية . لقد كان الايطاليون قوما شديدى المراس . وكان كثير منهم قد خدموا فى الجيوش الرومانية من قبل واكتسبوا خبرة . وثمت بعض قرائن تشير الى أنهم تلقوا وعدا بالمساعدة من مثراداتيس السادس ملك بنطوس . هكذا تلبدت سماء ايطاليا بالغيوم . وأدركت روما وقتئذ — بعد فوات الأوان — ان سياستها المنطوية على الأثرة والجحود قد أثارت عليها زوبعة قد تعصف بها . ولولا موقعها الممتاز ، وكفاءة

---

(١) فى الحق ان معلوماتنا شحيحة ولذلك تختلف الآراء فى صورة هذا الاتحاد الذى يبدو انه كان اتحادا كونفدراليا . لعله كان نموذجا من النظام الرومانى ، أو فى شكل حكومة نيابية لم حلف ثنائى محوره المارسيون والسمنيون ، أو حلف عسكرى فى المحل الاول .

قوادها ، وتلويحها بالجنسية للثوار ، لدمرتها الثورة الايطالية تدميرا . لقد ظهرت عندئذ ميزة موقع روما الاستراتيجى فاستطاعت أن تضرب خصومها فى أى اتجاه من خطوطها الداخلية وهى آمنة من أى هجـوم أو حصار من ناحية البحر . ولم يكن لمدينة كورفينيوم مثل هذه الميزة الطبيعية ، ولا كان لديها السلطة للتحكم فى قوات مدن الاتحاد . ومع هذا فقد انتصر الايطاليون فترة من الزمن فى الميدان . وظلت روما مهددة بأشد الأخطار عاما كاملا .

كان القنصلان الرومانيان لعام ٩٠ قد توليا القيادة فى مسرحى الحرب الرئيسيين ، الشمالى والجنوبى . غير أن القيادة فى الشـمال آلت الى ماريوس بعد الهزائم الأولية ومصرع القنصـل ، واستطاع انقاذ الموقف بضرب المارسيين . وأما فى الجنوب حيث كان سلا ضمن أركان حرب القائد العام فقد منى الرومان ، الى جانب وقوع آيسرنيا (Aesernia) القلعة الحصينة فى يد الثوار ، بهزائم فى مناطق كثيرة مثل كمپانيا وأپوليا ولوكانيا . وفى مستهل العام التالى (٨٩) آلت قيادة الجبهة الشمالية الى پومپيوس سترابون ، كما آلت القيادة فى الجبهة الجنوبية الى سلا نفسه . وشدد استرابون الحصار على مدينة أسكولوم (Asculum) فى اقليم پيكينوم ، وهـو حصار كان قد بدأه فى العام السابق ، وأنزل الهزيمة بالجيش الايطالى البالغ عدده حوالى ٦٠٫٠٠٠ والذى جاء لنجدة المدينة على أمل التدفق بعـد انقاذها الى أومبريا واتروريا . ولم تلبث أسكولوم أن سقطت فى يده قرب نهاية عام ٨٩ ، وبدأت الثورة تخمد فى الشمال ، وفر قائدها « سيلو » الى الجنوب ، وهجرت « ايطاليا » عاصمة الاتحاد الفيدرالى . وفى ذلك الوقت كان سلا قد انقلب من الدفاع الى الهجوم ودحر جيشا للسمنيين كان يحاول نجدة مدينة پومپيى (Pompeii) ، واسترد بعض مدن كمپانيا الأخرى ، وأرغم « پاپيوس » ، القائد الايطالى فى الجنوب على الالتجاء الى

آيسرنيا . وزحف سلا الى جنوب سمنيوم حيث استولى على مركز القيادة العامة فى بوفيانوم القديمة (Bovianum vetus) التى لا تبعد كثيرا عن بنيفنتوم . وتركزت مقاومة الايطاليين فى اقليم سمنيوم وحده حيث اتخذوا من آيسرنيا مركزا جديدا للقيادة العامة ، وحاول «سيلو» تعبئة قوات جديدة ، وأوشك أن يسترد بوفيانوم ، كما استنجد من يأسه بمثراداتيس ملك پنطوس . غير أنه سرعان ما دمر الرومان جيشه ، وحطموا مراكز المقاومة الأخرى فى أپوليا وجنوب ايطاليا . ولم يستمر فى المقاومة حتى الرمق الأخير سوى مدينة نولا (Nola) باقليم كمپانيا .

غير أن الحرب لم تكن لتضع أوزارها بسرعة فى الميدان العسكرى لولا أن روما سلمت فى الميدان السياسى بالمطلب الذى حمل الايطاليون السلاح من أجله . لقد ظهرت فى نهاية عام ٨٩ بوادر تدل على أن الاتروريين والأومبريين القاطنين فى شمال روما وشرقها قد ينحازون الى جانب الثوار . ولو حدث ذلك لأرغمت روما على أن تقف لأول مرة موقف الدفاع بعد أن يطبق عليها الأعداء من ثلاث جهات . غير أن تسليم روما بمطلب الايطاليين حال دون انتشار الثورة ، وأدى الى تصدع جبهة الحلفاء وانسحاب فريق كبير منهم من ميدان القتال . ولقد أصدرت الحكومة من فورها قانونا بمنح الجنسية الرومانية الثمينة لجميع من لم يشهروا فى وجهها السلاح ، متخذة بذلك أول خطوة فى الطريق الذى انتهى خلال سنوات قليلة بأن صارت جميع ايطاليا رومانية فى نظر القانون ،بل لانجانب الصواب كثيرا اذا قلنا أنه انتهى بأن صارت روما ايطالية . وينبغى أن نعتبر شبه الجزيرة بأسرها منذ ذلك الحين بمثابة الدعامة التى ارتكزت عليها حضارة البحر المتوسط .

ففى أواخر عام ٩٠ صدر « قانون يوليوس» (lex Iulia de civitate)[٣]

وهو يقضى بمنح الجنسية الرومانيـة لجميع الحلفاء اللاتين المتمتعين بما يعرف بالحقوق اللاتينية (ius Latii) ، لأنهم وقفوا الى جانب روما ، ومنح الجنسية لجميع الحلفاء الايطاليين الذين لم يشهروا السلاح فى وجهها (١) .

وفى ٨٩ صدر قانون تكميلى يعرف بقانون "بلاوتيوس-بابيريوس" (lex Plautia-Papiria) نسبة الى نقيبين من نقباء العامة وهــو يقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع الايطاليين الذين يتقدمون بطلباتهم الى بريتور الأجانب فى روما خــلال ستين يوما من تاريخ صــدور القانون (٢) .

وفى نفس السنة (٨٩) صدر قانون بومبيوس" (lex Pompeia) (نسبة الى القنصل بومبيوس سترابون) وهو يقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع قبائل ولاية غالة القريبة (Gallia Cisalpina) القاطنة بجنوب نهر البو ، ومنح « الحقوق اللاتينية » للقبائل القاطنة بشمال ذلك النهر (٣) .

---

(١) كما خوّل القواد الرومان منح الجنسية الرومانية للافراد غير الرومانيين مكافأة لهم على الخدمة الممتازة فى المعارك الى جانب الرومان (راجع النقش الهـــام ILS, 8888 حيث يكافىء بومبيوس سترابون بعض الخياله الاسبانيين الذين خــدموا تحت قيــادته بالجنسية الرومانية (وكان مجلس استرابون العسكرى يضم حينئذ ليبدوس ، قنصــل سنة ٧٨ فيما بعد ، وكتيلينا ، صاحب المؤامرة المشهورة عام ٦٤ ، وابنه بومبى الذى سيلقب بالكبير أو العظيم Pompeius Magnus) .

(٢) لعل المقصود بذلك هم الافراد الايطاليون الذين لم تقبل حكوماتهم العرض الرومانى وفقا لقانون يوليوس ، والافراد الذين كانت حكوماتهم لاتزال فى حالة حرب ضد روما . او لعله لم يأت بمبدأ جديد بل كان مجرد قانون تكميلى القصد منه اباحة فرصة الحصول على الجنسيه لمن كانوا غير مقيمين فى مدنهم عندما منحت الجنسيــة لها بمقتضى قانون يوليوس .

(٣) فى رأى حديث ان قانون بومبيوس كان يسرى على كل غالة القريبــة ، ويمنح الجنسية الرومانية لكل المستعمرات اللاتينية ، والحقوق اللاتينية للمدن الغالية (oppida) . ومن ثم فان بعض الباحثين يرجعون الآن الى رأى سبق أن قال به

=

وبذلك حصل الحلفاء بعد خسائر جسيمة فى الأرواح ، وخسائر اقتصادية فادحة [١] على الجنسية الرومانية وهى حق كان ينبغى أن يمنح لهم منذ أمد طويل ، ولكن النعرة القومية والعصبية الحزبية كانتا تحولان دون ذلك . وقد بقى أثر هذه الانانية فى طريقة تسجيل المواطنين الجدد بين القدامى ، اذ سجلت أسماؤهم فى ٨ أو ١٠ قبائل فقط من الـ ٣٥ قبيلة ، وذلك للحد من تأثيرهم فى الجمعيات التشريعية . وكان من الطبيعى أن يتذمر المواطنون الجدد من هذا الوضع حتى غدت مشكلة توزيع أسمائهم بين جميع القبائل الرومانية مشكلة هامة فى السياسة الرومانية ، ولكنها حلت فيما بعد . ومع هذا فان جميع الايطاليين تقريبا أصبحوا مواطنين رومانا ، وبمرور الزمن اندمجت العناصر العرقية المتباينة فى أمة واحدة . ولما كان من المستحيل على حكومة روما أن تهيمن على الادارة المحلية فى جميع البلاد الايطالية ، فقد نظمت المدن الايطالية على غرار « بلديات » (municipia) أى بلاد تتمتع بالحكم الذاتى ، يتولى الادارة المحلية فيها مجلس يعرف بمجلس الاربعة (quattuorviri) يقوم مواطنو البلدة بانتخاب أعضائه . وبفضل العمل بالقانون الرومانى العام والخاص انتشرت اللغة اللاتينية فى هذه البلاد وانمحت اللهجات المحلية بالتدريج ونشأت حضارة متجانسة تقوم على أساس جنسية مشتركة . لقد أصبحت روما فى نظر جميع

الاستاذ هاردى (JRS, 16, p. 66) وهو ان غالة القريبة نظمت كولاية (provincia) فى سنة ٨٩ تحت ظل هذا القانون ، وليس على يد سلا فى عام ٨١ .

وجدير بالذكر ان الثوار الايطاليين وبخاصة السمنيين اعداء روما الالداء واللوكانيين الذين لم يقبلوا العرض الرومانى الخاص بالجنسية فى سنتى ٩٠ ، ٨٩ اصبحوا بمثابة (dediticii) أى « مستسلمين » عندما استسلموا للرومان فى النهاية دون قيد او شرط . ومن المرجح ان السناتو منحهم الجنسية الرومانية بعد ذلك بقليل اثناء فترة الصراع الحزبى بايعاز من كنا (Cinna) عام ٨٧ .

[١] ترتبت على الحرب آثار اقتصادية خطيرة ، اذ تدهورت احوال كثير من الناس وتهددهم الخراب وافلسوا واضطروا الى الاستدانة من المرابين الذين اخذوا يطاردونهم . وانقص وزن العملة ، واصبح الآس يزن نصف اوقية فقط .

الايطاليين على اختلاف أجناسهم (Italici) [١] واللاتينيين وطنـا مشتركا (communis patria) [٢] .

وكان من المتوقع بعد حدوث هذا التغيير الكبير أن يعود السـلام والوئام الى ايطاليا . غير أن ايطاليا ، على النقيض من ذلك ، أقبلت على عصر من أحلك عصورها حتى أن خصوماتها المريرة التى حـدثت فى أواخر العصور الوسطى لم تبلغ فى فظاعتها ما بلغته على أيام ماريوس وسلا . وانه لمن العسير علينا تفسير ذلك ، بيد أننا قد نستطيع أن نتصور المسألة تصورا قريبا من الحق اذا استعرضنا ما سبق أن ذكرناه عن أسباب الانحلال الخلقى . لنتصور دولة شاسعة قوامها العبيد ، أنهكت قواها فى مجابهة الاخطار الداخلية والخارجية ، وأوهنها القتال المستمر ، قد سلمت مقاليدها فى آخر الأمر لقادة عسكريين أقوياء ، رهن اشارتهم جموع غفيرة من المحاربين القدماء . وكأن الدولة قد فقدت حقها فى مطالبة المواطنين بالولاء أو حتى بالاحترام ، وحل مكانها قادة متنافسون كانوا فى الوقت نفسه زعماء أحزاب سياسية ، أو بالأحرى حل مكانها فى تلك السـنوات زعيمان يستهدف كل منهما مصـالحه الشخصية ، أحدهما ماريوس زعيم الايطاليين والعامة الرومان ، وثانيهما سلا زعيم الحزب الارستقراطى القديم . وقد ضرب بجميع المبادىء الاخلاقيـة عرض الحائط فى غمـرة الاحقاد المستعرة بين الحزبين والخصـومة الشخصية بين الزعيمين . وحدث اذ ذاك أن أطل من ناحية الشرق شبح حرب جديدة . وحول قيادة هذه الحرب ــ وهى أسمى ما كان يطمح

---

(١) من غاليين واتروريين واومبريين وسابلليين واغريق.

(٢) انظر شيشرون ، كتاب القوانين (٢ ــ ٢ ــ ٥) :
omnibus municipalibus duas esse censeo patrias, unam naturae,, alteram civitatis.

اليه الطامحون وقتئذ — لاحتدم نزاع شديد بين الزعيمين لم تراع فيه مصلحة الدولة .

لكن ينبغى قبل المضى فى سرد قصة هذا النزاع المرير أن نلم بطرف من سيرة سلا لعلنا نضع أيدينا على جذور هذا النزاع . كان لوكيوس كورنيليوس سُلاّ Lucius Cornelius Sulla (١٣٨ — ٧٨) سليل أسرة تنتمى الى احدى العشائر الشريفة (patricii) التى لم تعد بمرور الزمن مشهورة أو ثرية . وقد خدم بوصفه كويستورا (quaestor) ثم نائبا عسكريا (legatus) ثم نائبا عسكريا مزودا بسلطة البريتور البديل (leg. pro praetore) تحت امرة ماريوس فى الحرب ضد يوجورتا (١٠٧ — ١٠٥) . واليه عزى الفضل فى الايقاع بالأمير النوميدى الذى استسلم له بعد انكساره . ولعل ذلك قد أوغر صدر ماريوس عليه ، وكان بداية المنافسة بينهما . لكنه استمر يخدم تحت قيادة ماريوس ثم كاتولوس فى حرب الكمبرى والتيوتون (١٠٤ — ١٠٢) . وتولى سلا البريتورية عام ٩٣ ، وعهد اليه السناتو ، بوصفه پرو بريتوراً فى عام ٩٢ أن يعيدأريوبارزانيس الى عرش كپادوكيا فى شرق آسيا الصغرى ، وكان قد طرده منه مثراداتيس ملك پنطوس . وأنجز سلا المهمة بنجاح ثم استقبل سفارة من پارثيا ترغب فى عقد محالفة مع الجمهورية . وعاد الى روما فى عام ٩١ . ونظرا لكفاءته وسمعته العسكرية بدأ الحزب الأرستقراطى يتطلع اليه كزعيم له . وبذلك جد عامل الخصومة الحزبية الى جانب الغيرة المهنية لكى يلهب نار العداوة الشخصية بينه وبين ماريوس . غير أن نشوب الحرب الايطالية فى عام ٩٠ حدا بهما الى تناسى الخصومة الشخصية أو كبتها مؤقتا . وقد قام الاثنان — على نحو ما رأينا — بدور فعال فى مقاتلة العدو المشترك . لكن بينما كان ماريوس قد بدأ يطعن فى السن (حتى أنه أغفل أو نحى فى السنة الثانية من الحرب الايطالية) ، كان سلا فى أوج نشاطه قادرا على احراز انتصارات كبيرة وبخاصة

ذلك الانتصار الرائع على السمنيين فى الجنوب ، واستيلائه على مدينتهم الرئيسية بوفيانوم . لذلك فاز بالقنصلية لعام ٨٨ (١) . واستطاع أن ينهى الحرب الايطالية بالاستيلاء على « نولا » ، آخر معاقل الثوار فى العام ذاته .

الحرب الأولى ضد مثراداتيس

نشأ هذا الخطر من جانب مملكة بنطوس (Pontus) التى تقع على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود . وكان يتربع على عرشها مثراداتيس السادس (Mithradates VI) الملقب بيوپاتور (١٢٠ — ٦٣) وكان هذا الملك رجلا قديرا طموحا وان أعوزته الكفاية العسكرية والحصافة السياسية ، فسعى الى بسط سيطرته على آسيا الصغرى ، وبخاصة المنطقة المعروفة باسم كپادوكيا الكبرى (Cappadocia maior) وأدى ذلك الى اصطدامه بروما التى كانت سياستها ترمى الى الحيلولة دون قيام أى مملكة قوية مجاورة لاملاكها فى آسيا الصغرى ، ولا سيما ولاية آسيا (برجامون) التى نظمت كولاية فى سنة ١٢٩ وكيليكيا (Cilicia) التى نظمت كولاية فى سنة ١٠٣ .

وفى عام ٩٠ احتل مثراداتيس مملكة بثونيا (Bithynia) الواقعة بين مملكته وولاية آسيا الرومانية ، ولكن سرعان ما انسحب منها فى عام ٨٩ ازاء تهديد الرومان الذين شرعوا يثيرون عليه نيقوميديس

---

(١) تزوج سلا للمرة الرابعة كايكيليا ميتيللا (Caecilia Metella) ارملة سكاوروس (Aemilius Scaurus)، احدى الشخصيات الرومانية الكبيرة . وكانت هذه المصاهرة ذات اهمية من الناحية السياسية ، نظرا للنفوذ الكبير الذى كانت تتمتع به اسرة كايكيليوس ميتيللوس فى ذلك الوقت .

الثانى ملك بثونيا ويحرضونه على الاغارة على بنطوس . وعندئذ لم يجد مثراداتيس مفرا من أن يتحدى الرومان مستغلا فرصة انهماكهم حينئذ فى الحرب الايطالية فغزا كبادوكيا مرة أخرى . وكان لديه جيش حسن التدريب وأسطول ضخم ، فهزم نيقوميديس وتغلب على القوات التى عبأتها ضده السلطات الرومانية المحلية وأسر قائدها وقتله ، ثم اجتاح "ولاية آسيا" الرومانية، واكتسح أسطولهالبحر الايجى ولم تقاومه سوى رودس . وقد انضوت تحت لوائه كثير من المدن الاغريقية فى آسيا الصغرى بوصفه منقذا لها من ظلم جباة الضرائب والمرابين الرومان . ولم يكد مثراداتيس يعلن بدء القتال حتى انقض أنصاره استجابة لأوامره علىالرومان والايطاليين المقيمين فى ولايةآسيا وقتلوا منهم فى يوم واحد — فيما يروى — حوالى ٨٠٠٠٠ كان معظمهم من وكلاء ملتزمى جباية الضرائب والصيارفة والتجار ورجال الأعمال ، كما كان من بينهم كثير من النساء والأطفال . واذ كانت آسيا الصغرى قد دانت له فقد بدأ يولى وجهه شطر أوروبا .

وحدث فى نفس الوقت (٨٨) أن ثار الحزب الديمقراطى فى اثينا ضد الحكومة الأولجركية التى كانت تستند الى تأييد الرومان ، واستولى على زمام الحكم وارتمى فى أحضان مثراداتيس طالبا منه النجدة . فأرسل الملك الآسيوى قائده أرخيلاوس (Archelaus) الى أثينا على رأس قوات كبيرة قضت فىطريقها على المستعمرة الايطالية الموجودة بجزيرة ديلوس ، مركز النشاط التجارى والمصرفى فى الشرق ، فكانت هذه ضربة قاصمة لم تنهض منها الجزيرة فيما بعد . ونزل أرخيلاوس ببلاد الاغريق ، فانحازت الى جانبه معظم الأقاليم الجنوبية . وأرسل سيده فى نفس الوقت جيشا كبيرا الى بلاد الاغريق عن الطريق الشمالى عبر طراقيا ومقدونيا .

وعبر سلا — الذى آلت اليه قيادة الحرب ضد مثراداتيس فى عام

٨٨ — البحر الادرياتيكي ونزل بابيروس وزحف جنوبا على رأس قوة تعدادها خمس فرق رومانية وغزا آتيكا وأرغم أرخيلاوس وحلفاءه الأثينيين على التقهقر وضرب الحصار على أثينا فى خريف عام ٨٧. وقاومت المدينة مقاومة عنيفة لكن سلا عزلها عن مينائها بيرايوس — بيريه الحديثة — التى كانت تمدها بالمؤونة ثم اخترق احدى النقط الضعيفة فى أسوار المدينة فدخلها جنوده (أوائل عام ٨٦) ونهبوها وقتلوا كثيرا من سكانها ، ولكن سلا أبقى على منشآتها العامة ، اجلالا لماضيها الثقافى المجيد . ولم تلبث بيرايوس أن استسلمت هى الأخرى بعد أن كبدت سلا خسائر جسيمة ، ولكن قلعتها ظلت تقاومه حتى انسحب منها أرخيلاوس . ومن أثينا زحف سلا شمالا لملاقاة جيش مثراداتيس الذى اقتحم بلاد الاغريق من الشمال وتدفق نحو الجنوب حتى بلغ اقليم بويوتيا . وعند خيرونيا أحرز سلا على العدو انتصارا ساحقا فى مارس ٨٦ على الرغم من قلة قواته بالقياس الى قوات عدوه وذلك بفضل خططه العسكرية البارعة ، وسرعة تحركاته ، واختياره ميدانا أكثر ملائمة لتنظيمات الفرقة الرومانية (legio) منه للفيلق الاغريقى (phalanx).

وفى تلك الآونة وصل الى بلاد الاغريق القنصل ڤاليريوس فلاكوس (L. Valerius Flaccus) ليتولى القيادة بدلا من سلا [1] . غير أن سلا اتجه شمالا الى تساليا لمنازلته رافضا التخلى عن القيادة ، فاضطر فلاكوس — تجنبا للاحتكاك وخوفا من انحياز جنوده الى سلا —

(١) فاز ماريوس مع كنا (Cinna) بالقنصلية للمرة الاخيرة لعام ٨٦ ولكنه توفى فى ١٣ يناير من العام نفسه ، فاجريت انتخابات عاجلة فاز فيها ڤاليريوس فلاكوس الذى ولى منصب القنصلية قبل ٥ فبراير عام ٨٦ ليكمل السنة ويلذلك يسمى بالقنصل المكمل (consul suffectus). واسندت اليه بالتالى قيادة الحرب ضد مثراداتيس بدلا من سلا (انظر ص ٧٩ فيما يلى)

اضطر أن يرحل الى الدردنيل عن طريق مقدونيا وطراقيا لكى يقطع على مثراداتيس طريق الاتصال بأوروبا . وخلا الجو لسلا فالتقى بالجيش الجديد الذى أرسله مثراداتيس عبر البحر الايجى ، ودحره فى عام ٨٥ عند بلدة أورخومينوس باقليم بويوتيا . ولما كان مثراداتيس لا يزال مسيطرا على البحر الايجى ، فقد اضطر سلا الى أن يقضى الشتاء فى بلاد الاغريق لعجزه عن عبور البحر الى آسيا .

وفى عام ٨٥ ظهر فى البحر الايجى الكويستور لوكللوس (L. Licinius Lucullus) على رأس أسطول كان سلا قد عهد اليه بجمعه من المدن الشرقية الموالية للرومان . وأوقع لوكللوس الهزيمة بأسطول مثراداتيس ، ممهدا بذلك الطريق أمام سلا لعبور البحر الى آسيا . وكان القنصل فلاكوس قد عبر البسفور الى مملكة بثونيا ، وبذلك تحرج مركز مثراداتيس «المحرر» ولاسيما بعد أن تخلت عنه كثير من المدن الاغريقية التى تذمرت منه لتعسفه معها وأكراهها على مده بالمساعدات. واستطاع القائد فيمبريا (C. Flavius Fimbria) الذى خلف ڤاليريوس فلاكوس بعد مصرعه على يد جنوده المتمردين (١) — أن يهزم العدو ويستولى على برجامون التى كان الملك الآسيوى قد اتخذها عاصمة له عندما غزا الولاية الرومانية . وفر مثراداتيس وأبدى استعداده للتفاوض مع سلا الذى كان يقترب من سواحل آسيا الصغرى . ولما كان سلا يتوق الى الانتهاء من هذه الحرب ليعود الى ايطاليا لمواجهة خصومه ، فقد تم فى أغسطس عام ٨٥ ببلدة دردانوس (Dardanus) قرب طروادة عقد « صلح دردانوس » الذى قضت شروطه أن يتنازل مثراداتيس عن جميع فتوحاته الأخيرة فى آسيا الصغرى ، وأن يدفع غرامة حربية قدرها ٢٠٠٠ تالنت على سبيل التعويض ، وأن يسلم جانبا

---

(١) حدث ذلك التمرد بتحريض من فيمبريا نفسه الذى انتحر بعد ذلك فى برجامون عندما تخلى عنه جيشه وانضوى تحت لواء سلا .

من أسـطوله للرومان ، على أن يحتفظ بمملكته بنطوس بحـدودها الأصلية .

وعاقب سلا ولاية آسيا الرومانية عقابا شديدا ، واعتبرت كأنها بلاد مغلوبة على أمرها ومفتوحة . وحتى المدن الحرة التى تعاهدت من قبل والرومان فقدت بسبب تأييدها لمثراداتيس حقوقها السابقة واستقلالها . وكوفئت المدن التى بقيت على ولائها للرومان مثل رودس وأما المدن التى رحبت بالعدو كبرجامون وافسوس وميليتوس فقد سلبت منهـا حـريتها وأخضعت للضرائب العادية التى يجبيها الملتزمون الرومان . ونهبت كثير من هذه المدن ودمرت أسوارها . وفرض سلا على الولاية غرامة فادحة مقدارها ٢٠٫٠٠٠ تالنت (متأخـر الضرائب عن خمس سنوات وتكاليف الحرب)[1]. وألزم أهاليها التعساء بإيواء جنـوده والتكفل برواتبهم واطعامهم وكسوتهم خلال شتاء عام ٨٥/٨٤ . وهكذا اضطرت الولاية الى الاقتراض من المرابين الرومان لتحصيل هذا المبلغ الضخم ، وهوماجعلها تنوءتحت عبءديون باهظةمدة طويلة . وقد أثار الفوضى والمتاعب عامل آخر هو ازدياد غارات القراصنة الذين أصبحوا كسوط العذاب المسلط على سواحل شرق البحر لمتوسط . وقد اجترأوا على نهب ما قيمته ١٠٠٠ تالنت والأسلاب من ساموطرقيا أثناء اقامة سلا نفسه بالجزيرة . وترك سلا آسيا الصغرى وهى غارقة فى بحر من الديون تتلاطمها لجج من اليأس الشديد . ثم عبر البحر الايجى الى بلاد الاغريق فى عام ٨٤ حيث استعد للعودة الى ايطاليا . وقد عانت مدن بلاد الاغريق هى الأخرى كثيرا من الأهوال ، وأصيبت بأضرار جسيمة بسبب العمليات الحـربية الأخيرة ، كما نهبت كنـوز معابد أوليمبيا ودلفى وابيداوروس ، وخربت أتيكا وبويوتيا ، وتناقص عدد سكانهما ، ولم تسلم سواحل بلاد الاغريق عامة من الاغارات التخريبية على يد الأساطيل المتحاربة .

(1) التـالنـت *Talentum* معيـار وزن ، ووحدة نقدية ، واصلهـا يونـانى (*talanton*) ومتفـاوتة القيمة (ففى اثينـا)=

التطاحن الحزبي والصراع العسكري :

كان سلا قد انتخب قنصلا لسنة ٨٨ وأسندت اليه قيادة الحرب ضد مثراداتيس فى الشرق ، ولكنه لم يتمكن من مغادرة ايطاليا حينئذ لانشغاله بانهاء الحرب الايطالية ومحاصرة مدينة نولا (Nola) فى كمبانيا. وكان ماريوس ، برغم بلوغه سن الثامنة والستين ، يطمع فى الحصول على قيادة الحرب فى الشرق . وقد أيدته طبقة الفرسان لادراكها أن سلا يناصبها العداء لانه من أقوى أعوان السناتو . ولذلك انحاز ماريوس الى جانب نقيب العامة سولپيكيوس روفوس (P. Sulpicius Rufus) الذى نشر الارهاب وتقدم فى عام ٨٨ بأربعة مشروعات الأول منها يقضى باستدعاء المنفيين ، والثانى بعدم تجاوز ديون أعضاء السناتو مبلغ ٢٠٠٠ دينار ، والثالث بادراج المواطنين الجدد والمعتقين فى جميع القبائل الرومانية ، والرابع (عن طريق الجمعية القبلية) باسناد القيادة فى الشرق الى ماريوس . غير أن سلا رفض الاعتراف بشرعية القانون الأخير ، وزحف مع ست فرق إلى روما وأخذها عنوة واستباح دم ماريوس وسولپيكيوس ، فلاذ الأول بالفرار الى أفريقيا وقتل الثانى وقد أدخل سلا عدة تعديلات على الدستور لتوطيد مركز السناتو . وكان من أهمها قانون يقضى بضرورة عرض المشروعات على الجمعية المئوية (Comitia Centuriata) المعروفة بتحفظها (لأن نقباء العامة لم يكن فى استطاعتهم التقدم بالمشروعات الا للجمعية القبلية ، وبذلك يكون سلا قد حد من نشاطهم بمهارة) ؛ وقانون آخر ينص على ضرورة موافقة السناتو على أى مشروع قبل عرضه على الجمعية القبلية أو غيرها من الهيئات . وبعدئذ أبحر سلا عقب انتهاء مدة قنصليته مع جيشه الى بلاد الاغريق فى أوائل عام ٨٧ لمواجهة القوات التى بعث بها مثراداتيس الى هذه البلاد لتأييد أثينا بعد ثورتها ضد روما .

وما كاد سلا يغادر ايطاليا حتى أعاد كِنّا (L. Cornelius Cinna)

= ٦٠ رطلا اما عند الرومان فهو = ١٠٠ رطل رومانى (Librae)

قنصل عام ٨٧ — قوانين سولپيكيوس ولكن القنصل الآخر استطاع أن يطرده من المدينة بالقوة . وفى تلك الأثناء عاد ماريوس الى ايطاليا من منفاه وحشد جيشا فى اتروريا وزحف على روما من الشمال بينما زحف كنا عليها من الجنوب . واقتحم الاثنان المدينة عنوة وأعيد كنا الى منصب القنصلية ، وألغيت قوانين سلا وصودرت أملاكه وحرم من حماية القانون . وبدأ ماريوس حركة ارهابية قتل فيها عــدد كبير من خصومه أعضاء حزب السناتو . وفى أول يناير من عام ٨٦ تولى ماريوس القنصلية للمرة السابعــة ولكنه توفى بعد أيام قلائل . وقــد انتخب ڤالبريوس فلاكوس قنصلا ليشغل مكانه الشاغر (consul suffectus) فى المدة الباقية من العام ، فاستصدر مع كنا قانونا بتخفيض القيمــة الأصلية للديون الباهظة على الأفراد الى الربع ، وبعدئذ رحل الى بلاد الاغريق ليتولى القيادة بدلا من سلا الذى نحى من القيادة بوصفه طريد العدالة .

وفى الانتخابات لعام ٨٥ فاز كِنَّا بالقنصلية للمرة الثالثــة فشرع مع زميله كاربو (Cn. Papirius Carbo) فى حشد القوات اللازمة لملاقاة سلا عند عودته من آسيا الصغرى . وقد أطال هذان القنصلان مدة خدمتهما للعام التالى (٨٤) . وهو أمر يتنافى والدستور . ثم استعدا لعبور الادرياتيكى لمواجهة سلا فى مقدونيا،غير أن الجيش الذى حشد لهذا الغرض تمرد ولقى كنا حتفه فى بلدة انكونا ولم يجر كاربو انتخابات لاختيار زميل له فى القنصلية محتفظا بحده بالمنصب بحجة ظهور طالع سىء ، وهذا أيضا تصرف يتعارض والقانون . وقد رغب السناتو فى حقن الدماء ووضع حد للحرب الأهلية وتحقيق جميع مطالب سلا ولكن كاربو حال دون ذلك .

وعاد سلا فى ربيع عام ٨٣ ونزل بميناء برنديزى على رأس قــوة تتراوح بين ٣٠ ، ٤٠ ألف جندى من المحاربين القدماء الذين أقسموا

أى — ١٢٠٠ أوقية وكعملة نقدية (فضية) = حوالى ٧٩٣ جنيــه مصرى (فى عام ١٩٨٨) .

له يمين الولاء . ولكى يحول دون انحياز الايطاليين الى جانب خصومه أعلن أنه ينوى إقرار جميع الامتيازات التى منحت لهم بما فى ذلك حق ادراج أسمائهم فى جميع القبائل وفقا للقرار الذى أصدره السناتو للرقيبين بتسجيل أسماء المواطنين الجدد فى تعداد عام ٨٦ ، ولم ينجزاه على ما يبدو الا فى عام ٨٤ . ومع هذا فقد انضم كثير من المواطنين الجدد وبخاصــة فى سمنيوم واتروريا وغالة القريبــة ، الى قوات الحــزب الديمقراطى . بيد أن سلا استطاع أن يكسب الى صفه كلا من كراسوس (M. Licinius Crassus) وهــو شاب قدير عاد من أسبانيا وكان أبوه قد تولى القنصلية عام ٩٧ ولقى حتفه أيام الارهاب على يد أنصــار ماريوس ، وميتيللوس پيوس (Metellus Pius) بن ميتيللوس « قاهر نوميديا » ، الذى وصــل أخيرا من أفريقيــا ، وجنايوس بومپيوس (Cn. Pompeius) المشهور باسم پومپى — وهــو ابن بومپيوس سترابون قنصل ٨٩ — والذى جمع قوة قوامها ثلاث فرق فى پيكينوم بمجهوده الشخصى ولحسابه الخاص ، وكان ذلك كالاستعانة بقــوات من الولايات نذير سوء لمستقبل الجمهورية . وكان أعداء سلا يفتقرون الى الخبرة العسكرية والمقدرة على توحيد جهودهم . فتوغل سلا فى قلب كمپانيا حيث ألحق الهزيمة بأحــد قنصلى عام ٨٣ قرب كابوا . وانضوت تحت لوائه قوات القنصل الآخر . وفى العام التالى (٨٢) تابع سلا سيره شمالا نحو لاتيوم حيث انتصر على ماريوس الأصغر (ابن ماريوس) ، أحــد قنصلى ذلك العام ، فى معــركة كبيرة عند ساكريپورتوس (Sacriportus) وسقطت روما فى يده ، ففر ماريوس الاصغر الى لاتيوم حيث اعتصم بمدينة پرينستى (Praeneste) . وبعدئذ اتجه سلا الى اتروريا لملاقاة كاربو ، القنصل الآخر ، وهزمه وأرغمه على الفرار الى صــقلية . وقام أنصــار ماريوس بمحاولة أخــيرة لفك الحصار عن پرينستى ولكنهم باءوا بالفشل . ثم شنــوا مع السمنيين هجوما خاطفا على روما بقوة تعدادها ٧٠,٠٠٠ رجل . لكن سلا ظهر

فى الوقت المناسب وانقذ المدينة ، ودحرهم فى معركة رهيبة دامية عند باب كوللينا (Porta Collina) الذى يقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من تل الكويرينال فى أول نوفمبر عام ٨٢ . وقد منى الطرفان فى هذه الحرب الأهلية بخسائر فادحة . وأما السمنيون الذين لم يهلكوا فى القتال فقد أمر سلا بذبحهم بعد المعركة . وسقطت برينستى بعد ذلك مباشرة فى يده ، وانتحر ماريوس الاصغر وقتل معظم الأحيـاء من رجاله . وخمدت المقاومة فى جميع أنحاء ايطاليا باستثناء مدن قليـلة استسلمت بعد وقت غير طويل .

أصبح سلا بعد نوفمبر عام ٨٢ سيد الموقف ولا منازع له فشرع توا فى معاقبة خصومه ومكافأة أنصاره ، وحصر أسماء أعدائه الذين يرغب فى الانتقام منهم واستئصال شأفتهم ، فدونت أسماؤهم فى قائمة نشرت فى السـوق العامة ، اشـارة الى تجريدهم من حماية القانون ومصادرة أملاكهم دون اجراء محاكمات قانونية (Proscriptio) . وتقرر منح مكافأة للوشاة (delatores) الذين يرشدون عن المختفين . وقد بيعت أملاك الضحايا بالمزاد العلنى تحت اشراف سلا نفسه ، وحرم على أبنائهم وحفدتهم ترشيح أنفسهم للوظائف العامة . وكانت نكبة طبقة الفرسان أكبر من نكبة غيرهم ، وان كان قد هلك أيضـا بعض أعضاء من طبقة السناتو . ولم تسلم كثير من مدن سمنيوم واتروريا من انتقام سلا الرهيب ، فصادر أراضيها وحولها الى مستعمرات [1] ومنحها كقطائع لحوالى ١٢٠٫٠٠٠ رجل من جنوده المسرحين (veterani) كما أعتق سلا ١٠٫٠٠٠ عبد من عبيد أعدائه الذين قتلوا ، فاتخذوا كلهم اسم كورنيليوس (Cornelius) وهو اسم عشيرة سلا ، سيدهم

---

(١) كانت أرتيوم ، وكلوسيوم ، وفيسولاى ، وانترامنيا ، ونولا ، وبومبيى ، وبرينستى من بين هذه المستعمرات حيث عاش المستعمرون منفصلين عن السكان الاصليين كما حدث فى بومبيى .

الجديد . وقد اكتسبت جميع هذه الاجراءات صفة شرعية بقـرارات أصدرها السناتو .

والخلاصة أن سلا فاز بالقيادة كما رأينا . لكن ما أن أدار ظهره وغادر ايطاليا حتى انقض حزب ماريوس على خصومه السياسيين محاولا قطع دابرهم بالاغتيال والتقتيل . واختنقت روح التسامح وانطلقت وحشية الطبيعة البشرية من عقالها . فلما عاد سلا من الشرق فى ربيع عام ٨٣ انتقم لنفسه وحزبه بمذابح أشد هولا من مذابح ماريوس . وخسرت ايطاليا بذلك آلافا عديدة من خيرة بنيها ، من بينهم نفر كان من المحتمل أن يقوموا بأعمال نافعة للانسانية . ولم تعوض ايطاليا قط هذه الخسارة الجسيمة . فأين ذهبت السجايا الرومانية القديمة من الاتزان والاحساس بالمسئولية (gravitas) والشعور بالواجب (pietas) التى أحرز الرومان بها الامبراطورية ؟ وكأنهم فقدوا تماما ملكة الطاعة والنظام ما عدا فى الجيش حيث أصبح الجنود يخدمون فترات طويلة . واستمرارها فى الجيش حقيقة ينبغى عدم اغفالها أو التهوين منها على الرغم من أنها لم تستغل لخدمة مصلحة الدولة بقدر ما استغلت لخدمة مصلحة القائد . ولو أن جنديا سياسيا استطاع أن يوحد بين مصلحته ومصلحة الدولة الحقيقية ، فحاول أن يغرس من جديد فى ذهن الشعب لا الجيش وحده فكرة صحيحة عن مكانة روما ورسالتها فى العالم ، لأمكن أن تنجو الامبراطورية والحضارة من الخطـر ، اذ لم يكن من المستطاع حماية الامبراطورية والحضارة بدون الجيش الذى لم ينقصه سوى أن يكون مواليا للدولة . وكان القائد وحده هو الذى يستطيع تحقيق هذا الولاء بأن يجعل نفسه خادما مخلصا للدولة .

دكتاتورية سلا وتشريعاته :

كان القنصلان فى عام ٨٢ قد لقيا حتفهما أثناء مـدة خدمتهما فاختار السناتو بمقتضى الدستور حاكما مؤقتا (interrex) ثم أوعز

سلا الى هذا الحاكم فى تعيين دكتاتور فانعقدت الجمعية المئوية برئاسة هذا الحاكم ونصبت سلا فى نوفمبر من نفس العام دكتاتورا لمدة غير محدودة ليصدر التشريعات اللازمة وينظم شئون الدولة (dictator legibus scribundis et reipubicae constituendae) وأقرت جميع أعماله السابقة وخولته سلطة كاملة لاتخاذ ما يراه من الاجراءات الضرورية (١) . والواقع أن السلطات الاستثنائية التى منحت لسلا لمدة غير محدودة جعلته فى مركز الحاكم المطلق (٢) . وقد تولى سلا الدكتاتورية من أواخر عام ٨٢ حتى أوائل عام ٧٩ ، وجمع فى عام ٨٠ بين الدكتاتورية والقنصلية ، وهو ازدواج نادر وان كان على ما يبدو مشروعا .

ولم يستطع الرجل الذى آلت اليه مقاليد الحكم فى روما وقتئذ أن يوحد بين مصالحه ومصالح الدولة العليا لانه كان بالفطرة مجردا من روح العطف مما سلبه القدرة على تبين حقيقة تلك المصالح . وقد قورن سلا بنابليون ، والمقارنة صحيحة من وجهة أو وجهتين ، ولكنهما يختلفان كل الاختلاف فى نقطة جوهرية ، وهى القدرة على الادراك المشرب بروح العطف . فنابليون على قسوته والتوائه فى معظم الاحيان قد أظهر بوضوح عند تنظيمه شئون فرنسا أو سويسرا أو مصر أنه يدرك حاجات تلك الأمم ، فابتكر لها من النظم ما يعينها على الخروج من حالة الركود الى حياة سياسية واجتماعية أفضل . وقد أدرك سلا أن الظروف تتطلب اقرار النظام بأى ثمن ، وحفظ السلام وتدعيم الحكومة والقيام بالاصلاح ، ولكنه أقبل على عمله بروح تنم عن عدم

---

(١) فيما عدا الاسم ليست هناك سوى صلة طفيفة بين دكتاتورية سلا ومنصب الدكتاتور القديم (الذى صرف النظر عنه منذ انتهاء الحرب الهنيبالية) والذى كان يختار فى الازمات طبقا للدستور لمدة أقصاها ستة أشهر .

(٢) وبخاصة ان حق الاعتراض وحتى اعتراض نقباء العامة (intercessio) كان لا يسرى على امبريوم الدكتاتور ، ولا كان التظلم الى الشعب (provocatio ad populum) من احكامه ، جائزا او مجديا حيال سلطته العليا .

اغتباطه به أو اكترائه بالشعب الذى يشرع له . وقد حقق فعلا ما تطلبته الظروف ، ولكنه نفذه بالقوة المستترة تحت قناع دستورى ، ولذلك لم يبتهج أحد من المتزنين بعمله ولم يشعر الشعب الرومانى عامة بأى ولاء نحوه . لقد أمد كثيرا من مرافق الدولة بجهاز ادارى رائع ، ولكنه لم يمدها بالقوة الدافعة لتسييرها .

وليس فى التاريخ مثال أوضح من سلا للتدليل على أن الاصلاحات الدستورية تتوقف على الروح التى تصــدر عنها . فقد رأى سلا أن السناتو ذلك المجلس العظيم ، ينبغى أن يكون محور الحكومة وعمودها الفقرى ، هذا اذا لم يوجد زعيم قوى مثله يضطلع بأعباء الحكم ، وأن الجمعيات الشعبية التى لا خبرة لها بدراسة المسائل وتصريف الشئون العامة ، لا تستطيع أن تنهض بالاعبــاء الادارية . ومع أن النظــرية الدستورية كانت تقول دائما بأن الشعب هو صاحب السيادة فــان سلا رأى أن السناتو ، تلك الهيئة التى تركزت فى يديها مقاليد الحكم من الناحية العملية منذ القدم بمقتضى دستور غير مكتوب ، يجب أن تحكم حينئذ دون حائل أو عائق بمقتضى قانون مدون . وهكذا نجــد الدستور غير المكتوب ينقلب الى دستور مكتوب . وقد أصدر قانونا هاما خاصا بالخيانة العظمى (maiestas) ، وهو الأول فى كتاب الشرائع الرومانية ، ليجعل من المستحيل تقريبا على أى شخص أن يتحــدى السناتو دون أن يتعرض للسقوط السياسى .

وقد يوصف هذا الاتجاه بأنه رجعى ، ولكنه لم يكن ازاء الظروف القائمــة اتجاها رجعيا يدعو الى التذمر . وانما المؤلم حقا أن هــذا المشرع الكبير لم يجد من يعترف بفضله أو يخلص له سوى جيشــه وأتباعه . فما أن قضى نحبه حتى اندثرت معظم تشريعاته الدستورية ، ولم يتحسر عليها أحد . على أن تشريعات سلا ، من ناحية أخرى ، لم تكن كلها سياسية بحتة ، ولا سيما ما يتصل منها باعادة تنظيم « سلك

الوظائف المدنية » ، والقانون الجنائى ، واجراءات الدعوى الجنائية ، اذ كانت جميعها أعمالا قيمة تقدمية ، ولذلك لم يحاول أحد الغاءها ، فظل بعضها قائما طوال فترة التاريخ الرومانى .

لقد قصد سلا بتشريعاته أن يعيد السناتو الى مركزه القديم الذى تمتع به قبل ظهور تيبريوس جراكوس ، وأن يوطد هيمنة ذلك المجلس (Patrum auctoritas) ويضمن استمراره فى ذلك المركز بوصفه الهيئة الوحيدة القادرة على حفظ الأمن واستقرار النظام . بيد أن تشريعات سلا أو اصلاحاته الادارية والدستورية لم تهدف كلها الى تحقيق هذا الغرض وحده . وفى وسعنا أن نقول انها تنقسم الى طائفتين ، طائفة لم يقدر لها البقاء طويلا ، وهى التى استهدفت تركيز السلطة فى يد السناتو ، وطائفة لا تشوبها روح التعصب الحزبى ، وقدر لها البقاء ، وهى التى استهدفت اصلاح الأداة الحكومية وجعلها أكثر كفاءة وانضباطا .

الطائفة الأولى : (١) حرمان نقباء العامة من حق اقتراح المشروعات (rogatio) فى الجمعية القبلية(١) ، وتجريدهم من سلطتهم القضائية (٢) وقصر حقهم فى النقض (intercessio) على التدخل للحد من سلطة الحاكم المتمتع « بالامبريوم » . ولم يشأ سلا أن يحرمهم حرمانا تاما من حق النقض (٣) ، لأنه سلاح قد يستفيد منه السناتو نفسه . كما جعل نقابة العامة حائلا دون تولى أى مناصب أخرى أرقى منها ، وذلك لتزهيد ذوى المقدرة والطموح فى ترشيح أنفسهم لذلك المنصب.

---

(١) ربما باستثناء المشروعات التى يقرها السناتو أولا .

(٢) المقصود هنا سلطتهم فى توجيه الاتهام أو اقامة الدعوى على الموظفين العموميين المتهمين بجرائم سياسية أمام الجمعية الشعبية . انظر ص ٩٣ فيما يلى .

(٣) لعله حرمهم فقط من حق النقض فى القضايا الجنائية .

(ب) تأهيل أعضاء السناتو ثانية للتعيين كمحلفين فى جميع محاكم الجنايات ، وسلب هذا الحق من طبقة الفرسان (١) .

(حـ) الغاء قانون دوميتيوس (lex Domitia de sacerdotiis) الصادر فى عام ١٠٤ (٢) ، واعادة النظام القديم الذى يخول للمجالس والجماعات الكهنوتية حق اختيار أعضائها عن طريق الانتخاب المقصور عليها ، وزيادة عدد الكهنة (pontifices) وكذلك العرافين (augures) الى خمسة عشر (٣) .

الطائفة الثانية : (ا) أعيد العمل — مع تعديلات طفيفة — بقانون ڤيلليوس (lex Villia annalis) الصـــادر فى عام ١٨٠ ، والذى

---

(١) راجع ما تقدم فى صفحات ٢٦ — ٢٩ ، ٥٧ .
ولو ان مسألة المحلفين ستظل مثار نزاع السناتو والفرسان خلال السنوات التالية .

(٢) راجع ص ٥٧ — ٥٨ .

(٣) كانت الديانة الرومانية الرسمية تعتبر فرعا من فروع الادارة ، مهمته تنظيم العلاقات بين مجموعة المواطنين والآلهة الراعية . وقد اسند هذا الفرع الى مجلس من الكهنة (pontifices) ، برئاسة الـــكاهن الاعظم (pontifex maximus) ، ووضعت مهمـــة استطلاع مشيئة الآلهـة(قبل القيام بأعمال رسمية) فى يد مجلس العرافين (augures) . وكانت توجـد ايضا جماعات كهنوتية اخرى تختص بالقيام بمراسم دينية معينة . واما شعائر العبادة التى كان يقوم بها الملك فى عصر الملكية ، فقد اسندت فى عصر الجمهورية الى كاهن يحمل لقب ملك القرابين (rex sacrorum) ، وكان يحتل المكانة الاولى بين الكهنة ، ولو ان الكاهن الأعظم هو الذى كان يقوم بتعيينه . وباستثناء منصب الكاهن الاعظم الذى كان يشغل عن طريق الانتخاب الشعبى بين ١٧ قبيـــلة فقط ، فان سائر الوظائف الدينية الاخرى كانت تشغل لمدى الحياة بالتعيين او بالانتخاب المقصور على مجالسها أو جماعاتها المختلفة . وينبغى الا ننسى أن الهيئة الكهنوتية الرومانية لم تؤلف طبقة منفصلة فى المجتمع. ولما كانت المناصب الكهنوتية تسند الى حكام (magistratus) أو اعضـــاء من مجلس الشيوخ ، فقـــد أصبحت الديانة الرومانية مجرد أداة لخدمة مصالح الدولة مما اكسبها بالتدريج طابعا رسميا شكليا بحتا .

وفى أول عصر الجمهورية كان الكهنة يزاولون نفوذا كبيرا فى الشئون العامـة ، لانهم كانوا بمثابة حراس القانون الدينى ، الذى طبق فى حالة كثير من الجرائم الدينية . وكانوا يلمون وحـــدهم بالصيغ الصحيحـة التى ينبغى استعمالها فى العقود القانونية الهامة . وقد أنيط التعويم بالكاهن الأعظم فكان هو الذى يحدد تواريخ الأعياد الرسمية ، ويعلن فى كل

=

ينص على تقلد المناصب العامة (cursus honorum) وفقا لترتيب معين (الكويستورية فالبريتورية فالقنصلية) ، وضرورة انقضاء سنتين بين وظيفة وأخرى أعلى منها ، وتقييد الترشيح لكل وظيفة بسن معينة (٣٠ للكويستور ، ٣٩ للبريتور ، ٤٢ للقنصل) ، ووجوب مضي مدة عشر سنوات بين تولي منصب معين وتوليه هو نفسه مرة أخرى (وهو في الأصل قانون قديم صدر في عام ٣٤٢ وأهمل العمل به) .

(ب) زيد عدد البريتوريين الى ثمانية والكويستوريين الى عشرين. وكان اثنان من البريتوريين وهما البريتور المدني (praetor urbanus) وبريتور الأجانب (praetor peregrinus) يعملان كحاكمين قضائيين في الدعاوى المدنية (١) ، بينما كان الستة الآخرون يرأسون المحاكم

شهور الأيام التى يجـوز فيها (fas) او لايجوز فيها (nefas) القيام باعمال رسمية. وكان في وسع مجلس العرافين ان يؤجل اى اجتماع رسمى باعلان ظهور طالع سيء . لهذا كله حـرص الأشراف على احتكار المناصب الدينية لا لتوطيد نفوذهم فحسب بل لتحقيق مآربهم الشخصية أيضا .

غير ان العامة استطاعوا اثناء كفاحهم ضد الأشراف للحصول على المساواة ان يقتحموا هذا الحرم المقصور على الأشراف ، فحصلوا على حق تولى وظائف في جماعة الكهنة المختصـة بالمراسم الدينية والكتب المقدسة ، والتى زيد عددها في عام ٣٦٨ من ٢ الى ١٠ على ان يكون نصفهم من العامة وعرفت باسم (decemviri sacris faciundis) لـكن في عام ٣٠٠ صدر قانون اجولنيوس (lex Ogulnia) الذى حصل العامة بمقتضاه على حق شغل المناصب الدينية العليا ، وزاد عدد مجلس الكهنة (pontifices) من ٤ الى ٨ ، ومجلس العرافين (augures) من ٤ الى ٩ ، على ان تملا المقاعد الجديدة باعضاء من طبقة العامة . ومنـذ ذلك الحين اصبح من العسير على الأشراف استغلال القانون الدينى واجراءاته لعرقلة نشاط العامة السياسى .

(١) ويلاحظ ان البريتور لم يكن يفصل في النزاع بنفسه ، بل كان عمله مقصورا على الاستماع لادعاء الطرفين ، ثم يختار الطرفان القاضي اى الحكم الذى يفصل في النزاع أو يختـاره لهما البريتور ثم يحيلهما عليه . ذلك ان الدعوى في القـانون الرومانى كانت تمر بمرحلتين : امام البريتور (in iure) ثم امام القاضى أو الحكم الذى يفصـل في النزاع (apud iudicem) . وكان كل بريتور عند تقلده منصبه يقوم سنويا باعلان منشور (edictum) لكل الناس يبين فيه الطريقة التى سيسير عليها في تنظيم العدالة . وكان لهذا المنشور اثر كبير في تطور القانون الرومانى (انظـر كتاب « مبادىء القانون الرومانى » للدكتور محمد عبـد المنعم بدر والدكتور عبد المنعم البدراوى ، طبعة ١٩٥٤ ص ٢٥ — ٢٦) . وكتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » (١٩٧٠) ، ص ٧٤ — ٧٥ .

الجنائية الجديدة . وأما الكويستوريون العشرون فـكان اثنان منهم يعملان كأمناء للخزانة بلقب quaestores urbani = aerarii(١) ، واثنانه يلحقـان بالقنصلين ، وأحد عشر (أو اثنا عشر ؟) بحـكام الولايات الرومانية التى بلغ عددها عشرا ، فكان يلحق بكل حاكم كويستور واحد ما عـــدا حاكم صقلية الذى كان يلحق به كويسـتوران . وكانت اختصاصاتهم فى الأصل مالية ، ولكنها تنوعت فصارت ادارية وعسكرية وقضائية أيضا . وكان الباقون موزعين فى ثلاث أو أربع مناطق بايطاليا ويعرفون باسم quaestores Italici = classici(٢) وأهمهم من كان مقره فى ميناء أوستيا للاشراف على الأسطول وتموين روما بالغلال ويعرف باسم quaestor Ostiensis.

(جـ) نظمت تبعا لذلك طريقة تعيين حكام الولايات ، التى ارتفع عددها ــ كما ذكرنا ــ الى عشر بتنظيم « غالة القريبة » كولاية نظرا للحاجة الى مرابطة قوة دفاعية مستديمة فى المنطقة الواقعة جنـوبى الألب (٣) . وهذه الولايات هى : ١ ــ صقلية ، ٢ ــ سردينياوكورسيكا ٣ ــ أسبانيا القريبة ، ٤ ــ أسبانيا البعيدة ، ٥ ــ مقـدونيا ، ٦ ــ أفريقيا ، ٧ ــ آسيا (برجامون) ، ٨ ــ غالة عبر الألب أى البعيدة أو المسماة غالة الناربونية (Gallia Narbonensis = Transalpina) ، ٩ ــ كيليكيا ، ١٠ ــ غاله التى على الجانب القـريب من الألب أو غالة القريبة ، (Gallia Cisalpina) وتمتـد من شمالى نهر أرنوس (Arnus)(٤) حتى نهر روبيكون (Rubico) على مقـربة من بلدة

---

(١) كلمة urbani بمعنى المدنيين (نسبة الى مدينة روما) ، وكلمة aerarium معناها الخزانة العامة » .

(٢) Italici بمعنى ارتباط عملهم بايطاليا ، classici بمعنى ارتباط عملهم بالاسطول (classis)

(٣) تاريخ انشاء هذه الولاية غير معروف على وجه الدقة . واذا لم تكن قد انشئت فى عام ٨٩ ، فربما تكون قد انشئت بعد ذلك فى عام ٨١ على يد سلا . راجع ما تقدم فى ص ٦٩ ، حاشية ٣ .

(٤) فى شمالى اتروريا ويسمى الان " أرنو " وتقع عليه بيـــزا وفلورنسه وأما "روبيكون" فهو فى شمال شرقى اقليم اومبريـــا ويعتبر الحد الفاصل بين " غالة القريبة " وايطاليا .

أريمينوم على الأدرياتيكى . وقد تقرر أن يعين القنصلان والپريتوريون الثمانية بعد انتهاء خدمتهم السنوية حكاما على هذه الولايات بوصف الأولين قنصلين بديلين (pro consulibus) وبوصف الآخرين بريتوريين بدلاء (pro praetoribus) (١) لمدة عام واحد . وهكذا فقدت الوظائف البديلة صفتها الأصلية الاستثنائية (٢) . وكان هذا التغيير هو أول خطوة فى طريق انشاء سلك وظائف مدنية خاصة بادارة ولايات الجمهورية .

وكان حاكم الولاية هو الذى يتولى قيادة الجيش المرابط بها ، على أن يحدد السناتو قوة الجيش فى كل ولاية ومقدار ما يلزم الحاكم من أموال لدفع رواتب الجند والوفاء بنفقات الادارة . وقد حرم عليه الشروع فى حرب من تلقاء نفسه أو تسيير قواته عبر حدود ولايته أو مغادرة ولايته الا باذن من السناتو أو الجمعية فان فعل ذلك تعرض لتهمة الخيانة العظمى بمقتضى القانون الذى شرعه سلا والمسمى (lex de maiestate). وفى الواقع أن الخطر لم ينشأ عن هذه الجيوش التى رابطت فى الولايات المختلفة لأنها كانت فى الغالب جيوشا صغيرة ،

---

(١) صارت كلمة من الكلمتين تكتب كأنها كلمة واحدة، proconsulus و propraetores و pro حرف جر هنا بمعنى بدلا من أو محل كذا.

(٢) كان الرومان قد ابتكروا فى عام ٣٢٧ علاجا لعيب تحديد مدة الوظيفة العامة بسنة واحدة وما قد يترتب على ذلك من قلقلة واضطراب بانتقال القيادة من يد قنصل الى يد قنصل جديد قبل انتهاء الحرب وهزيمة العدو من الأعداء . وهذا العلاج يتلخص فى ابقاء القنصل الذى تنتهى مدة خدمته السنوية وهوفى ميدان الحرب ومنحه لقب برو قنصل (pro consule = proconsul) اى قنصل بديل يستمر حق استمرار الحرب فى التمتع بسلطة القنصل العسكرية فى الخارج الامبريوم البرو قنصلى ، دون ان يكون هو نفسه قنصلا من الناحية الرسمية . وقد طبق هذا المبدأ على وظائف محدودة أخرى ، فنسمع عن بروبريتور اى بريتور مفوض او بريتور بديل. كان هذا النظام الذى الاصل استثنائيا مؤقتا حتمته ظروف حروب توسع روما فى ايطاليا . لكنه سرعان ما استقر حتى صار على ايام سلا نظاما مستديما عاديا . وفى الحق ان كلمة برو قنصل اصبحت بمعنى « حاكم ولاية » او على الاقل « قائد جيش » يقاتل فى ايطاليا او خارجها حيث ان كلا من البرو قنصل والبرو بريتور كان يتمتع بالامبريوم الذى يخوله حق قيادة اى جيش أو اختياره حاكما لولاية رومانية لمدة سنة فى الغالب كما نسمع احيانا عن كويستور بديل pro quaestore

وانما نشأ عن هؤلاء القواد الذين كان السناتو يضطر فى وقت الأزمات أن يخولهم سلطات استثنائية ويمنحهم سلطات حربية ضخمة . وجدير بالذكر أن السناتو احتفظ بحقه فى تعيين أسماء الولايات قبل ظهور نتيجة انتخابات القنصلية طبقا لقانون سمبرونيوس الخاص بالولايات القنصلية ، وتحديد ما يرى اسنادها للقنصلين ، وما يرى اسنادها للپريتوريين ، بعد انتهاء خدمتهم السنوية ، ثم توزيعها بينهم بالقرعة(١)

(د) احتفظ القنصلان بحق تولى قيادة الجيش وادارة العمليات الحربية فى ايطاليا، وظلت سلطة « الامپريوم » القنصلية أعلى من سلطة « الامپريوم » التى يتمتع بها حكام الولايات ، مع جواز مزاولتها خارج حدود ايطاليا . لكن القنصلين فى الواقع صارا لايتوليان عادة القيادة فى الحملات الخارجية ، لأن السناتو انتزع لنفسه الحق الذى كان فى يد الجمعية القبلية من قبل ، وهو حق اختيار أى شخص يشاء ، ليتولى سلطة « الامپريوم » العسكرية فى أى منطقة يحددها له .

(هـ) زيد عدد أعضاء السناتو من ٣٠٠ الى ٦٠٠ بادماج أعضاء من طبقة الفرسان (بعضهم من أصل ايطالى) ، ممن كانوا يؤيدون سلا ، وبذلك كسبهم هو وأتباعهم الى صفه ، وضمن فى الوقت نفسه توافر العدد من الأعضاء المؤهلين للعمل كمحلفين فى محاكم الجنايات الجديدة (٢) . ولضمان الاحتفاظ بهذه الزيادة أصبح يدرج سنويا فى قائمة السناتو العشرون كويستورا بعد انتهاء خدمتهم السنوية .

---

(١) راجع قانون جايوس جراكوس فى هذا الصدد (ص ٢١) .

(٢) تناقص عدد اعضاء السناتو بسبب حركات الارهاب والاغتيال التى حدثت فى السنوات الاخيرة ، حتى صار عددهم حوالى ١٥٠ عضوا فقط .

وكان اعضاء السناتو الجديد يضمون بداهة اعوان سلا المقربين الذين كان بعضهم ينتمون الى أسر ارستقراطية ، وبعضهم الاخرون من الرجال او الجنود العاديين (gregari milites) الذين اسدوا له خدمات جليلة اثناء الحرب الاهلية . ولكنه أضاف اليهم — على نحو ما ذكرنا فى المتن — ٣٠٠ عضو من الفرسان . وقد يثير ذلك بعض الدهشة ...

وترتبت على ذلك نتيجتان احداهما أنه لما كان الكويستوريون ينتخبون على يد الشعب فان السناتو نفسه قد أصبح هيئة منتخبة من الشعب بطريق غير مباشر . والأخرى هى أن الرقباء (censores) جردوا من أهم اختصاص لهم ألا وهو مراجعة قائمة السناتو (lectio senatus) ومعنى هذا أنه لم تعد هناك حاجة اليهم . وقد لوحظ أن القناصل قد باشروا فى سنتى ٨٠ ، ٧٥ مهمة ابرام عقود المشروعات العامة ، التى كانت من اختصاص الرقباء (censoriae locationes) . ولا ندرى إن كان سلا قد ألغى منصب الرقباء نفسه لارتيابه فيهم ولتحرير السناتو من سيطرتهم ، أم أبقاه مجردا من مقوماته معطلا معلقا .

(و) أنشأ سلا — وهذا هو أبقى اصلاحاته أثرا — بمقتضى قوانين كورنيليوس (leges Corneliae de iudiciis publicis) سبع محاكم جنائية دائمة (Quaestiones Perpetuae) ، تختص بالنظر فى بعض أنواع الجرائم العامة (crimina) (١) . ولم تقتصر على الجرائم التى

=

نعرفه عن عداوته الشديدة للفرسان . لعل كثيرين من الفرسان الذين رشحهم لعضوية السناتو كانوا ينتمون — حسبما يرى بعض الباحثين — الى الفرسان بالمعنى الضيق للكلمة أى من وحدات الفرسان الثمانى عشرة (equites equo publico) التى كان يندرج فيها أعضاء شبان من الأسر النبيلة . لكن فى رأينا أن آخرين كانوا فيما يحتمل من طبقة الفرسان (Ordo Equester) بأوسع مفهوم للكلمة . كما أدمج أيضا بعض أفراد من الطبقة الارستقراطية المحلية فى المدن الايطاليه التى حصلت أخيرا على الجنسيه الرومانية . ولا يتضح لنا الباعث الحقيقى على ذلك : أهو محاولة من جانبه لرأب الصدع بين الطبقتين (طبقة رجال الأعمال وطبقة النبلاء) أم لكسر حدة مقاومة الفرسان له عن طريق استمالة بعض زعمائهم الى جانبه ؟ . وكان من أسباب زيادة عدد أعضاء السناتو هو ضمان ايجاد العدد الكافى لكى يختار منه بسهولة المحلفون لمحاكم الجنايات الدائمة التى أنشأها وجعلها مقصورة على محلفين من السناتو . ومهما يكن من أمر ، فان النتيجة السياسية كانت واضحة ، وهى ان الأغلبية فى السناتو الجديد المكون من ٦٠٠ (أو ٥٠٠) عضو ستكون مدينة بمركزها للدكتاتور وتقصر ولاءها عليه . وعن هذا الموضوع راجع :
E. Gabba, **Athenaeum** (1956), 124 ff.; OCD^2 s.v. Equites.

(١) فى الشرائع الحديثة لا توجد الا جرائم « عامة » (أنظر كتاب « مبادىء القانون الرومانى » للدكتور محمد عبد المنعم بدر والدكتور عبد المنعم البدراوى ، طبعة ١٩٥٤ ص ٤٨٦) .

ترتكب ضد الدولة كالخيانة العظمى maiestas (١) والرشوة في الانتخابات (ambitus) (٢) واختلاس الأموال الأميرية (peculatus) وابتزاز أموال سكان الولايات (repetundae) (٣)؛ بل شملت أيضا جرائم ضد الأفراد فيها خطورة على المجتمع كالقتل والتسميم (de sicariis et veneficis) (٤) ، والاعتداء على الشخص (iniuria)(٥) ، والتزوير في المحررات والوصايا وتزييف النقود (falsum) . وقد نظمت هذه المحاكم على غرار محكمة التعويض عن الأموال المبتزة التي أنشئت في عام ١٤٩ (٦) ، فكانت كل

---

(١) معنى كلمة maiestas الهيبة أو العظمة ، والمقصود هيبة الشعب الروماني ، والخيانة هي محاولة الانتقاص (minuere) من هيبته بالتواطؤ مع العدو أو التآمر عليه . وأصبحت هذه الجريمة تجبّ جريمة الخيانة ضد الدولة التي كانت تعرف من قبل باسم perduellio والتي كانت عقوبتها الإعدام .

(٢) كلمة ambitus مشتقة من الفعل ambire بمعنى الطواف أي طواف المرشح بين الناخبين للقيام بالدعاية كي يفوز بمنصب من المناصب العامة . وكان من بين القوانين القديمة التي صدرت لوقف تيار الرشوة في الانتخابات قانون بايبيوس (lex Baebia) بتاريخ ١٨١ . وقد تكرر بعد ذلك اصدار قوانين لمكافحة الرشوة بفرض عقوبات شديدة كالموت والنفي لمدى الحياة أو لعشر سنوات ، فصدر قانون توليوس (lex Tuilia) في عام ٦٣ أي في قنصلية شيشرون ، وقانون بومبي (lex Pompeia) في عام ٥٢ ، وقانون يوليوس (lex Iulia) في عام ٤٩ على أيام يوليوس قيصر .

(٣) كلمة repetundae لا تعني الابتزاز وانما تعني استرداد الاموال (pecuniae) أو الأشياء (res)) المبتزة .

(٤) المقصود بالقتل هو قتل الانسان الحر أو القتل العمد (الاغتيال) . وكانت هذه الجريمة تشمل بداهة قتل ذوي الأرحام (parricidium) وهي الجريمة الوحيدة التي كانت عقوبتها الاعدام ، اذ انه في حالة الجرائم الأخرى كان المذنب يعطى فرصة مغادرة البلاد الى المنفى . وقد شملت أيضا الحريق العمد ورشوة القضاة في جرائم القتل والشهادة الزور في هذه الجرائم .

(٥) وكانت تشمل الضرب والجرح وانتهاك حرمة المنازل والسب والتشهير (calumnia) .

(٦) وذلك بمقتضى قانون هام هو قانون كلپورنيوس (lex Calpurnia) ـ نسبة الى لوكيوس كلپورنيوس پيسو فروجي ، أحد نقباء العامة في سنة ١٤٩ ثم أحد قنصلي سنة ١٣٣ ـ وكان ينص على تأليف محكمة دائمة من خمسين محلفا من أعضاء السناتو للنظر في دعاوى الابتزاز المرفوعة على حكام الولايات بعد انتهاء خدمتهم لالزامهم في حالة الادانة برد

منها تتألف من عدد معين أو دائرة (decuria) من المحلفين (iudices) يختارون من بين أعضاء السناتو (١) ، ويتولى رئاستها بريتور من بين البريتوريين الستة الذين أسندت اليهم رئاسة هذه المحاكم الجنائية(٢). ولم تعد العقوبة هى مجرد الالتزام بدفع تعويض عن الضرر أو غرامة تدفع للمجنى عليه (poena) مقابل نزوله عن حقه فى القصاص — كما كان الحال فى محكمة الابتزاز القديمة التى كانت فى حقيقة الأمر محكمة مدنية — بل أصبحت العقوبة بدنية كالاعدام والنفى (٣) أو عقوبة مالية تؤدى للدولة (multa) أو عقوبة تتمثل فى الحاق الوصمة (infamia) ولما يترتب عليها من الحرمان من حق تولى الوظائف العامة ، الخ . وكانت الأحكام نهائية لا يجوز الطعن فيها بالاستئناف (provocatio) أمام الجمعيات التشريعية بوصفها محاكم شعبية (iudicia populi) (٤) ، وبذلك حلت هذه المحاكم

الاموال التى ابتزوها او دفع تعويضات مناسبة وقد عرفت هذه المحكمة التى كانت الاولى من نوعها باسم Quaestio de Repetundis او Quaestio Rerum Repetundarum .

(١) كان اختيار المحلفين فى قضية معينة يتم عن طريق القرعة (sortitio) بين اعضاء مجلس السناتو . وكان من حق الاطراف المتنازعة أن يردوا بعض المحلفين (reiectio) . وأما اقتراع المحلفين فكان سريا . وكان الحكم يصدر بالاغلبية المطلقة ، وهو اما بالبراءة (absolvo) او الادانة (condemno) او بعدم الوصول الى قرار (non liquet) .

(٢) وقد يرأسها عند الضرورة أيديل يعرف باسم iudex quaestionis . وقد يطلق على البريتور او الايديل الذى يرأس المحكمة اسم quaestitor . ونضيف هنا ان القانون اجاز للمدعى ان يحضر شهوده وللمدعى عليه (reus) ان يستصحب مساعدا قانونيا او محاميا عنه patronus (وان كان من المحظور اعطاء المحامين اتعابا او هدايا او منحا تزيد عن قدر معين وفقا لقانون كنكيوس lex Cincia de donis et muneribus الذى صدر فى عام ٢٠٤ ودرج الناس على اغفاله) .

(٣) ويعرف بعبارة aquae et ignis interdictio (ومعناها الحرق الحرمان من الماء والنار اى من ضرورات الحياة داخل نطاق الأراضى الرومانية) والمقصود به النفى مع التجريد من حق المواطن والاعدام دون محاكمة اذا عاد المذنب الى ايطاليا .

(٤) راجع ما تقدم فى ص ٢١ حاشية ١ .

الجنائية الدائمة محل الجمعيتين المئوية والقبلية اللتين فقدتا من الناحية العملية سلطتهما القضائية . ولم يعد من الضرورى أن يقيم الدعوى (actio) حاكم معين بل أصبح يقيمها أى مواطن يقوم بدور المدعى العام (accusator) وقيد أو ألغى حق نقباء العامة فى اقامة الدعوى على الجناة أمام الجمعية القبلية فى الجرائم السياسية .

وقد ظل القانون الجنائى مستندا الى هذه الأسس التى وضعها سلا بتنظيم هذه المحاكم الجنائية الدائمة (1) .

---

(1) لما كان لتشريعات سلا القضائية اهمية خاصة فيما يتصل بالقانون الجنائى ، فقد رأينا أن نورد فيما يلى عرضا سريعا لتطور فكرته عند الرومان حتى ايام سلا :

كانت القضايا ذات الطابع الجنائى ، مما يستوجب العقوبة البدنية أو المالية وليس مجرد التعويض عن الضرر ، من اختصاص الحكام المتمتعين « بالامبريوم » . وكان يجوز للمواطن الحر (لا العبد أو المرأة لأن كلا منهما كان يخضع لسلطة القسر أو التعزير coercitio التى يتمتع بها الحاكم) ان يستأنف احكامهم فى حالة الاعدام امام الجمعية المئوية ، وفى حالة الغرامة الكبيرة امام الجمعية القبلية بوصف كل منهما محكمة شعبية (iudicium populi)) . فكان القنصلان يفصلان — على الأقل من الناحية النظرية — بمعاونة الكويستوريين فى الجرائم الخطيرة ، بل ان البريتوريين — برغم أن سلطتهم اقتصرت على النظر فى القضايا المدنية — كانوا ينظرون احيانا فى بعض القضايا الجنائية . كما انتزع نقباء العامة لانفسهم فيما بعد حق رفع الدعوى امام الجمعية القبلية ضد الجناة الذين يرتكبون جرائم ذات طابع سياسى .

لكن لم يات القرن الثانى حتى أصبح هؤلاء الحكام جميعا مجرد مدعين عموميين لانهم — وان لم يمس حقهم فى اصدار الاحكام — الا ان سلطتهم فى تنفيذ هذه الاحكام اصبحت مقيدة ازاء قوانين الاستئناف التى صدرت فى ذلك القرن ، مؤيدة فى نفس الوقت قوانين الاستئناف القديمة ، وجعلت من غير المستطاع توقيع عقوبة الموت أو الجلد أو حتى غرامة مالية كبيرة على اى مواطن حر قبل ان تنظر الجمعية الشعبية (المئوية أو القبلية) فى الحكم المستأنف . وترتب على ذلك ان اخذ الحكام يحيلون من بادىء الامر القضايا التى يجوز فيها الاستئناف على كل من الجمعيتين المئوية أو القبلية وفقا لجسامة الجريمة . لكن سرعان ما تبين ان هذا النظام غير عملى نظرا لبطء اجراءاته ، وامكان عرقلتها بواسطة حق النقض ، وافتقار اعضاء الجمعيتين الى الخبرة القانونية ، وانعدام الكفاءة اللازمة للفصل فى القضايا الشائكة غير العادية . ولهذا جرى البحث عن وسائل اخرى ، فكان الشعب بايعاز من السناتو أولا ، وبعدئذ السناتو وحده ، وأخيرا الشعب متحدا السناتو نفسه (ابتداء من عام ١١٣) ، كان هذا أو ذاك يفوض حاكما — أو اكثر — متمتعا بالامبريوم بتأليف محكمة غير عادية أو استثنائية (quaestio extraordinaria) لمحاكمة

وفى أوائل عام ٧٩ اعتزل سلا الحكم فجأة وتنحى عن الدكتاتورية بمحض ارادته وهجر الحياة السياسية مسرحا حرسه المكون من ٢٤ ضابطا (lictores) . واعتكف فى بيته كمواطن عادى . ولم يلبث أن رحل الى ضيعته فى ريف كمپانيا حيث أقام فى قصره الذى شيده عند ضاحية مدينة پوتيولى (Puteoli) فى مكان غير بعيد عن ساحل كمپانيا الدفىء . وقضى بقية حياته فى رفقة ڤاليريا ، وهى مطلقة شابة عقد قرانه عليها . وكان يزجى فراغه فى الصيد والقنص والملذات . لكنه عكف أيضا على قراءة الأدب وكتابة مذكراته أو قصة حياته ،

= المتهمين باقتراف جرائم خطيرة تمس الصالح العام . فكان الحاكم يؤلف مجلسا قضائيا (consilium) من بعض الرجال البارزين الذين يجتمعون فى شكل محكمة تصدر احكاما نهائية لايجوز فيها الاستئناف . ولكن السناتو استغل هـذا النوع من المحاكم الاستثنائية لخدمة مصالحه والتخلص من خصومه مما أثار غضب المصلحين من امثال جايوس جراكوس الذى احتج على تاليف هذه المحاكم التى تقضى باعدام المواطنين دون أن تعطيهم فرصة التظلم الى الجمعية . ولذلك استصدر قانونا بتاكيد حق الاستئناف مرة اخرى حتى لا يعدم احد دون موافقة الشعب (lex ne quis iniussu populi capite damnetur) (راجع ص ٣٧ حاشية ١) .

وبازدياد توسع الدولة المستمر ، ازدادت المشاكل وكثرت شكاوى سكان الولايات من تعسف الحكام الرومان . وقد أثار ذلك بعض الصعوبات لان اصحاب هذه الشكاوى كانوا من غير المواطنين ، فكان بريتور الاجانب ـ ابتداء بالنسبة المتبعة فى القضايا ذات الطابع الدولى ـ يعين هيئة قضائية مدنية من ثلاثة محكمين (recuperatores) للفصل فى النزاع . وقد اتبع هذا الاجراء فى واقعـة مشهورة حدثت فى عام ١٧١ عندما تظلم سكان ولاية اسبانيا من اغتصاب الحاكم لامـوالهم (Livius, XLIII, 2) فى مثل هذه الظروف كانت القضية قضية مدنية تدخـل فى نطاق القانون الخاص ، وهو امر غـير سليم منى للاعتراض لسببين : اولا ان القضية كانت ـ كما هو واضح ـ تمس الصالح العام ، ثانيا : حيث أن سلطة البريتور هى فى جوهرها سلطة مدنية ، فقد كان من العسير دمغ الابتزاز على يد الحكام بانه جريمة عامة تستوجب العقوبة البدنية او المالية بدلا من مجرد التعويض ، الا اذا انشئت محكمة او هيئة قضائية خاصة

وكانت اول خطوة اتخذت فى هذا السبيل هى المحكمة الدائمة (quaestio perpetua) التى انشـئت بمقتضى قانون كلپورنيوس فى عام ١٤٩ لمحاكمة حـكام الولايات المتهمين بالابتزاز (انظر ص ٩٢ هامش ٦) ، وهى محكمة تتميز بانهـا لم تقم على سند من « الامپريوم » بل على سند من التشريع القانونى ومع ان عنصر الجزاء الجنائى لم يكن قـد اكتمل بعد ، فظلت العقوبة مقصـورة على التعويض أو استرداد الاموال المغتصـبة =

وهى تلك الترجمةالذاتية التى وردت منها شذرات فى كتاب « تراجم العظماء » لپلوتارخوس . ولم يعد يبالى بما يجرى فى العاصمة حتى أنه لم يحرك ساكنا عندما انتخب آيميليوس لپيدوس قنصلا لعام ٧٨ ضد مشيئته . ومات سلا عام ٧٨ وهو فى سن الستين . وأقيمت له فى روما جنـــازة رسمية فخمة مهيبة . ودفن فى ساحـــة الاله مارس

= (repetundae)، الا ان الابتزاز لم يعد جريمة خاصة (delictum) بل اصبح جريمة عامة (crimen) .وقد اقترنت بانشاءهذه المحكمة الدائمة ثلاثة امـــور وهى : (أ) الصراع حول حق الجلوس فيها كمحلفين بين طبقتى السناتو والفرسان ، هذا الحق الذى اقتصر اولا على اعضاء السناتو (١٤٩ – ١٢٣) ، وبعدئذ الفرسان (١٢٣ – ٨١) ثم على اعضاء السناتو مرة اخرى (٨١ – ٧٠)واخيرا اقتسم بالتساوى بين طبقات ثلاثوهى اعضاء السناتو والفرسان وترابنة الخـــزانة (tribuni aerarii) الذين يرجح انهم كانوا يلون فى الثروة طبقة الفرسان (من ٧٠ – ٤٦) ، (ب) ان عنصر الجزاء الجنائى اخـذ فى حالة صدور حكم بالادانة ضد المتهم يزداد بالتدريج بروزا واكتمالا ، (جـ) انشئت على غرار محكمة الابتزاز الدائمة محاكم جـديدةللنظر فى جرائم اخرى تدخل فى نطاق القانون الجنائى .

ومع هذا فلا نزال معلوماتنا طفيفة عن عدد المحاكم الدائمة قبل ايام سلا ، ولو أننا نعلم ان محكمة خاصة بمحاكمة جريمة القتل العمد والتسميم (quaestio de sicariis et veneficis) انشئت قبل عا م٩٥ (ولوان بعض الشراح مثل مومسن Mommsen يرى انها انشئت قبل ١٤٢) ، واخرى لمحاكمة جريمة استعمال القوة لقلب نظام الحـــكم (quaestio de vi publica) بعد عام ٩٥مباشرة (وان كان البعض يعتقد انها لم تنشا الا بعد عصر سلا بمقتضى قانون پلاوتيوس (lex Plautia de vi) الذى صدر بين سنتى ٧٧ و ٧٠)وربما ايضا محكمة ثالثة خاصـةبجريمة الاختلاس(quaestio de peculatu) فى عام ٨٦ .

هكذا كان الوضع عندما انشا ســـلا بمقتضى قوانين كورنيليوس سبع محـــاكم جنائية دائمة Questiones Perpetuae تختص بالنظر فى جرائم معينة ،واضعا بذلك أسس نظام القانون الجنائى واجـــراءاته . والحق انه لم يضـــع نظاما شاملا للقانون الجنائى ، وانما عنى بالجرائم الخطيرة التىتستوجب عقوبة لم تكن توقع من قبل الا بعد موافقة الجمعية الشعبية (المئوية او القبلية)واما الجرائم غير الخطيرة فقد ترك امر الفصل فيها للپريتوريين ، وعن هذا الموضوع انظر الان :

W. Kunkel, **Untersuchungen zur Entwicklung des Roemischen Kriminalverfahrens in vorsullanischer Zeit** (Bayer. Akad. d. Wiss., Phil.-Hist. Kl., Abhandlungen N.F. 56). Muenchen, 1962.

(Campus Martius) . ودونت على قبره — بأمر منه — عبارة فحواها : لا صديق يبزه فى اثابة المحسن ، ولا عدو يبزه فى عقـاب المسيء .

وقد أثار اعتزاله الحكم فجأة حيرة القدامى وما يزال يثير حيرة المحدثين . وسيقت فى تفسيره آراء عديدة منها أنه قد طمع فى المَلَكِيَّة (Sullanum Regnum) ، ولـكنه يئس عنـدما لم يلق تأييدا للفكرة من بومبى وآل ميتيللوس وبقية النبلاء الذين ائتلفوا ضده . واذ كان غير راغب فى خوض معركة مسلحة فقد آثر الاعتزال . غـير أن الرأى لا يصادف قبولا لدى أكثر الباحثين . لعله رأى أن مهمته الجسيمة قد انجزت ، وأنه وضع من التنظيمات المحكمة ما يكفل سير أداة الحكم سيرا حسنا . فاذا حدث وتخلت طبقة النبلاء السناتورية عن واجبها نحو روما ، فعليها تقع المسئولية . أو لعله — وقد بدأ يعزف عن رتابة الحكم والادارة ويتلهف على حياة الفراغ والمتعة والاثارة — قد هز كتفيه فى سخرية ، وقرر فى برود وعدم اكتراث (وهما صفتان لم يتخل عنهما فى السلم أو الحرب) أن يستمتع فى هناء بذلك القدر الباقى من العمر الذى كتبه له القدر . أم أن ضميره صحا فجأة مثيرا تقززه وامتعاضه من رائحة الدماء التى سفكت ؟ أم أن شبح ضحاياه الكثيرين أفزعه وأقض مضجعـه ؟ أم أنه أحس هو ذاته بدبيب ذلك المرض الخبيث الذى يقال انه أودى بحياته ؟ فى الحق أن أحدا لايدرى كيف مات . أمات منتحرا بقطع أحد شرايينه ، أم متأثرا بانفجار أحـد أوعية دمه ؟ لعل انغماسه فى الملذات والفجور جعله ضحية للمـرض المعروف اليوم باسم « التقمل » .

وأيا كان السبب فان سلا شخصية تجمـع بين المتناقضات : كان محبا بسليقته للنظام والكفاءة فى الحياة العامة ، ولكنه كان مستهترا

منحلا فى حياته الخاصة . وكان ساخرا بالناس لا يكترث لهم ، ومع هذا فقد كان مؤمنا بالخرافات .وكان على انغماسه فى الشهوات جم النشاط ذا همة كبيرة . وكان صارما فى الحق أحيانا ، وقاسيا بلا قلب رهيب الانتقام أحيانا أخرى . لقد جمع فى شخصه بين صفات الثعلب والأسد واضطر ان يقطع الشوط حتى نهايته لكى يؤمن سلامته . وقاده الطريق الوحيد الذى رآه عبر الحرب الأهلية الى السلطة المطلقة .

وتلقى احدى الفقرات الواردة عن ترجمته فى كتاب پلوتارخوس — وهى ترجمة تستحق القراءة حتى فى غير الأصل اليونانى — ضوءا باهرا على طباع هذا الرجل الغريب وقصور عمله ، فهو يقول فيها « ان جميع قراراتى الموفقة صدرت لا عن تفكير بل عن الهام طارىء » . وبعبارة أخرى كان سلا كأى رومانى صميم لا يؤمن بالتفكير فى حل المشاكل بل كان يثق فى سلامة قراراته المرتجلة ، ولهذا لم يستطع أحد أن يتكهن أبدا بما سيفعله أو أن يثق فيه أو يؤمن به . وكان كغيره من رجال ذلك العصر والعصور التالية يؤمن بالحظ أو التوفيق (Fortuna-Felicitas = Tychê) ايمانا شديدا حتى أنه لقب نفسه بسلا سعيد الحظ أو الموفق (Felix) [١] وكان قد أطلق على ابنه وابنته التوأمين فى عام ٨٦ لقبا يحمل معنى مشابها (Faustus & Fausta).

---

(١) لاندرى هل منح له هذا اللقب اوالكنية بصفة رسمية ام غير رسمية ، لكن يلاحظ ان السناتو امر فى نهاية عام ٨٢ بان يقام تمثال « لكورنيليوس سلا القائد الاعلى الموفق » فى مواجهة منصة الخطابة (Rostra) فى السوق العامة . ويقابله فى اليونانية Epaphroditos (نسبة الى افروديتى Aphrodite وهى فينوس Venus عند الرومان ، ربة الحظ السعيد) ، وهو لقب حرص سلا على ان يقرن باسمه فى الشرق الهللينستى كدعاية ضد خصومه ، راجع :

Wissowa, **Religion und Kultus der Römer** (zweite Auflage, 1912), p. 291.

L. Berlinger, **Beiträge zur inoffiziellen Titulatur der römischen Kaiser** (Diss. Breslau 1935), 5-9.

J.P.V.D. Balsdon, "Sulla Felix", **J.R.S.** 41 (1951), 1-10.

ونحن لا ندرى على وجـه الدقة ماذا فهم من كلمـة « الحظ » أو « التوفيق » ، غير أننا نستبعد أن يكون سلا قد فهم الكلمة بمعنى قوةعليامسيطرة على العالم من شأنها أن تسدد خطى رجل السياسة فتبعده عن طريق السعى وراء المصلحة الشخصية وترشدهالى الأهداف القومية السامية .

الفصل الثالث

الثورة : الدور الثانى

النضال بين السناتو والقواد العظام

(٧٨ — ٦٢)

ظهور پومپى الكبير

وبموت سلا ينتهى الدور الأول من الثورة الرومانية . ونحن الآن فى منتصف ثورة ذات جوانب متعددة ، فالدستور ونظام الحكم كل منهما يتغير ببطء تغيرا حقيقيا ، ويزول فى الوقت نفسه عصر المدينة اليونانية — الرومانية الحرة . ولم تكن هناك مندوحة عن حدوث هذين التغييرين ، فبدونهما لم يكن من المستطاع حماية العالم المتمدين من غزو المتبربرين ، أو توحيد ايطاليا كأمة متآلفة يتمتع جميع سكانها بالجنسية الرومانية . وقد رأينا فى الدور الأول من الثورة كيف أبعدت روما خطر الغزو المباشر سواء من الشمال أو الشرق ، وكيف أصبحت ايطاليا رومانية يتمتع أهلها بالمساواة التامة مع مواطنى روما فى ظل القانون الرومانى الذى أخذ يرتقى حينئذ ارتقاء سريعا .

بيد أن عملية التغيير هذه لم يكن قد تم منها سوى النصف . اذ سرعان ما تبين أنه لا بد من اقامة نظام ثابت للدفاع عن الحدود الشمالية والشرقية ، حتى لا تتعرض الامبراطورية لخطر الغزو المستمر. كما تبين أن دستور سلا غير صالح كأداة للحكم ، وأنه لابد للدفاع عن الحدود والحضارة دفاعا مجديا من قيام حكومة قومية ، أيا كان الشكل الذى تتخذه . فهناك اذن فى الدور الثانى من الثورة نقطتان رئيسيتان ينبغى أن نتنبه لهما ، احداهما تأمين الحدود من خطر ملوك الشرق وقبائل الجرمان المتنقلة ، والأخرى استيلاء جندى سياسى عظيم

وهو يوليوس قيصر على السلطة ، والتخلى عن نظام الحكم القـديم القائم على أساس توزيع السلطة بين السناتو والشعب .

رأينا كيف كان سلا قائدا قديرا وحاكما قويا ومنظما اداريا من الطراز الأول ، ولكنه كان ضيق الأفق يفتقر الى المقدرة الانشائية فى الميدان السياسى ، فكان أقصى ما هداه اليه تفكيره فى هذا الصدد هو توطيد نفوذ السناتو واعادته الى المركز الذى لم يكن فى وسعه أن يحتفظ به ما لم يسانده قائد قوى موال له . ولم يستطع سلا باضطهاده الشديد لخصومه السياسيين أن يقضى على حركة المعارضة ضد السناتو بل خلف وراءه تركة مثقلة بالكراهية أودت فى النهاية بمعظم اصلاحاته كما لم يفهم سلا ماهية مشكلات عصره الاجتماعية والاقتصادية ولم يفعل شيئا لتجنيب الدولة خطر الجيوش المحترفة وقوادها المتبرمين بالسلطة المدنية . وقد أظهرت أحداث الحقبة ما بين تريبونية تيبريوس جراكوس وموت سلا عجز كل من السناتو والجمعية الشعبية عن اقامة حكومة مدنية مستقرة . ولكن سيرة سلا أنارت الطريق أمام كل من قيصر وأغسطس لحل المشكلة حلا نهائيا .

ويدور تاريخ هذه الفترة حول طائفة من القـواد البارزين الذين كان لأطماعهم وخصوماتهم أكبر الأثر فى حياة الدولة السياسية . ويعزى ذلك الى عجز السناتو والجمعية عن السيطرة على هؤلاء القواد الذين كانوا يمنحون تحت ضغط الظروف سلطات حربية واسعة ، استغلوها فى تحقيق أطماعهم السياسية وفرض أنفسهم على الدولة . ولما كانت الانتصارات العسكرية حينئذ هى الدعامة الوحيدة التى يقوم عليها المجد السياسى ، فقد حرص الرجال الطموحون على أن يتولوا قيادة الجيوش فى الحروب الهامة . وقد اضطر السناتو ازاء الأخطار التى نجمت عن الحروب الأهلية والخارجية الى أن يمنح السلطة العسكرية لبعض القواد المشهود لهم بالكفاءة حتى فى الأحوال التى لم يكن يطمئن

فيها الى نواياهم الحقيقية . لكن الجمعية الشعبية أصبحت فيما بعد هي التي تمنح هذه السلطة ، وذلك عندما كان يتحالف القائد مع نقباء العامة . ومن ذلك نشأ ما يعرف « بالقيادة غير العادية » ، وهي التي كانت تمنح بمقتضى تشريع خاص من السناتو أو الجمعية ، وتتضمن سلطة عسكرية عليا (امپريوم) أوسع من بعض الوجوه (maius) من سلطة « الامپريوم » الممنوحة للقواد العاديين بالطرق الدستورية المألوفة . وكان پومپى هو أول من أدرك قيمة القيادة غير العادية كأداة للحصول على السلطة .

وپومپى هو جنايوس پومپيوس Cnaeus Pompeius (١٠٦ — ٤٨) ابن پومپيوس استرابون قنصل عام ٨٩ الذى التقينا به فى الحرب الايطالية . وكان قد اشترك مع أبيه أثناء تلك الحرب فى حصار أسكولوم باقليم پيكينوم عام ٨٩ . وبعد سنوات جمع جيشا فى نفس الاقليم لحسابه الخاص وأحرز به عدة انتصارات على خصوم سلا فى عامى ٨٣ ، ٨٢ . وحمل السناتو على أن يسند اليه فى أواخر عام ٨٢ قيادة ضد أنصار ماريوس وكِنّا فى صقلية وافريقيا (نوميديا) مع تخويله سلطة الامپريوم التى يتمتع بها البريتور البديل (propraetore) مع أنه لم يكن قد تقلد أى منصب عام قبل ذلك . وقد ناداه الجنود عقب انتصاره السريع الباهر بلقب امبراطور (imperator) وهى تحية كان الجنود يحيون بها قائدهم عند الانتصار الكبير فى معركة وكان معناها وقتئذ لا يعدو معنى « المظفر » . ولكنها كانت لقبا شرفيا كبيرا يعطى صاحبه الحق فى دخول روما فى موكب نصر بعد استئذان السناتو (١) . ويقال انه رفض تسريح جنوده ، وطالب عند عودته الى

---

(١) كان اول من تلقى هذه التحية المسماة « بالتحية الامبراطورية » (salutatio imperatoria) من جنوده — وان كانت الرواية مثار شك كبير — هو لوكيوس آيميليوس باولوس (L. Aemilius Paullus) لانتصاره فى اسبانيا البعيدة عام ١٨٩ .

روما فى عام ٨٠ بتنظيم موكب رسمى احتفالا بانتصاره (triumphus) وهو شرف وان كان يستحقه لتحية الجنود اياه بلقب الامبراطور أى المظفر (imperator) الا انه كان لا يمنح الا لمن شغل منصبا عاما كالقنصل أو البريتور . وقد عارض سلا هـذه الرغبة فى أول الأمر ، ولكنه رضخ فى النهاية ازاء الحاح پومپى . لعـله خشى قيام پومپى بحركة تمرد أو نشوب فتنة تفضى الى حرب أهلية جديدة . لقد كانت هناك عدة عوامل تجعل من احتمال تهديد پومپى لسلا أمرا له خطورته وفى مقدمتها : ظفره بلقب « امبراطور » مع وجود ست فرق رومانية فى شمال افريقيا تحت قيادته ، وأسطول رهن اشارته ، واحتمال تأييد نوميديا وموريتانيا له ، وصلاته مع « غالة القريبة » ، وولاء پيكينوم له فى وقت لم تكن فيه أحوال ايطاليا قد هدأت تماما . لعل كل ذلك مع ظهور خطر سرتوريوس فى الغرب قد حمل سلا على عدم الاصرار على معارضة رغبة پومپى الذى احتفل بانتصاره ودخل روما فى موكب نصر يوم ١٢ مارس من عام ٨٠ (أو ٧٩ ؟) . وذهب سلا الى أبعـد من ذلك فسمح له أن يحمـل لقب Magnus (بمعنى العظيم أو الـكبير أو الأكبر) ، وان كان پومپى لم يتخـذ من اللقب إسما (cognomen) الا بعد فترة . فى الحق ان پومپى كان أقدر القواد الأربعة (هو وميتيللوس ولوكللوس وكراسوس) الذين خدموا تحت إمرة سلا .

الحرب ضد سرتوريوس :

بعد اعتزال سلا الحكم انتخب كاتولوس [1] (Q. Lutatius Catulus)

= وكان باوللوس وهومن الاشراف بريتورا فى عام ١٩١ ولكنه منح والتنلشارات وامتيازات القنصلية (insignia) وبالتالى الامپريوم القنصلى بصفة استثنائية ولم يتول القنصلية بالفعل الا فى عام ١٨٢ ، ومرة اخرى فى عام ١٦٨ الذى قهر فيه پرسيوس ملك مقدونيا فى معركة پودنا (Pydna) الشهيرة .

(١) وهو ابن الرجل الذى يحمل نفس الاسم وتولى القنصلية عام ١٠٢ وخدم مع ماريوس ضد الكمبرى والتيوتون .

ولپيدوس (M. Aemilius Lepidus) قنصلين لعام ٧٨ . وكان الأخير ينتمي الى أسرة شريفة ولكن السناتو لم يطمئن اليه لارتيابه فى نواياه وتخوفه من طموحه الشديد . فلما توفى سلا تهيأت الفرصة للپيدوس فشرع فى القيام بحركة انقلاب للقضاء على دستور سلا ، واستمال الى جانبه العناصر المتذمرة فى ايطاليا باقتراح مشروعات ترمى الى ارجاع المنفيين من حزب ماريوس الى أرض الوطن ، واعادة السلطة كاملة الى نقباء العامة ، واحياء قانون الغلال الذى أبطله سلا ، ورد الأراضى التى صادرها الدكتاتور الى أصحابها الايطاليين . ولم يجرؤ السناتو على معارضة مشروع الغلال (١) ، ولكنه أحبط المشروعين الآخرين مما أثار سخط الايطاليين فى شمال اتروريا فطردوا جنود سلا القدماء من الأراضى التى استعمروها فى بلادهم . وكانت حركة الايطاليين بمثابة ثورة مسلحة اضطر السناتو ازاءها أن يعهد الى القنصلين باتخاذ التدابير اللازمة لقمعها . فاتخذ لپيدوس من ذلك ذريعة ليجمع جيشا فى شمال ايطاليا — حيث رشح حاكما على ولاية غاله القريبة للعام التالى — وتزعم حركة الثوار وناشد جميع من أصابهم سوء على يد حكومة سلا أن ينضموا اليه فانضوت تحت لوائه قوات ضخمة زحف بها على روما ليعيد ترشيح نفسه للقنصلية ويرد لنقباء العامة حقوقهم القديمة . وتحرج الموقف حتى لم يعد للسناتو أى أمل فى تجنب حكم الارهاب الا بالقضاء على لپيدوس دون ابطاء ، واجتمع وأصدر « قراره الأخير » وأعلن أن لپيدوس « عدو للوطن » . ومع أن كاتولوس ، القنصل الآخر ، استطاع أن يصد قوات لپيدوس عن روما ، فان السناتو لم يجد مفرا من قبول المساعدة التى عرضها عليه پومپى .

---

(١) ومع هذا فلا يبدو ان القانون صدر فى ذلك الوقت ، وانما صدر فيما بعد عام ٧٣ باسم قانون ترنتيوس وكاسيوس (lex Terentia-Cassia) ، فتمل فى ذلك العام . وينص على أن تبيع الحكومة الغلال للفقراء بسعر يقل عن سعر السوق .

وكانت الثورة لا تزال تبدو خطيرة ، ولو أنها كانت فى الحقيقة على وشك الانهيار . ذلك أن اسم پومپى كان كافيا للقضاء على أى خطر جسيم . وقد حال خبر انضمامه الى جانب الحكومة دون انتشار حركة التمرد . ولم يجد القائد المحنك ، الذى أسندت اليه فى عام ٧٧ قيادة ثانوية فى الشمال (١) ، عناء فى حشد القوات اللازمة ، والسير بها الى غاله القريبة حيث حاصر أحد أعوان ليپدوس فى بلدة موتينا (Mutina) وأرغمه على الاستسلام ثم تخلص منه . وبعدئذ عاد أدراجه الى اتروريا حيث هزم ليپدوس الذى نقل قواته الى سردينيا وحاول الاستيلاء عليها دون جدوى . وقد لقى حتفه بعد ذلك بقليل تاركا قيادة ماتبقى من جيشه لضابط يدعى پرپرنا (M. Perperna Vento) . ولم يلبث پرپرنا ان التجأ فى عام ٧٧ الى أسبانيا ، حيث انضم الى سرتوريوس ، الذى تزعم هناك ثورة خطيرة ضد حزب السناتو .

لقد نجح السناتو فى اخماد الثورة قبل اندلاع لهيبها ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك الا بعد أن نصب پومپى قائدا على جانب من قوات الحكومة . وقد رفض پومپى أن يسرح هذه القوات ، وطالب بإيفاده الى أسبانيا لتعزيز جيش ميتيللوس الذى كان يعمل على اخماد ثورة سرتوريوس . واستجاب السناتو لمطلبه فرحل الى أسبانيا حيث واجهته مهمة أشق مما كان يتصوره .

كان سرتوريوس (٢) (Q. Sertorius) قطبا من أقطاب الحزب الديمقراطى . وكان قد خدم تحت امرة ماريوس فى الحرب ضد التيوتون

---

(١) لعلها سلطة الامپريوم المخولة « للبريتور البديل » .

(٢) راجع « سيرة سرتوريوس » فى كتاب تراجم العظماء لپلوتارخوس .

(١٠٢) ثم ولى منصب الكويستور فى سنة ٩١ ، وخـدم بعدها فى أسبانيا ضد قبائل الكلتيين الايبرية ثم فى الحرب الايطالية حيث فقـد احدى عينيه . وقد أثارت مواهبه العسكرية الفذة فى الحرب الايطالية حقد سلا عليه فمنعه من ترشيح نفسه نقيبا لسنة ٨٨ . ولما آلت مقاليد الأمور الى حزب ماريوس فى عام ٨٧ لم يشترك فى حـركة الارهاب واعترض على سياسة التطرف . وقد انتخب بريتورا فى عام ٨٣ ورشح حاكما على ولاية « أسبانيا القريبة » للعام التالى . لكن لم يلبث سلا بعد انتصاره فى الحرب الأهلية فى آخر عام ٨٢ أن أرسل الى أسبانيا حاكما جـديدا استطاع أن يهزم أنصار الحـزب الديمقراطى هناك ، فاضطر سرتوريوس الى الالتجاء الى تينجيس (تانچير) فى موريتانيا (المغرب) عام ٨١ ولكنه عاد بعد مخاطرات عديدة الى أسبانيا ليتزعم ثورة قامت بها قبائل اللوسيتانى (Lusitani) فى المنطقة التى تقابل البرتغال الحديثة عام ٨٠ . وقد أثار الذعر فى روما بكفاءته كقائد خبير بحرب العصابات ، ومهارته فى اجتذاب الأسبان الى صفه بشتى الوسائل (كاستغلال ايمانهم بالخرافات) ، والانتصارات الأولية التى أحرزها ، اذ استطاع أن يهزم أولا حاكم ولاية « أسبانيا البعيدة » فى عام ٨٠ وأن يهزم بعد ذلك ميتيللوس پيوس (Q. Caecilius Metellus Pius)(١) زميل سلا فى القنصلية عام ٨٠ ، وحاكم « أسبانيا البعيدة » فى عام ٧٩ والذى أرسل الى أسبانيا لقمع حركته . كمـا ألحق هيرتوليوس (Hirtuleius) نائب سرتوريوس الهزيمة فى نفس العام بحاكم ولاية « أسبانيا القريبة » ، وبحاكم ولاية « غاله الناربونية » الذى حضر لنجدة ميتيللوس پيوس فى العام التالى وزحف سرتوريوس عبر وسط

---

(١) وهو ابن ميتيللوس (Q. Caecilius Metellus) قنصل عام ١٠٩ ، الذى التقينا به فى الحرب ضد يوجورتا والملقب « بالنوميدى » (Numidicus) أى « قاهر نوميديا » انظر ص ٤٩ ، ٥٩ .

اسبانيا الى منتصف نهر الابرو حيث انضم اليه « پرپرنا » الذى أحضر معه من سردينيا فلول جيش ليپدوس وحشد قوة يبلغ عددها حوالى ٢٠ر٠٠٠ جندى . وعند مكان قريب من أوسكا (Osca) أنشأ سرتوريوس مدرسة لأبناء زعماء القبائل الكلتية ــ الأيبرية الذين أبدوا حماسا شديدا لقضيته ، واضعين أبناءهم ــ عن غير قصد ــ كرهائن تحت يديه . ولم ينته عام ٧٧ حتى كان سرتوريوس قد سيطر على معظم شبه الجزيرة الأيبرية . وقد اعتبر نفسه الحاكم الشرعى لولاية «أسبانيا القريبة » زاعما أنه لم يحمل السلاح ليناوىء روما بل ليناوىء الحزب الارستقراطى المستولى بطريق غير شرعى على مقاليد الحكم فى العاصمة. واستعان سرتوريوس بأعضاء من الحزب الديمقراطى لتصريف الشئون المدنية والعسكرية ، وأنشأ مجلسا على غرار السناتو الرومانى مؤلفا من أنصاره الذين فروا من روما لاجئين اليه وربطوا مصيرهم بمصيره وعلقوا أمل العودة الى ايطاليا على انتصاره .

ولما كان السناتو لا يرغب فى مهادنة سرتوريوس فلم يعد هناك مناص من ارسال قائد جديد الى أسبانيا على رأس قوات جديدة لاخماد الثورة . وعندما تردد القنصلان فى قيادة الحملة ضد الزعيم الثائر ، سعى پومپى ــ كما رأينا ــ للحصول على قيادة الحرب الأسبانية . وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بلغ السن التى تؤهله لذلك ، ولم يتدرج فى سلك الوظائف العامة ، فان السناتو ازاء افتقاره الى القواد الأكفاء ، وافق على منحه سلطة « الامپريوم » البروقنصلية ليتولى بمقتضاه حكم ولاية «أسبانيا القريبة» وقيادة الجيش فيها (١) ولكن وصول پومپى الى هذه البلاد على رأس قوات كبيرة لم يضعف

---

(١) ليس من المعروف كيف تم ذلك . ولا تذكر لنا المصادر القديمة سوى أن السناتو أرسله الى اسبانيا . ولم يكن من المستطاع منح پومپى سلطة « الامپريوم » البروقنصلية الا بمقتضى قانون خاص تصدره الجمعية الشعبية . وكانت موافقة السناتو على المشروع ضرورية قبل الاقتراع عليه فى الجمعية الشعبية . ولعل ذلك هو ما حدث بالفعل =

مركز سرتوريوس الذى صمد طوال عام ٧٦ ، وعقد فى نهايته ، بفضل وساطة القراصنة ، معاهدة مع مثراداتيس ملك بنطوس الذى كان يتأهب لاستئناف القتال ضد الرومان . وقد وعد الملك بمده بالمال والسفن فى مقابل أن يعترف له سرتوريوس بحقوقه فى بثونيا وكپادوكيا. ومع أن ميتيللوس پيوس أنزل هزيمة ساحقة بنائب سرتوريوس فى معركة سيجوڤيا Segovia (وسط أسبانيا) عام ٧٥ مما ألجأه الى حرب العصابات مرة أخرى الا أن سرتوريوس كان لا يزال قويا بينما تحرج مركز الرومان لقلة العتاد والمؤونة . فقد استطاع أن يصمد قرب ساجونتوم (Saguntum) لقوات الرومان المشتركة . ولم يجد پومپى مفرا من طلب امدادات جديدة من روما مناشدا السناتو أن يرسلها على وجه الاستعجال حتى لا يضطر الى التخلى عن الحملة أو تتعرض ايطاليا نفسها لغزو كالذى تعرضت له من قبل أيام هنيبال .

وبوصول الامدادات استطاع پومپى بعد معارك كثيرة تخللتها بعض الهزائم أن يزعزع مركز العدو خلال عامى ٧٤، ٧٣ حتى أصبح النصر قريبا ، ولا سيما بعد أن دب النزاع بين أنصار سرتوريوس من الرومان الذين بدأوا يتخلون عنه بعد أن تضاءل أملهم فى غزو ايطاليا . وزاد موقفه حرجا تعسف ضباطه للأسبان ، مما أدى الى فتور حماسهم لحركته ، وفرار جنودهم من جيشه . وقد أرغمه ذلك على

= ولا ندرى ما الذى جعل السناتو يرضخ له ويخوله سلطة الامپريوم البروقنصلى imperium proconsulare (مع ان پومپى كان لا يزال شابا ولم يتول منصبا عاما ولا كان حتى عضوا فى مجلس الشيوخ) ويوفده الى اسبانيا (ربما ليتخلص منه ؟) لا ليكون نائبا (legatus) لميتيللوس ، بل زميلا على قدم المساواة . ولقد قيل ان السناتو لم يجد قائدا من طبقة النبلاء يرغب فى قيادة الحملة الاسبانية ، وان قنصلى عام ٧٧ (وهما من النبلاء) ترددا ايضا اما لافتقارهما الى الخبرة العسكرية أو لاعتبارات سياسية (كعدم الرغبة فى اغضاب ميتيللوس او حرصا على مبادىء سلا) وايا كان الامر ، فان تفويض پومپى مثل هذه السلطة يعتبر ضربة قاصمة لاهداف سلا ، وعملا ينطوى على خطر شديد للسناتو نفسه .

اتخاذ تدابير صارمة نفرت منه قلوب الكثيرين . واشتدت روح التذمر بين أعوانه فدبروا ضده مؤامرة تزعمها بربرنا الذى حقد عليه فاغتاله وتولى القيادة مكانه عام ٧٢ . لكن بربرنا نفســه لم يلبث أن منى بالهزيمــة على يد بومبى ووقع فى الأسر وقــد سلم لبومبى أوراق سرتوريوس التى تدين كثيرا من رجال الحزب الارستقراطى بالاتصال بالزعيم الثائر والعطف على حركته . لكن بومبى أحرقها دون أن يقرأها وأمر بقتله . وبذلك أخمدت الثورة وعاد السلام الى ربوع أسبانيا وقد اتسم تنظيمه لشئون أسبانيا بطابع تقدمى انسانى ، اذ منح بمقتضى قانون جلليوس وكورنيليوس (lex Gellia-Cornelia) الصادر فى عام ٧٢ ، الجنسية الرومانية لكثير من الأسبان ، وكان من بينهم بالبوس (Balbus) أحــد أهالى مدينـــة كاديز (Gades) الذى عاون الرومان معاونة صادقة . ولم يقتل بومبى من قاموه باصرار وعناد ، بل رحلهم الى مستعمرة جديدة فى شمال البرانس (Lugdunum Convenarum) . ورجــع الى ايطاليا عام ٧١ حيث عزا الناس اليه الفضل فى انهاء الحرب الأسبانية ، تلك الحرب التى قام فيها ميتيللوس بيوس بدور يضارع دوره بل يفوقه من وجوه كثيرة .

الحرب الثانية ضد مثراداتيس : (١)

روينا فى الفصل السابق كيف نشبت الحرب فى آسيا الصــغرى حيث ظهر عدو خطير هدد الجانب الشرقى أو الجانب الهللينستى من الامبراطورية الرومانية (٢) . كان هذا العدو هو مثراداتيس ملك بنطوس الملقب بالأكبر (٣) . وكان رجلا فذا طموحا يحلم ببناء امبراطورية فى

---

(١) تسمى هذه الحرب فى بعض الكتب بالحرب الثالثة ضد مثراداتيس .
(٢) راجع ما تقدم فى ص ٧٣ وما بعدها
(٣) وقد يكتب اسمه وبخاصة فى اللاتينية Mithridates (مثريداتيس) .

الأناضول كتلك التى بناها حول البحر الأسود ، ولا يعد متبربرا بأى حال ، اذ كانت اللغة الاغريقية هى اللغة الرسمية فى بلاده . ومن الغريب أنه استهل حياته المجيدة بالذود عن حياض المدن الاغريقية ضد أعدائها مما يحملنا على التساؤل : أو لم يكن من الجائز أن يقوم هذا العاهل بالدور الذى قامت به روما بوصفها نصيرة للعالم الهللينى وسيدة عليه ' بيد أنه ينبغى أن ننظر الى الأشياء بأعين الرومان اذا أردنا أن نفهم أعمال روما فى ذلك العالم . ينبغى أن نتصور مثراداتيس كما تصوروه عدوا لدودا لحرية الاغريق ومصالح الرومان

ولم يكن سلا قد قضى على مثراداتيس قضاء تاما لأن خصومه فى روما انتهزوا فرصة غيابه وأثاروا فى وجهه العراقيل مما أرغمه على أن يعجل بانهاء الحرب وعقد الصلح المعروف « بصلح دردانوس » مع الملك الآسيوى فى سنة ٨٥ على النحو الذى شرحناه (١) . ولما كان هذا الصلح قد نص على احتفاظ مثراداتيس بمملكته فقد أصبح قيام الحرب مرة أخرى أمرا محتملا . وقد عكف مثراداتيس على تدعيم مملكته وتنظيم قواته لأنه توقع استئناف القتال ضد الرومان الذين أثاروا مخاوفه بارجائهم التصديق على شروط الصلح الذى أبرمه مع سلا . لذلك تابع نشاطه الحربى فى آسيا الصغرى حتى تحرج مركز روما بوصفها حامية لحمى الحضارة اليونانية فى تلك المنطقة ، وبدا كأنها عاجزة عن استرداد ذلك المركز . فقد عج البحر بقراصنة كيليكيا الذين دأبوا على مهاجمة السفن الرومانية ، وبلغ من جرأتهم أنهم شرعوا يغيرون على سواحل ايطاليا ذاتها ، ويختطفون الأهالى ويبيعونهم فى سوق الرقيق العالمية بديلوس أو يطالبون بفدية كبيرة لاطلاق سراح البارزين منهم . واضطر السناتو أن يبعث بحملة تحت قيادة القنصل السابق

(١) راجع ما تقدم فى ص ٧٦ — ٧٧ .

سرفيليوس (P. Servilius Vatia) ، الملقب بالاساورى (Isauricus) (١)
للقضاء على معاقلهم فى أقاليم آسيا الصغرى الجنوبية مثل لوكيا (Lycia)
وبامفوليا (Pamphylia) وكيليكيا (Cilicia) ، مما زاد من
مخاوف مثراداتيس . لكن هذه الحملة لم تحقق الغرض المنشود منها
لأن قائدها استدعى قبل أن ينجز مهمته على الوجه الأكمل (٧٧ — ٧٥).
ووراء مثراداتيس وهؤلاء القراصنة كان يكمن عدو لا يقل عنهم خطراً .
فقد أخذ تجرانيس الأول (Tigranes) ملك أرمينيا ، وصهر مثراداتيس ،
أخذ هو الآخر يوسع رقعة أملاكه فاجتاح كپادوكيا الكبرى وانتزع
من البارثيين (Parthi) الركن الشمالى من بلاد ما بين النهرين ، ثم
زحف جنوبا واستولى فى سنة ٨٣ على معظم سوريا ، قاضيا على حكم
آل سليوكوس . فلو تحالف الملكان عسكريا وسياسيا ، لاستحال على
روما أن تبقى مسيطرة على شرق البحر المتوسط والعالم الهللينى . ولكن
الحظ ابتسم لها مرة أخرى فلم يتم هذا التحالف بصورة جدية الا بعد
فوات الفرصة .

وفى آخر عام ٧٥ أو أول ٧٤ مات نيقوميديس الرابع (Nicomedes)
ملك بثونيا ، بعد أن أوصى بمملكته للشعب الرومانى مقتديا بما فعله
أتالوس الثالث ملك برجامون فى سنة ١٣٣ ، وما فعله بطلميوس أپيون
ملك برقة (Cyrenaica) فى سنة ٩٦ . وقبل السناتو التركة وحول
بثونيا الى ولاية رومانية . وانزعج مثراداتيس لأن هذا الاجراء كان
معناه تغيير الأوضاع القائمة فى آسيا الصغرى واختلال ميزان القوى
فيها . لذلك عقد عزمه على أن يحول دون وقوعها فى يد الرومان حتى
لا يسيطروا على مدخل البحر الأسود (Euxinus) ويسدوا فى

---

(١) أى قاهر Isauria وهى منطقة بآسيا الصغرى متاخمة لجبال طوروس
(Taurus) .

وجهه الدردنيل (Hellespontus) والبسفور (Bosporus) . وبادر الى مناصرة ابن ملك پثونيا الراحل الذى كان يطالب بعرش أبيه ، وحشد جيشا مدربا وأسطولا كبيرا ، واتفق مع القراصنة ، وتحالف مع سرتوريوس الذى أمده بالضباط والسفن واعترف بحقوقه فى پثونيا وكپادوكيا . ووجدت روما نفسها مهددة بنشوب حرب خطيرة أخرى ، ولذا أصدر السناتو قرارا باسناد حكم ولايتى كيليكيا وآسيا وقيادة الحملة ضد مثراداتيس الى لوكللوس (L. Licinius Lucullus) أحد ضباط سلا فى الحرب الأولى (١) ، وقنصل عام ٧٤ ، وقرارا آخر باسناد حكم ولاية پثونيا وقيادة الأسطول لحراسة الدردنيل الى زميله القنصل كُتا (M. Aurelius Cotta) . وصدر فى نفس الوقت قانون خاص باسناد قيادة استثنائية للبريتور أنطونيوس (M. Antonius) الملقب بالكريتى (Creticus) (٢) مع تخويله سلطة حربية مطلقة (imprerium infinitum) فى البحر المتوسط وسواحله للقضاء على القراصنة وقد بدأ بتطهير الحوض الغربى من البحر ويبدو أنه استطاع أن يمنع عن سرتوريوس وصول الامدادات عن طريق البحر . وبعدئذ اتجه الى الحوض الشرقى ولكنه فشل فى مهمته فشلا ذريعا وهزم أثناء مهاجمته معاقل القراصنة فى كريت ، وقضى نحبه هناك بعد قليل (٣) .

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ٧٦ .

(٢) وهو ابن البريتور الذى يحمل نفس الاسم والذى اسندت اليه مهمة القضاء على القراصنة فى كيليكيا عام ١٠٢ (انظر ص ٥٧ هامش) وجدير بالذكر انه والد ماركوس انطونيوس ، عشيق كليوبطرة .

(٣) ترتب على مطالب الحرب ونشاط القراصنة المتزايد (الذى أصبح يحول دون وصول السفن المحملة بالقمح الى موانى ايطاليا) ان شح القمح فى السوق وارتفع سعره لذلك صدر فى عام ٧٣ قانون ترنتيوس وكاسيوس قنصلى ذلك العام (راجع ص ١٠٤ هامش ١) مستهدفا التعجيل بتسليم (أو تشهيل مناولة) القمح الصقلى ، وتوزيع خمسة موديات شهريا لحوالى ٤٠,٠٠٠ مواطن بالسعر المحدد منذ جايوس جراكوس ، وهو ٦ ١/٣ اس للموديوس الواحد (راجع ماتقدم فى ص ٢٢ حاشية ١) .

وفى أوائل عام ٧٤ غزا مثراداتيس ولاية بثونيا حيث التقى بالقنصل كتا ودحره ثم حاصره فى خلقدونيه (Chalcedon) . وبعدئذ غزا ولاية آسيا وضرب الحصار على ميناء كوزيكوس (Cyzicus) ، منفذ الولاية الذى يقع على بحر مرمرة (Propontis) . ولكن لوكللوس الذى وصل الى آسيا الصغرى قطع عليه طريق مواصـلاته ، فاضطر مثراداتيس أن يرفع الحصار عن الميناء فى الشتاء وينسحب الى بثونيا متكبدا خسائر جسيمة . وفى عام ٧٣ أصيب أسطوله بهزيمة فى البحر الايجى ، فتمكن الرومان من استرداد بثونيا . وفى العام التالى ٧٢ غزا الرومان بُنطوس نفسها بمعاونة أمير من اقليم جلاتيا (Galatia) يدعى ديوتاروس (Deiotarus) وحاصروا أميسوس Amisus (٧٣ — ٧٢) واستولوا على يوباتوريا[1] ، وأوقعوا الهزيمة بمثراداتيس فى موقعة كابيرا (Cabeira) . وطارد لوكللوس الملك الآسيوى وأرغمه على الالتجاء الى أرمينيا (٧٢) . وأتم فى العام التالى (٧١) اخضـاع بنطوس بالاستيلاء على مدنها الحصنية الواحدة تلو الأخرى ، وكذلك أرمينيا الصغرى ، وبعدئذ عاد لوكللوس فى عام ٧١/٧٠ الى ولاية آسيا حيث انهمك فى تنظيم شئونها المالية . وكانت مدن هذه الولاية ترزح تحت وطأة الديون الفادحة التى اقترضتها من المرابين وجباة الضرائب الرومان ، وهى فى الأصل أموال كان سلا قد أكرهها على تقديمها له . وتدخل لوكللوس لانصاف الأهالى فخفض قيمة الفائدة على الديون المستحقة الى ١٢ ٪ حتى يعينهم على الوفاء بها على أقساط سـنوية معتدلة . وألغى باقى المستحق (المتأخر) من الفوائد الذى يتجـاوز القيمة الأصلية للدين ، وحرم على الدائن الحجز على ما يزيد عن ربع الدخل السنوى للمـدين . وأمر بتخصيص ٢٥ ٪ من ثروة الولاية ، وجباية بعض ضرائب لاستيفاء تعويضات الحرب . وقد خلصت هـذه الاجزاء من الولاية من الديون خلال أربع سنوات حتى أن كثيرا من المدن أنشأت له أعيادا باسمه (Lucullea) اعترافا بفضله . لكن هـذه

(١) يوباتوريا مدينة اسسها مثراداتيس السادس ، نسبة الى لقبه يوباتور (اى المنحدر من اصل نبيل كريم المحتد Eupator) وتقع قرب الساحل الجنوبى للبحر الاسود ، شمال زيلا .

الاجراءات أثارت عليه من ناحية أخرى سخط الفرسان ، وهم رجال الأعمال فى روما ، فسعوا الى عزله من القيادة متذرعين بحجة أنه يطيل الحرب دون مبرر أو جدوى لاحراز مجد شخصى . كما حرضت دهماء المدينة على التنديد بأطماع رجل ينتمى الى الطبقة الأرستقراطية . غير أن لوكللوس فى الحقيقة حمى آسيا الصغرى من غزو مثراداتيس ، وحماها كذلك من ابتزاز الفرسان .

ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد لأن مثراداتيس كان لا يزال طليقا . لذلك طالب لوكللوس ملك أرمينيا بتسليمه ، فلما رفض مطلبه غادر بنطوس وعبر أعالى الفرات ، دون اذن من السناتو ، وغزا مملكته واستولى على عاصمته الجديدة تجرانوكرتا (Tigranocerta) فى عام ٦٩ . وفى العام التالى تابع لوكللوس زحفه ليتم اخضاع البلاد ، ولكن الجنود تمردوا عليه ورفضوا التوغل فى مجاهل أرمينيا الموحشة بعد أن بلغوا أقصى منطقة وعرة بلغها جيش رومانى حتى ذلك الحين . وأما التمرد فيعزى الى أنه فرض على الجنود نظاما صارما وكبح جماحهم وحمى الأهالى من عبثهم . ولم يكن لوكللوس من سوء الحظ يتمتع بموهبة القائد الفذ ، تلك الموهبة التى أتاحت ليوليوس قيصر من بعده أن يقود رجاله الى أى مكان وفى أى وقت يشاء . لذلك لم يجد مناصا من الانسحاب والعودة الى ما بين النهرين (Mesopotamia) حيث عسكر فى نصيبين (Nisibis) . ولم يطل بها المقام فعاد الى بنطوس ليجد أن نائبه العسكرى ترياريوس قد تورط واشتبك مع مثراداتيس فى معركة ولقى الهزيمة عند زيلا (ربيع عام ٦٧) ، وأن الجنود متذمرون يطالبون بالتسريح الذى حان ميعاده ، وأن الامدادات التى أرسل فى طلبها من روما لم تصله . وبالاجمال وجد نفسه عاجزا عن أن يفعل شيئا . وترامت الى مسامعه أنباء تجريده من سلطاته تباعا ، ورفض جلابريو الذى استبدل به أن يخلى له بثونيا ، وسحبت منه قواته . ومن

سخرية القدر أن تصل آنئذ لجنة العشرة السناتورية (ومن بينها أخوه نفسه) للمساعدة فى تنظيم پنطوس كولاية. لكن پنطوس كانت قد أفلتت من السيطرة الرومانية واستردها مثراداتيس ، كما استرد صهره تجرانيس (ملك الملوك) أرمينيا وشرع يهاجم كپادوكيا . وهكذا انتهت مؤامرات خصومه فى روما باعفائه أولا من حكم آسيا [١] (٦٩) ثم من كيليكيا [٢] (٦٨) ، وبعدئذ من پثونيا وپنطوس (٦٧) واسناد الأخيرتين الى غيره (جلابريو قنصل ٦٧) فترة قصيرة ، وذلك توطئة لاسناد حكم هـذه الولايات والقيادة العسـكرية ضد مثراداتيس الى پومپى فى آخـر الأمر (٦٦) . لكن من الانصاف أن نؤكد بأن لوكللوس وإن لم يقض على مثراداتيس وتجرانيس قضاء تاما لظروف بعضها خارج عن ارادته ، الا أنه قد انهك بحملاته الموفقة قوة الملكين وبدد مواردهما العسـكرية مما جعلهما يعجزان عن الصمود طويلا أمام پومپى بعد ذلك .

ثورة اسپرتاكوس والعبيد المجالدين :

وبينما كان پومپى يقاتل سرتوريوس فى أسبانيا ، وكان لوكللوس يطارد مثراداتيس فى پثونيا ، نشبت ثورة خطيرة بين العبيد فى ايطاليا [٣] وقد بدأت الثورة بحركة تمرد قام بها فريق منهم عام ٧٣ فى احـدى مدارس المجالدين (gladiatores) بمدينة كاپُوا (Capua) باقليم كمپانيا حيث كان العبيد يدربون على المبارزة لتسلية الجماهير فى حلبات المصـارعة (arenae). وتزعم الحركة عبد طراقى يدعى اسپرتاكوس

---

(١) لا نعرف الى من اسند حكم هـذه الولاية حينئـذ لـكن يرجح أنه پوبليوس كورنيليوس دولابللا .

(٢) اسند حكم هذه الولاية الى كوينتوس ماركيوس ركس أحد قنصلى ٦٨ .

(٣) الحرب والقرصنة هما سبب تضخم عدد العبيد فى ايطاليا ، فأسرى الحروب كانوا يسترقون ويصيرون عبيدا . وكان القراصنة يغيرون على السواحل ويخطفون الاحـرار ثم يبيعونهم فى أسواق النخاسة ومنها كان أثرياء الرومان يشترونهم بأسـعار بخسة لمختلف الأغراض ، وبخاصة للعمل فى ضياعهم الفسيحة (latifundia) .

(Spartacus) ، وآخر كلتي يدعى كريكسوس (Crixus) . واعتصم الثوار بمنحدرات جبل ڤيزوف ، وانحاز الى جانبهم جمع غفير من العبيد الآبقين من الضياع الفسيحة ، وتغلبوا على جيشين رومانيين تحت قيادة بريتورين ، واكتسحوا كمبانيا ولوكانيا ومعظم أقاليم جنوب ايطاليا . ولم ينته عام ٧٣ حتى كان عدد الثائرين قد بلغ حوالى ٩٠٫٠٠٠ عبد ، فوزعوا قواتهم لملاقاة القنصلين اللذين توليا القيادة ضدهما فى عام ٧٢ ومنى كريكسوس الكلتى بالهزيمة فى أپوليا ، فزحف اسپرتاكوس نحو الشمال بقصد عبور الألب والالتجاء الى طراقيا ، أو لتشتيت زملائه فيهرب كل منهم الى موطنه الأصلى . وتبعه القنصلان ولكنه دحرهما الواحد بعد الآخر . ثم دحرهما مجتمعين . واقتحم ولاية غالة القريبة بعد أن هزم حاكمها ، غير أن أتباع اسپرتاكوس من الغال والجرمان رفضوا مغادرة ايطاليا حيث استمرأوا أعمال السلب والنهب ، وعادوا الى الجنوب مخربين فى طريقهم الأراضى التى مروا بها . ولما كان اسپرتاكوس لا يجرؤ على مهاجمة روما ، فقد عاد هو الآخر الى جنوب ايطاليا . ولعله قد ساورته فكرة أخرى وهى عبور البحر الى صقلية .

وازاء الفشل الذى منى به قنصلا عام ٧٢ لم ير السناتو بدا من أن يعين البريتور كراسوس (M. Licinius Crassus)[1] ، وهو أحد ضباط سلا القدماء ، قائدا على ست فرق ويمنحه بصفة استثنائية سلطة پروقنصلية لقمع ثورة العبيد . هكذا اقتضت الظروف وجود قنصل بديل يتولى قيادة جيش فى ايطاليا نفسها ، وهو ما كان سلا يسعى لتلافيه بأى ثمن . واستطاع كراسوس أن يضيق الخناق على اسپرتاكوس باقليم بروتيوم (Bruttium) فى أقصى الجنوب الغربى حتى اضطر أن يستأجر بعض سفن المرتزقة من كيليكيا لتنقله الى صقلية . ولكن المرتزقة غدروا

---

(١) وهو الملقب بالثرى (Dives)

به بعد أن تقاضوا أجرهم وأبحروا تاركينه لمصيره . وكان ڤارو حاكم مقدونيا قد وصل الى برنديزى عائدا من طراقيا لمساعدة كراسوس فهاجم الثوار ودفع بهم الى الوراء . وعندئذ وجد اسپرتاكوس أن لا مناص من أن يشق طريقه ثانية نحو الشمال ، فحاول أن يخترق صفوف جيش كراسوس ، ولكنه انهزم فى ثلاثة اشتباكات بسبب انقسام قواته وسقط قتيلا فى لوكانيا ، ووقع ستة آلاف من أتباعه فى الأسر وصلبوا وعلقت جثثهم فى طريق أپيوس ، وفر الباقون الى الشمال حيث اعترض سبيلهم پومپى الذى اتفق أن عاد وقتئذ من أسبانيا (عام ٧١) ، ورحب بقرار تكليفه بالانضمام الى كراسوس لسحق بقية قوات الثوار . وبعث پومپى الى السناتو — بعد ابادته فلولهم — برسالة يفتخر فيها بانهائه حرب العبيد !

وتبدو ثورة اسپرتاكوس كمأساة مفجعة لأن كفة الرومان كانت أرجح بكثير من كفته . وكان بالقياس الى معاصريه رجلا شفوقا مرهف الاحساس ، كما كان رجلا قديرا بارعا . لقد أنشأ جيشا ودربه وسلحه من العدم ، وهزم به جيشين تحت امرة قنصلين . وهذا عمل عظيم قريب من المعجزة . غير انه لم يستطع أن يفرض سيطرته دائما على جنوده ، اذ كانوا أحيانا يتحولون عنه الى السلب والنهب والانتقام الهمجى ، وأحيانا أخرى كانت الخلافات تثور بين مختلف قوادهم . لقد عجز عن تركيز القيادة الكاملة فى يده . ويرسم له المؤرخون الماركسيون صورة مثالية كبطل من أبطال الجماهير الثورية أو الثورات الاجتماعية. لكن الأقرب الى الصواب هو أنه كان وليد أوضاع محلية ومساعدات مبعثرة عفوية فهو لم يحاول الاستعانة بعبيد المدن ، واستمد كل قوته من العناصر الهاربة من الذل والهائمة على وجوهها فى الريف . ولم يكن اسپرتاكوس صاحب نظرية سياسية يخوض معركة لنشرها ، بل كان رجلا شجاعا يقاتل من أجل حريته الشخصية التى حرمته منها الظروف الرهيبة التى

أحاطت بزمانه ومكانه . وتسببت الثورة فى خسائر فادحة وخراب شامل . لكن لعلها قد علمت بعض كبار ملاك الأراضي الرومان معاملة عبيدهم بشيء من الرأفة والرحمة . ولقد شرع بعضهم فى استخدام الأجراء الأحرار (coloni) فى ضياعهم بدلا من العبيد . لكن الى جانب هذا المظهر الاجتماعى — الاقتصادى للثورة ، كانت الآثار السياسية غير المباشرة بالغة الخطورة .

قنصلية پومپى وكراسوس :

عاد پومپى وكراسوس الى العاصمة وكلاهما مزهو بالانتصار الذى أحرزه أحدهما فى اسبانيا واحرزه الآخر فى ايطاليا ، فطالبا بترشيح نفسيهما قنصلين لعام ٧٠ . وكان كراسوس مستوفيا معظم شروط الترشيح . لكن ترشيح پومپى كان يتعارض والدستور لأنه لم يكن قد بلغ السن القانونية ، ولم يتقلد منصبى الكويستورية والپريتورية اللذين يؤهلانه للقنصلية . ولذلك اعترض السناتو على ترشيحه ، واعترض أيضا على ترشيح كراسوس لارتيابه فى نواياه هو الآخر . بيد أن السناتو رضخ فى النهاية على أمل أن تحول الخصومة الشخصية بين القائدين دون اتفاقهما عليه . وطالب كل من القائدين باقامة موكب له احتفالا بانتصاره (١) ، متخذا من ذلك ذريعة للاحتفاظ بقواته على مقربة من روما . وأدرك السناتو أن ذلك المطلب ينطوى على تهديد مستتر باستعمال القوة عند الضرورة لينفذ كل منهما أغراضه .

---

(١) طالب پومپى بموكب كبير (triumphus) وهو الذى يدخل القائد فيه العاصمة وهو راكب عجلة حربية ويزين هامته اكليل من الغار . وأما كراسوس فطالب بموكب صغير (ovans) وهو موكب أقل فخامة من سابقه يدخل فيه روما وهو سائر على قدميه او ممتط صهوة جواده ويزين هامته اكليل من الريحان .

وفى نفس الوقت سعى القائدان الى استمالة الحزب الديمقراطى إلى جانبهما بعد أن وعداه برد الحقوق القديمة لنقباء العامة ، ولم يدخرا وسعا للظفر بتأييد طبقة الفرسان بالتلويح لهم باعادة تعيينهم كمحلفين فى محاكم الجنايات . وتناسى الزعيمان ما كان بينهما من تنافس ونفور ، وعقدا صداقة سياسية (amicitia) وأيد كل منهما الآخر تأييدا تاما ، فأسفرت الانتخابات عن فوزهما بالقنصلية لعام ٧٠ . فلما تقلدا المنصب أتما هدم دستور سلا . وكان قد صدر فى عام ٧٥ قانون يعرف بقانون أوريليوس (lex Aurelia) نسبة الى أحد قنصلى ذلك العام ويبيح لنقباء العامة ثانية أن يرشحوا أنفسهم للمناصب العليا ، فصدر حينئذ قانون جديد يعرف بقانون ليكينيوس وپومپى (lex Licinia-Pompeia) (١) ويقضى برد السلطة التريبونية (tribunicia potestas) كاملة الى النقباء فى التشريع ومزاولة حقهم كاملا فى النقض (٢) . وصدر قانون آخر يحمل أيضا اسم أوريليوس (٣) (lex Aurelia iudiciaria) ويقضى باعادة

---

(١) ليكينيوس نسبة الى اسم عشيرة كراسوس .

(٢) سبقت ذلك محاولات قام بها كل من كونكتيوس (L. Quinctius) ، احد نقباء العامة فى ٧٤ ، وماكر (L. Licinius Macer) احد نقباء العامة فى ٧٣ ، وكاتب الحوليات المعروف ، لكى تعاد السلطة التريبونية كاملة الى نقباء العامة .

(٣) وهو لوكيوس أوريليوس كتا احد البريتوريين فى عام ٧٠ . وشقيق جايوس أوريليوس كتا القنصل الذى تبنى قانون عام ٧٥ المذكور أعلاه ، وكلاهما شقيق ماركوس أوريليوس كتا قنصل عام ٧٤ الذى التقينا به فى الحرب الثانية ضد مثراداتيس

وجدير بالذكر ان نقيب العامة كونكتيوس (انظر الحاشية السابقة) كان قد تولى الدفاع عن اوپيانيكوس (Oppianicus) الذى اتهم بدس السم لابن زوجته كلوينتيوس (A. Cluentius) . وقد رشا المتهم هيئة المحلفين وافتضح أمر الرشوة وساءت سمعة المحلفين (وهم حينئذ من طبقة السناتو) ، وادين المتهم [الذى مات عام ٧٢ ثم وجه ابنه بعد ذلك فى عام ٦٦ تهمة القتل لكلوينتيوس ودافع عنه شيشرون فى خطبته الفضائية الشهيرة باسم الدفاع عن كلوينتيوس Pro Cluentio ويرجح انه ظفر له بحكم البراءة] . واستطاع هذا النقيب بعد ذلك ان يحصل على حكم بادانة رئيس المحكمة نفسه (iudex quaestionis) واحد المحلفين . وكان شاب آخر من اسرة شريفة وهو جايوس يوليوس قيصر الذى عاد حديثا من الشرق قد لفت الانظار اليه عندما اقام فى

=

تكوين هيئات المحلفين فى محاكم الجنايات واختيارهم بالتساوى من بين طبقات ثلاث وهى السناتو والفرسان وترابنة الخزانة (tribuni aeraii) . ويبدو أن الأخيرين كانوا — كما أسلفنا — أصحاب نصاب مالى يلى مباشرة نصاب الفرسان ، وان كنا لم نتيقن بعد حقيقة أمرهم (١) . وأعيد

==

عام ٧٧ دعوى الابتزاز على دولابللا (Cn. Cornelius Dolabella) — حاكم مقدونيا — ولكنها لم تسفر عن ادانته . ثم اقام دعوى اخـــرى على ماركوس انطونيوس هوبريدا (M. Antonius Hybrida) احد اعوان سلا فى عام ٧٦ (رفيما بعد زميل شيشرون فى القنصلية عام ٦٣) متهما اياه بنهب بعض الاغريق . ولكن القضية انتهت ببراءة المتهم . وحوالى نفس الوقت (٧٥ — ٧٤) اتهم ضابط يدعى فارو (A. Terentius Varro) مرتين بابتزاز اموال فى ولاية آسيا . ولكنه برىء من التهمة فى المرتين بفضل دفاع الخطيب الكبير هـــورتنسيوس عنـــه — وهو نقيب المحـــامين فى عصره — وبفضل التـــلاعب فى بطاقات التصـــويت السرى . وقد اضـــاف ذلك فضيحة اخـــرى الى سلسلة الفضـــائح التى كشفت عن انحـــراف بعض الحكام السناتوريين فى الولايات وارتشاء المحلفين السناتوريين فى العاصمة .

(١) هذه الطبقة التى يكتنفها الغموض كانت تتالف قديما من الصرافين فى الجيش . لكن فى الوقت الذى نحن بصدده اصبحت تضم من يمتلكون ثروة تتراوح بين ٣٠٠,٠٠٠ ، ٤٠٠,٠٠٠ سسترتيوس اى نصابا يلى مباشرة النصاب المشترط لعضوية طبقـــة الفرسان (Ordo Equester) . وايا كان الامر فان مصالحهم كانت اكثر توافقا مع مصـــالح الفرسان منه مع مصالح السناتو .

وجدير بالذكر انه فى عام ٧٠ ، وقبـــل صدور قانون اورليوس باعادة تشكيل محاكم الجنايات جرت محاكمة فريس (C. Verres) حاكم صقلية الذى كان يحمل رتبة برو بريتور (pro praetore) . وقد اشتهرت هذه القضية لأن شيشرون (Cicero) هو الذى اقام الدعوى فيها باسم اهالى صقلية على هذا الحاكم بعد انتهاء مدة خدمته . وكان فريس قد حكم ولاية صقلية مدة ثلاث سنوات (٧٣ — ٧١) ، فابتز اموال سكانها ونهب تحف اثريائها وسرق نفائس معابدها . وكان يتباهى علنا بانه يخصص غنائم السنة الاولى لنفسه ، وغنائم السنة الثانية لاصـــدقائه ، وغنائم السنة الثالثة للمحلفين (الذين كانوا حينئذ من رجال السناتو) . وكان شيشرون حينئذ فى السادسة والثلاثين من عمره ، وقد تولى منصب الكويستورية فى غرب صقلية عام ٧٥ ، فاحرز بنزاهته ثقة الاهالى ، وبمرافعاته شهرة واسعة . واما فريس فقد وكل عن نفسه هورتنسيوس (Q. Hortensius Hortalus) اقدر الخطباء والمحامين الرومان فى ذلك الوقت . وحاول فريس عبثا تاجيل نظر القضية أو حمل شيشرون على التنحى عن اقامة الدعوى باسم أهالى صقلية . وسافر شيشرون الى الى الجزيرة ليجمع الادلة وعاد الى روما حيث انتخب محتسبا (aedilis) للعام التالى على الرغم من محاولة خصومه اسقاطه لاضعاف مركزه . وتحدد اليوم الخامس من شـــهر اغسطس عام ٧٠ لاجراء المحاكمة . وحاول هورتنسيوس ، الذى انتخب هو الآخر قنصلا

==

منصب الرقباء (censores) الذى عطله سلا وظل شاغرا مدة طويلة (٨٥ — ٧١) ، فروجعت قائمة أعضاء السناتو وحذف منها ٦٤ اسما ، وتم تسجيل أسماء المواطنين الجدد فى جميع القبائل بصورة نهائية ،

=

للعام التالى ٦٩ (consul designatus) أن يستغل العطلات الرسمية الكثيرة فى تلك الفترة الاخيرة من السنة لتأجيل القضية الى ما بعد أول يناير من عام ٦٩ حتى يتولى رئاسة محكمة الابتزاز (quaestio de repetundis) بريتور من أصدقاء فريس. لكن شيشرون فوت على خصمه الفرصة فتجنب الادلاء بمرافعة مطولة حول موضوع الاتهام واكتفى بعرض موجز للدعوى ضد فريس . وبعد ان نادى شهوده ، فاسقط فى يد هورتنسيوس ولم يجد ما يدفع به التهمة عن موكله أو يدحض أدلة الادانة الدامغة . وآثر فريس حتى قبل الانتهاء من سماع الشهود أن يغادر ايطاليا الى المنفى حيث قضى بقية حياته فى مسيليا (مرسيليا) . وقد ادانته المحكمة غيابيا ، وتألق اسم شيشرون الذى أصبح بمثابة نقيب المحامين فى عصره . لكن ينبغى الا يفوتنا ان ادانة فريس على يد محلفين من رجال السناتو قد تعزى أيضا الى جزعهم من الاصلاح الذى كان حينئذ قيد البحث وكان ينذر بحرمانهم من الجلوس فى محاكم الجنايات . وقد استخدم شيشرون الادلة التى جمعها ضد فريس فى كتابة خطبته المعروفة باسم الدعوى الثانية ضد فريس (Actio Secunda in Verrem) والتى لم تتح له بطبيعة الحال فرصة القائها ، ولكنه نشرها على سبيل الدعاية السياسية . ومن هذه الخطبة نحاط علما بالاساليب التى اتبعها ذلك الحاكم لابتزاز الاموال من اهالى الولاية واقتناء ثروة طائلة . وكان من بينها تدبير الاتهامات الباطلة واصدار الاحكام فى العاجلة أو ارهاب القضاة ليصدروا أحكاما ظالمة تؤدى الى مصادرة أملاك المتهمين والاستحواذ عليها ، والاحتيال على جباة الضرائب للتهرب من دفع المكوس المستحقة على ما يصدره من نفائس خارج صقلية ، وبيع الوظائف المدنية والدينية ، والتواطؤ مع جباة ضريبة العشور (decumani) ، والزام الزراع بدفع ما يطلبه هؤلاء الجباة منهم على أن يتظلموا عند وقوع حيف عليهم أمام المحكمة التى يرأسها هو والتى لم تكن تنصفهم قط ، واقراض الاموال الاميرية بفوائد فاحشة ربوية ، وعدم تسديد ثمن القمح المشترى من مدن صقلية باسم الحكومة الرومانية ، واقتضاء الثمن كاملا من الحكومة ، وارغام المدن على أن تدفع بدلا من القمح المخصص للانفاق على الحاكم وحاشيته مبالغ تزيد كثيرا على سعر القمح السائد فى السوق ، ومطالبة الزراع بما يزيد أحيانا عن كل محصولهم السنوى مما يدفعهم الى الفرار من أراضيهم ، واغتصاب التحف الثمينة من الافراد ونهب الآثار الفنية من المدن وسرقة التماثيل البديعة من المعابد . وكان من يقف فى وجه فريس أو يندد به ، يزج به فى غياهب السجن أو يسام سوء العذاب أو يقتل بغير ذنب حتى ولو كان مواطنا رومانيا . وكانت جميع هذه الاجراءات التعسفية انتهاكا صارخا لميثاق أو دستور الولاية (lex provinciae) التى لم تكن بها سلطة أخرى توقفه عند حده . وأما السناتو الذى كان يتحتم عليه أن يكبح جماح ذلك الحاكم فلم يكترث بالشكاوى التى انهالت على العاصمة ضده . على أن فريس — وتلك هى الحقيقة المرة — لم يكن سوى واحد من حكام كثيرين على شاكلته وان كان يبزهم فسادا وجشعا وجرأة .

وكذلك فى الوحدات المئوية بالطبقات المختلفة (classès) بالجمعية المئوية (Comitia Centuriata) فاكتسبوا بذلك حق الاقتراع على القوانين وحق انتخاب الحكام (١) .

---

(١) كانت مسالة تسجيل الحلفاء اللاتين والايطاليين مثار خلاف شديد بين الاحزاب الرومانية ، وما تزال موضع جدل بين المؤرخين المحدثين . فقد كان هناك فريق (وبخاصة السناتو وجانب من الدهماء) ينادى بقصر تسجيلهم فى عدد محدود من القبائل ، بينما كان فريق آخر يطالب بتوزيعهم بين جميع القبائل الخمس والثلاثين . ويقول المؤرخ ابيانوس (Appianus, Bell. Civ. I, 49) ان الفريق الاول اقترح انشاء عشر قبائل جديدة تسجل فيها اسماء المواطنين الجدد ، بينما يقول المؤرخ فيلليوس باتركولوس (Velleius Paterculus, II, 20) انه اشترط ادراجهم فى ثمانى قبائل فقط يرجح انها من القبائل القديمة. وقد بذلت محاولات للتوفيق بين هاتين الروايتين ، ولكنها لم تصل الى شىء مما دعا البعض الى ان يقول ان كلتا الروايتين قد تكون صحيحة . فلعل ان ابيانوس انما يشير الى القبائل الجديدة التى اقترح تكوينها بمناسبة صدور قانون يوليوس فى عام ٩٠ (راجع ص ٦٨ — ٦٩) ، بينما يشير فيلليوس الى تسوية كانت قائمة فى اثناء قنصلية كنتا عام ٨٧ . وقد وقعت خلال تلك السنوات الثلاث احداث كثيرة مما يجعلنا نرجح أن المشروع الذى اقترح فى عام ٩٠ عدل فيما بعد.

عندما صدر قانون يوليوس فى عام ٩٠ أيد انصار تقييد حق الايطاليين مشروع تكوين عشر قبائل جديدة حتى لا يطغوا على المواطنين القدامى . ولما كان قانون يوليوس يهدف أولا الى وقف انتشار الثورة ، فلعله اغفل أو لم يتمسك بهذه النقطة على الرغم من اشتماله على بند بتنظيم قبائل جديدة . ويحدثنا ابيانوس ان الايطاليين رحبوا بالجنسية الرومانية ، ولكنهم تذمروا فيما بعد من القيد المفروض عليهم (انظر ص ٧٠) ، ومن المحتمل أن هذا التذمر ادى الى عدم المضى فى مشروع انشاء القبائل الجديدة فى عام ٨٩ . وظلت المشكلة بغير حل حاسم حتى عام ٨٨ ، ولذلك استصدر سولبيكيوس روفوس احد نقباء ذلك العام (راجع ص ٧٨) قانونا بتسجيل المواطنين الجدد (والمعتقين) فى جميع القبائل الرومانية . لكن سلا لم يلبث ان احتل روما فى نفس السنة فاعدم ذلك النقيب والغى قوانينه ، مما اثار المشكلة من جديد . وقبل أن يرحل سلا الى الشرق استصدر هو وزميله بومبيوس روفوس عدة قوانين خاصة بتعديل الدستور ، ومعلوماتنا عنها كلها مستقاة من ابيانوس (Bell. Civ I, 55 ‹ 59) لايذكر شيئا عن قانون استصدره سلا حينئذ بشأن الايطاليين . ومع هذا فلا يستبعد ان سلا حاول ان يحسم المشكلة على اساس قصر حق الايطاليين فى الانتخاب على ثمانى قبائل فقط . وعلى اى حال فقد غير الحزب المناوىء للايطاليين سياسته وتخلى عن فكرة انشاء عشر قبائل جديدة واخذ بفكرة تسجيل المواطنين الجدد فى ثمانى قبائل من القبائل القديمة .

وكانت اسرع الطرق وايسرها لتنفيذ الفكرة هى تخويل المواطنين الجدد حق التصويت فى ثمانى قبائل تختار بالقرعة فى كل مناسبة تستدعى الاقتراع على مشروع معين =

الحرب ضد القراصنة والحملة فى الشرق

بقى بومبى وكراسوس فى روما بعد انتهاء مدة القنصلية يترقب كلاهما فرصة لاحراز مجد عسكرى جديد بتولى القيادة فى حرب خارجيــة هامة . وقد سنحت هذه الفرصة لبومبى عندما اشتد خطر قراصنة البحر المتوسط ولا سيما قراصنة كيليكيا . وقد رأينا كيف حاولت الحكومــة الرومانية القضاء على أوكارهم فى جنوب آسيا الصغرى وكريت فشنت عليهم حملة سنة ١٠٢ وأخرى فى ٧٧ ، وثالثة فى ٧٤ . لكن هــــذه الحملات لم تقض تماما على خطر القراصنة الذين نهبوا ميناء ديلوس وخربوه فى عام ٦٩ . (١) ثم نقلوا مركز نشاطهم الى سواحل ايطاليــا

= غير ان ذلك كان أمرا مثيرا للاعتراض لان الايطاليين لم يحصلوا على مكان ثابت فى اى قبيلة من القبــائل ولم يكن فى استطاعتهم تسجيل اسمائهم فى الوحــدات المئوية التى تألفت داخل القبائل . فاذا كان سلا قد جعل التشريع والانتخاب فى يد الجمعية المئوية كما يفهم من ابيانوس (Bell. Civ. I, 59) فان تسجيل الايطاليين فى ثمانى قبائل كان عديم القيمة . غير اننا نستبعد ذلك ونرجح ان الانتخاب وضع فى يد الجمعيــة المئوية وان التشريع ظل على الاقل من الناحية النظرية فى يد الجمعية القبلية ، وان كان سلا قــد أوقف نشاطها تقريبا بتقليم اظافر نقبــــاء العامة . ومعنى هذا أن معظم المواطنين الجدد لم يكن لهم صوت فى اختيار الحكام ، ولكنهم اكتسبوا بعض النفوذ فى التشريع .

فى الحق ان معلوماتنا عن هذا الموضــــوع ناقصة ولا ندرى ماذا حــدث على وجــه التحقيق . ولعل سلا وضع المواطنين الجدد فى القبائل الريفية القريبة من روما توطئــة لتسجيل اسمائهم فى وحداتها المئوية بعــــد الانتهاء من احصاء ثرواتهم . وقــد رأينا كيف الغت ركنا — بعد رحيل سلا عن روما — قوانين سولبيكيوس فى عام ٨٧ (انظر ص ٧٨ — ٧٩) ومن بينها تسجيل المواطنين الجدد فى جميــع القبائل ، واختير رقيبان (censores) لاحصاء المواطنين تحقيقا لهذا الغرض فى عام ٨٦ ولكن عملية التعداد لم تتم الا فى عام ٨٤ . وبلغ عدد المواطنين ٤٦٣٫٠٠٠ اى بزيادة حوالى ٦٩٫٠٠٠ عما كان عليه فى عام ١١٤ . وهذه زيادة ضئيلة تثير الشك وتدل على ان تسجيل المواطنين الجدد لم يكن كاملا باى حال . وعلى العموم فقد انتهت المشكلة فيما يبدو بعــــد عودة سلا من الشرق وتصريحه باحترام الحقوق التى اكتسبها الايطاليــون . على ان تسجيل هؤلاء لم يتم بصفة نهائية الا فى أثناء قنصلية بومبى وكراسوس فى سنة ٧٠ عندما أجرى التعداد ، وتبين ان عدد المواطنين قــد بلغ ٩١٠٫٠٠٠ مواطن .

(١) عن هذه الحملات ضد القراصنة ، راجع صفحات ٥٦ هامش ١ (ب) ، ١١٠ — ١١٢ .

نفسها وأغاروا على الموانى الممتدة ما بين برنديزى وأوستيا وقطعوا الطريق على السفن التى تحمل الغلال الى روما مما دفع السلطات الرومانية الى شن حملة رابعة على وكرهم بجزيرة كريت فى عام ٦٨ . لكن هذه الحملة التى خرجت بقيادة ميتللوس الذى لقب بالكريتى (Q. Caecilius Metellus Creticus) وانتهت بتحويل كريت نفسها الى ولاية رومانية ، لم تستأصل شأفة القراصنة . وعندما أوشكت أعمالهم أن تؤدى الى حدوث مجاعة فى العاصمة أصبح من المحتم اتخاذ تدابير حاسمة لتطهير البحر منهم تطهيرا تاما .

كان السبيل الوحيد لمواجهة مشكلة القراصنة هو اختيار رجل محنك ليتولى الحملة ضدهم مع تخويله سلطة القيام بالعمليات الحربية اللازمة على أوسع نطاق . وكان من الواضح أن پومپى هو أليق الأشخاص ، بيد أن السناتو لم يطمئن اليه وخشى عواقب انشاء مثل هذه القيادة غير العادية ذات السلطات الواسعة . ولما كان پومپى قد وقف الى جانب الحزب الديمقراطى منذ عام ٧١ فقد وجد حينئذ بين نقباء العامة ـــ مثلما وجد ماريوس من قبله ـــ حليفا فى وسعه أن يعينه على تحقيق غرضه . ففى عام ٦٧ اقترح نقيب العامة جابينيوس (A. Gabinius) قانونا بتعيين قنصل سابق قائدا وتخويله وحده سلطة مطلقة (imperium infinitum) على سواحل البحر المتوسط ، فى مساحة من الأرض تمتد مسافة خمسين ميلا فى الداخل بحيث تكون معادلة لسلطة الحكام فى هذه المناطق (١) ، وتستمر ثلاث سنوات ، ويمنح صاحبها حق ترشيح ١٥ (أو ٢٤ ؟) نائبا عسكريا (legati) مزودين بسلطة البرو پريتور ، وحشد أسطول من ٣٠٠ (أو ٥٠٠ ؟) سفينة ،

---

(١) imperium aequum in omnibus provinciis cum proconsulibus usque ad quinquagesimum miliarium a mari.

وتعبئة أى عدد من الجنود والملاحين بالوسائل التى يراها ، ورصد المال اللازم للحملة من الخزانة العامة . (١) . كانت هذه القيادة اذن من طراز القيادة التى أسندت الى البريتور أنطونيوس فى عام ٧٤ (٢) . ولكنها تضمنت سلطة أوسع وموارد أضخم . وقد أيد العامة وطبقة الفرسان هذا الاقتراح ولكنه لقى معارضة شديدة من جانب الحزب الأرستقراطى ، وحاول أحد نقباء العامة احباطه بما له من حق الاعتراض ولكن جابينيوس تقدم الى الجمعية باقتراح لعزله فسحب اعتراضه ونفذ المشروع فى جلسة سادها الشغب والصخب . ومع أن قانون جابينيوس (lex Gabinia) لم ينص على شخص معين ليتولى القيادة ، فان الرغبة التى أبداها الجمهور فى الاجتماع الشعبى (contio) الذى سبق الاقتراع على المشروع كانت من الوضوح بحيث لم يجد السناتو بدا من احناء رأسه للعاصفة واسناد القيادة الى پومپى (٣) .

وخرج پومپى على رأس هذه الحملة التى حشد لها حوالى ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل . وبدأ عمله بهمة ونشاط بعد أن وزع قواته فى انحاء البحر المتوسط تحت قيادة الضباط من نوابه توزيعاً ملائماً . واستطاع أن يطهر حوضه الغربى من القراصنة فى خلال أربعين يوما . وبعدئذ انتقل الى حوضه الشرقى مقتفيا أثرهم . وفى غضون تسعة وأربعين يوما أخرى هزم أسطولهم فى معركة كبيرة عند كوراكيسيوم (Coracesium) على ساحل پامفوليا وضيق عليهم الخناق فى أوكارهم بكيليكيا وأرغم معاقلهم على الاستسلام . وقد أعانته على الانتصار بسرعة سياسة اللين التى استعملها مع من استسلموا له ، اذ عفا عنهم ومنحهم حريتهم

---

(١) بلغ حوالى ٦٠٠٠ تالنت .

(٢) أنظر ص ١١٢ .

(٣) بلغ من ثقة الجماهير به أن هبط سعر القمح فى السوق بمجرد اسناد القيادة اليه ضد القراصنة بمقتضى هذا القانون .

وأسكنهم فى مدن قليلة السكان بكيليكيا وغيرها من المناطق حيث توافرت لهم سبل العيش الشريف . وهكذا أنهى الحرب ضد القراصنة نهاية موفقة فى بحر ثلاثة أشهر بفضل براعته فى التنظيم ومهارته فى التركيز . ولما كانت سلطته لا تنتهى الا بعد ثلاث سنوات ، فقد تاقت نفسه الى احراز نصر عسكرى جديد .

وقد سنحت له الفرصة عندما توقفت الجيوش الرومانية عن الزحف فى آسيا الصغرى بسبب تمرد الجنود على لوكللوس فى الميدان ، وتآمر الخصوم عليه فى روما (١) . عندئذ سعى پومپى الى الحصول على قيادة الجيوش الرومانية فى آسيا الصغرى بدلا من لوكللوس ، وأيدته فى ذلك طبقة الفرسان . وفى أوائل عام ٦٦ اقترح مانيليوس (C. Manilius) أحد نقباء العامة ، قانونا (lex Manilia) باسناد حكم ولايات بثونيا وكيليكيا وپنطوس (٢) ، وقيادة الحرب ضد مثراداتيس وتجرانيس الى پومپى . وأيد شيشرون الذى انتخب پريتورا فى ذلك العام المشروع فى خطبته المشهورة باسم الدفاع عن قانون مانيليوس (Pro Lege Manilia) (٣) ولعل ما حفز شيشرون على ذلك هو أنه كان رجلا لا يستند الى عصبية أسرية ومن ثم كان محتاجا الى صداقة شخصية بارزة تعينه على تحقيق أطماعه السياسية . وقد عارض السناتو توسيع سلطة پومپى العسكرية (٤) لكن الجمعية أقرت المشروع فأصبح قانونا ، تركزت بمقتضاه فى يديه سلطة عسكرية لم يكن لها نظير فى التاريخ الرومانى حتى ذلك الحين .

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١١٤ .

(٢) اعتبرت پنطوس ولاية لان لوكللوس كان قد استولى عليها تماما فى عام ٧١ . ومع أن الملك استردها فى عام ٦٧ الا ان پومپى سرعان ما طرده منها .

(٣) وتعرف أيضا باسم (De Imperio Cn. Pompei) وقد ألقاها شيشرون على المواطنين الرومان (Quirites) فى اجتماع شعبى عام (contio) .

(٤) ذلك لانه ظل محتفظا بالقوات والقيادة التى خولت له بمقتضى قانون جابينيوس .

وقد تركت قيادة پومپی فی الشرق أثرا كبيرا فی نفوس معاصريه . وتعتبر بمثابة نقطة التحول من الدستور الجمهوری الی الدستور الامبراطوری

وكان پومپی فی جنوب آسيا الصغری عندما بلغه نبأ تعيينه قائدا عاما للأسطول الرومانی والجيوش الرومانية فی آسيا الصغری ، فنقل مركز قيادته من كيليكيا الی أعالی نهـر هالوس (Halys)[1]. والتقی بلوكللوس فی شرق اقليم جلاتيا حيث تمت اجراءات اعفاء الأخير من القيادة فی اجتماع ساده التوتر وتبادل السباب . فقد حز فی صـدر لوكللوس أن يأتی پومپی لينتزع منه أمجاده ، ويلغی تنظيماته ، ويحصد ثمرة انتصاراته . والحق أنه لم يكن متجنيا فی هذا الادعاء .

وقبـل أن يغزو پومپی بنطوس ثانية عقـد محالفة مـع فراتيس (Phraates) ملك بارثيا (Parthia) الذی احتدم النزاع بينه وبين تجرانيس ملك أرمينيا.وقد نجح فی اقناعه بمهاجمـة مملكته . كان يقصـد من ذلك أن يغل يد تجرانيس لكی يتفرغ هو للقضـاء علی مثراداتيس . وفی صيف عام ٦٦ عهد پومپی الی أسطوله بحراسةسواحل آسيا الصغری وزحف مع جيشه من جلاتيا الی بنطـوس مقتفيا أثر مثراداتيس الذی تقهقر أمامه والتجأ الی حرب العصابات . كانت قوات پومپی تزيد علی قوات مثراداتيس بحوالی ٢٠٫٠٠٠ رجـل ، وذلك وضع أفضل بكثير من وضع لوكللوس الذی واجه العدو بجيش يبلغ حوالی الخمس من جيشه . ودارت رحی عدة معارك انتهت بهزيمـة فادحة لمثراداتيس عند بلدة داستيرا (Dasteira) علی مقربة من المكان الذی أنشئت فيه نقوبوليس (Nicopolis) فيما بعد . وعندئذ فر الملك الآسيوی الی أرمينيا الكبری طالبا النجـدة من صهره تجرانيس الذی استقبله بفتور شديد . وكان تجرانيس يدافع حينئذ عن كيان مملكته التی غزاها البارثيون وضربوا الحصار علی عاصمتها القديمـة

(1) ای " النهر الملح " اطول انهار آسيا الصغری (حوالـی ٦٥٠ ميلا) ينبع من جبال غربی ارمينيا ويسير جنوبا ثم ينحـرف =

أرتكساتا (Artaxata) . وأثارت تصرفات مثراداتيس شكوك صهره فهم بالقبض عليه ولكنه لاذ بالفرار الى كولخيس (Colchis) الواقعة فى شرق البحر الأسود . واستجاب پومپى لدعوة ابن ملك أرمينيا الذى انحاز الى البارثيين ، فعبر الفرات وتقدم نحو عاصمة أرمينيا . وعندئذ خار تجرانيس وانهار فألقى بسلاحه مستسلما فى ذلة وخنوع . ورابط پومپى فى الشتاء عند أسفل جبال القوقاز . وقد أثار احتلاله أطراف أرمينيا مخاوف الألبانيين ، وهم شعب بدوى يعيش على الرعى فى السهول الواقعة بين وادى نهر قورش (Cyrus) وجبال القوقاز والبحر الأسود . ولذلك قاموا بهجوم مفاجىء على بعض وحدات الجيش الرومانى . لكن يقظة پومپى وضباطه أحبطت هجومهم فردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم أعدادا غفيرة .

وفى ربيع العام التالى (٦٥) استأنف پومپى مطاردة مثراداتيس . لكنه وجد نفسه مضطرا الى أن يقضى أولا على مقاومة الأيبريين وهم شعب زراعى مستقر تحكمه أسرة ايرانية ، كان يقطن فى المنطقة المعروفة الآن باسم جورجيا . وعبر ممرات الحدود ودحر ملكهم وأرغمه على أن يفسح له الطريق ، وتابع سيره الى الساحل الشرقى للبحر الأسود ، حيث التقى باحدى وحدات أسطوله . وللمرة الثانية ترك پومپى لقواته البحرية أمر ملاحقة مثراداتيس وأنفق بقية عام ٦٥ فى اخضاع الألبانيين حول بحر قزوين (Caspium mare) . ولعل ما دعاه الى القيام بمثل هذه الحملة فى تلك المنطقة النائية هو رغبته فى البحث عن حدود مائية جديدة للامبراطورية أو رغبته فى الانتصار على شعوب لم يسمع الرومان عنها من قبل . وبعدئذ عاد الى وادى نهر قورش عن طريق أرمينيا وعبر هذا النهر وغيره من الأنهار دون أن يلقى مقاومة . واستدرج الألبانيين الى القتال وطوقهم بفرسانه وقضى عليهم . وسار متجها صوب بحر قزوين حتى أصبح على مسيرة ثلاثة أيام منه ، ولكنه لم يلبث أن عاد

= حنوبا ويصعد فى ثنية كبيرة الى الشمال ليصب فى البحر الاسود ،كان الحد الفاصل بين مملكة ليديا والامبراطورية =

أدراجه حتى لا يثير تذمر جنوده الذين أرهقهم السير والعطش والمرض. واجتاز أرمينيا للمرة الأخيرة خاتما حملاته فى تلك السنة بالاستيلاء على حصون مثراداتيس فى ارمينيا الصغرى .

وبعد استسلام تجرانيس طرأ تغيير فجائى على العلاقات بين بومبى والبارثيين ، اذ حاول فراتيس ملك بارثيا ، أن ينتزع من تجرانيس فى عام ٦٥ منطقة جوردوينى (Gordyene) المتاخمة لحدود بلاده (فى أعالى الدجلة) . غير أن بومبى أفسد عليه المحاولة وأرسل نائبه جابينيوس ، نقيب العامة السابق ، ليحتل المنطقة المتنازع عليها . وعندئذ سحب فراتيس قواته وطالب بومبى بعقد محالفة جديدة . لكن القائد الرومانى ارتاب فى نواياه ، وربما ساورته ، كما ساورت لوكللوس من قبله ، فكرة غزو بلاد بابل نفسها ، ولذلك رفض مطلبه وعامله بجفاء بلغ حد الاحتقار . وأعاد جابينيوس منطقة جوردوينى الى تجرانيس ، ملك أرمينيا . وبعدئذ اتجه الى سوريا ، واستولى على دمشق (Damascus) حيث لحق به نائب عسكرى آخر ، وهو مسكاوروس (M. Aemilius Scaurus) ، على رأس امدادات كبيرة .

وبعد أن أمضى بومبى الشتاء فى أرمينيا الصغرى ، غادرها فى ربيع عام ٦٤ الى بلدة أميسوس (Amisus) فى بنطوس على البحر الأسود حيث مثل بين يديه الأمراء التابعون ، وشرع فى تنظيم شئون آسيا الصغرى ، فجعل من بثونيا وبنطوس ولاية رومانية واحدة باسم «ولاية بثونيا وبنطوس»

وبعدئذ زحف بومبى جنوبا الى سوريا حيث كانت الفوضى قد سادت ثانية منذ أن طرد لوكللوس تجرانيس منها ، فاجتاحت العصابات المسلحة أرجاءها وعكرت صفو الأمن فيها . وأما فى فلسطين فقد ا-
نزاع فى أسرة المكابيين (Maccabaei) اليهودية بين هر

= الفارسية (فى القرن السادس ق .م.) يسمى الان فى -
اى النهر الأحمر . Kyzyl-irmak

(Hyrcanus) وأرسطوبولوس (Aristobulus) ، ابنى الاسكندر يانايوس ، وهو نزاع حاول أن يستفيد منه الحارث الثالث (Aretas) ملك النبط (Nabataei) العربى الطموح الذى نصر هركانوس على أخيه وحاصر الأخير فى أورشليم (Hieorosolyma) فى عام ٦٥ . غير أن جابينيوس وسكاوروس استطاعا أن يحسما النزاع مؤقتا بين الأخوين اليهوديين اللذين استعان كل منهما بالرشوة لتعزيز قضيته . وحكم جابينيوس لصالح أرسطوبولوس ، الأخ الأصغر ، واضطر الحارث أن يرفع الحصار عن أورشليم عندما بلغه نبأ زحف سكاوروس من دمشق جنوبا لملاقاته .

وقضى پومپى بقية عام ٦٤ وجانبا من عام ٦٣ فى اعادة النظام الى ربوع سوريا ، فأرسل بعض كتائب من جيشه الى جميع الأرجاء لاستئصال شأفة قطاع الطرق ، وتدمير حصون القراصنة على الساحل ، واخضاع الأمراء المتمردين . ولما أقبل الربيع انتقل من أنطاكية (Antiochia) (١) الى دمشق حيث استقبل كلا من هركانوس وأرسطوبولوس . وقد تبين له أن الأكبر ، وهو هركانوس ، أحق من أخيه بعرش أرض يهوذا أو يهودية (Iudaea) . وقد راعى پومپى ، عند اختياره مصلحة روما قبل أى شىء آخر لأن أرسطوبولوس كان يبدو كأسلافه المكابيين رجلا طموحا مشاغبا ، على حين أن هركانوس لم تساوره أطماع سياسية سوى الظفر بالتاج الملكى . وعلى أى حال فانه لم يفصح عما استقر عليه عزمه ولم يتخذ أى اجراء ضد الأخ الأصغر . وانهمك فى الاستعداد للحملة التى اعتزم القيام بها على البتراء (Petra) ، عاصمة النبط (فى جنوب غرب الأردن حتى خليج

---

(١) وقد تكتب ايضا Antiochea او Antiocheia .

العقبة) (١) . ولعل ما حفزه إلى القيام بالحملة هو أن البتراء كانت مركزا هاما من مراكز تجارة العطور والتوابل . غير أنه كان يستهدف منها احراز شهرة عسكرية بعد نفوذ روما حتى البحر الأحمر . ولم يكد يقطع شوطا بعيدا فى قلب الصحراء فى طريقــه الى البتراء حتى تحققت مخاوفه . فقد ظهر أرسطوبولوس على حقيقته بعد ان تظاهر بالاستسلام وعاد الى أورشليم حيث أخذ يتأهب للقتال . فلما وصل بومبى الى أريحا (Ierícho)(٢) استدعى أرسطوبولوس وأرغمه على أن يتعهد بقبول مرابطة حامية رومانية فى أورشليم ودفع غرامة حربية.

لكن الأمير اليهودى لم يتمكن من الوفاء بتعهداته لأن قواده منعوا جابينيوس من دخول المدينة . وعندئذ تحــول بومبى الى أورشليم واستولى على البلدة السفلى ومنطقة القصور الملكية دون عناء كبير ، ولكنه اضطر أن يضرب الحصار على منطقة المعبد الكبير ، وهى هضبة منيعة زاد من مناعتها استماتة اليهود فى الذود عنها ، ولذلك لم تسقط فى يده الا بعد ثلاثة أشهر . ودخل قدس الاقداس ولكنه لم يمس مافيه من كنوز . واذا كان الاستيلاء على أورشليم قرب نهاية عام ٦٣ هو آخر انتصار أحرزه بومبى فى منطقة الشرق الأوسط فقد كان هذا الحدث من ناحيــة أخرى هو فاتحة الصراع الطويل المرير بين روما ويهــود فلسطين (٣) . وعاد بومبى الى پنطوس حيث قضى العا مالتالى (٦٢) فى تنظيم شئون آسيا الصغرى .

وبينما كان بومبى يفكر وهو على مقربة من أورشليم فى حمــلة

---

(١) النبط او الانباط ـ وعاصمتهم « سلع » التى سماها اليونان Petra (بطرة ـ البتراء) اى الصخرة أو الرت الحجرى.

(٢) بلدة قديمة بفلسطين فى شمال البحر الميت على الضفة الغربية لنهر الاردن .

(٣) ترك بومبى القيادة هناك لاسكاوروس الذى كان كويستورا سابقا مفوضا بسلطة البريتور البديل . وكانت تحت امرته فرقتان رومانيتان .

البتراء (١) ، جاء رسول رومانى حاملا حربة معصوبة بالغار وأعلن له نبأ موت مثراداتيس . وكان القائد الرومانى — كما أسلفنا — قد ترك لأسطوله أمر تطويق ذلك العدو العنيد الذى حشد أسطولا جديدا وجيشا كبيرا وعبأ قوات مساعدة من بين الشعوب البلقانية وشرع فى القيام بحملة عبر الدانوب والألب لغزو ايطاليا نفسها متشبها بهنيبال . ولم يدخر مثراداتيس وسعا لانجاح هذه المحاولة ، غير أن مطالبه الكبيرة أرهقت رعاياه وكلفتهم ما هو فوق طاقتهم فضاقوا به ذرعا وتزعزع ولاؤهم نحوه وتألبوا عليه حتى أنهم قاموا فى عام ٦٣ بثورة ضده تحت زعامة ابنه فرناكيس (Pharnaces) وامتد لهيبها الى منطقة القرم (Crimea) . وقمع الملك الفتنة بقسوة متناهية ، وعفا عن ابنه . غير أن فرناكيس كان يحقد على أبيه ولا يطمئن اليه فدبر ضده مؤامرة أخرى وتولى قيادة القوات المتمردة واقتحم مدينة بنتيكپايوم (Panticapaeum) عاصمة ممتلكات بنطوس الجديدة على الساحل الشمالى للبحر الأسود وحاصر القلعة التى اعتصم فيها أبوه . وحاول مثراداتيس أن يفتح باب المفاوضات مع الثوار . لكن ابنه العاق رفض مطلبه وصم أذنيه عن توسلاته . عندئذ لم يجد مثراداتيس مخرجا من مأزقه سوى الانتحار .

ولم يحدث أن واجهت الجمهورية الرومانية فى الشرق خصما أقوى عزيمة أو أشد مراسا من مثراداتيس . وتذكرنا قوته البدنية الهائلة ، وحيويته الدافقة وعزيمته الصلبة وقواه الذهنية التى لم ينتابها شىء

---

(١) لم ينفذ بومبى مشروع الحملة على البتراء ، وأرسل اليها نائبه الكويستور أيميليوس سكاوروس الذى انسحب منها عندما رشاه الحارث ملك النبط . ولدينا عملة رومانية سكها اسكاوروس فيما بعد تمثل الملك فى صورة المتوسل اليه وقد جثا على ركبتيه بجوار جمل !!

من الوهن عند بلوغه قرابة السبعين من عمره بعمالقة عصر الاسكندر الأكبر . وقد استطاع بمقدرته الادارية الفائقة أن يجعل من مملكته الشرقية دولة جديرة بأن تخلف الممالك الهللينستية المتداعيــة (١) . وشجع التجارة وانشاء المدن فى بنطوس ، وبنى بفضل المواردالمستمدة منها جيشا دربه وفقا لأساليب الحرب اليونانية ، ثم أعاد تدريبه وفقا للنظم العسكرية الرومانيــة (٢) . كان واسع الأطماع يحلم ببنــاء امبراطورية أناضولية الى جانب مملكته فى بنطوس (٣) . وعندما شرع فى الفتح والتوسع استعان بكافة الحيــل الدبلوماسية (٤) . وكسبه

---

(١) كانت مملكته التى تقع فى قلب آسيا الصغرى جنوبى البحر الاسود غنية بالموارد الطبيعية وبخاصة المعادن . وقــد ظلت فى جوهرها قطرا ريفيا مليئا بالقرى ، وتنتشر فى ارجائها القصور الملكية ، ويغلب عليهــا طابع النظام الاقطاعى .

(٢) تراوح عدد جيشه بين ٠٠٠ر١٠٠ ، ٠٠٠ر١٥٠ جندى ، وبلغت قوة اسطوله ٤٠٠ سفينة . واستعان ببعض ضباط سرتوريوس فى تدريبه .

(٣) دفعته اطماعه الواسعة الى المبادرة الى نجــدة المدن الاغريقية التى تقع على البسفور وفى شبه جزيرة القرم (جنوب روسيا) والتى استغاثت به لصد عدوان قبائل الاسكوثيين والسارماتيين . وتقمص مثراداتيس دور نصير الاغريق ضد البرابرة وارسل نجدات الى هذه المدن الاغريقية . وكانت النتيجة انه اصبح مسيطرا على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، واتخذ من مدينة بنتيكبايوم عاصمة لهذه المملكة البنطية الجديدة . هــذا الغزو الذى اقترن بزحفه شرقا من مملكته الاصلية نحو كولخيس والقوقاز ، امده بموارد هائلة من القمح والمال والرجال مكنته من بناء جيش ضخم واسطول والانفاق عليهما . هكذا غدا فى غضون سنوات قليلة واحدا من اقوى الحكام فى آسيا . بيد ان اطماعه لم تقف عند هذا الحد . كان مثراداتيس يطمع فى امبراطورية اناضولية بجانب مملكته فى بنطوس . ومع ان التوسع كان حــريا بان يجعله يصــطدم بجيرانه من الحكام اصدقاء الرومان ، الا ان هذا الخاطر لم يثبطه عن عزمه ، ولا سيما ان روما كانت منهمكة فى الحرب ضد يوجورتا ، ومهددة بخطر الجرمان من الشمال ، واخيرا بالحرب الايطالية . وتجسمت احلامه فاصطنع دور حامى حمى اغريق آسيا وحامــل لواء الجهاد ضد الرومان المغتصبين والمنادى بطردهم كمحتلين اجانب من شبه الجزيرة . وذهب الى ابعد من ذلك فارسل جيشه واسطوله لشــد ازر الاغريق فى اوروبا . بل لعله فكر فى غزو ايطاليا نفسها مثلما فعل هنيبال . وســواء اكانت كل هذه الآمال قد راودته ام لم تراوده فانه لم يحجم عن الاحتكاك بروما ، وان كان قد سار فى مبدأ الامر بخطى وئيدة ، ولعب دوره بحذر ينم عن فطنة ودهاء .

(٤) دعم موارده الاقتصادية ، واسترد سيطرته على القرم ، وتآمر مع الطراقيين ، وتفاوض مع سرتوريوس ، ومــع القراصنة ، وانشأ علاقات ودية مع مصر البطلمية ومــع

عطف السكان الاغريق بتشجيع الفن ورعاية الأدب الهلليني (١) . وأما شجاعته ومراوغته وقدرته على استعادة قوته بعد المحن والنهوض من الكبوات فهي صفات لم يتصف بها أحد سواه بين خصوم روما في الشرق . وقد أظهر في نضاله الأخير اليائس مع پومپي روح العناد والاصرار فكان مثله كالوحش الجريح يسقط ويقوم ليعاود الهجوم .

غير أن الانتصار على روما كان يتطلب منه أن يكون قائدا عبقريا أو مجاهدا دينيا . ولم يكن مثراداتيس أهلا لأن يتزعم جهادا دينيا لافتقاره الى الشخصية القوية الجذابة . ومع أنه عرف كيف يشترى الأتباع بالمال ، فانه لم يستطع أن يكسب الأصدقاء ولم يكن أبا أو زوجا مثاليا . وكان الاغتيال وسيلته في التخلص من خصومه السياسيين . وفضلا على ذلك فان مثراداتيس لم يكن نقى السلالة ، وكان مختلط الثقافة ، فلم يكن شرقيا صميما أو غربيا صميما . ومع تقديره الصادق للثقافة اليونانية والفن اليوناني ، الا انه ظل محتفظا في أعماقه ببعض خصال الحاكم الطاغي . ولم يربطه بالاغريق الذين حالفوه سوى رباط واه هو الاتفاق على كراهية الرومان . واعتبرته طبقة النبلاء الايرانيين في مملكته حاكما مستبدا . ومن الجائز انه كان يصلح لأن يكون وزيرا قديرا للحربية ، لا لأن يكون قائدا عظيما . وإن كان خبيرا بحرب العصابات فقد كسب المناوشات ولكنه خسر المعارك . وكان أقصى ما استطاعه مثراداتيس في صراعه مع الجيش الروماني

قبرص ، وحالف صهره تجرانيس ملك ارمينيا الذى اقتطع اجزاء من كبادوكيا وسوريا . وتودد مثراداتيس الى المدن الاغريقية في آسيا الصغرى .

(١) كان الطابع العام لسكان بنطوس شرقيا ، ولو ان البيت المالك الذى كان ينحدر من نسل النبلاء الايرانيين قد اكتسب صبغة هللينية واضحة ، بل ان اللغة اليونانية كانت هى اللغة الرسمية . ولقد كانت هناك بضع مدن اغريقية على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، غير ان تاثيرها الثقافى لم يتوغل بعيدا فى الداخل . وفى الواقع انه لم يحدث امتزاج حقيقى بين العناصر اليونانية والعناصر الايرانية فى حضارة بنطوس .

المحترف» الذى تولى قيادته ثلاثة من أقدر قواد الجمهورية ، هو أنه أطال أمد الصراع وأخر الهزيمة التى لم يكن هناك مفر منها (١) .

عاد پومپى — كما أسلفنا — الى آسيا الصغرى حيث أتم فى عام ٦٣ تنظيم شئون شرق آسيا الصغرى وشمالها بمقتضى قانون مانيليوس وبدون معاونة من لجنة العشرة التى اعتاد السناتو ارسالها فى مثل تلك الأحوال وعمل پومپى على حماية النفوذ الرومانى وتوطيد الأمن فى البر والبحر . كانت خطته تهدف الى تطويق ساحل آسيا الصغرى بحلقة متصلة من الولايات الرومانية تمتد من بنطوس فى الشمال الى

---

(١) من بين مصـــادرنا عن مثراداتيس وحروبه ضد الرومان « تراجم العظمـاء » لپلوتارخوس وبخاصة سيرتا « لوكللوس » و« پومپى» وكذلك المـؤرخ اليونانى اپيانوس (Appianus) الذى ولد بالاسكندرية وعاش فى النصف الاول من القرن الثانى الميـلادى (حوالى ٩٥ م — ١٦٥ م .) . اشـتغل بالمحاماة ، وشـهد ثورة اليهود الكبرى التى نشبت فى مصر فى عهد تراجان (١١٦ م) . وقد رحل الى روما حيث تقـلد منصبا فى ديوان الخزانة الملحقة بالامبراطور (advocatus fisci) . ولا بد من انه اكتسب الجنسية الرومانية ، واقتنى ثروة تؤهـله ليكون عضوا فى طبقة (Ordo Equester) لانه تقلد فى مصر فى زمن الامبراطور انطونينوس پيوس منصب procurator (اى مدير ادارة مدنية وبخاصة المالية) ، وهو منصب من مناصب سلك الفرسان فى عصر الامبراطورية وقد شغف بالتاريخ فاضطلع بكتابة تاريخ روما متبعا فى ذلك منهجا جديدا قائما على أساس جغرافى . ويقع « التاريخ الرومانى » الذى كتبه فى ٢٤ كتابا لم يصلنا منها سوى ٩ تتحدث عن الحروب التى خاضتها روما فى الخارج ضد الشعوب المختلفة والمنازعات الإهلية فى الداخل ، كالحرب الاسبانيه ، والحـرب الهنيبالية ، والحرب البونية الثالثة ، والحرب السورية والالليرية ، والحرب ضد مثراداتيس (Mithridatica) ، والمنازعات والحروب الاهلية فى ايطاليا منذ عام ١٣٣ ق.م. حتى عام ٣٥ ق.م. ولما كان اپيانوس لم يعاصر هذه الاحداث فقد اعتمد بداهة على غـيره من المؤرخين من امثـال پوليبيوس وسلوستيوس وليقيوس ، وغيرهم من كتاب الحوليات فى عصر أغسطس أو تيبريوس . واپيانوس مـؤرخ سطحى يفتقر الى الدقة فى التفاصيل ولا يتعمق أو يتفلسف وتعوزه ملكة النقد التاريخى فهو راوية اكثر منه مؤرخ بالمعنى الصحيح ، وتغلب على كتاباته الصبغة العسكرية . واقيم مؤلفاته هو الكتاب الاول من الحروب الاهلية وهـو يتناول الاحـداث التى وقعت بين تريبونية تيبريوس جراكوس فى ١٣٣ حتى ثورة العبيد المجالدين فى ٧٣ ، ولذلك فهو مصدر لاغناء عنه لدراسة تاريخ القرن الاخير من عصر الجمهـورية ، لانه يملأ الفراغ الواقع بين پوليبيوس وشيشرون ، (١٤٤ — ٤٣) . وعن هذا المؤرخ وغيره من الكتاب ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » (بيروت ١٩٧٠) ص ٦٣ — ٦٥ .

سوريا فى الجنوب (بغض النظر عن شريط ساحلى ضيق تشغله لوكيا) فوسع رقعة ولايتين قديمتين وهما بثونيا (التى ضمت اليها بنطوس) وكيليكيا وبينهما كانت تقع آسيا أقدم هذه الولايات . وأنشأ ولايتين جديدتين وهما سوريا التى أدمجت فى الامبراطورية لاعتبارات عسكرية خاصة بالدفاع عن الحدود وحماية سكانها من اغارات المغيرين (وهو ما أخفق آل سليوكوس الأواخر فى القيام به) ، ثم كريت التى استخدمت كنقطة حراسة أمامية (هى وقبرص التى أدمجت بعد ذلك كولاية سنة ٥٨) .

وأما الحدود الشرقية لهذه الولايات (وهى مناطق لم تحتم الاعتبارات العسكرية ادماجها فى الامبراطورية) فقد قام على حراستها عدد كبير من الملوك أو الأمراء الأتباع أى الحكام المحليين الذين انتهج بومبى معهم السياسة الرومانية التقليدية فترك فى أيديهم بوصفهم أصدقاء أو حلفاء لروما السيطرة فى ممالكهم أو اماراتهم (أو فى يد المجالس فى حالة المدن الحرة) بشرط ان تهيمن روما على كل ما يتصل بسياستهم الخارجية وان تكفل لهم فى مقابل ذلك السلم وقدرا كبيرا من الاستقلال الداخلى . وكانت أهم هذه الممالك والامارات التابعة هى جلاتيا تحت حكم الأمير ديوطاروس (الذى خلع عليه لقب الملك وأعطى النصف الشرقى من منطقة بنطوس (شرق نهر هالوس) وربما أيضا « أرمينيا الصغرى » (فى الركن الجنوبى الشرقى من البحر الأسود) . ويلاحظ أن بومبى لم يقتد بسياسة آل سليوكوس الأوائل فى نقل ادارة أراضى معابد آسيا الصغرى من يد الهيئات الدينية الى السلطات المدنية ، فعين أرخيلاوس [1] كاهنا أعلى لمعبد الربة « ما »

---

(١) وهو ابن ارخيلاوس القائد الذى ارسله مثراداتيس الى بلاد الاغريق فى مستهل الحرب الاولى (راجع ص ٧٤) ، وكان قد هادن الرومان فمنحــوه لقب صديق روما وحليفها .

(وهي بللونا Bellona ربـــة الحرب عند الرومان) ومتصرفا في أراضي كومانا (Comana)(١) حيث يرجد المعبد.(في شرق بنطوس) . واما شرق جلاتيا نفسها فقد نصب عليه أمير آخر وهو بروجيتاروس ، وأسـند حكم بافلاجونيا (بين پنطـوس وبثونيـا) الى أتالوس وپولايمنيس . واعترف پومپي بأريوبرزانيس ملكا على كپـادوكيا ، وبأنطيوخوس ملكاً على كوماجيني Commagene (الى الجنوب الشرقي من كپادوكيا) ، مانحا كلا منهما بعض أراض جديدة في بلاد ما بين النهرين ، وبالأمير تاركونديموتوس حاكما على جزء من كيليكيا الشرقية . ونصب فرناكيس الذي خان أباه ملكا على فتوحات مثراداتيس في شمال البحر الأسود ، والتي عرفت بمملكة البسفور . وترك اقليم كولخيس (في شرق البحر الأسود) لأمير يدعى أرسطارخوس ، وأقر حقوق كل من ملك أيبريا (چورچيا الحديثة) وملك الألبانيين (الى الغرب من بحر قزوين) اللذين اعترفا بالسيادة الرومانية الاسمية .

وأما الأراضي الواقعة في شمال أرض الجزيرة بين الفرات وشرقي الدجلة والتي كانت مثار نزاع بين ملوك المنطقة ، فقد قسمها پومپي بينهم متجاهلا المعاهدة التي عقدهامع ملك پارثيا . ولم ينتزع فراتيس سوى أديابيني Adiabênê (حول نينوى)* ، بينما احتفظ تجرانيس بجوردويني Gordyênê (حول نصيبين)** ، وأما أسرُهيني Osrhoëne (حول الرُها) (١) ، فأعطيت لأمير عربي يدعى أبجر الثاني (Abgarus).

---

(١) داخل ثنية الفرات العليا بين نهري الفرات وخابور ، ويحدها شمالا جبل ماسيوس ، والاسم الاصلي كما ورد في السريانية هـو Orhai (اترُها وحاليا أُرفه) . وفي هذا المكان اسس سليوكوس الاول نيكاتور ، احـد خلفاء الاسكندر الاكبر ، مسـتعمرة في اوائل القرن الثالث ق.م. وسـماها باسم اديسا Edessa (وهي Aégae).احدى مدن مقدونيا ، موطنه الاصلي . وعندما استقلت منطقة أُسرُهيني حوالي عام ١٣٢ ق.م.اصبحت اديسا هي العاصـمة ، وقامت بدور هام في الحـروب التي نشبت بين روما وپارثيا . كان اهلها اراميين مع خليط من الپارثيين والاغريق وقد سقطت أُسرهيني في يد الرومان وحولوها =

* هديـاب ـ منطقة نهري الزاب (الكبير و الصغير) شمالي العـراق

** : في الاصل ارض الكرد (=الاكراد) Kardouchoi في شرق منـابـع نهر دجلة على تخوم ارمينيا ثم اتسعت .

وعلى حدود سوريا التى تحولت الى ولاية رومانية أرجع پومپى بعض الأمراء الى سابق مراكزهم ،مثل سامپسيجراموس أمير حمص (Emesa) ، وبطلميوس أمير خالكيس (تنسرين الذى جعله حاكما وكاهنا أعلى فى ايتوريا Ituraea (حول هليوبوليس وهى بعلبك) حيث كان يقطن قوم من أصل عربى ، وأعاد دمشق الى النبط . كما اعترف بهركانوس كاهنا أعلى وحاكما (ethnarchês) على شعب يهودية (Iudaea) ([1]) ، دون أن يخلع عليه لقب الملك . وانتزع من يهودية كل المنطقة الساحلية الممتدة من غزة حتى جبل الكرمل واقليم السامرة (Samaria) بشمال فلسطين وبضعة عشر مدن (Decapolis) تمتدبمحاذاة نهر الأردنحتى البحرالميت . وبذلك خسرالحشمونيون([1]) كل ما كسبوه من أراض ما عدا ادوم (Idumaea) بجنوب فلسطين والجليل (Galilaea) بالشمال وپيريا (Peraea) بشرق الأردن .

وعلى كل هذه الممالك والامارات التابعة كان يطل من الوراء شبح الامبراطورية البارثية . لقد وجـدت روما نفسها مضطرة الى مـد حدودها الاستراتجية الى نهر الفرات والصحراء السورية ، وان لم يستتبع ذلك توسيع نطاق حكمها المباشر . وطالما كانت أرمينيا الكبرى صديقة لروما وعدوة لپارثيا ، وكانت كوماجينى تحرس معـابر أعالى الفرات من أجل روما ، فقد حق لپومپى أن يشعر بل أن يفخـر بأن

=

الى ولاية حوالى عام ١٩٥ م ثم حولوا اديسا الى مستعمرة حوالى عام ٢١٤ م . وانتشرت فيها المسيحية فى وقت مبكر . واصبحت الرها مركزا لاسقفية من اهم اسقفيات الشرق الاوسط . وتعرضت المدينة للحصار اكثر من مرة ووقعت فى يد الساسانيين ثم استردها الامبراطـور هرقل فى اوائل القرن السابع الميـلادى ، واخيرا استولى عليها العرب فى عام ٦٣٩ م .

(١) يهودية او ارض يهوذا هى المنطقـة الجنوبية من فلسطين المتاخمـة لاورشليم القدس الحالية) والممتدة من شمال البحرالميت حتى البحر التوسط .

(١) نسبة الى حشمون (Hasmion) اسم الاسرة اليهـودية التى يبدأ تاريخ

=

القسم الشرقي من الامبراطورية قد أصبح محميا بدرع متين من الولايات الرومانية تساندها من الخلف امارات ودويلات حاجزة .

تنظيمات پومپي وأثرها فى الشرق :

ونظم پومپي الشئون الادارية فى الولايات الجديدة التى وسع رقعتها بمقتضى دساتير خاصة وضعت لها . وقد ظلت هذه الدساتير التى تحمل اسمه سارية فى بثونيا حتى أيام الكاتب بلينيوس (Plinius) الأصغر فى أوائل القرن الثانى الميلادى . وكان من الضرورى أن تجعل روما كل هذه المنطقة تولى وجهها شطر الغرب بعيدا عن پارثيا الشرقية. وساعد پومپي على تحقيق ذلك بتنمية مركز اشعاع الثقافة الهللينستية التى وحدت كل هذه المنطقة ، ونعنى بذلك دولة المدينة (polis) . كانت إذن ابرز سمة تميزت بها تنظيماته الادارية هى التمدين أى تشجيعه الحياة المدنية فى الشرق الأوسط ، اذ أسس كالاسكندر الأكبر وملوك العصر الهللينستى أو أحيا من جديد حوالى تسع وثلاثين مدينة فى آسيا الصغرى وسوريا ، وحوالى احدى عشرة مدينة فى بثونيا وپنطوس . ولعل الملائمة الادارية كانت أحد بواعثه الرئيسية ، وبخاصة فى بثونيا وپنطوس حيث بلغت البيروقراطيات المركزية من التعقيد مبلغا يتعذر ادارتها معه بالأساليب الرومانية القائمة ، ومن ثم فقد تحتم القاء عبء الادارة على الحكومات المحلية . وعلى ذلك فقد أنشئت هذه الحكومات . غير أن هذا لا يعنى أن پومپي كان غافلا عن الفوائد

حكمها منذ حوالى عام ١٤١ عندما نصب سيمون Simon (وهو سمعان فى العربية وشمعون فى العبرية) ابن متاتيا كاهنا اعلى وحاكما على يهودية . وسيمون هو شقيق يوناثان (Jonathan) ويهودا (Judas) الشهير بالمكابى Maccabaeus (١٦٦ - ١٦١) .

الكبيرة التى قد تنجم عن مثل هذا النظام حتى مع افتراض ان هدفه الأساسى لم ينصب على نشر الثقافة أو المدنية . لقد كان هناك باعث آخر ، الا وهو الفائدة الاقتصادية المترتبة على جباية الضرائب من أغلب هذه المدن على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتى . وكانت طريقته فى انشاء المراكز المدنية الجديدة هى تجميع السكان من القرى المجاورة . وقد اكتفى فى بعض الأحيان باعادة تنظيم المدن القديمة التى كانت قدأقفرت من السكان بسبب اغارات القراصنة أو الحروب الطويلة أو ترحيل سكانها الى أماكن أخرى .

واتبع پومپى فى المدن التى أسسها والتى أعاد تنظيمها المبدأ الرومانى القائل بضرورة توافر نصاب عقارى أو دخل معين فيمن يريدون تقلد المناصب السياسية فى بلادهم . لكنه منحها فيما عدا ذلك قسطا كاملا من الحكم الذاتى ، واحترم استقلال المدن القديمة كأنطاكية (Antiocheia) وسلوقية (Seleuccia) على نهر العاصى (Orontes) ، وأيد حقوق الحكم الذاتى التى منحها لوكللوس لمدينتى سينوپى (Sinope) وأميسوس فى بنطوس على الساحل الجنوبى للبحر الأسود . كما منح هذه الحقوق لمدن أخرى واقعة خارج نطاق الحكم الرومانى المباشر . لكن اذا كانت معظم مدن آسيا الصغرى قد أصبحت مدنا حرة (liberae) فان قليلا منها هى التى تمتعت بالاعفاء التام من الجزية (immunes) . لقد فرض پومپى على معظمها أن تدفع من الضريبة ما يعادل عشر محصول الأرض (decuma) وهى نفس القيمة التى كانت تدفعها فى عهد حكامها السابقين . وطالب كل الملوك والأمراء وكبار الكهنة فى البلاد التابعة التى تقع على الجانب الغربى من الفرات أن يدفعوا جزية سنوية معينة (stipendium) . وترك أمر جباية الضرائب فى الولايات ـ كما جرت العادة فى عصر الجمهورية ـ فى يد ملتزمى جباية الضرائب (publicani) . لكنه ترك تحصيل الرسوم من الأفراد فى الأراضى التابعة للمدن المستقلة

فى يد السلطات البلدية التى كانت تعقد لجبايتها صفقات اجمالية مع الملتزمين الرومان .

وتعتبر قيادة پومپى فى الشرق نقطة التحول من الدستور الجمهورى الى الدستور الامبراطورى ، كما تعتبر حملته هناك بداية تطور جديد فى تاريخ روما والشرق الأوسط . فقد ترتبت عليها زيادة فى الثروة لم تنجم عن أى حرب أجنبية خاضتها الجمهورية الرومانية من قبل . فبعد أن وزع على جنوده ما يعادل بضعة ملايين من الجنيهات ، تبقى ما يزيد على حوالى ٤٨٠ مليون سسترتيوس أودعها فى الخزانة العامة . وتضاعف تقريبا الدخل السنوى من الجزية فارتفع من ٢٠٠ مليون الى ٨٠ سسترتيوس . وفى مقابل الضرائب التى فرضها پومپى على بلد الشرق الأوسط ، تمتعت شعوب هذه المنطقة بسلام وأمن لم تتمتع به منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية ، وتطهرت البحار من القرصنة وتخلصت سوريا من الفوضى ، وظلت آسيا الصغرى بمنأى عن الحروب مدة طويلة فيما عدا الاضطرابات القليلة التى كانت تثيرها أطماع الملك ديوطاروس من حين لآخر . ولئن كان پومپى بمسلكه ازاء فراتيس قد غرس بذور النزاع الذى نشب بين بارثيا وروما فيما بعد ، فان سوريا ومعابر الفرات كانت كفيلة وهى فى يد الرومان أو فى يد حلفائهم أن تدرأ خطر البارثيين وتمهد الطريق لغزو أراضيهم نفسها . فالى پومپى اذن يرجع الفضل فى استقرار نظام الدفاع عن الحدود فى الشرق ، ذلك النظام الذى ظل قائما حتى نهاية التاريخ الرومانى . وقد يكون من العسير علينا أن نفهم كنه هذا النظام . لكن اذا تتبعنا على الخريطة نهر الفرات من منابعه فى أرمينيا الغربية الى الصحراء العربية ، وأدركنا أن كل لأراضى الواقعة داخل هذا الخط كانت فى يد لرومان أو تحت سيطرتهم ، ففى وسعنا أن نبنى فكرة عن أهميته فى التاريخ . وقد رأينا كيف أنشأ الرومان ثلاث ولايات جديدة وهى « بنطوس — بثونيا »

فى شمال آسيا الصغرى ، و « كيليكيا » على ساحلها الجنوبى الشرقى ، و « سوريا » التى شملت المنطقة الساحلية الممتدة من كيليكيا شمالا حتى حدود مصر جنوبا . وكانت توجد بين هذه الولايات ونهر الفرات مملكتان هما كپادوكيا وجلاتيا ، وممالك أخرى أصغر منهما ، وتؤلف جميعها « منطقة نفوذ رومانية » حيث لم تكن روما قد استطاعت بعد أن تضع قوات عسكرية دائمة . وعلى الرغم مما يعتور هذا النظام من قصور ، فقد كان كفيلا بتدعيم هيبة روما فى أصقاع الشرق الأوسط والقاء الذعر فى قلب عاهل مملكة بارثيا الواقعة وراء الفرات . وأخيرا فان پومپى بتشجيعه قيام المدن فى آسيا الصغرى وسوريا قد يسر انتشار الحضارة الهللينية ومهد للانتعاش الاقتصادى بالشرق (١) فى فجر عصر الامبراطورية . واذا كانت فتوحاته لا تبهر أبصارنا بقدر ما تبهرها فتوحات قيصر فى بلاد الغال ، فهى لا تقل عنها أهمية بل تضارعها أثرا فى مجرى التاريخ القديم .

---

(١) انحاز الشرق الى پومپى عندما نشبت الحرب الأهلية بينه وبين قيصر اعترافا منها بفضله ونعمه عليه .

الفصل الرابع

الثورة : الدور الثانى

النضال بين السناتو والقواد العظام

(٦٥ — ٥٩)

ظهور يوليوس قيصر

وبينما كان پومپى يعمل على توطيد سمعته العسكرية ودعم نفوذ بلاده فى الشرق كان أعضاء السناتو وكذلك منافسوه فى زعامة الحزب الديمقراطى يراقبون نشاطه بعين القلق والحسد .

العاصمة فى غياب پومپى :

موقف السناتو :

وأما عن موقف السناتو أو بالأحرى موقف الحزب الأرستقراطى منه وبخاصة الأقطاب من أمثال كاتولوس وأسرتى ميتيللوس ولوكللوس وهورتنسيوس فيتبين من الاتهامات التى وجهت الى نقباء العامة من أنصاره . كان أحدهم هو كورنيليوس (C. Cornelius) ، أحد نقباء عام ٦٧ ، الذى استصدر قانونا يقضى بالزام البريتوريين بأن يحكموا وفقا للمنشورات الدائمة (edicta perpetua) التى يصدرونها فى أول كل عام وألا يصدروا بعد ذلك أى منشورات طارئة (edicta repentina)[1] كما استصدر قانونا آخر يقضى بفرض عقوبة مزدوجة على المتهمين بالرشوة فى الانتخابات ، وهى الغرامة المالية الكبيرة والحرمان من تولى الوظائف العامة (٢) واحتضن قانونا ثالثا مؤداه الحد من الاستثناءات

---

(١) عن هذه المنشورات ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ص ٧٢ ، ٧٤ حاشية ١ .

(٢) وقد عرف هذا القانون الذى ووفق عليه بعد تعديله باسم قانون كلپورنيوس لمكافحة الرشوة فى الانتخابات (lex Calpurnia de ambitu) نسبة الى احد قنصلى سنة ٦٧ وهو جايوس كلپورنيوس پيسو .

من القوانين (privilegia) وذلك بعدم منحها الا اذا حضر جلسة السناتو عدد لا يقل عن ٢٠٠ عضو . هذا النقيب قـدم للمحاكمة فى عام ٦٦ بتهمة الخيانة ولكن برىء من التهمة بفضـل دفاع شيشرون عنه فى سنة ٦٥ .

وأما زميله النقيب جابينيوس (A. Gabinius) ، صاحب القـانون الخاص باسناد القيادة العليا غير العادية ضد القراصنة الى پومپى ، فقد تقدم بمشروعين آخرين نافعين ، أحدهما يقضى بمنع اعطاء قروض لسفراء الدول الأجنبية أثناء اقامتهم بروما ، والآخر بجعل اسـتقبال الوفود الأجنبية أول بند فى جدول أعمال السناتو عند انعقاده فى شهر فبراير وعدم ارجاء ذلك الأمر حتى لا تتسرب الرشا الى جيـوب أعضاء المجلس بعد الاتصال بالوفود . هذا النقيب تجنب المحاكمـة بالرحيل عن ايطاليا والالتجاء الى معسـكر پومپى فى الشرق . وأما مانيليوس (C. Manilius) صاحب القانون الذى قضى بنقـل القيادة ضد مثراداتيس من يد لوكللوس الى پومپى عام ٦٦ ، فقد وجهت اليه تهمتان منفصلتان احداهما ابتزاز أموال أميرية والأخرى الخيانة العظمى التى أدين بها فى سنة ٦٥ .

دسائس كراسوس

ويتبين موقف الحزب الديمقراطى ازاء پومپى مما فعله كراسوس الذى أصبح بعد رحيل پومپى أبرز أنصار ذلك الحزب . وقد ساوره القلق من انتصارات زميله ودبت الغيرة فى صدره وخشى أن يفعـل ما فعله سلا بعد عودته من الشرق . لذلك بذل كراسوس قصارى جهده ليجمع حوله الأنصار من جميـع الطبقات بشتى السبل مستعينا تارة بثروته الطائلة التى جمعها أثناء حركة الاغتيالات والمصادرات على أيام

سلا (١) ، وتارة بعرض خدماته كمحام لناجح على كل من كانوا فى حاجة الى مساعدات قانونية . غير أنه أدرك أن ثروته الطائلة ليست ندا لمجد پومپى العسكرى ، ولذا تاقت نفسه الى أن يتولى قيادة جيش كبير فى حرب خارجية يساوم به فى المستقبل أو أن يضع يده على قاعدة عسكرية يناوىء منها پومپى . فاذا لم يحالفه التوفيق فى هذا أو ذاك ، فلا أقل من أن يعمل على توطيد مركزه السياسى .

وكانت أول خطوة أو بالأحرى أول حلقة فى سلسلة الدسائس التى دبرها كراسوس لتوطيد مركزه هى محاولته تعيين أحد صنائعه حاكما على « أسبانيا القريبة » . ففى عام ٦٥ الذى انتخب فيه كراسوس رقيبا . (censor) ، خلا فجأة منصب حاكم أسبانيا القريبة ، فانتهز الفرصة وألح على السناتو بأن يعين كلپورنيوس پيسو (Cn. Calpurnius Piso) ، حاكما على تلك الولاية . وكان پيسو هذا شابا غرا قليل الخبرة مرذول الخلق ولا يليق لشغل المنصب . لكن كراسوس استخدم نفوذه بوصفه رقيبا للتأثير على بعض أعضاء مجلس السناتو واستخدم أمواله فى شراء ذمة البعض الآخر من المفلسين أو المدينين له حتى وافقوا على ارسال پيسو الى أسبانيا كحاكم بمرتبة الكويستور المتمتع بسلطة البريتور البديل (quaestor pro praetore) وهناك تملكه الغرور فعامل الأهالى بجفاء شديد حتى نقموا عليه . ولم تطل اقامته بالولاية لأن أحد الأسبان لحقته منه اهانة بالغة فطعنه بخنجر طعنة قاتلة . ولم يقم كراسوس بأى محاولة لايجاد بديل له فى المنصب .

ولم يلبث كراسوس أن تقدم فى نفس العام (٦٥) بمشروع يقضى بفرض الجزية على مصر . ولما كانت مصر بوصفها دولة صديقة لروما

---

(١) بلغ من فرط غناه انه لقب بكراسوس الثرى (Crassus Dives) ، راجع ماتقدم فى ص ١١٦ ، هامش ١ .

لا تدفع الجزية ، فان المشروع كان معناه المطالبة بضم مصر الى أملاك الجمهورية وتحويلها الى ولاية رومانية . وتذرع كراسوس بحجة أن ملكها وقتئذ — بطلميوس الثانى عشر الملقب « بالزمار » — لم يكن وريثا شرعيا لأن سلفه بطلميوس الملقب بالاسكندر الثانى كان قد أوصى بها للرومان — وهى وصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة ولا يستبعد أنها كانت زائفة (١) . وتضمن المشروع نصا باسناد تنظيم الولاية الجديدة الى يوليوس قيصر الذى أيد الفكرة وكان يتــولى منصب الأيديل (المحتسب) فى ذلك العام . وكانت مصر بلدا غنيا من السهل غزوه بعد أن انتابها الضعف ومزقت أوصالها منازعات الأسرة المالكة ، وارتمى عاهلها بطلميوس « الزمار » فى أحضان الرومان وأصبح ألعوبة فى يد أحزابهم المتطاحنة وأراق ماء وجهه فى كسب رضاء أقطابهم واستجداء اعترافهم به . وكانت مواردها — برغم ما انتابها من تدهور اقتصادى — ما تزال كفيلة بسد رمق العامة الرومان الذين طالما هددتهم المجاعــة لانقطاع القمح المستورد ، وكفيلة أيضا بأن تمد رجال الأعمال — من طبقة الفرسان — بسوق يستثمرون فيها أموالهم أو يعتصرون منهـــا ثروات طائلة . وأهم من ذلك كله أن مصر قد تصبح بعد احتلالهـــا بجيش موال لكراسوس بمثابة شوكة فى جنب پومپى ، اذ كان فى وسع الأول أن يعوقه عن العودة من الشرق الى روما فى اطمئنان مالم يرضخ لشروط معينة ، أو أن يستخدم مصر ، على أسوأ تقدير ، كقاعدة يلتجىء اليها اذا خشى على نفسه من بطش پومپى عند عودته . غير أن هــذا المشروع لقى معارضة شديدة من السناتو الذى كان من رأيه حينئذ عدم المساس بمصر . ولذلك استعمل كاتولوس زميل كراسوس فى الكنسورية

---

(١) راجع كتابنا « مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية » (بيروت ١٩٧٢) ص ١٢ وما بعدها .

حقه فى الاعتراض لعرقلة المشروع (١) . ولكن الفضل فى رفض المشروع يرجع الى شيشرون الذى هاجمه بوصفه نصيرا لپومپى حريصا على مصالحه فى خطبة لم تصلنا منها سوى شذرات (٢) .

مناورات قيصر كحليف لكراسوس

لم يكن جايوس يوليوس قيصر (C. Iulius Caesar) الذى حاول كراسوس أن يستعين به فى تحقيق أغراضه قد أصبح بعد منافسا قويا لأى من پومپى أو كراسوس . لكنه كان يشق طريقــه بخطى سريعة نحو أبرز مكان على مسرح السياسة الرومانية . ولد قيصر فى عام ١٠١ أو ١٠٠ فى عشيرة يوليوس (gens Iulia) وهى احدى عشائر الأشراف (Patricii) العــريقة . ولما كان ماريوس قد تزوج عمته يوليا ، كما تزوج هو نفسه كورنيليا ابنة ركنًا ، فقد دفعته هذه المصاهرة للانحياز الى جانب الحزب الديمقراطى أوالحزب الشعبى (٣) . ولما أمره سُلاَّ بأن يطلق زوجته رفض ورأى أن من الأسلم له أن يغادر روما . وبعد أن صفح عنه سلا خدم فى ولايتى آسيا وكيليكيا . وبينما كان فى الشرق (٨٠ — ٧٨) وقع أسيرا فى يد القراصنة الذين أطلقوا سراحه بعد أن دفع لهم فدية كبيرة . لكنه انتقم لنفسه من آسريه

---

(١) كاتولوس (Q. Lutatius Catulus) هو قنصل عام ٧٨ الذى التقينا به أثناء حركة تمرد ليپيدوس ، وابن القنصل زميل ماريوس عام ١٠٢ ، والذى يحمل نفس الاسم .

(٢) وتعرف باسم De Rege Alexandrino . ويتبين منها ان كراسوس هو صاحب المشروع وليس يوليوس قيصر كما يذهب المؤرخ سويتونيوس (Suetonius) فى ترجمته لحياة قيصر (Divus Iulius, 49) .

(٣) اكد قيصر صلته بالحزب الديمقراطى فى خطاب القاه فى حفل تأبين عمته (زوجة ماريوس) ، حيث عرضت تماثيل ماريوس (imagines) ، كما اشاد فيه بعراقة نسب عشيرته منبها الاذهان الى قصة انحدارها من سلالة انكوس ماركيوس احد ملوك روما القدامى ، والربة فينوس (افروديتى) نفسها أم اينياس (الطروادى) ، وهو ابو يولوس (Iulus) . الذى اشتق منه اسم عشيرة يوليوس .

فيما بعد شر انتقام . وبعد موت سلا عاد قيصر الى روما حيث كرس مواهبه الخطابية للدفاع عن أنصار ماريوس ثم رحـل الى رودس (٧٥/٧٤) حيث درس البلاغة .وقد انتخب كويستورا فى عام ٦٩ وخدم بأسبانيا فى سنة ٦٩/٦٨ . ولما رجع الى العاصمة انضم الى كراسوس لتأليف جبهة واحدة وايجاد نوع من التـوازن السياسى ومناهضةنفوذ پومپى المتزايد . وعندما تولى منصب الأيديل(المحتسب) فى ٦٥ اجتذب اليه العامة بيذخه الشديد فى الحفلات والمآدب الفاخرة التى كان يقيمها فى الأعياد الرسمية ، واعادة بناء النصب التـذكارية لحملات ماريوس ، وتأييد الدعاوى المرفوعة على من اشتركوا فىحركة سلاالارهابية . وقد اضطره اسرافه المفرط الى اقتراض مبالغ ضخمة . وكان اكبر دائنيه بداهة هـو كراسوس الذى وجد فيه اداة نافعـة لتحقيق مآربه . لذلك حرص الاثنان على أن يتولى قيصر منصـبا يتيح له أن يقتنى من الثروة ما يعينه على الوفاء بديونه .

وفى نفس العام الذى تقلد فيه كراسوس منصب « الرقيب » تقدم باقتراح يقضى بتسجيل سكان غاله عبر البو (Gallia Transpadana) فى جميع القبائل . ولم يكن هؤلاء السكان قد حصلوا فى سنة ٨٩ إلا على « الحقوق اللاتينية (١) » ، فكان معنى الاقتراح اعتبـارهم كالمواطنين الرومان المتمتعين بكامل الحقوق ومساواتهم بسكان جنوب البو الذين سجلت أسماؤهم فى القبائل الخمس والثلاثين . ولـكن الرقيب الآخر أحبط المشروع بماله من حق الاعتراض . ولعل كراسوس الذى توقع بداهة اعتراض زميله على المشروع ، لم يقصد به سوى الدعاية لنفسه ، ولذلك لم يأسف على اخفاقه لأنه حقق به بعض غرضه ، إذ أكسبه سمعة طيبة بين سكان تلك المنطقة الغنية التى كانت تعتبر أكثر مناطق ايطاليا ملاءمة لتعبئة الجند ؛ ولعل كراسوس كان يأمل فى

(١) راجع ص ٦٦ .

أن يجند من بينهم جيشا يرتكز عليه فى المستقبل ، مثلما ارتكز كاربو على السمنيين فى حربه ضد سلا .

ولم يكف كراسوس عن البحث عن أدوات أخرى يحقق بها مطامعه السياسية ويعلى بها شأنه . وقد سادت العاصمة وقتئذ حالة من التذمر وعدم الاستقرار مبعثها وجود طائفة ممن كان سلا قد صادر أملاكهم لانتمائهم الى حزب ماريوس أو ممن بددوا ثرواتهم التى اقتنوها على حساب ضحايا الدكتاتور ، أو استبعد الرقيبان اللذان تقلدا المنصب فى عام ٧٠ أسماءهم من قائمة السناتو (١) . وكان أبرز شخص بين هذه الطائفة رجل يدعى كتيلينا (L. Sergius Catilina) . وكان ينتمى الى أسرة شريفة قليلة النفوذ . وقد عرف بالشجاعة الفائقة والجـرأة البالغة واكتسب سمعة سيئة باشتراكه فى حركة الاغتيالات على أيام سلا ؛ وفساد أخلاقه فى حياته الخاصة . ومع ذلك فقد وصل الى منصب البريتور فى ٦٨ . وبعدئذ عين بوصفه بريتورا سابقا حاكما على ولاية افريقيا فى ٦٧ .ثم رشح نفسه قنصلا لعام ٦٥ ولكن اسمه ا، تبعد من قائمة المرشحين لاتهامه بالابتزاز فى ولايته ، وهى تهمة لم يبرأ منها الا بعد فوات الفرصة . وامتلأت نفسه بالحقد فعقد عزمه على الانتقام . واستعان فى ذلك بمرشحين آخرين كانا قد فازا فعـلا فى انتخابات القنصلية ولكنهما أدينا بتهمة الرشوة فبطل انتخابهما . ووضع كتيلينا معهما خطة لاغتيال القنصلين اللذين اختيرا مكانهما ، والاستيلاء على مقاليد الحكم فى اليوم الأول من يناير عام ٦٥ . لكن تصرفات كتيلينا وزميليه أثارت ريبة السناتو الذى اشتم رائحة الغدر فاتخذ الاحتياطات

---

(١) راجع ص ١٢١ .

اللازمة وأمد القنصلين بحرس شخصي مسلح ، وبذلك أحبطت المؤامرة(١) ومع أن كراسوس لم يكن ضالعا فى هذه المؤامرة فقد استخدم نفوذه بعد فشلها لمنع اجراء التحقيق مع المتآمرين . وفى وسعنا ان نستشف دافعه على ذلك مما فعله فيما بعد عندما سخرهم لتحقيق أغراضه ، ولا ريب فى أنه بسط حمايته عليهم ليتخذ منهم مطايا لخدمة مصالحه .

شيشرون « والوفاق بين الطبقتين »

وفى يوليو من عام ٦٤ رشح ثلاثة أشخاص أنفسهم للقنصلية . كان هؤلاء الثلاثة هم كتيلينا وأنطونيوس وشيشرون . وقد ألممنا بطرف من سيرة كتيلينا الذى أثار مخاوف الحزب الارستقراطى بالمؤامرة الفاشلة التى دبرها فى عام ٦٦ وبتحالفه مع كراسوس وقيصر اللذين اعتزما تأييده هو وأنطونيوس للاستفادة منهما بعد الفوز بالقنصلية . وكان أنطونيوس (C. Antonius Hybrida) — وهو شقيق البريتور الذى تولى قيادة الحملة ضد القراصنة فى كريت (٢) — رجلا ضعيفا منحلا وان كان ينتمى الى أسرة من أسر النبلاء . وأما شيشرون فهو ماركوس توليوس كيكرو (M. Tullius Cicero)، أخطب خطباء الرومان وألمع كتابهم . وحسبنا أن نتحدث هنا عنه كسياسى مرجئين الحديث عنه كأديب الى فرصة أخرى (٣) . ولد فى عام ١٠٦ بأربينوم ، وهى نفس البلدة التى أنجبت ماريوس . واشتغل فى مستهل حياته بالمحاماة ، وأحرز بمرافعاته فى المحاكم شهرة عريضة ، وكسب صداقة عدد كبير من أقطاب عصره . كانت أشهر قضية ترافع فيها هى قضية ڤريس حاكم صقلية الذى حمل شيشرون عليه حملة شعواء فأدانته المحكمة فى

---

(١) وتعرف أحيانا باسم « مؤامرة كتيلينا الاولى » ، وهى غير المؤامرة المشهورة التى سيأتى ذكرها فيما بعد .

(٢) قارن ص ٥٧ ، حاشية وقد يكتب لقبه أحيانا « هيبريدا » Hibrida .

(٣) عن شيشرون ككاتب وخطيب لاهميته البالغة كمصدر لمعلوماتنا عن القرن الاخير من عصر الجمهورية ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ١٦ — ٢١ .

عام ٧٠ (١) . واتخذ شيشرون كسائر محامى عصره من الخطابة سلما لارتقاء مسرح السياسة ، وتدرج بسرعة فى سلك المناصب العامة الأولية . وقد اتجهت ميوله حينئذ نحو الحزب الديمقراطى فانبرى — كما رأينا — للدفاع عن قانون مانيليوس ، الذى خول پومپى بمقتضاه سلطات استثنائية واسعة (٢) . وكثيرا ما قيل ان شيشرون تحول عن الحزب الديمقراطى وانحاز الى حزب السناتو عندما رشح نفسه للقنصلية وأيده النبلاء . غير أن هذا القول ينطوى على شىء من الخطأ لأنه يفترض وجود أحزاب منظمة لها برامج محددة تستهدف المصلحة القومية كأحزاب العصر الحديث ، بينما كانت العاصمة الرومانية لم تعرف مثل هذه الأحزاب (٣) . لقد كانت هناك جماعات (تعرف كل منهما عند الرومان باسم factio و partes) (٤) تربط أعضاءها المصالح الشخصية فى معظم الأحيان ، فكان هناك فريق الارستقراطيين (Optimates) ، الذين التفوا حول السناتو وأيدوا سياسته ونادوا بتدعيم نفوذه . وكانوا يؤلفون جبهة متحدة متماسكة ذات كيان ثابت وزاد من تماسكها الصداقات الشخصية أو السياسية (amicitiae) والمصاهرات الأسرية واشتراك المصالح الطبقية ، وولاء عدد كبير من

---

(١) راجع ص ١٢٠ وما بعدها ، حاشية . وبذلك كسب شيشرون ميزة سياسية وظفر بمكانة فريس فى السناتو مع انه كان لا يزال « ايديلا » اى محتسبا . وفى هذا ما ينوادم و قانون اكيلوس الخاص بالابتزاز (lex Acilia) الذى استصدره جايوس جراكوس فى عام ١٢٢ (راجع ص ٣٦) وكانت احدى مواده تكافىء غير الرومانى الذى ينجح فى ادانته حاكم رومانى اما بمنحه الجنسية الرومانية وادراج اسمه فى قبيلة المتهم أو بحق التظلم الى الشعب من الاحكام مع احتفاظه بوضعه الاصلى اذا كان لاتينيا ، انظر :

Warmington, **Remains of Old Latin**, IV, p. 366, ff.

(٢) راجع ص ١٢٦ .

(٣) Lily R. Taylor. **Party Politics in the Age of Caesar.** (Sather Classical Lectures, XXII). Berkeley, 1949.

(٤) عن معنى هذه المصطلحات السياسية ، راجع الآن :

J. Hellegouarch **Le Vocabulaire latin des relations et des partis politiques sous la République.** (Publ. de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de l'Univ. de Lille, XI). Paris, 1963.

الأتباع . وكان هناك فريق آخر ليس له اسم محدد وان كان خصومه قد أطلقوا عليه اسم الشعبيين (Populares) ، بمعنى الديماجوجيين الذين يعملون على ارضاء نزوات الغوغاء بمشروعات متطرفة تهدد كيان الدولة . وقد التف فريق الشعبيين أو الديمقراطيين حول نقباء العامة فى أول الأمر وبعدئذ حول بعض كبار القواد ذوى الأطماع الشخصية ممن أخفقوا فى تنفيـذ مشروعاتهم عن طريق السـناتو فتحولوا الى الجمعية القبلية ليحصلوا منها على الموافقة على هذه المشروعات . وجدير بالذكر أن زعماء فريق الشعبيين كانوا كلهم باستثناء واحد أو اثنين ينتمون كالارستقراطيين الى أسر شريفة الأصل أو نبيلة المنصب . وقد انتهجوا سياسة مناوئة للسناتو بصورة تكاد تكون مطّردة . وبين هذين الفريقين كان يوجد فريق أو طبقة الفرسان (Ordo Equester) وهم رجال الأعمال ، الذين كانوا ينحازون تارة الى هذا وتارة الى ذاك الفريق ، ولو أن حقـد السناتو عليهم كان يدفعهم الى شـد أزر « الديمقراطيين » فى معظم الأحيان (١) . وكان شيشرون ينتمى بحكم نشأته الى الفرسان الذين كانوا فى صدر حياته السياسية متحالفين مع

---

(١) راجع ص ٤١ وما بعدها . ولعـل القارىء يذكر ان جايوس جراكوس استبدل بالمحلفين من أعضـاء السناتو محلفين من الفرسـان فى محكمة الابتزاز بمقتضى « قانون اكيليوس » مشيرا بذلك الشقاق بين اعلى طبقتين فى المجتمع (راجع صٓ ٢٦) . لكن يجـدر بنا ان ننبه على ان هـذا القانون (انظر ص ٢٦ ، ٤٢) لا يعين الفرسان بالاسم وانما يشير اليهم اشارة ضمنية بتحـديد النصاب المالى اللازم توافره فى المحلفين الجدد والذى يرجح انه ٤٠٠,٠٠٠ sestertii ; وكان شيشرون هو اول من استعمل فى خطبته ضد فريس عام ٧٠ (in Verr. I, 15) كلمة الفرسان equites فى وصف هؤلاء المحلفين . ونجد تأييدا لكلامه فيما ورد عند بلينيوس الاكبر (N. H. XXX. 34) من ان طبقة الفرسان هى طبقة اجتماعية يرجع اصلها الى تريبونية الاخوين جراكوس ، وان اعضاءها عرفوا اولا باسم المحلفين iudices. فلما ساءت سمعة هذه المحكمة حل محله اسم الملتزمين publicani ، واخيرا اطلق عليهم اسم الفرسان equites منذ قنصلية شيشرون فى عام ٦٣ . على انه ينبغى التمييز بين هيئتين من الفرسان ، احداهما صـغيرة وهى وحدات الفرسان centuriae quitum فى الجمعية المئوية التى تتألف من شبان أثرياء كانت الدولة تمدهم بالجيـاد على نفقتها ويعرفون باسم equites equo publico والاخـرى اوسع نطاقا وتعـرف باسم ordo equester وهى طبقة فى المجتمع

=

دهماء المدينة (plebs urbana) لمعارضة دستور سلا وبعدئذ لمناوأة لوكللوس وتأييد بومبى . فلما أخذ كراسوس يحيك الدسائس ضد بومبى فى غيابه ، وجد معظم الفرسان أنفسهم مضطرين الى التضامن مع السناتو لاحباط هذه الدسائس .وحذا شيشرون حذو زملائه فى طبقة الفرسان . ومع أننا لا نستبعد أن تكون المصلحة الشخصية هى التى أملت عليه هذا المسلك ، فنحن لا نرى فيه أى تناقض . لقد اتخذ لنفسه منذ ذلك الحين شعارا سياسيا مؤداه العمل على ايجاد نوع من الوفاق أو الوئام بين طبقتى السناتو والفرسان (Concordia Ordinum). كان شيشرون قد فكر مليا فى أحوال الجمهورية ، ثم خرج فى شجاعة بفكرة بناءة مشرقة وسط هذا الصراع المرير بين الارستقراطيين والديمقراطيين الذين كان أغلبهم يسعون سعيا حثيثا وراء السلطة الشخصية ، وكانوا مجردين من الدوافع النبيلة السامية. وما كانوا يتمسحون أحيانا ببعض مظاهر الحرية (libertas) والمبادىء الدستورية الا لبلوغ مآرب شخصية دون اعتبار لمصلحة الجمهورية. على أن شيشرون الذى انبعث فى نفسه صورة ائتلاف العناصر الطيبة فى المجتمع ووقوفها صفا واحدا امام خطر كتيلينا ، بدأ يحلم برأب الصدع بين السناتو والفرسان وقيام نوع من التآلف او التحالف بين الطبقتين ، وهو ما تصوره فيما بعد كائتلاف بين جميع الفضلاء

= من افرادها على درجة من الثروة تؤهلهم للانخراط فى وحدات الفرسان ولم يكونوا من اعضاء السناتو . وكان هناك ما يبرر وصفهم « بالفرسان » لانهم كانوا منذ القدم معرضين على الاقل من الناحية النظرية لان يستدعوا للخدمة كفرسان على ان يستخدموا جيادهم الخاصة (equites equo privato). ومع ان العادة جرت على ان ينسحب الفرسان العاملون بعد بلوغهم سن السادسة والاربعين فى طبقة الفرسان بمعناها الواسع ، فليس هناك شك فى ان الطبقة كانت تضم افرادا كثيرين لم يسبق لهم ان خدموا فى الوحدات المئوية كفرسان من ذوى الجياد العامة . انظر الآن :

R. J. Rowland, "C. Gracchus and the Equites", **Trans. Amer. Philol. Assoc.** 96 (1965), 361-373.

(١) عن المطامع الشخصية لزعماء الرومان ، راجع :

C. Wirszubski, **Libertas as a Political Idea at Rome** (1950), 64 f.

(consensus omnium bonorum) . لكنه كان ــ على حد تعبير الرومان ــ رجلا جديدا فى المجتمع (novus homo) ليس له صلات أسرية واسعة. ولم يكن قائدا لجيش من قبل . ومن ثم فانه كان يفتقر الى بطانة كبيرة من الاتباع (clientela) ، ولا كان فى مقدوره أن يؤلف حزبا يشايعه كزعيم سياسى . كان يعتمد اعتمادا كبيرا على رضاء الارستقراطيين وخلوص نواياهم نحوه ، وهم من ارتضوا السير وراءه مع شىء من التردد والتأفف . وكان عليه ان يفكر أيضا فى پومپى فاتجه اليه عاقدا عليه الآمال ، دون ان يدرك مبلغ ضيق پومپى ذرعا بأنه قد سبقه الى احراز شرف انقاذ روما من براثن كتيلينا . وفى رسالة تنم عن شىء من سلامة النية كتب الى پومپى يناشده التعاون على احتضان مولد « الوئام الجديد » . ورد پومپى عليه ردا مخيبا لبعض آماله ، بل انه لم يوفه حقه من الثناء على انقاذه العاصمة عام ٦٣ . وعندئذ كتب شيشرون اليه مقترحا عليه عقد ائتلاف بينهما كالذى قام من قبل بين سكيپيو أيميليانوس ولايليوس ، أى بين رجل الحرب ورجل السياسة فيتولى أحدهما حماية الدولة ، ويتولى الآخر توجيه دفتها ، على أن يظل التحالف قائما بين السناتو والفرسان ضد العناصر الشريرة (improbi) ، وبذلك تنصلح أحوال الدولة وتسير أمورها سيرا حسنا . لقد كانت روما فى حاجة ماسة الى فترة من السلام المشرف "otium cum dignitate" (١) وهو أقل ما تطمع فى تحقيقه أى حكومة محافظة . وكانت هذه السياسة المتسمة بطابع الاتزان والواقعية خليقة بأن تطيل أجل الجمهورية لو أن النبلاء ارتضوا السير وراءه . غير أنهم لم يتمكنوا قط من التجرد من روح التعصب ضد شيشرون ، ذلك الرجل العصامى الذى شق طريقه بسرعة الى مكانة مرموقة فى المجتمع وأرغمتهم الظروف الغريبة على قبول زعامته . وعندما رشح

---

(١) عن معنى هذا الشعار وتاريخه ، انظر :
C. Wirszubski, JRS (1954), 1 ff.

شيشرون نفسه للقنصلية لم يتوقع — فيما يبدو — أن يتلقى سوى مساعدة ضئيلة من جانب « الارستقراطيين » حتى أنه فكر برهة فى التحالف مع كتيلينا . لكنه سرعان ما نبذ الفكرة عندما تبين له أن كراسوس وقيصر يؤيدان ترشيح كتيلينا وأنطونيوس .

وأسفرت المعركة الانتخابية الحامية عن فوز كل من شيشرون وأنطونيوس بالمنصب السامى . وبدت النتيجة فى ظاهرها كأنها انتصار جزئى لكراسوس، لكنها كانت فى واقع الأمر هزيمة تامة له ، لأنه لم يكن فى وسع حليفه أنطونيوس أن ينجز شيئا دون موافقة شيشرون الذى يتمتع مثله بحق الاعتراض . ولذلك تخلى أنطونيوس عن نصيريه وآثر أن يساوم شيشرون الذى فاز بأفضل الولايتين اللتين كانتا تخصصان للقنصلين لكى يتوليا الحكم فيهما عقب انتهاء خدمتهما السنوية فى روما (١) . فاتفق القنصلان على تبادل الولايتين والعوض بأن يدع أنطونيوس مقاليد السياسة فى يد شيشرون .

مشروع روللوس

وازاء هذا الفشل الذى منى به كل من كراسوس وقيصر فقد بحثا عن وسائل أخرى لاضعاف شوكة پومپى وتقوية مركزهما . فلم يكد النقباء العشرة يتقلدون مناصبهم فى العاشر من ديسمبر عام ٦٤ ، كشأنهم فى كل عام ، حتى أوعز كراسوس الى أحدهم ، ويدعى روللوس (P. Servilius Rullus) فى أن يتقدم بمشروع ضخم لتوزيع حصص زراعية على الفقراء الرومان فى ايطاليا مع تخويلهم حق توريثها لأبنائهم دون حق بيعها للغير . ولما كانت الحكومة لا تستطيع أن توزع غير الأراضى العامة (ager publicus) ، ولم يكن بايطاليا حينئذ سوى

---

(١) فاز شيشرون بمقدونيا وفاز انطونيوس « بقالة القريبة » ، ثم تبادلا الولايتين . ولكن شيشرون اعتذر عن قبول حكم ولايته بعد انتهاء مدة قنصليته فى آخر عام ٦٣ . ومع هذا فقد اسند اليه حكم ولاية كيليكيا باسيا الصغرى فيما بعد (عام ٥١) .

مساحات قليلة منها صالحة للتوزيع ، فقد نص المشروع على أن تشترى الحكومة الأراضى اللازمة لسد الحاجة . ولكى تشترى الحكومة أراضى على نطاق واسع كان لابد أن يتوافر لديها رصيد كبير من المال. لذلك نص المشروع على أن تبيع الحكومة كل ما تبقى فى حوزتها من أراض عامة فى ايطاليا وجميع الأراضى التى آلت اليها فى خارج ايطاليا منذ قنصلية سلا الأولى فى عام ٨٨ ، وتخصص الأموال المتحصلة من بيع هذه الأراضى هى والايرادات المتجمعة من فتوحات پومپى الأخيرة فى الشرق ، مع أسلاب الحرب وغنائمها ، تخصص كلها لشراء أراض فى ايطاليا صالحة للتوزيع كقطائع على المواطنين المعدمين . واقترح روللوس اختيار لجنة من عشر رجال من المرتبة البريتوريـة للاشراف على تنفيذ المشروع ، وتخويلها سلطة « الامپريوم » لمدة خمس سنوات وتفويضها سلطة قضائية لا معقب عليها ، وحق مصادرة الأراضى ودفع التعويضات والفصل فى منازعات الملكية وتأسيس المستعمرات وتعبئة القوات العسكرية اللازمة لتنفيذ قرارات اللجنة . وتقوم بانتخاب أعضاء اللجنة جمعية مؤلفة من سبع عشرة قبيلة تختار بالقرعة من بين القبائل الخمس والثلاثين على أن يقدم المرشحون اسماءهم بأنفسهم .

والمشروع فى ظاهره مشروع جليل يستهدف الاصلاح الاجتماعى ، فهو يخفف وطأة الضائقة الاقتصادية ، ويغرى الفقراء بالعـودة الى الريف لزراعـة أراضيه ، ويحل مشكلة ازدحام العاصمة بالدهمـاء المتعطلين . لكن نظرة فاحصة الى مواده تكشف عن صورته الشوهاء وتفضح نوايا صاحبه ومن أوعزوا اليه باقتراحه . فاللجنة تتمتع بسلطة أضخم مما يتطلبه أى مشرع للاصلاح الزراعى مهما جل قدره ، وفى وسع اللجنة أن تسىء استعمالها . وتنم طريقة انتخاب اللجنة على يد جمعية خاصة عن سوء القصد وفساد السياسة ، بل ان طريقة اختيار القبائل نفسها لا تحول دون التلاعب . ولم يقصد من اشتراط حضور

المرشحين لعضوية اللجنة بأنفسهم سوى استبعاد پومپى من اللجنة التى لم يكن هناك شك فى أنها ستقع تحت سيطرة كراسوس وقيصر. وما فائدة استبدال مستأجرى الأراضى العامة ذوى الخبرة بملاك جدد لا خبرة لديهم ؟ وأخطر من هذا كله غموض المشروع فيما يتعلق بممتلكات روما خارج ايطاليا ، اذ لم يكن هناك ما يمنع اللجنة من أن تحسب مصر جزءا من هذه الممتلكات متذرعة بالوصية المزعومة التى أومأنا اليها (١) ، مما يتيح لكراسوس وقيصر فرصة حشد جيش لاحتلالها واتخاذها قاعدة لمناهضة نفوذ پومپى (٢) — ومعنى ذلك احياء المشروع الذى أخفق كراسوس فى تنفيذه عندما كان رقيبا فى عام ٦٥ . وهل من الانصاف أن ينفذ مشروع ضخم بتوزيع الأراضى فى غياب پومپى ، بل وراء ظهره ، بقصد احراج مركزه بحرمان جنوده المسرحين من الاقطاعات أو منحها لهم بشروط باهظة مع أنهم أحق بها من سواهم ؟

ولم تخف نوايا روللوس على شيشرون الذى لم يكد يتولى مهام القنصلية فى اليوم الأول من يناير عام ٦٣ حتى هاجم المشروع فى أربع خطب وصلتنا منها ثلاث ، الأولى منها غير كاملة (٣) . وأما الخطبة الثانية التى ألقاها فى الجمعية القبلية فكانت أروع انتصار أحرزه فى ميدان الخطابة ، اذ استطاع أن يقنع فيها الجماهير برفض مشروع يستهدف فى ظاهره منفعتهم الشخصية . ولا تخلو هذه الخطب بداهة من التهويل والتحريف والمغالطة كما هو الحال فى كثير من خطبه السياسية . على أن بعض الحجج التى ساقها لهدم المشروع تلقى ضوءا باهرا على نفسية الشعب الذى أصغى اليه . فقد أوضح لهم شيشرون أن الهدف الحقيقى من المشروع يختلف عن الهدف الظاهرى وأن روللوس ما هو الا ألعوبة فى يد بعض الساسة المغامرين الذين لا همّ

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٤٦ .

(٢) يستبعد بعض المؤرخين هذا الاحتمال .

(٣) وتعرف هذه الخطب باسم In Legem Agrariam وفيها يجنح شيشرون الى المغالاة والتهويل فى تصوير عيوب مشروع روللوس .

لهم سوى مهاجمة پومپى وتقويض نفوذه . وأضاف ان المشرع يفسح المجال للمحاباة والرشوة ، ويضع مئات من الناس تحت رحمة قرارات لجنة الأراضى التى تتصرف فى مبالغ ضخمة قد تغرى أعضاءها بالتلاعب. وليس هناك ما يضمن أن ما تشتريه اللجنة من أراض فى ايطاليا سيرضى به فقراء المواطنين . ولا ريب فى أن أصحاب الضياع التى توجد فى المناطق القحلة أو تتعذر فيها الزراعة بسبب الجفاف والملاريا أو انتزعت من ضحايا سلا فى ظروف مريبة ، هؤلاء الملاك سينتهزون الفرصة ليتخلصوا من ضياعهم بمساومة الحكومة عليها . فهل من الحكمة ان تباع أراضى الدولة بأسعار بخسة ويضحى بالايرادات المضمونة والايجارات الثابتة فتوضع فى يد اللجنة لتشترى بها من المقربين لديها أراضى لا خير فيها بأسعار خيالية ؟ ولماذا يقبل العامة مشروعا سيحملهم على مغادرة العاصمة الى الريف حيث لا مناص من الكد والكدح ، ويحرمهم كذلك من المهرجانات الفاخرة والقمح المجانى وسماع الاشاعات والاتجار بالأصوات والاستمتاع بمآدب التكريم التى تقام لهم بوصفهم أصحاب الكلمة الأولى فى التشريع والانتخاب ؟ بهذه الحجج وغيرها قضى شيشرون على المشروع قضاء تاما حتى أن صاحبه سحبه قبل الاقتراع عليه . (١)

كانت هذه الهزيمة هى خاتمة حملة الدسائس التى حاكها كراسوس ضد پومپى أثناء غيابه . وكان الوقت يمضى بسرعة ، وسرعان مايفرغ القائد الكبير من حملته فى الشرق ويعود الى ايطاليا ، ومن الحكمة ألا يقدم كراسوس على شىء قد يدفعه الى التعجيل بالعودة لمحاسبة خصومه فتنشب حرب أهلية جديدة . وليس معنى هذا أن كراسوس كان راغبا فى الحرب ، بل من المرجح أنه كان يؤثر مساومة پومپى على اشهار السيف فى وجهه . لكنه كان يلعب بالنار فى الفترة ما بين ٦٧ ،

(١) E. G. Hardy, **Some Problems of Roman History,** 68 ff.
A. Afzelius. **Classica et Mediaevalia** (1940), 214, ff.

٦٢ ، وكان من الممكن أن يفلت من يديه الزمام فلا يستطيع أن يتجنب قيام الحرب مثلما لم يستطع خصوم قيصر أن يتجنبوها بعد ذلك فى الفترة ما بين ٥٩ ، ٥٢ . غير أن الحظ ابتسم لروما فابتعد شبح الحرب الأهلية وأحبط شيشرون هذه الدسائس ومؤامرة خطيرة أخرى .

مؤامرة كتيلينا

عندما كف كراسوس عن تدبير المؤامرات ضد پومپى حذا حذوه قيصر وغيره من رجال الحزب الديمقراطى حتى لا يتخذ القائد المتغيب من أفعالهم تكأة للتبكير بالعودة الى العاصمة على رأس جيشه ، ووجد قيصر بعض العزاء فى انتصار أحرزه فى ميدان آخر . فقدحدث أن خلا منصب الكاهن الأعظم (pontifex maximus) بوفاة ميتللوس پيوس[١]. وكان هذا المنصب الذى أصبح منذ أيام سلا يشغل عن طريق التعيين وقفا على الساسة المتقدمين فى السن . ولم يكن من المحتمل أن يقع اختيار هيئة الكهنة على سياسى ناشىء مثل يوليوس قيصر . غير أن لابينوس (T. Labienus) ، أحد نقباء العامة فى سنة ٦٣ ، تقدم باقتراح الى مجلس العامة (Concilium Plebis)[٢] باعادة العمل بقانون دوميتيوس الذى صدر فى عام ١٠٤ ، وجعل اختيار الكاهن الأعظم فى يد جمعية انتخابية خاصة تتألف من سبع عشرة قبيلة تختار بالقرعة من بين القبائل الخمس والثلاثين[٣] . ورشح قيصر نفسه للمنصب بعد أن أنفق كل ما استدانه فى الدعاية الانتخابية ، وعقد كل أمله على الفوز . وحالفه

---

(١) راجع ص ١٠٦ .

(٢) وهو الجمعية القبلية (Cormitia Tributa) عندما تنعقد برئاسة احد نقباء العامة لا برئاسة حاكم متمتع « بالامپريوم » كالقنصل أو البريتور . وجدير بالذكر أن الحكام الآخرين كالايديل والكوسستور والتريبيون وحتى الكنسور لم يتمتعوا الا بسلطة « البوتستاس » (potestas) .

(٣) راجع ص ٥٧ — ٥٨ ، ٨٦ .

الحظ فانتصر على منافسين قويين من النبلاء سبق لكل منهما أن تولى القنصلية (١) .

لكن اذا كان قيصر قد هدأ باله وقنع بالمنصب الدينى الرفيع حتى تسنح له فرصة أخرى ، فان كتيلينا لم يهدأ له بال منذ سقوطه فى انتخابات القنصلية فى أواخر عام ٦٤ . وقد زاد من قلقه تراكم الديون عليه وتخلى كراسوس عن مؤازرته بعد أن تبين له عدم نفعه أو بعد أن بلغه نبأ موت مثراداتيس واحتمال عودة پومپى الى ايطاليا على وجه السرعة . ومع هذا فقد رشح كتيلينا نفسه قنصلا لعام ٦٢ . وأعلن أنه

---

(١) كان احد هذين المتنافسين سرفيليوس الاساورى (راجع ص ١١١) قنصل عام ٧٩ ، والاخر كاتولوس ، قنصل عام ٧٨ ؛ واحد الاقطاب البارزين فى الحزب الارستقراطى (راجع ص ١٠٣ — ١٠٤) » .

وجدير بالذكر ان قيصر احدث ضجة فى العاصمة عندما اوعز الى صديقه نقيب العامة لابينوس فى اوائل عام ٦٣ بان يرفع دعوى على عضو مسن من اعضاء السناتو يدعى رابيريوس (C. Rabirius) لانه كان له يد فى اغتيال نقيب العامة ساتورنينوس فى عام ١٠٠ اى منذ ٣٧ عاما مضت (راجع ص ٥٩) . وكان الاتهام له ما يبرره من الناحية القانونية لان « القرار النهائى » الذى اصدره السناتو ضد ساتورنينوس لم يكن يخول قتله دون محاكمة . ولكن قيصر لم يجعل القضية تنظر — كما كان ينبغى — امام محكمة الجنايات المختصة بالقتل العمد (quaestio de sicariis) بل امام محكمة احياها بعد ان بطل استخدامها من قديم الزمن ، وهى محكمة الخيانة العظمى المؤلفة من قاضيين (Duoviri Perduellionis) وقد ادانت المحكمة رابيريوس وقضت بصلبه فوق شجرة جرداء . ولكن السناتو قرر بطلان هذا الحكم بإيعاز من شيشرون الذى اعترض على اى اجراءات اخرى ضد المتهم بمقتضى سلطته القنصلية . ومع هذا فقد وجه لابينوس الى رابيريوس مرة اخرى عدة اتهامات غير صحيحة امام « مجلس العامة » كان من بينها تهمة القتل . وبعدئذ اتفق مع البريتور المدنى — بمقتضى اجراء غير عادى كانت له بعض السوابق — على احالة القضية على الجمعية المئوية . وهناك تولى شيشرون الدفاع عن رابيريوس وندد بوحشية الحكم واستنكر مهاجمة « قرار السناتو الاخير » ، معرضا فى ذلك بماريوس ، زوج عمة يوليوس قيصر ، وبقنصل عام ١٠٠ الذى كان السناتو قد عهد اليه امر تنفيذ قراره النهائى . وقبل ان تمضى الجمعية المئوية فى الاقتراع فض البريتور الاجتماع بانزال العلم المرفوع على تل يانيكولم ، وهى اشارة كانت تعنى قديما ان العدو (الاتروريين) على الابواب وضرورة ارجاء الجلسة وانهاء المناقشات والمبادرة الى حمل السلاح . وهكذا انتهت هذه المحاكمة او بالاحرى هذه المسرحية الهزلية التى يبدو ان قيصر لم يقصد منها الاحتجاج على اعدام المواطنين بمقتضى قرار السناتو الاخير بقدر ما قصد منها الظهور والدعاية لنفسه .

يعتزم فى حالة فوزه بالمنصب الغــاء جميع الديون (novae tabulae) حتى يجتذب اليه الأشراف المفلسين من أمثاله وينضوى الفلاحون الذين رهنوا أراضيهم تحت لوائه . لكن شيشرون ، قنصل عام ٦٣ ، كان له بالمرصاد ، فقام بالدعاية ضده مستغلا خوف الجماهير من أساليب العنف ونفور رجال الأعمال من سياسة التطرف ، وأيده بعض رجال السناتو الذين كانوا يرون فى نشــاط كتيلينا خطــورة على دســتور الجمهــورية . وأفلح شيشرون فى تألب الرأى العام عليــه فسقط فى الانتخابات للمرة الثانية . وعندئذ فقد صوابه ودبر مؤامرة للاستيلاء على مقاليد الحكم بالقوة . (١)

واذا كانت خطب شيشرون قد خلدت هذه المؤامرة من ناحية ، فقد طمست بعض معالمها من ناحية أخرى ، إذ صور الخطيب المفــوه زعيم المؤامرة وأتباعه تصويرا قاتما وهول بشاعة الجريمة حتى ينبه السناتو والشعب على جسامة الخطر المحدق بهم . ومن العسير أن نتبين مدى انسياقه وراء بلاغته الخطابية لتشويه الحقائق وتحريف الوقائع وتلفيق التهم . ومع هذا فمن المسلم به أن يقظة شيشرون أجبرت كتيلينا على تعديل خطته الأصلية . وفى وسعنا أن نقــول ، برغم ما يكتنف تفاصيل المؤامرة من غموض وابهام ، ان هدف كتيلينا الأول كان ينصب على انتزاع القنصلية لنفسه بالتخلص من شيشرون ، ثم الغاء الديون كافة لارضــاء أنصاره ، وان خطته الأولى كانت تنطــوى على اثارة الاضطرابات فى روما بمعاونة فريق من المجالدين المقيمين بالمدينة ، بينما يقوم مانليوس (L. Manlius) ، أحد أنصاره ، بحشد قوات كافية من جنود سلا القدامى فى اتروريا والتسلل بها الى بلدة برينستى ، والتجمع هناك فى يوم ٢٧ أكتوبر من عام ٦٣ للزحف على روما فى مساء اليوم

---

(١) عن هذه المؤامرة ، راجع :
E. G. Hardy, "The Catilinarian Conspiracy," JRS (1917), 153-228

التالى ، الذى يوافق يوم المهرجان الذى كان يقام سنويا احتفالا باتنصار سلا (١) .

وكان من الممكن أن تسير الخطة كما رسمها كتيلينا فيؤخذ شيشرون على غرة وينجح الانقلاب . غير أن أنباء المؤامرة تسربت الى مسامع القنصل عن طريق سيدة كانت على صلة بواحد من المتآمرين . وتأيدت أنباؤها بمجموعة من الرسائل ألقى بها مجهول أمام منزل كراسوس الذى سلمها لشيشرون ، وهى رسائل موجهة الى فريق من أعضاء مجلس الشيوخ لحثهم على مغادرة العاصمة قبل وقوع الكارثة. واستنادا الى هـذه المعلومات دعا شيشرون السناتو الى الانعقاد ، واستطاع فى جلسة يوم ٢١ أكتوبر سنة ٦٣ أن يثير مخاوفه ويقنعه باصدار « قراره الأخير » (senatus consultum ultimum) — وهو كما أسلفنا كان بمثابة اعلان الأحكام العرفية فى حالة الطوارىء — وتخويله السلطة لاتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الدولة . وعندئذ أمر شيشرون بترحيل المجالدين من روما الى كابوا ، وحشد على عجل قوات لحراسة المدينة ، وعهد الى أحد البريتوريين بتعبئة كتائب جديدة فى بيكينوم وغالة القريبة ، وأرسل ضابطا آخر على رأس قوة صغيرة لمراقبة نشاط الثوار فى اتروريا ومنع وصول الامدادات الايطالية اليهم.

ولم يجد كتيلينا مناصا من أن يعدل خطته الأولى فقرر أن يشن

---

(١) حامت الشبهات حول كراسوس وقيصر وشاع أنهما كانا ضالعين فى المؤامرة . لكن من المؤكد أن هذه الشبهات باطلة لأن كلا منهما كان رجلا فطينا من اليسير عليه أن يدرك أن الأمل فى نجاح المؤامرة كان ضئيلا جدا. فقد يستطيع كتيلينا أن يستولى على روما وينصب نفسه قنصلا بالقوة . غير أن هذا العمل كان كفيلا بحمل پومپى على العودة الى ايطاليا مع جيشه لاقرار النظام ، ولن تجد حكومة الانقلاب متسعا من الوقت لكى تعبىء القوات الكافية لصده عن العاصمة . فمؤامرة كتيلينا اذن لن يكون لها سوى نتيجة واحدة وهى التمهيد لقيام حكومة دكتاتورية برئاسة پومپى ، وهو ما كان كراسوس وقيصر يخشيانه ويعملان على تجنبه . وعلاوة على ذلك فان كراسوس بوصفه دائنا كبيرا وصاحب أملاك كبيرة سيتعرض للخسارة لو ألغيت جميع الديون وشبت الحرائق فى أنحاء المدينة .

هجومه على أكثر من جبهة واحدة ، ويوسع حركة الاغتيالات ، ويربك السلطات باشعال النار فى عدة أماكن متفرقة بالمدينة ، ويحرض العبيد على نهبها . وشرع فى تنظيم حركة ثورية واسعة النطاق فى الريف الايطالى ، وتجنيد المجالدين فى مدارس التدريب بكابوا ، والرعاة المسلحين فى ضياع أپوليا ، والمزارعين المتذمرين فى غالة القريبة وأواسط ايطاليا . كما قرر أن يتولى بنفسه قيادة الجيش المحتشد فى شمالى اتروريا ، والزحف به إلى روما مثلما فعل ليپدوس من قبله (١) . فاذا ما تم له احتلال العاصمة أقام حكما دكتاتوريا كالذى أقامه ركنا وكاربو (٢) .

ومع أن شيشرون بلغته بعض أنباء الخطة الجديدة وخبر المؤامرة التىدبرت لاغتياله فى بيته ، واستطاع أن يحبطها فى الوقت المناسب ، فانه لم يلق القبض على كتيلينا لعدم توافر الأدلة القاطعة على ادانته. ودعا شيشرون مجلس الشيوخ للاجتماع فى ٨ نوفمبر من عام ٦٣ ليطلعه علىما تجمع لديه من معلومات ويتلقى منه التعليمات . وبلغ من جرأة كتيلينا أنه حضر تلك الجلسة لكى يذرو الرماد فى عيون الناس ويدفع عن نفسه الشبهات ويوهم أعضاء السناتو ببراءته . لكن شيشرون حمل عليه فى خطبته — المعروفة الآن باسم « الخطبة الأولى ضد كتيلينا » — حملة شعواء وندد بسيرته المشينة زاعما أنه قد وضع يديه على خيوط المؤامرة الأخيرة . ثم ناشده بل استجداه أن يرحل عن روما ويريحه ويريح المدينة من شروره . ولعل القنصل كان يبغى أن يثير اعتراض المجلس على تساهله فيأمره بالقبض على كتيلينا فورا . ولكن السناتو لم يفعل ذلك . ومع هذا فقد أحس كتيلينا بحرج مركزه فغادر العاصمة من تلقاء نفسه فى اليوم التالى قاصدا اتروريا ليتولى قيادة القوات التى تجمعت هناك . وعندئذ فقط أعلن السناتو أنه عدو

---

(١) راجع ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) راجع ص ٧٨ — ٨٠ .

الوطن وعهد الى أنطونيوس ، زميل شيشرون فى القنصلية ، أن يقود الحملة ضد الثوار .

وليس أدل على أن مؤامرة كتيلينا لم تكن نتيجة لحركة تذمر شاملة سواء فى روما أو فى ايطاليا من أن قوات الحكومة سيطرت بسرعة على زمام الموقف فى المناطق التى اعتزم أن يثيرفيها الاضطرابات، فعاد الهدوء الى كمبانيا ومنطقة الأپنين وكذلك فى آپوليا ، ولم يبق فى يده سوى قطاع اتروريا حيث استطاع أن يصمد مدة طويلة بفضل مؤازرة جنود سلا القدماء . لكنه لم يجد العتاد الكافى لتسليح جميع رجاله ، فأحجم عن الزحف على روما . وأثار تباطؤه قلق أنصاره بالعاصمة فقرروا بايعاز من زعيمهم لنتولوس (P. Cornelius Lentulus Sura) عدم الانتظار . وحددوا يوم ١٧ ديسمبر من عام ٦٣ — وهو أول أيام عيد الاله ساتورنوس (Saturnalia) الذى يتمتع فيه الأرقاء بالحرية المؤقتة — لاثارة الشعب بمعاونة العبيد واشعال الحرائق فى مختلف الاحياء واغتيال القنصلين وغيرهما من الأقطاب ، وفتح أبواب المدينة لقوات كتيلينا الزاحفة من اترووريا .

لكن حدث فى نوفمبر من نفس العام أن وفدا من الألوبروجيس (Allobroges) — وهم احدى قبائل غالة الناربونية — كان يستعد للعودة الى بلاده بعد أن قدم مظلمة لمجلس الشيوخ ، فخطر لزعيم المتآمرين أن يتصل بأعضاء هذا الوفد الذى لم يستجب السناتو لشكواه ويتفق معهم على أن تمد قبيلتهم قوات كتيلينا بفصائل من فرسانها الأشداء ، ووعدهم بتحقيق مطالبهم بعد نجاح الانقلاب . وأطلع عملاء لنتولوس أعضاء الوفد على تفاصيل المؤامرة وأسماء المشتركين فيها . ولكن وفد الغال أبلغ شيشرون ما وصله من معلومات ، فطلب اليه شيشرون متابعة الاتصال بالمتآمرين والحصول منهم على رسائل مكتوبة . وما أن وقعت هذه الأدلة المادية فى يده حتى أمر بالقبض على لنتولوس وزملائه من زعماء المؤامرة . ودعا السناتو للاجتماع وواجه المتهمين

بأعضاء الوفد الغالى والوثائق الممهورة بأختامهم ، فأدانهم المجلس بالاجماع وأمر بتحديد اقامتهم ريثما يتقرر مصيرهم . ولما أنهى الى كتيليناخبر القبض على شركائه تخلى من فوره عن فكرة الزحف على روما ، وشرع يتسلل عبر الأپنين لاجتياز جبال الألب الى بلاد الغال ، ولكن قوات الحكومة احتلت ممرات الأپنين وقطعت عليه سبيل الفرار. وفى يناير عام ٦٢ دارت عند بلدة بستوريا (Pistoria) على مقربة من فلورنسة باقليم اتروريا رحى معركة رهيبة انتهت بهزيمة كتيلينا ومصرعه . وأحرز شيشرون شهرة واسعة بالقضاء على هذه المؤامرة حتى أن كاتولوس اقترح على السناتو تلقيبه بأبى الوطن (Pater Patriae)(١) اعترافا بفضله . وتملك شيشرون الزهو فبالغ فى تمجيد الدور الذى قام به وتباهى بأنه أنقذ الدولة من الدمار المحقق (٢) . ولاينبغى أن ننسى أن حادثة المؤامرة نفسها تنهض دليلا على ضعف الحكومة بوجه عام وعلى الخطورة الناشئة عن عدم وجود قوة بوليسية دائمة فى روما للمحافظة على الأمن العام .

لكن القبض على زعماء المؤامرة أثار مناقشات حادة فى مجلس الشيوخ الذى كان شيشرون قد دعاه الى الانعقاد فى ٥ ديسمبر من عام ٦٣ قبل انتهاء قنصليته بأيام قليلة حتى يستشيره فيما ينبغى اتخاذه من اجراءات ضد المتهمين ، ولا سيما بعد أن تردد أن أصدقاءهم يحاولون اطلاق سراحهم بالقوة (٣) . كانت الاجراءات فى الظروف

---

(١) او Parens Patriae

(٢) فى راى مؤرخ من انصار مذهب كارلماركس ان كتيلينا ليس بالرجل الشرير الذى يصوره لنا شيشرون وسَلّوستيوس ، بل هو مصلح ثائر كان يهدف الى انقاذ الطبقات الدنيا من وهدة الفقر والفاقة .

(٣) عهد شيشرون الى بعض أعضاء السناتو الملمين بالاختزال بتدوين اعمال جلستى يوم ٣ ، ٥ ديسمبر عام ٦٣ لتوزيعها بين الناس تجنبا لتحريف الاقوال او اساءة تأويلها . ولعل هذه المحاولة الاولى فى ميدان « الصحافة » هى التى اوحت الى قيصر فى عام ٥٩ فكرة اصدار نشرة اخبارية او « جريدة رسمية يومية » (acta diurna) تتضمن جميع محاضر وقرارات الجمعيتين الشعبيتين ومجلس الشيوخ حتى يحيط المواطنون علما بالأحداث السياسية الجارية .

العادية تقتصر على رفع الدعوى عليهم أمام محكمة الجنايات المختصة بجريمة القتل والاغتيال أو المحكمة المختصة بجريمة استعمال القوة لقلب نظام الحكم . وقد قدم فعلا فى العام التالى بعض المتهمين الآخرين لمحاكم الجنايات . غير أن الظروف فى عام ٦٣ لم تكن عادية مما جعل شيشرون يعتقد أن من الأوفق التخلص من المقبوض عليهم ليكونوا عبرة لغيرهم من ثوار اتروريا فتثبط عزيمتهم ويبادروا الى الاستسلام. لذلك طالب باعدام المتهمين دون محاكمة بدعوى أنهم قد أصبحوا بارتكاب هذه الجريمة أعداء (hostes) متجردين من حقوق المواطنة ، وأن قرار السناتو الأخير يخوله هذه السلطة . كانت الدعوى الأولى بمثابة مغالطة منطقية أو قياس باطل ، وأما الثانية فهى دعوى واهية لأن السلطة المخولة للقنصل بمقتضى « قرار السناتو الأخير » كانت مبهمة غير محددة تحديدا واضحا (١) . حقيقة أن الاعدام دون محاكمة لم يكن فى عصر شيشرون اجراء غير مشروع فى وقت الطوارىء ، لكنه لم يكن متفقا عليه من الجميع . كما لم يكن من المؤكد أن الضرورة تحتم اتخاذه ضد الجناة بعد أن حددت اقامتهم وزال خطرهم . لهذا حرص شيشرون على ألا يتخذ أى اجراء تعسفى تترتب عليه عواقب وخيمة دون أن يستخلص من السناتو قرارا ينطوى على تأييد أدبى له. وكان السناتو بداهة لا يملك حق توقيع عقوبة الموت على المواطنين ، فكان أقصى ما يستطيعه هو أن يخول القنصل سلطة توقيع هذه العقوبة فى حالة الطوارىء على أن يتحمل القنصل لا المجلس مسئولية اصدار حكم الاعدام .

وفى الجلسة التى انعقدت لمناقشة مصير المعتقلين أعلن القنصل المسمّى لتولى المنصب فى العام التالى (consul designatus) أن من رأيه اعدامهم فورا ، وأيده فى ذلك حوالى خمسةعشر عضوا من ذوى المرتبة

(١) عن « قرار السناتو الأخير » ، راجع ما تقدم فى ص ٣٥ .

القنصلية . غير أن يوليـوس قيصر الذى أنتخب بريتورا للعام التالى (٦٢) طعن فى دستورية هذا الاجراء ، واقترح معاقبة الجناة بالسجن المؤبد فى عدة بلاد ايطالية ومصادرة أملاكهم . ومع أن هذه العقوبة سبق تطبيقها فى حالات قليلة ، فـانها كانت انتهاكا صارخا للحـرية الشخصية كالاعدام دون محاكمة سواء بسواء . وكاد هذا الرأى يظفر بتأييد أعضاء السناتو لولا أن كاتو (M. Porcius Cato) ، سليل كاتو « الرقيب » (Censor) الشهير (١) ، والذى كان مرشحا للتريبيونية ، ألقى خطابا عنيفا هاجم فيه قيصر وندد باقتراحه واتهمه ضمنا بالتواطؤ مع كتيلينا ، وأيد حجة شيشرون بأن العقاب الرادع كفيل دون سـواه بوقاية الدولة من الخطر . وبذلك قضى على تردد المجلس الذى وافق فى النهاية على قرار القنصل . وحصل شيشرون على التأييـد الأدبى فأصدر أمره فى الحال باعدام المعتقلين الخمسة . وبعد أن تم تنفيـذ الحكم خرج الى الجماهير المحتشدة فى السـوق العامة وأعلنـهم فى ايجاز بليغ بأن الجناة قد انقضت حياتهم (vixerunt) .

لقد رأى شيشرون ازاء خطورة الموقف أن يستند الى سابقة معروفة عنـدما أمر القنصل أوبيميوس بقتل أنصـار جايوس جراكوس دون محاكمة . ولقى تصرفه مسوغا أو سندا قانونيا عندما برىء من تهمة القتل عام ١٢٠ (٢) واقتضت المصلحة العليـا أن يتجاهـل شيشرون

(١) شهد « كاتو الاكبر » فى شبابه الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢) ، وانتخب قنصلا فى عام ١٩٥ ، ثم رقيبا فى عام ١٨٤ فقام بتطهير مجلس السناتو وهيئة الفرسان من العناصر الفاسدة . وقد اخذ على عاتقه اصلاح الاحـوال الاخلاقية والاجتماعية التى بدأت تتدهور فى عصره فحارب البذخ فى المدينة ، والابتزاز فى الولايات ، والمؤثرات اليونانيـة التى تسربت الى الحياة الرومانية واشاعت فيها الانحلال والفساد . وزار قرطاجنة فى عام ١٥٧ (أو ١٥٣ ؟) ونادى بتدميرها مخافة ان تنهض ثانية فتناوىء روما من جديد . وقد تم تدميرها عام ١٤٦ فى الحرب البونية الثالثة بعد وفاته بسنـوات قليلة . وكان خطيبا مفوها ، وكاتبا قديرا الف فى علوم كثيرة كالتاريخ والزراعة والبلاغة . واشتهر برجعيته وصلابته وصرامته ونزاهته . واما كاتو الاصغر الذى نحن بصدده فهو ابن حفيده وقد ورث عنه كثيرا من صفاته ، وحمل لواء المعارضـة ضد قيصر ، واشتهر باسم « كاتو الاوتيكى » .

(٢) راجع ص ٢٧ ، حاشية ١ .

القيود العادية المفروضة على سلطة « الامپريوم » ، ويتصرف طبقاً للمبدأ القائل بأن سلامة الشعب هي القانون الأعلى (salus populi suprema lex esto) . ولعله تعجل في قراره أو كان متهورا فيه . غير أن واجبه الأول قد حتم عليه حماية المجتمع . وفي ذلك نجح شيشرون . وكان محقا اذن في شعوره — باسم قضية الوطن الكبرى ، ان لم يكن باسم القانون — بأنه قد أدى واجبه على الوجه الأكمل (١) .

وكان أخطر ما تمخضت عنه هذه المناقشات الحادة في مجلس الشيوخ هو تلك الخصومة التي احتدمت بين قيصر وكاتو ، والتي ستصبح بعد قليل عاملا رئيسيا في السياسة الرومانية .

ولم تمض أيام على تلك الجلسة الصاخبة حتى قام نقيب للعامة يدعى نيبوس (Q. Caecilius Metellus Nepos) بحملة خطابية بين الجماهير منددا فيها بشيشرون ومسلكه غير القانوني . وتقدم في أوائل عام ٦٢ باقتراح غريب في « مجلس العامة » باستدعاء پومپي لاخماد ثورة كتيلينا وانقاذ الدستور من استبداد شيشرون ! وقد تظاهر قيصر بتأييد هذا النقيب بينما وقف كاتو الى جانب شيشرون ، واعترض على اقتراح زميله . ولكن نيبوس تجاهل حق كاتو في الاعتراض ، فثار الشعب وعم الاضطراب ، وأعلن السناتو وقفه عن العمل الرسمي (iustitium) ولما تبين عدم جدوى هذا الاجراء ، أصدر مرة أخرى «قراره النهائي» وكاد النقيب الجريء يلقى حتفه مثل جايوس جراكوس وساتورنينوس لولا أنه لاذ بالفرار من روما الى معسكر پومپي في الشرق . وفي الحقيقة أن حملة هذا النقيب على شيشرون كانت ستارا يخفي وراءه هدفا آخر ، اذ كان يرمي الى اسناد مهمة عسكرية جديدة لپومپي تتيح له ، مثلما أتاحت له في سنة ٧١ ، أن يتوج فتوحاته في الخارج بانقاذ المجتمع

(١) راجع : H. Last, JRS (1943), 93 ff.

الرومانى من أعدائه فى الداخل (١) . فلما فوت شيشرون عليه الفرصة بقمع فتنة كتيلينا ، تظاهر فجأة بالعطف على المتآمرين . فالنزاع الحقيقى اذن لم يكن يدور حول استبداد شيشرون أو عدم استبداده ، بل حول عودة پومپى بجيشه أو بدون جيشه . ولهذا شهر كاتو سلاح «الاعتراض» فى وجه نيپوس ليحول دون عودة القائد على رأس جيشه ، بينما بدأ قيصر يدرك — فيما يبدو — فائدة التحالف مع پومپى ، فتظاهر بالاستياء من مسلك شيشرون . ومع افتقارنا الى الدليل على أن قيصر شرع حينئذ يفاوض پومپى أو يتقرب منه بصورة جدية ، الا أن موقفه وموقف كاتو من اقتراح نيپوس يلقى ضوءا على سياسة الأحزاب فى روما بعد عودة پومپى الى أرض الوطن .

الائتلاف الثلاثى :

عودة پومپى

عاد پومپى الى ايطاليا فى نهاية عام ٦٢ . ولم يكد ينزل بميناء برنديزى حتى سرح جيشه على عكس ما كان يتوقع معظم الناس . وقد أثار مسلكه هذا دهشة من كانوا يخشون أنه قد يقتدى بسلا ويفعل ما فعله (٢) . ولما وصل الى روما أودع فى الخزانة العامة من غنائم الحرب

---

(١) الاشارة هنا الى ثورة اسبرتاكوس وتخويل پومپى السلطة بعد عودته من اسبانيا لسحق فلول العبيد . وقد نسب پومپى الى نفسه فضل القضاء عليها مما أثار حقد كراسوس عليه (راجع ص ١١٧) .

(٢) ولا يزال مسلكه يثير حيرة المؤرخين المحدثين الذين تشعبت آراؤهم فى تفسيره . وفى رأى كثير منهم أن پومپى لم يرغب فى قلب نظام الحكم الجمهورى واقامة حكم فردى على أنقاضه . ولكنه كان يرغب فى العودة الى روما على رأس جيشه كى يتمكن من انتزاع الاقطاعات الزراعية لجنوده بعد تسريحهم دون صعوبة أو مقاومة . فلما لم يجد عذرا مقبولا يبرر به الاحتفاظ بجيشه ، بادر الى تسريحه . ولم تخطر له فكرة استخدامه لاقامة حكومة دكتاتورية سافرة ، لأنها كانت تجربة محفوفة بالخطر . وكان أقصى ما يتمناه هو أن يصبح « المواطن الأول » فى الدولة (Princeps) . ولعله تصور أنه سيحقق ذلك وينفذ مطالبه دون الاستعانة بالجيش .

مايربو على ٥٠ مليون دينار رومانى (denarius)(١) ، ومنح حوالى نصفها لكبار ضباطه ، ووزع مكافآت سخية على صغار الضباط والجنود . وازداد الدخل السنوى بحوالى ٤٥ مليون دينار من الضرائب الناتجة عن فتوحاته الجديدة (٢) . كان پومپى عند تنظيمه الدفاع عن الحدود الشرقية قد بت — كما رأينا — فى مسائل لا حصر لها ، فأنشأ ولايات ونظم أخرى وعقد معاهدات ووضع دساتير ومنح امتيازات لكثير من المدن الجديدة والقديمة والممالك التابعة والمشمولة بالحماية . وقد اضطر بداهة أن يبت فى جميع هذه المسائل بصفته الشخصية . ولكنها كانت تحتاج الى موافقة السناتو الرسمية (أو الجمعية القبلية) لكى تصبح صحيحة ونافذة من الناحية القانونية . لذلك رأى پومپى أن ينهى مهمته نهاية موفقة فتقدم الى السناتو بطلبين معتدلين وهما التصديق على تنظيماته او بالأحرى قراراته الادارية (acta) التى أتم بها تنظيماته فى الشرق ، واعطاء اقطاعات زراعية لحوالى ٤٠٫٠٠٠ من جنوده المسرحين . وقد توقع أن المجلس لن يتأخر عن اقرار أعماله ولا سيما أنه كان فى مقدوره أن يحتفظ بجيشه ويستعين به فى تنفيذ مطالبه . غير أن الشيوخ بلغوا من البله والحمق ما جعل أغلبهم يتبرأون من أعماله القيمة لا لشىء سوى أنهم كانوا فئة قصيرة النظر ضيقة الأفق شديدة التعصب . وكانوا يمقتونه ويخشون بأسه فى الوقت نفسه . فلما تجرد من جيشه استخفوا به وتجرأوا عليه وتملكتهم الرغبة فى اذلاله . ومع أنه أبدى استعداده لاسترضائهم والتفاهم معهم ، الا أنهم لم ينسوا أنه هو الذى امتهن كرامة زعمائهم فغمط فضل كاتولوس فى اخماد فتنة ليپدوس ونسبه الى نفسه ، وجرد ميتيللوس پيوس من شرف الانتصار على سرتوريوس ، واغتصب القيادة من لوكللوس فى الحرب ضد مثراداتيس ، وانتزع

(١) الدينار عملة فضية رومانية . وكان فى الأصل يعادل ١٠ آسات ثم صار (منذ عصر الاخوين جراكوس) يعادل ١٦ آسا ، اى يعادل ٤ سسترتيوس ؛ راجع أيضا ، ص ٢٢ ، هامش ١ ؛ ص ٢٧ ، هامش ١ .

(٢) راجع ص ١٤١ .

بعض أكاليل النصر من جبين ميتيللوس « الكريتى » الذى أوشك أن يقطع دابر القراصنة . ولم ينسوا أنه هو الذى تزعم « الشعبيين » وهدم دستور سلا وقوض نفوذ السناتو وانتقص من هيبتهم فى أثناء قنصليته الأولى . وتصوروا أن الفرصة قد سنحت لكى يسووا حسابهم معه . وتزعم حركة المعارضة فى السناتو كل من لوكللوس وكاتو وميتيللوس وأصر المجلس على مناقشة تنظيماته فى الشرق تفصيلا ورفض التصديق عليها جملة كما طلب پومپى . كذلك رفض السناتو مشروعا بتوزيع الأراضى العامة فى كمپانيا على جنوده القدماء وتخصيص الايرادات الناتجة عن فتوحاته الجديدة خلال خمس سنوات لشراء أراض أخرى لسد الحاجة ،وهو مشروع تقدم به أحد نقباء العامة الموالين له فى عام ٦٠ أولا الى السناتو وبعدئذ الى الجمعية القبلية ، ولكنه تعثر فى المجلسين . وتعمد السناتو برفضه عدم تمكين پومپى من التصرف فى أموال عامة طائلة قد يستغلها فى كسب الأنصار وتعمد اظهاره فى صورة العاجز عن ارضاء جنوده حتى يتحرج مركزه ويضمحل نفوذه .

هكذا وجد القائد الكبير نفسه مغلول اليدين أمام تعنت الهيئة الأولجركية ، وأحس بامتهان كرامته ، وساوره الخوف من ألا يجد فى المستقبل جنودا يتطوعون بالخدمة تحت رايته . فلا غرابة اذن فى أنه أخذ يتلمس آى وسيلة — وان لم تصادف هوى فى نفسه — لتحقيق مطالبه وارضاء رجاله . وأضاع السناتو من ناحية أخرى فرصته لاستمالة پومپى الى جانبه ، وأغضب طبقة الفرسان وكراسوس فى الوقت نفسه . ذلك أن ملتزمى الضرائب كانوا قد تعاقدوا مع الحكومة على تحصيل ضرائب ولاية آسيا ثم تبين لهم أنهم لن يستطيعوا بسبب قلة المحصول جباية المقدار المتفق على تسليمه للخزانة . فحاولوا تعديل شروط العقد بتخفيض القيمة المطلوبة وأيدهم كراسوس فى ذلك . لكن السناتو رفض التعديل فى مايو عام ٦٠ بايعاز من كاتو الذى تدبر جانب الاعمال واقترح فى المجلس نكاية فيهم مشروعا يقضى باعتبار الرشوة

بين المحلفين من طبقة الفرسان فى محاكم الجنايات جريمة عامة ، حتى يتساووا فى هذا الشأن بالمحلفين من طبقة السناتو (١) . وذهبت جهود شيشرون سدى فى التوفيق بين السناتو وبومبى وتحطمت آماله فى تحقيق الوئام بين طبقتى النبلاء والفرسان (Concordia Ordinum) ذلك الوئام الذى استطاع أن يحققه فترة قصيرة فى أيام قنصليته .

قنصلية قيصر

كان هذا النزاع لا يزال قائما عندما عاد يوليوس قيصر الى روما فى يونية من عام ٦٠ . وكان قيصر قد انتخب بريتورا لعام ٦٢ ، وبعدئذ عين حاكما — بوصفه بريتورا سابقا — على « أسبانيا البعيــدة » فى عام ٦١ حيث قام ببعض الحملات الموفقة على حدود الولاية ، واستمال الرعايا الى جانب روما ، وحصل على الأموال اللازمة لتأدية ديونه الباهظة . وقد طالب عند عودته بموكب رسمى احتفالا بانتصــاره ، وبترشيح نفسه قنصلا لعام ٥٩ . وبات فى خارج المدينة ينتظر وصول الرد بالموافقــة على دخــولها فى موكب رسمى . وعندما لم يجب السناتو طلبه ، ولم يقبل ترشيحه قنصلا وهو غائب ، تخطى قيصر سياج المدينة متنازلا عن حقه فى موكب الانتصار ، ليقدم اسمه بنفسه قبل اغلاق باب الترشيح للقنصلية . وأجريت الانتخابات بعد منتصف عام ٦٠ ، ففاز قيصر بالقنصلية بفضل تأييد كراسوس وبعض أنصــار بومبى ، وزامله فى المنصب بيبولوس (M. Calpurnius Bibulus) زوج

---

(١) هذه التفرقة فى المعاملة بين الطبقتين ترجع الى ايام جايوس جراكوس الذى استصدر قبل اصلاح محكمة الجنايات المختصة بالابتزاز قانونا لمعاقبة الرشوة بين المحلفين الذين كانوا وقتئذ من رجال السناتو وحدهم . فلما حل الفرسان محلهم كمحلفين فى هذه المحكمة اغفل جايوس تعديل القانون فلم يسر عليهم . وظل هذا الوضع قائما حتى بعد عودة رجال السناتو الى هذه المحكمة وغيرها من محاكم الجنايات (راجع ص ٢٨) .

وانظر الآن :

R. J. Rowland, "C. Gracchus and the Equites", Trans. Amer. Philol. Assoc. 96 (1965), 361-373.

ابنة كاتو ، الذى رشحه الحزب الارستقراطى وأنفق عن سعة فى سبيل الدعاية له . والواقع أن قيصر بالرغم من تواطئه مع كراسوس فى بعض المشروعات الضارة بمصالح بومبى ، لم يكن فى يوم من الأيام عدوا له حتى أنه تعاون مع أنصاره قبيل عودته [١] . لذلك لم يجد قيصر صعوبة كبيرة فى التوفيق بين هذين الزعيمين اللذين وقف السناتو منهما موقف العداء ودفعهما الى الارتماء فى أحضان الحزب الديمقراطى . وأقنعهما بالانضمام اليه لتكوين تحالف سرى حتى يحقق كل منهم مطالبه فى أثناء مدة قنصليته . وقد عرفت هذه الجبهة غير الرسمية فيما بعد باسم « الائتلاف الثلاثى » أو « الحكومة الثلاثية الأولى » (Triumviri) ، و إن تكن التسمية الاخيرة غير صحيحة [٢] .

وعندما تولى قيصر القنصلية فى أول يناير من عام ٥٩ بدأ من

---

(١) انظر ص ١٦٨ . تواطأ قيصر مع كراسوس – كما رأينا – فى بعض مشروعاته كمشروع ضم مصر ومشروع روللوس ومنح الجنسية لسكان شمال البو وترشيح كتيلينا للقنصلية فى سنة ٦٤ . لكن هذا التقارب العارض بين وجهتى نظرهما السياسية لم يكن سبب التحالف بينهما . فقد خالفه قيصر فى مسألة جوهرية عندما أيد «قانون جابينيوس» فى عام ٦٧ و « قانون مانيليوس » فى عام ٦٦ ، وكلاهما كان يخول بومبى سلطات واسعة . واذا كان قيصر قد اشترك مع كراسوس فى دسائسه ، فقد فعل ذلك لأنه كان مدينا له بمبالغ طائلة . وليس من المستبعد أنه اشترك – مثل شيشرون – لفشل مؤامراته . ولكى نقيس اراءه السياسية فى الفترة التى سبقت عام ٦٣ قياسا صحيحا ينبغى أن نتتبع نشاطه فى ميدان آخر لا يظهر فيه تأثير كراسوس . فقد أيد قيصر الدعاوى التى رفعت على من كان لهم يد فى حركة سلا الارهابية . ونادى برد الحقوق السياسية الى أبناء ضحايا ذلك الدكتاتور ، وأوعز بتوجيه الاتهام الى رابيريوس حتى لا يساء استغلال « قرار السناتو الأخير » لاعدام مواطنين دون محاكمة (راجع ص ١٦٠ ، حاشية) . ومع أنه كان فى ذلك متأثرا الى حد ما بقرابته لماريوس ، فان اعتدال آرائه السياسية ونفوره من التطرف الحزبى الأعمى هو الذى أملى عليه هذا المسلك.

(٢) سميت بالأولى تمييزا لها عن « الحكومة الثلاثية » اللاحقة التى تكونت رسميا فى آخر عام ٤٣ من اكتافيانوس وانطونيوس وليبيدوس وتجددت فى عام ٣٧ . وقد أطلق الأقطاب الثلاثة على أنفسهم اسم الأصدقاء (amici) بمعنى الحلفاء السياسيين (socii) فى اللغة الدبلوماسية الرومانية القديمة .

على أن الكتاب القدماء يصفون هذا « الائتلاف الثلاثى » بصفات تنم عن التعريض به فيسمونه شركة السلطة (أى تحالف القوة) أو المؤامرة أو السيطرة الاستبدادية (أى الطغيان) : potentiae societas — coniuratio — dominatio.

فوره فى تنفيذ التزاماته نحو زميليه فى الائتلاف ، فقدم الى السناتو فى يناير (؟) مشروعا بتوزيع الأراضى الصالحة للزراعة التى تملكها الدولة فى خارج كمپانيا وما قد تحصل عليه بالشراء على جنود پومپى القدماء والمواطنين الفقراء فى روما . ولما قوبل المشروع بمعارضة شديدة وبخاصة من جانب كاتو ، خصمه اللدود ، طرح قيصر المشروع على الجمعية القبلية . وهناك اعترض عليه بعض نقباء العامة الموالين لحزب النبلاء ، وكذلك زميله القنصل بيبولوس الذى حضر الى السوق العامة وهاجم المشروع . عندئذ رأى قيصر أن لا مفر من انتهاك الدستور والالتجاء الى القوة للقضاء على المعارضة ، فاستعان بجنود پومپى القدماء على طرد خصومه من مكان الاجتماع بالسوق العامة (Forum) وأصبح المشروع قانونا (١) ، وألزم أعضاء السناتو بحلف اليمين على احترامه مثلما حدث أثناء تريبونية ساتورنينوس فى عام ١٠٠ (٢) . وانكشف النقاب عن وجه «الائتلاف الثلاثى» وافتضح أمره . وعندئذ لجأ بيبولوس — الذى تحطمت شارات سلطته (fasces) فى السوق العامة — الى حيلة أخرى فاعتكف فى منزله وأضرب عن الاشتراك فى تصريف شئون الدول احتجاجا على مسلك زميله ، وأعلن أنه « يرقب السماء » ليستطلع مشيئة الآلهة (auspicium) حتى يعطل الأعمال الرسمية ويعطل تشريعات قيصر . واكتفى باصدار منشورات يومية لاذعة للتشهير به وتشويه سمعته بين الجماهير .

ولما تبين أن الأراضى المنصوص عليها فى المشروع غير كافية لسد الحاجة اقترح قيصر فى مايو من نفس العام مشروعا تكميليا لتوزيع الأراضى العامة فى كمپانيا على فقراء المواطنين ذوى الأسر (٣) . ومع أن هذه الأراضى كانت مؤجرة لمزارعين بمقتضى عقود طويلة الأجل وتدر على الدولة

(١) lex Iulia agraria.

(٢) راجع ما تقدم فى ص ٨٨ — ٨٩ .

(٣) lex Campana

أرباحا طائلة ، فـان المشروع نفذ على الرغم من معارضة كاتو الشديدة . وبمقتضى قانون آخر تمت المصادقة على جميع التنظيمات (acta) التى قام بها پومپى فى الشرق (١) . وقد أتبع هذا القانون بعدة قوانين أخرى مكملة اقترحها نقيب من صنائعـه وتقضى بمنح بعض المدن والأمراء والملوك فى الشرق امتيازات معينة ، وكان من بينهم بطلميوس الثانى عشر الملقب « بالزمار Aulêtês » الذى حصل على اعتراف رسمى بحقه فى تاج مصر بعد أن سلّم لقيصر وپومپى رشوة ضخمة (٢) . وبذلك تحققت جميع مطالب پومپى . ثم صدر قانون يعفى ملتزمى الضرائب فى ولاية آسيا من ثلث المبلغ المتفق عليه فى العقد الأصلى (٣) . وهكذا أرضى قيصر كراسوس ورجال الأعمـال من طبقة الفرسـان . على أن أهم مشروع تبنـاه قيصر مستهدفا به المصلحة القوميـة لا الحزبية فى تلك الفترة هو قانونه الجديد لمكافحة الابتزاز (lex Iulia de repetundis) والذى وضع به قيودا للحد من مطالب حكام الولايات غير المشروعة وسد به ثغرات كان ينفذ منها الجشعون منهم . وهو ينهض دليلا ساطعا على سعة أفقه واهتمامه الدائم بسكان الولايات . وقد ظل هذا القانون نافذا طوال المدة التى بقيت فيها محاكم المحلفين .

ولم ينس قيصر نصيبه فى هذه الشركة فقام منذ بداية قنصليتـه بالترتيبات اللازمة لكى تسند اليه قيادة استثنائية بعد انتهاء مدة خدمته. فاقترح ڤاتينيوس (P. Vatinius) — وهو نقيب من أعوانه كان قد تبنى بعض المشروعات السالفة الذكر — اقترح قانونا (lex Vatinia) أقرته الجمعية القبلية وينص على اسناد حكم ولاية «غالة القريبة» وإلليوريا الملحقة بها الى قيصر ، مع تزويده بثلاث فرق عسكرية لمدة خمس سنوات

(١) lex Iulia de actis Pompeii.
(٢) lex Iulia de Ptolemaeo Aulete.
(٣) lex Iulia de publicanis Asiae.

تنتهى فى أول مارس من عام ٥٤(١) . وحدث أن خلا منصب حاكم «غالة البنيدة» فى نفس العام فوافق السناتو بايعاز من پومپى على اضافة هذه الولاية الى قيادة قيصر ، وزيادة الفرق الملحقة الى أربع . هكذا أصبح قيصر فى الفترة الأخيرة من عام ٥٩ يتمتع بالقيادة البروقنصلية والقنصلية معا ، فأتاح له ذلك أن يحتفظ بالقوات الحربية فى أى مكان بايطاليا خارج سور المدينة وأن يسيطر على الموقف السياسى فى روما سيطرة تامة . أضف الى ذلك أن قيادته البروقنصلية جعلته فى مأمن لفترة طويلة من المحاسبة على تصرفاته غير الدستورية أثناء قنصليته ، تلك القنصلية التى تكشفت عن حقيقتين احداهما أن « الائتلاف الثلاثى » أصبح أقوى من أى جهاز حكومى قائم ، والأخرى أن الجمهورية الرومانية أصبحت فى قبضة ثلاثة رجال . فى الحق ان قيام « الائتلاف الثلاثى » كان نقطة تحول فى تاريخ « الدولة الحرة » . وكان ، كما أدرك كل من شيشرون وكاتو، هو السبب الأساسى فى قيام الحرب الأهلية عام ٤٩ . ولم يكن هذا أو ذاك بعيدا عن الصواب حين قال ان هذا الائتلاف كان بداية نهاية الجمهورية . ومما يؤكد هذه الحقيقة أن المؤرخ أسينيوس پولليو ، وهو أحد أنصار قيصر وأنطونيوس ، بدأ تاريخه عن الحرب الأهلية الكبرى بعام ٦٠ ، عام قنصلية ميتيللوس كيلر ولوكيوس أفرانيوس . لقد فرض پومپى وكراسوس وقيصر مستندين الى قوة السلاح ، وتأييد دهماء المدينة ، وكثير من الفرسان ، فرضوا ارادتهم على الدولة وحطموا قوة السناتو . وقد بدأ شيشرون يحس منذ ذلك الحين بأنه سلب حرية الكلام ، والنفوذ (auctoritas) والكرامة (٢) . لقد أصبحت الدولة والدستور تحت رحمة ثلاثة أقطاب أو رؤساء (principes) يكافحون من أجل السلطة (potentia) والمكانة

---

(١) ويعرف هذا القانون باسمه الكامل lex Vatinia de provincia Caesaris تمييزا له عن بقية القوانين التى تبناها فاتينيوس .

(٢) كتب شيشرون فى عام ٥٩ يقول "tenemur undique neque iam quominus serviamus recusamus"

السياسية (dignitas) وعلى هذه القيم سوف يصطرع الزعماء فى الحرب الأهلية المقبلة (١) .

وفى تلك الجبهة الشعبية القائمة على اشتراك المصالح المؤقتة كان بومبى هو الشخصية المسيطرة نظرا لسمعته الحربية وتفوق جنوده القدماء . وكان قيصر يظهر كأداة فى يده ، لكنه كان فى حقيقة الأمر الرأس المفكرة اذ كان أبرع من زميليه فى السياسة وأكثر فطنة ودهاء . لقد استطاع أن يبنى لنفسه مركزا يتيح له أن يقوم بدور مستقل فى السنوات التالية .

تربيونية كلوديوس

ولم يتصدع « الائتلاف الثلاثى » بانتهاء قنصلية قيصر ، بل ظل قائما لأن أعضاءه وطدوا عزمهم على الاحتفاظ بالسيطرة على شئون الدولة . ومع أن الرأى العام بدأ يتحول عنهم فى الشطر الأخير من السنة ويناصبهم العداء فى بعض الأحيان (٢) فقد نجح بفضل مساعدتهم

---

(١) عن مبلغ خطورة « الائتلاف الثلاثى » ومدى أثره فى التاريخ الرومانى ، راجع R. Syme, The Roman Revolution (Oxford, 1939), Ch. I.

(٢) حدثت فى صيف ذلك العام (٥٩) « مؤامرة فتيوس » المزعومة التى اثارت ضجة فى العاصمة ولكنها لم تسفر عن شىء ذى اهمية . كان فتيوس (L. Vettius) يحترف التجسس وقد افاد شيشرون اثناء قنصليته فى عام ٦٣ بمعلومات صحيحة وغير صحيحة عن مؤامرة كتيلينا . وقد انهى فتيوس الى شاب من معارضى « الائتلاف الثلاثى » يدعى كوريو C. Curio – سنلتقى به مرة اخرى كنقيب فى عام ٥٠ – انهى اليه خبر مؤامرة تدبر لاغتيال بومبى . ونقل الشاب النبأ الى ابيه الذى نقله بدوره الى بومبى . واجرى التحقيق بايعاز منه فى مجلس السناتو ، فانقلب فتيوس « شاهد ملك » ، واتهم كوريو بتزعم المؤامرة وزج فيها بشخصيات من الحزب الارستقراطى كان من بينهم بروتوس (M. Brutus) وبيبولوس وغيرهما . وانتهى التحقيق الى أن البلاغ كاذب وصرف السناتو فتيوس ساخرا منه . لكن فى اليوم التالى استدعى فتيوس لاستجوابه ثانية امام قيصر وفاتينيوس فى الجمعية بالميدان العام . وفى هذه المرة نفى التهمة عن بروتوس ولكنه اضاف الى قائمة المتهمين اسماء اخرى مثل لوكاالوس وشيشرون . ولذلك لم تؤخذ اقواله مأخذ الجد ، وبدلا من المكافأة التى كان يتوقعها ألقى به فى السجن حيث مات فى ظروف مريبة . ومن الواضح أن المؤامرة على حياة رجال الائتلاف الثلاثى كانت مؤامرة وهمية لا وجود لها الا فى

مرشحان من أنصارهم فى انتخابات القنصلية للعام التالى (٥٨) . وتقوية الروابط بينهم تزوج پومپى چوليا (Iulia) ابنة قيصر ، وتزوج قيصر بعد ذلك كلپورنيا (Calpurnia) ابنة پيسو (L. Calpurnius Piso Caesoninus) أحد المرشحين الفائزين بالقنصلية (١) .

وازاء الحملات الشديدة التى وجهت ضـدهم (٢) ، شعر رجال « الائتلاف الثلاثى » بضرورة التخلص من أقوى خصـومهم ، كاتو وشيشرون . وكان شيشرون قد رفض جميع عروضـهم للانحياز الى جانبهم ، وانتقدهم انتقادا مرا فى مناسبات رسـمية عديدة . ولذلك حرضوا عليه رجلا يدعى كلوديوس (P. Clodius Pulcher) كان يحقد

خيال فتيوس . لكن هذا لا ينفى انه كان يعمل لحساب رجل آخر . ولا سبيل اليوم الى التحقق من شخصيته ، وان كان شيشرون زعم فيما بعد ان فاتينيوس هو الذى دبر الحادثة . ومع هذا فمن المرجح ان فتيوس نفسه اختلق المؤامرة طمعا فى مكافأة سخية . ولا تزال قصته وظروف موته من المشاكل المحيرة ؛ راجع :
W. Allen, Jr. "The Vettius Affair Once More" Trans. Amer. Philol. Assoc. 81 (1950), 153-163.

(١) كان الفائز الآخر بالقنصلية هو اولوس جابينيوس نقيب عام ٦٧ ، والضابط المساعد (legatus) فى جيش پومپى اثناء حملته فى الشرق الاوسط (راجع صفحات ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤٤) .

(٢) كان للمنشورات التى أصدرها القنصل بيبولوس (بايعاز من كاتو ان لم يكن بقلمه) ، وهو معتكف فى منزله احتجاجا على مسلك زميله قيصر ، تأثير كبير فى الرأى الرومانى العام ، حتى أن الناس تجمعوا حول الأماكن التى كانت تعلق فيها ونسخوها وبعثوا بها الى الولايات . وكتب شيشرون فى احدى رسائله الى صديقه أتيكوس يقول « ليس هناك ما هو أروج بين الشعب من كراهية الشعبيين Populares » . وكتب فارو رسالة عنوانها «الوحش ذو الرؤوس الثلاث» . ووصف العامة الأقطاب الثلاثة بأنهم ملوك وطغاة وأمراء . وأرخ بعض محبى المجون وصاياهم بقنصلية « قيصر ويوليوس » ! . وأنشد ممثل تراجيدى فى احـدى المسرحيات بيتا فيه تعـريض بپومپى « أنت أيها الكبير مصـدر شقائنا : Nostra miseria tu es Magnus» . وقد استعادته الجماهير اكثر من مـرة . وعندما دخل قيصر المسرح لم يصفق له احد بينما قوبل احد أنصار الارستقراطيين بعاصفة من الهتاف والتصفيق وقام الفرسان من مقاعدهم تحية له . وأثار ذلك غضب قيصر فهدد بحرمان العامة من اقطاعات الأراضى الجديدة والفرسان من مقاعدهم الممتازة فى المسرح .

عليه لأنه شهد ضده فى قضية اتهم فيها بانتهاك حرمة الشعائر الدينية(١) . وكان كلوديوس فى الأصل ينتمى الى احدى عشائر الأشراف ، فساعده قيصر ، بوصفه قنصلا وكاهنا أعظم فى عام ٥٩ على تغيير وضعه الاجتماعى بنقله عن طريق التبنى الى عشيرة من العامة حتى يتمكن من ترشيح نفسه نقيبا للعامة (٢) . فلما فاز بالتريبونية رأى أن يجرد أولا الحزب الأرستقراطى من السلاح الذى استغله مؤخرا لعرقلة التشريعات الشعبية . فاستصدر فى أوائل عام ٥٨ قانونا بتعديل قانونى آيليوس وفوفيوس (leges Aelia et Fufia) — اللذين صدرا حوالى ١٥٠ — وكانا يخولان بعض الحكام الحق فى فض جلسات الجمعية القبلية أو المئوية بحجة ظهور طالع نحس (obnuntiatio) (٣) . وقضى التعديل بقصر هذا الحق على نقباء العامة والعرافين حتى لا تتكرر مناورة كالتى قام بها بيبولوس فى سنة ٥٩ لاحباط مشروعات قيصر وڤاتينيوس (٤) .

---

(١) ارتكب كلوديوس فى عام ٦٢ فعلا فاضحا احدث دويا كبيرا فى العاصمة الرومانية . ففى كل سنة كانت السيدات الرومانيات يحتفلن مع عذارى ڤستا بشعائر دينية معينة تمجيدا « للربة الطيبة » (Bona Dea) . وكان محظورا على جميع الرجال حضور هذا الحفل . وفى ديسمبر اقيم الحفل فى منزل يوليوس قيصر ، الكاهن الأعظم ، وكان مجاورا لمقره الرسمى المعروف باسم رجيا (Regia) وفى اثنائه ضبط كلوديوس متخفيا فى زى امرأة . وراجت الشائعات بان كلوديوس انما حضر الحفل باتفاق سابق مع بومبيا (Pompeia) زوجة قيصر الثالثة التى كانت على اتصال به . لكن من الجائز انه لم يحضر الاحتفال الا بدافع الفضول . ولما لاكت الألسن الحادثة ، طلق قيصر زوجته لا لأنه ارتاب فى سلوكها او شك فى اخلاصها بل « لأن زوجة قيصر » على حد قوله « ينبغى ان تكون فوق مستوى الشبهات » . واتهم كلوديوس بتدنيس طقوس « الربة الطيبة » ، فحاول أن يدفع التهمة عن نفسه بحجة تغيبه عن مكان الجريمة فى يوم الاحتفال . غير أن شيشرون أدلى بشهادة هدمت هذه الحجة ، وكادت المحكمة الخاصة تدين كوديوس لولا أن كراسوس تدخل لانقاذه برشوة المحلفين الذين قضوا ببراءته (مايو ٦١) . ولم يغفر كلوديوس لشيشرون موقفه منه.

(٢) ويسمى هذا الاجراء فى اللاتينية traductio ad plebem ، وكان يتم فى جمعية الأحياء القديمة (comitia Curiata) التى اقتصرت عضويتها على ٣٠ ممثلا للأحياء

(٣) كان هذا الاجراء نافذا ما عدا فى حالة « مجلس العامة » المنعقد برئاسة تريبون لانتخاب نقباء العامة والايدبليس من طبقتهم .

(٤) فى رأى بعض الباحثين ان قانون كلوديوس الجديد ابطل فيما بعد ، فظل القناصل يستعملون سلاح الـ obnuntiatio ضد نقباء العامة ، ونقباء العامة ضد القناصل .

« وبعدئذ تقدم كلوديوس بمشروع يقضى بحرمان كل من أعدم مواطنين رومانيين دون محاكمــة من « الماء والنار » أى نفيه مع تجريده من حق المواطن (١) . كان شيشرون بداهة هو المقصود بهذا المشروع لأنه كان صاحب اليد الطولى فى اعدام زعماء مؤامرة كتيلينا . وقد احتج السناتو باعلان الحداد ، وتوسط له رجال الأعمال ، وحضرت الوفود من أنحاء ايطاليا الى العاصمة لتتوسل من أجله . لكن جميع هذه المحــاولات ذهبت سدى . وأحس شيشرون بالخطر ولا سيما بعد أن تخلى عنه صديقه پومپى ، فغادر العاصمة حزينا الى المنفى فى شهر مارس دون أن ينتظر المحاكمة . وبعدئذ ووفق على اقتراح رسمى بنفيه ومصادرة أملاكه . وأما كاتو الذى انتخب كويستورا فقد أسندت اليه ـــ بعد تخويله سلطة الامبريوم الپروپريتورية (٢) ـــ مهمة اقناع بطلميوس حاكم قبرص وهو أخو « الزمار » ملك مصر ـــ بالتنازل عن الجزيرة والاشراف على تصفيــة أملاكه . وكان بطلميوس مغضــوبا عليه من « الائتلاف الثــلاثى » لأنه رفض أن يدفع ثمن الاحتفاظ بعرشــه ، فاستصــدر نقيب العامة كلوديوس قرارا بادماج الجزيرة فى أملاك الجمهورية بحجة أنها تعادى الرومان وتعاون القراصنة (٣) . لكن كلوديوس كان يرمى الى الاستفادة من مواردها فى تمــويل مشروع بتوزيع الغلال على فقراء روما دون مقابل . ومع أن كاتو فطن الى أن الغرض من المهمة هو ابعاده عن العاصمة أطول مدة ممكنة ، فــأنه لم يشأ أن يرفضها لاعتقاده أنه أنزه من غيره للاضطلاع بها وأن الواجب يحتم عليه قبولها كما تقضى الفلسفة الرواقية التى كان يعتنق تعاليمها (٤) .

---

(١) راجع ص ٥٩ ، ٩٣ حاشية ٢ .

(٢) كان كلوديوس يرمى ايضا الى توريط كاتو بجعله يقبل مهمة تتضمن سلطة استثنائية ، وهو ما كان الاخير يعترض عليه دائما لمخالفته الدستور .

(٣) رفض بطلميوس حاكم قبرص التنازل عن عرشــه وآثر الانتحار . وقد ادمجت قبرص فى ولاية كيليكيا . وبذلك فقد البطالمة آخر ممتلكات لهم فى خارج مصر .

(٤) وعن مهمة كاتو فى قبرص ، راجع :
S. I. Oost. Class. Philol. (1955), 98 ff.

وقد ظل قيصر ، بعد انتهاء مدة قنصليته ، مرابطا مع جيشه على مقربة من روما حتى غادر شيشرون ايطاليا الى المنفى . وبعدئذ رحل الى مقر حكمه الجديد فى « غالة القريبة » . ولم تعد روما تعيش فى خوف من بطشه .

فتح بلاد الغال :

رأينا كيف أسندت الى قيصر بمقتضى « قانون ڤاتينيوس » القيادة فى ولايتى « غالة القريبة » و « غالة البعيدة » وفى إللوريا (١) . وكانت غالة القريبة تقع فى جنوب الألب وتمتد من حوض البو الى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة الايطالية . ولعل قيصر اختارها ليكون على مقربة من مسرح الأحداث السياسية بالعاصمة ، لاسيما أنها كانت منذ الحرب الايطالية من أشد المناطق ازدحاما بالسكان وأكثرها ملائمة لتعبئة الجند . ولا يستبعد أنه طالب بوضع إللوريا تحت قيادته البروقنصلية ليتخذها قاعدة لمد الحدود الرومانية نحو الشمال الشرقى عبر جبال الألب . وأما « غالة البعيدة » التى عرفت أيضا باسم « غالة الناربونية » أو « بالولاية » فقط ، فكانت تقع وراء جبال الألب الغربية ، وتشمل المنطقة الساحلية الممتدة حتى جبال البرانس ، والأراضى بين الألب ونهر الرون حتى بحيرة جنيف شمالا . وقد شاء القدر أن تكون الأخيرة هى نقطة الارتكاز التى شن منها قيصر حملاته المشهورة على بقية بلاد الغال فيما نعرفه الآن باسم فرنسا .

(أ) الأحوال فى غالة كوماتا :

وكانت المنطقة الممتدة من جبال البرانس حتى نهر الراين ومن الرون

---

(١) فى رأى آخر ان اللوريا (Illyricum) لم تكن ملحقة بولاية « غالة القريبة » — راجع ص ١٧٥ — بل بولاية مقدونيا .

حتى المحيط الأطلسي تعرف كلها باسم غالة كوماتا (Gallia Comata) (١) وتسكنها عدة شعوب مستقلة تنقسم عادة الى ثلاثة أقسام :

(١) الأكويتاني (Aquitani) ويقطنون بالمنطقة الواقعة بين جبال البرانس ونهر اللوار بجنوب غرب فرنسا ، (ب) الكلت (Celtae) ، بأضيق مفهوم الكلمة ، ويسكنون الأراضي التي تمتد من اللوار حتى السين والمارن في وسط فرنسا ، (حـ) البلجيك (Belgae) ويعيشون في الشمال بالمنطقة التي تقع بين نهري السين والمارن ونهر الراين ، وكانت تسكن معهم شعوب أخرى من أصل جرماني . كان الغال في مجموعهم شعبا نصف متحضر ويشتغلون بالزراعة والرعي ويتقنون صناعة المعادن ويمارسون التجارة ويستعملون النقود . ولم تنشأ عندهم سوى قليل من المدن الغنية الهامة ، وأما بلدانهم الصغيرة فكانت مراكز حصينة يلجأون اليها في ساعة الخطر . وعلى الرغم من تقاربهم في اللغة والجنس والعادات فان الخلافات التي سادت بين شعوبهم والخصومات التي استحكمت بين زعماء قبائلهم حالت دون قيام وحدة سياسية بينهم (٢) . وكانت الديانة المعروفة باسم « الدرودية » أقوى عوامل الوحدة القومية ، وكان من الممكن أن تقوم الهيئة الدينية المشرفة عليها والتي تغلغل نفوذها في جميع أنحاء بلاد الغال بدور هام في مقاومة الرومان . لكن يبدو أن الدرود (Druidae) (٣) — كسائر الغال — كانوا منقسمين على أنفسهم عاجزين عن القيام بأي عمل جماعي .

---

(١) اى غالة « طويلة الشعر » .

(٢) كانت بلاد الغال منقسمة الى وحدات صغيرة او مقاطعات يطلق عليها قيصر اسم pagi (وتقابل العشائر) . وكانت هذه بدورها مندمجة في وحدات أكبر يسميها civitates (وهي القبائل) . ويسمى قيصر نبلاءهم بالفرسان equites . وكان الفرسان هم القوى سلاح بين قواتهم المحاربة .

(٣) عبد الغال كالرومان آلهة كثيرة ما تزال معلوماتنا عنها طفيفة مشوهة . لكن الغال لم يعرفوا المعابد بل كانوا يقيمون طقوسهم الدينية في ادغال مقدسة ، كما لم ينحتوا التماثيل لانهم لم يتصوروا الآلهة في هيئة البشر . وكانت تتولى مراسمهم الدينية هيئة

(ب) الهلڤيتى وأريوڤستوس :

وعندما ضم الرومان «غالة البعيدة» وهى «الناربونية» الى أملاكهم فى عام ١٢١ كانت تتنازع السيادة فى غالة كوماتا (وسط فرنسا) قبيلتا الآيدوى (Aedui) والأرڤرنى (Arverni) وقد وقف الرومان فى هـذا النزاع الى جانب الآيدوى وساعدوهم على احراز النصر . وبعد مضى حوالى أربعين عاما استرد الأرڤرنى السيطرة التى فقـدوها . ولكن الزعامة لم تلبث أن آلت ثانية الى الآيدوى الذين ظلوامحتفظين بهـا حتى عام ٦١ . وكان من الطبيعى أن تكره بعض القبائل الأخرى تحكّم الآيدوى فى أمورها ، وبخاصة قبيلة السيكوانى (Sequani) التى طلبت المساعدة من الجرمان القاطنين فيما وراء الراين لمقاومة عدوانهم ، فجاء لنجدتها

= من الكهنة يعرفون باسم الدرود (Druidae) ، وهى هيئة منظمة تنظيما حسنا كانت تجتمع فى كل سنة على شكل مجلس قومى ، ويرأسها زعيم ينتخب لمدى الحياة . وكانت العضوية فيها وراثية ، وغالبا ما اقتصرت على النبلاء . وكان الدرود معفيين من الضرائب والخدمة العسكرية ، ويهيمنون على شئون التعليم ، وجانب كبير من القضاء ، ويصدرون قرارات تشبه قرارات الحرمان . وقد افهم قيصر أن الديانة الدرودية وفدت من بريطانيا التى غزاها الكلت وانها كانت توجد هناك فى أنقى صورها حتى أن كثيرين من الغال كانوا يذهبون الى الجزيرة للتزود بمعلومات أوفر عن أسرار طقوسها . لكن من المرجح أن الدرودية نشأت قبل مجىء الكلت الذين اعتنقوها بعد استقرارهم بالبلاد . وعلى أى حال فلم يظهر لها أثر فى « غالة القريبة » مما يؤيد قول قيصر بأنها كانت من أصل غير غالى . ولانستطيع أن نجزم بشىء عن تعاليم الدرودية سوى أنها تضمنت عقيدة خلود الروح . ويستخلص من كلام قيصر (Bell. Gall. VI, 14) أنهم كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح . واذا صح ذلك فان تعاليمهم لم تؤثر فى نفوس الجماهير لأن الكلت كانوا يتصورون الحيـاة الأخرى كالحياة الدنيا وأكثر منها بهجة . وكان التعليم الشفوى هو وسيلة الدرود فى تلقين الناس مذهبهم اللاهوتى مع أنهم كانوا يعرفون الكتابة ويستخدمون حروفا أبجدية يونانية نقلوها فيما يرجح عن مسيليا (مرسيليا) لاستخدامها فى الأمور الدنيوية . وكان من بين طقوسهم التى استهجنها الرومان تقديم البشر قربانا لآلهتهم . وعن الدرود ، راجع :

T. D. Kendrick, **The Druids**, 1927

وعن بلاد الغال والغاليين ، انظر :

A. Grenier, **Les Gaulois** (1945); R. Lantier, **JRS** 36 (1946), 76-90; O. Brogan, **Roman Gaul** (1953); P.-M. Duval, **Historia V** (1956), 238 ff.; T. G. E. Powell, **The Celts** (1958).

الزعيم أريوفستوس (Ariovistus) على رأس قوة كبيرة أعانتها على انزال الهزيمة بالأعداء . وعندئذ استغاث الآيدوى بالرومان ، ولكن دون جدوى ، لأن حاكم ولاية « غالة البعيدة » الذى أمره السناتو بتقديم المعونة لهم كان منهمكا وقتئذ فى اخماد ثورة الألloبروجيس - وسرعان ما أدرك السيكوانى أن انتصارهم لم يعد عليهم الا بغنم ضئيل لأنهم أرغموا على تسليم أراضيهم فى الألزاس لأريوفستوس الجرمانى الذى أخذت قوته تزداد بسرعة ، عندما انضمت اليه جماعات جديدة من بنى جلدته . وفى تلك الأثناء بدأ فريق بين الآيدوى يلتمس العون من ناحية أخرى غير الرومان ، فولى وجهه شطر الهلفيتى (Helvetii) وهم شعب غالى كان يسكن فيما نعرفه اليوم باسم سويسرا . كان الهلفيتى يئنون من ضغط الجرمان عليهم ويعيشون فى خوف من أريوفستوس الذى استقر بالقرب منهم حتى أنهم قرروا الرحيل عن بلادهم والبحث عن موطن جديد فى غرب بلاد الغال (بين اللوار والجارون) . ورأى الآيدوى أن يستفيدوا من هجرة الهلفيتى ويتخذوا منهم حلفاء يشدون أزرهم فى وقت المحنة . وبدأ الهلفيتى يتجمعون فى ربيع عام ٥٨ على مقربة من مدينة جنيف استعدادا للهجرة . وكانت أخبار هذا التجمع فى تلك النقطة هى التى حملت قيصر على مغادرة ايطاليا على وجه السرعة واجتياز جبال الألب .

وأراد الهلفيتى أن يعبروا الجزء الشمالى من ولاية « غالة البعيدة » لكى يصلوا الى غرب بلاد الغال . فأرسلوا سفراءهم الى قيصر لاستئذانه فى اجتياز الولاية الرومانية . لكنه لم يشأ أن يجيب مطلبهم لأنه أدرك أن استقرارهم ببلاد الغال سيؤدى حتما الى اثارة اضطرابات قد تهدد مركز روما فى تلك المنطقة . ولما لم يكن لديه حينئذ سوى فرقة عسكرية واحدة فقد أبلغهم بأنه سيبعث بالرد حالما يفرغ من دراسة مطلبهم . وقد قصد بذلك أن يكسب الوقت فى تحصين الضفة الغربية لنهر الرون الواقعة الى جنوب البحيرة . فلما عاد اليه سفراؤهم صارحهم

بالرفض ولم يقم الهلفيتى بأى محاولة لاختراق الولاية الرومانية عنوة ، ولكنهم استطاعوا أن يقنعوا السيكوانى بالسماح لهم باجتياز أراضيهم. ولم يكن فى وسع قيصر أن يحتج على ذلك رسميا لأن السيكوانى كانوا شعبا مستقلا . ومع هذا فقد وطد عزمه على أن يمنع هجرة الهلفيتى بالقوة . ولما تبين له أن قواته غير كافية لتحقيق غرضه ، هرع الى غالة القريبة ليحشد الفرق اللازمة . وبعد أن أتم استعداداته عاد فاجتاز الألب لمواجهة الموقف .

كان الهلفيتى فى أثناء غيابه قد اجتازوا أراضى السيكوانى فى جموع ضخمة (١) ، وعبروا نهر الساءون ودخلوا أراضى الآيدوى الذين كانت مقاليد أمورهم قد انتقلت الى يد الفريق الموالى للرومان ، فاستنجدوا بقيصر لحماية بلادهم . واتخذ قيصر من ذلك ذريعة للتدخل ، فزحف لنجدتهم على رأس أربع فرق رومانية كاملة واشتبك مع الهلفيتى فى قتال رهيب إنتهى بانحدارهم ، ولكنه لم يستطع مطاردتهم نظرا لما أصاب رجاله من تعب واعياء . ولم يقدم الغال أى معونة لقوات الهلفيتى الهاربة خوفا من بطش قيصر ، فاضطروا الى القاء السلاح بعد قليل . وقد أعاد قيصر الأحياء منهم الى موطنهم الأصلى ، وباع بعضهم كعبيد بحجة أنهم انتهكوا شروط التسليم . وقد سمح لفريق منهم بالاقامة ببلاد الآيدوى .

وقد أحدث انتصاره تأثيرا هائلا فى قبائل بلاد الغال الوسطى حتى أن معظمها أرسلت اليه وفودا لتهنئته على انتصاره ومناشدته المساعدة ضد أريوفستوس . ويبدو أن قيصر لم يكن حتى ذلك الحين قد ساوره القلق الشديد من جانب الزعيم الجرمانى . لكنه بدأ يدرك أن ازدياد

---

(١) انضمت اليهم قبائل اخرى مثل التولينجى (Tulingi) والبويى (Boii) وبلغ عددهم حوالى ٣٦٨,٠٠٠ نسمة ، كان ربعهم من القادرين على القتال ؛ أنظر :
Caesar, Bellum Gallicum, I, 29.

قوته قد أثار الذعر فى بلاد الغال . وكان غزو الكمبرى والتيوتون مايزال ماثلا فى أذهان الرومان الذين توجسوا خيفة من أن يعيد أريوفستوس الكرة . ولذلك اقتنع قيصر بأنه لابد من معالجة الموقف دون توان فشرع يتفاوض معه . ولم يأمل قيصر فى أن تنتهى المفاوضات الدبلوماسية الى نتيجة مرضية ، ولم يكن فى وسعه أيضا أن يهاجم أريوفستوس الذى كان السناتو بايعاز منه قد اعترف به فى عام ٥٩ « ملكا » و « صديقا للشعب الرومانى » . ولذلك بحث قيصر عن ذريعة للتحرش به فطالبه بأن يدع الآيدوى وغيرهم من أصدقاء روما يعيشون فى أمن وسلام وأن يقف هجرة الجرمان من وراء الراين . واتخذ قيصر من رفض هذين المطلبين تكأة لارغامه على القتال . وقضى قيصر أولا على موجة الذعر التى سرت فى صفوف جيشه قبل ملاقاة الجرمان . وبعدئذ نشبت معركة فى شمال الألزاس منى فيها الأعداء بهزيمة ساحقة ، وطارد الرومان فلولهم المنهزمة الى ما وراء الراين (سبتمبر ٥٨) .

وبهذا الانتصار وجد قيصر نفسه عند مفترق الطرق . فلو أنه عمل بالسياسة الرومانية التقليدية لسحب جيشه الى ولاية «غالة الناربونية» تاركا الغال يقررون مصيرهم دون أن يتدخل فى شئونهم . غير أن ذلك كان قمينا بأن يثير فى بلاد الغال اضطرابات جديدة بعد رحيله . واذا كان أريوفستوس قد قضى نحبه بعد الهزيمة التى لحقت به ، فان قبائل غالة الوسطى كانت تسودها الفرقة ويعوزها التنظيم مما يعرضها حتما لخطر الغزو مرة أخرى من جانب الجرمان . ولذا رأى قيصر أن لا سبيل الى حمايتهم من هذا المصير سوى اخضاعهم للحكم الرومانى ، فجعل فرقه العسكرية ترابط فى أراضى السيكوانى وعبأ فرقتين جديدتين فى « غالة القريبة » .

(ح) البلچيك والثنيتى :

وقد أثار تدخل قيصر فى شئون بلاد الغال الوسطى تذمر كثير من

الزعماء الذين خشوا عواقبه ، فصمموا على مقاومته بدافع من وطنيتهم. غير أنه كان من المستحيل عليه ألا يتدخل فى شئونهم حتى لو شاء ذلك . وكان من الطبيعى أن يؤيد قيصر الفريق الموالى للرومان بين الآيدوى ، ولكن هذه السياسة كان من شأنها اغضاب الفريق الآخر الذى تواطأ مع الهلفيتى . وقد أدت نفس هذه العوامل الى استياء بعض الزعماء فى القبائل الأخرى ، مثل البلچيك الذين شعروا بالخطر من تقدم قيصر فعقدوا عزمهم على الوقوف فى وجهه .

كان قيصر قد أمضى الشتاء فى « غالة القريبة » ، ولـكنه لحق بجيشه فى ربيع عام ٥٧ بعد أن عززه بفرقتين جديدتين . وقد أدرك من فوره خطورة الموقف فزحف شمالا قبل أن يتم البلچيك استعدادهم . وسرعان ما استسلمت له قبيلة الريمى Remi (حـول ريمز) ، وهى احدى قبائلهم ، وأمدته بالمساعدة ، فأتاح له ذلك أن يوطد أقدامه فى أراضيهم حتى تعذر على البلچيك اجلاؤه عنها . وقد عهد الى حلفائه الآيدوى بتخريب حقـول الأعداء فشحت مؤونتهم وتمزقت قـواتهم وتعقب قيصر فلولهم التى ولت الادبار . لكن بعض القبائل فى الشمال وفى مقدمتها قبيلة النرڤيى (Nervii) أصرت على المقاومة واستماتت فى القتال ، ثم أخذته على غرة وكادت توقع به الهزيمة لولا أنه بادر الى تنظيم جيشه فأحرز فى النهاية انتصارا كاملا وأرغمها على الاستسلام واقتص منها بأن باع رجالها فى سوق الرقيق . واستسلمت أيضا قبائل نورماندى وبريتانى لكراسوس الأصغر (P. Crassus) ، ابن المليونير عضو « الائتلاف الثلاثى » . وبدا كأن بلاد الغال الشمالية والوسطى قد خضعت للفاتح خضوعا تاما (١) . غير أن ذلك كان وهما لم ينخدع

---

(١) ابتهاجا بانتصاره وتكريما له قرر السناتو اقامة عيد شكر (supplicatio) تؤدى فيه الصلوات للآلهة لمدة خمسة عشر يوما .

به قيصر الذى أدرك أن السيادة الرومانية لم ترتكز بعد على أساس وطيد .

وعاد قيصر الى ايطاليا لكى يجتمع بپومپى وكراسوس فى مؤتمر لوكا (Luca) الذى انعقد فى عام ٥٦ لحسم الخلافات التى نشبت بين زميليه على نحو ما سنفصله فيما بعد . لكنه ما لبث أن اضطر الى عبور الألب من جديد ليواجه الثورات التى نشبت فى شمال بلاد الغال وشمالها الغربى اذ نقضت قبائل بريتانى ونورماندى محالفتها معه . وتزعمت الحركة الثورية قبيلة الڤنيتى (Veneti) التى كانت تعيش على التجارة مع الجزيرة البريطانية ، وأزعجتها الأنباء القائلة بأن قيصر يعتزم غزو الجزيرة . وكان الڤنيتى قد أذعنوا له بعد هزيمة البچيك ، غير أن خوفهم من ضياع تجارتهم دفعهم الى الثورة والقاء القبض على بعض الضباط الرومان أملا فى مبادلتهم بالرهائن التى أرغموا على تسليمها لكراسوس . وانضمت اليهم بعض القبائل القاطنة فى الساحل ، كما تحفز الجرمان للقيام بغزو جديد من وراء أدنى الراين. ولذلك أرسل قيصر مساعده لابينوس (T. Labienus) ، وهو أكفأ ضباطه ، لحراسة الراين ومراقبة المنطقة الشمالية الشرقية. وعهد الى كراسوس الأصغر باخضاع الأكويتانى فى الجنوب ، والى سابينوس (C. Sabinus) بسحق مقاومة قبائل نورماندى . ولما كان الڤنيتى يتحكمون فى المياه المتاخمة لهم ، وكانت طبيعة بلادهم تجعل من المتعذر قهرهم الا عن طريق البحر ، فقد شرع قيصر فى بناء أسطول فى نهر اللوار . ولما فرغ من بنائه اشتبك معهم فى معركة بمياه المحيط الأطلسى حطم فيها بعض سفنهم وأسر البعض الآخر وقضى على مقاومتهم وفرض عليهم شروطه . ولكى يلقن بقية الغال درسا قاسيا فيكفوا عن مناوءته ، أمر بقتل زعماء الڤنيتى وبيع بقية السكان فى سوق الرقيق .

(د) غزو ألمانيا وبريطانيا :

وفى شتاء عام ٥٦ — ٥٥ عبرت بعض القبائل الجرمانية (١) نهر الراين الأدنى على مقربة من اكسانتن (Xanten) (٣) متجهة نحو الغرب فاضطر قيصر أن يبكر فى العودة من مقر الحكم فى « غالة القريبة » الى « غالة كوماتا » مخافة أن تنحاز العناصر المتذمرة فيها الى الجرمان . وعندما تأهب لملاقاتهم جاءه سفراؤهم طالبين اليه أن يسمح لهم بالاقامة ببلاد الغال . ورفض قيصر مطلبهم وعرض عليهم الاقامة بأراض على الضفة الشرقية من نهر الراين . وتم عقد هدنة قصيرة الأمد حتى يبحث الجرمان الاقتراح المعروض عليهم . لكن بعض وحداتهم خرقت الهدنة بمهاجمة فرسانه . وفى اليوم التالى اتجه زعماؤهم الى معسكره معتذرين عما بدر من رجالهم ، ولكنه لم يطمئن الى وعودهم وصمم على التنكيل بقبائلهم ، فألقى القبض عليهم وزحف بسرعة الى أراضى القبائل المعتدية وأخذها على غرة وهى بغير زعمائها ففرت أمامه لا تلوى على شىء . وطفق يطاردها حتى لحق بها وأباد منها فى وحشية لا مبرر لها آلافا كثيرة جدا (٢) . وارهابا للجرمان الذين قد تسول لهم أنفسهم غزو بلاد الغال ، قرر قيصر أن يغزوهم فى عقر دارهم فبنى قنطرة عبر الراين واقتحم أراضيهم . وتقهقر السويبى (Suebi) ، وهم أقوى قبائلهم ، الى داخل بلادهم ، ولم يشأ أن يقتفى أثرهم فعاد الى غالة وحطم القنطرة التى بناها على الراين بعد انسحابه .

---

(١) وفى مقدمتها قبيلتا الـ Usipetes والـ (Tencteri ، اللتان طردهما السويبى (Suebi) من موطنهما فظلتا تنتقلان فى انحاء ألمانيا زهاء ثلاث سنوات .

(٢) عندما بلغت روما أنباء هذه المذبحة ثارت ثائرة كاتو وانتهز الفرصة لمهاجمة قيصر فاقترح تسليمه للأعداء لأنه انتهك قانونا دوليا بخرق هدنة قائمة والقاء القبض غدرا على سفرائهم . وبذلك تمحى هذه الوصمة التى لحقت بالشرف الرومانى . لكن السناتو قرر اقامة عيد شكر للآلهة supplicatio لمدة عشرين يوما ابتهاجا بانتصار قيصر . وقد ارسل الاخير الى المجلس رسالة ندد فيها بكاتو وصب عليه جام غضبه . ولعل الاتهام كان فيه شىء من الصحة لأن قيصر يحاول جاهدا فى مذكراته عن الحرب الغالية تبرير مسلكه فى هذه الحادثة ، انظر (Bell. Gall. IV, 4-13 ،

(٣) الاسم الرومانى القديم لهذه البلدة هو Castra Vetera على مسافة الى الشمال من كولونيا .

ومع أن فصل الصيف كان قد أوشك أن ينتهي فقد اعتزم قيصر أن يقوم بحملة استكشافية على الجزيرة البريطانية ، فحشد فى أغسطس من عام ٥٥ أسطولا عبر به مضيق دوفر مع فرقتين ونزل بساحل كنت برغم المقاومة التى لقيها من جانب البريطانيين . وبعد أن جاءه زعماء المنطقة مستسلمين رأى ازاء سوء الأحوال الجوية وضآلة قواته أن يعود أدراجه الى القارة (سبتمبر ٥٥) . وقد أدرك أن الحملة لم تحقق له إلا القليل فشرع يستعد فى شتاء عام ٥٥ — ٥٤ لغزو بريطانيا من جديد. ونحن لا نعرف السبب الحقيقى الذى حفزه الى القيام بهذه الحملة ولكننا نرجح أنه أراد — الى جانب الاستفادة من موارد الجزيرة الغنية بالمعادن الثمينة — أن يشعر سكانها بقوة روما ويلقى الذعر فى قلوبهم فيكفوا عن مساعدة الغال فى القارة الأوروبية ، أو لعله أراد أن يثير بنتحها دهشة الدوائر الرومانية ، ويلهب حماس دهماء العاصمة ويزيد من شهرته العسكرية . وعلى أى حال فقد نزل فى يوليو من عام ٥٤ بساحل كنت مرة ثانية على رأس قوة تتألف من خمس فرق غير الفرسان (حوالى ٣٢٫٠٠٠ جندى) . ولم يجد قيصر أى مقاومة فاتجه غربا والتقى بالقوات التى حشدها زعماء كنت وأوقع بها الهزيمة على مقربة من كنتربرى . غير أن تعجله كاد يفسد عليه خطته لأنه لم يتمهل عند بلوغه الساحل حتى يتخذ الاحتياطات اللازمة لحماية سفنه من العواصف. واضطر أن يعود الى الساحل لانقاذ أسطوله الذى دمرت العواصف جانبا منه . وأضاع بذلك وقتا استغله أعداؤه فى الاستعداد لملاقاته . وبعدئذ عبر التيمز والتقى بكاسيفللاونوس (Cassivellaunus) ، ملك المنطقة الواقعة فى شمالى النهر والذى اختاره البريطانيون ليتولى قيادتهم ضد الغزاة . وقد أدرك أنه لا قبل له بمنازلة الرومان فى معارك نظامية فالتجأ الى حرب العصابات . لكن قيصر تمكن من اخضاعه فى النهاية وفرض عليه شروطه وهى تسليم بعض الرهائن وتأدية الجزية للرومان . وبعدئذ عاد الى بلاد الغال مع جيشه دون أن يترك

حاميــات وراءه لتضمن تنفيــذ شروط الصلح . ولعل أنباء تجــدد الاضطرابات فى بلاد الغال هى التى جعلته يعجل بالرحيل عن بريطانيا . وأيا كان الدافع فمن الواضح أن قيصر لم يقصد بحملته احتلال الجزيرة، التى جمع معلومات قيمة عن تضاريسها وسكانها .

(هـ) الثورات الأخيرة : ڤركنجيتوريكس :

عندما كان قيصر يستعد لحملته الثانية على بريطانيا كان يدرك أن بلاد الغال تغلى بالتــذمر من الحكم الرومانى . ولذلك أرغم زعمــاء قبائلهم على مرافقته الى الجزيرة . لكن اذا كان هذا الاجراء قد حال دون قيام الغال بالثورة أثناء غيابه ، فانه زاد من ناحية أخرى كراهيتهم له ، ونفرهم من الاحتلال الرومانى وجنوده وضباطه الذين جثموا فوق صــدورهم واغتصبوا أمــوالهم وشاركوهم أقواتهم ، وكان قيصر فى مقدمتهم فجمع ثروة طائلة سدد بها ديونه . غير أن وطأة الاحتــلال صرفت الغال عن الخلافات الشخصية وأنستهم المنازعات القبلية فأجمعوا كلمتهم على التخلص من المحتل الغاصب . ولم يفقدوا الأمل فى استرداد حريتهم بمعاودة القتال . وقد شجعهم على الثورة اضطرار قيصر الى توزيع قواته فى أماكن متفرقة مثل أميان وترير ولييج وأراضى الفلاندرز. وقد حملت لواء الثــورة قبيلة الابورونيس (Eburones) فى غالة البلجيكيــة تحت زعامــة أمبيوريكس (Ambiorix) ونصبت شركا لسابينوس ودمرت قواته عند بلدة أتواتوكا (Atuatuca) على مقربة من لييج (١) . وضيقت قبيــلة النرڤيى (Nervrii) ــ فى أراضى الفلاندرز ــ الخناق على معسكر رومانى تحت قيادة شيشرون (Q. Cicero)

---

(١) وقد اشتركت فى هــذه الثورة قبــائل اخــرى كالسينونيس (Senones) والكارنوتيس (Carnutes) . وقهر قيصر هذه القبائل الواحدة تلو الاخرى ، ولكن الزعيم أمبيوريكس افلت من يديه على الرغــم من المحاولات التى بذلها للقبض عليه .

— شقيق الخطيب المشهور — وكادت تقضى عليه لولا استماتته فى الدفاع ومبادرة قيصر الى نجدته . وأمضى قيصر الشتاء فى « غالة كوماتا » لأول مرة ، واستطاع أن يمنع لهيب الثورة من الامتداد الى المنطقة الوسطى . ولما شق التريڤيرى (Treveri) فى حوض نهر الموزيل عصا الطاعة قمع لابينوس ثورتهم وأرغمهم على الرضوخ للسيطرة الرومانية (عام ٥٣) .

غير أن الثورات لم تلبث أن نشبت أيضا فى غالة الوسطى حيث انقضت احدى القبائل على الموظفين والتجار الرومان المقيمين بالبلدة التى نعرفها اليوم باسم مدينة أورليان وذبحوهم . وكانت أخطرها جميعا هى الثورة التى نشبت فى أوائل عام ٥٢ وتولى قيادتها ڤركنجيتوريكس (Vercingetorix) ، وهو زعيم وطنى كبير ينتمى الى قبيلة الأرڤرنى . وقد ناصبته الحكومة الارستقراطية فى بلاده العداء ، فألب عليها العامة بفصاحته واستولى على مقاليد الحكم ونودى به ملكا . وشرع يعمل فوراً على كسب صداقة القبائل الأخرى وحالفه التوفيق فى استمالتها الى جانبه . ولم يمض وقت طويل حتى كانت كل بلاد الغال الوسطى ما بين اللوار والجارون قد شقت عصا الطاعة فى وجه الرومان وانضوت تحت لواء الزعيم الثائر . ولم يشترك البلچيك أو الأكويتانى فى هذه الحركة ، وأما الآيدوى ، خصوم الأرڤرنى ، فقد ترددوا فى أول الأمر وبعدئذ انحازوا الى جانب الثوار .

كان قيصر فى مقر حكمه بولاية « غالة القريبة » عندما بلغته أنباء الثورة . وقد حاول الثوار عزله عن الاتصال بالجانب الأكبر من قواته التى كانت ترابط فى شمال غالة الشرقى تحت قيادة لابينوس . ولذلك قرروا غزو « غالة الناربونية » لكى يرغموه على الدفاع عن الولاية الرومانية القديمة فلا يستطيع مغادرتها الى الشمال . وقد أحرزت خطتهم فى أول الأمر بعض النجاح ، وانضمت اليهم بعض القبائل القاطنة

قرب حدود الولاية . وكان الغال على وشك أن يقتحموها عندما ظهر قيصر على مسرح القتال بعد أن عبر الألب بمنتهى السرعة واتجه نحو ناربو ، عاصمة الولاية ، وصد هجومهم وأبعد خطرهم عنها . وبعدئذ شق طريقه بصعوبة عبر الجبال الى أراضى الأرڤرنى وشرع فى تخريبها ، فاضطر ڤركنجيتوريكس الى العودة للدفاع عنها . وسنحت الفرصة لقيصر فزحف بسرعة نحو الشمال حيث انضم الى الجيش الرومانى الذى عززه بادماج بعض فصائل من الفرسان الجرمان المرتزقة من وراء الراين . وأدرك زعيم الغال أنه لايستطيع مواجهة الرومان فى معارك نظامية أو حماية مدنه من هجماتهم ، فأمر رجاله بتخريب الحقول لتجويع أعدائه وقطع الامدادات عنهم وتدمير المدن ما عدا الحصينة منها . ورابط ببلدة جرجوڤيا (Gergovia) (١) التى تقع على هضبة مرتفعة وقرر الدفاع عنها . وتقدم قيصر اليها مع ست فرق رومانية وضرب عليها الحصار . ولكن محاولاته للاستيلاء عليها ذهبت سدى . ولما تبين أنها عسيرة المنال ارتد عنها مدحورا . وقد رفعت هذه الهزيمة - وهى أول هزيمة تلحق به - الروح المعنوية بين الغال وأغرت الآيدوى بالتمرد عليه فانضموا الى الثوار وقطعوا على قواته المنسحبة الطريق بتدمير القناطر القائمة على نهر اللوار . وعلى رغمهم عبر قيصر النهر وزحف ليلحق بالفرق الأربع الرومانية التى كانت قد اتجهت شمالا تحت قيادة لابينوس وهزمت بعض القبائل على مقربة من لوتيتيا Lutetia (باريس) : عاصمة قبيلة الباريسيين (Parisii) . وبعدئذ عاد مع جميع قواته الى المنطقة الوسطى حيث كان ڤركنجيتوريكس قد اعتصم ببلدة أليسيا (Alesia) الحصينة . وحاصر قيصر القلعة حصارا محكما بحفر الخنادق واقامة المتاريس وضيق عليها الخناق . وأخفقت كل المحاولات التى بذلها الغال لرفع الحصار عن البلدة وانقاذ

---

(١) على مقربة من كليرمون فيران Clermont-Ferrand .

زعيمهم . ولما اشتد الجوع بالمحاصرين استسلم ڤركنجيتوركس ابقاء على حياة رجاله . وقد أرسله قيصر الى روما حيث بقى سجينا ست سنوات . وأعدم فى النهاية بعد أن اقتاده قيصر فى موكب انتصاره . غير أن ڤركنجيتوريكس أحرز شهرة فى التاريخ بوصفه زعيما قوميا وبطلا شعبيا كافح كفاحا مجيدا من أجل استقلال أمته .

وكان سقوط أليسيا نذيرا بانهيار المقاومة فى كل بلاد الغال . غير أن قيصر لم يتمكن من اخضاع جميع القبائل الثائرة وتوطيد السيادة الرومانية هناك الا بعد انقضاء عام بأكمله (٥١) . وقد عامل الغال بعد هزيمتهم بالرفق واللين حتى هدأت خواطرهم وساد السلام بلادهم ، ثم اكتسب رضـــاهم حتى أصبحوا من أخلص أنصـــاره . ولم يحول الرومان « غالة كوماتا » الى ولاية رومانية بل اتخذوا من شـــعوبها حلفاء لهم ، على أن يخضعوا اداريا لحاكم ولاية « غالة الناربونية » ، ويمدوا روما بالقوات العسكرية ، ويؤدوا كلهم أو معظمهم جـزية سنوية محددة[١] .

(و) أهمية غزو بلاد الغال :

ويعتبر غزو بلاد الغال حـــدثا من أهم الأحداث لا بالنسبة لروما وحدها بل بالنسبة لتطور الحضارة الأوروبية كلها . فقد انتهى الرجعـــل ذلك الاقليم ، وهو ما نعرفه اليوم باسم فرنسا ، أنفس جوهرة فى تاج الامبراطورية الرومانية . وضمت روما الى أملاكها منطقة فسيحة خصبة فتضاعفت مواردها وازدادت قوتها ، ولو أن الدفاع عن حدود الراين سيكبدها خسائر جسيمة ومتاعب جمـــة . كما أتاحت الحملة لقيصر الفرصة لتنمية مواهبه العسكرية الفذة ، وتكوين جيش مدرب يدين له بالولاء ، واقتناء أموال طائلةمن الأسلاب والغنائم مما أعانه على شراء الأنصار فى روما ورجح كفته فى النضال السياسى والعسكرى المقبل .

(١) ولكن فى عصر اغسطس نظمـت " غـالـة كوماتـا " — نظرا لاتساعها فى شكل ثلاث ولايـات رومـانيـة .

ومن حقنا ان نتساءل عن الدوافع التى حفزت قيصر إلى القيام بكل هذه الحملات فى بلاد الغال أثناء السنوات التسع التى قضاها هناك . ومن المؤسف أننا لانستطيع الاجابة الا تخمينا . ذلك أن قيصر — وان كان قد كتب قصة حملاته فى مذكراته عن الحرب الغالية بلغة لاتينية بسيطة سهلة (١) — لم يشأ أن يفصح لنا عما دار بخلده . ورب مؤرخ سطحى يقول ان ما حفزه هو الطموح والرغبة فى أن يجعل نفسه فى الوقت المناسب سيدا على روما والامبراطورية . لكننا نستطيع أن نؤكد أن قيصر الذى يبدو أنه لم يتمتع قط بصحة جيدة ما كان ليعرض حياته للخطر تسع سنوات متتالية لو أنه كان يبيت طوال هذه المدة نية تحقيق أمل قد يبدده الموت أو المرض الخطير فى أية لحظة . وانما الشيء الوحيد الذى يبدو أن قيصر أحبه حقا ، مثله فى ذلك مثل جايوس جراكوس ، كان هو العمل المستمر الشاق دون أن يدع أحدا يعوقه عن تحقيق الهدف العملى المحدد الذى وضعه نصب عينيه . وليس معنى هذا أنه لم تراوده آمال أو تساوره مخاوف بل من المؤكد أنه كان له أطماع كما كان له خصوم . غير أن ذلك الرجل العبقرى ذا التفكير الواقعى — فهو كما ذكرنا سليل أسرة عريقة من أسر الأشراف — وان تميز تفكيره بنزعة علمية لا نألفها فيمن نعرفهم من زعماء الرومان — كان يعكف دائما على العمل المطلوب منه فى حينه ولا يهدأ له بال حتى يتمه على النحو الذى يرضيه .

وعندما أسرع قيصر نحو الشمال ليصد زحف الهلفيتى فى سنة ٥٨ لم تكن هناك سوى ولاية رومانية واحدة فى بلاد الغال عبر الألب ؛

---

(١) Commentarii de Bello Gallico وتقع فى سبعة كتب وتشمل الفترة الممتدة بين سنتى ٥٨ ، ٥٢ . وقد أضاف اليها هرتيوس (A. Hirtius) ، أحد ضباطه ، كتابا ثامنا يشمل الفترة ما بين سنتى ٥١ ، ٥٠ . راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٢١ — ٢٢ .

(هو) المسماة "غالة الناربونية" التي كانت تنتظم المنطقة الجنوبية الشرقية من فرنسا الحالية (والتي ما تزال تزخر بالآثار والنقوش اللاتينية)، والمنطقة الفسيحة الواقعة الى غربها عند أسفل جبال البرانس[1]. فلما غادر بلاد الغال في نهاية سنة ٥٠ كانت جميع فرنسا وبلجيكا قد أصبحتا جزءا من الامبراطورية، وان لم تتحولا بعد الى ولايات رومانية. وقد رأينا كيف بلغ قيصر المانش وأخضع القبائل القاطنة ساحل المحيط الأطلسي. ثم غزا بريطانيا مرتين بادئا بذلك تاريخها المكتوب. وعبر الراين الى ألمانيا على جسر أقامه مهندسوه المهرة. واستعمل في أعمال الحصار جميع حيل الحرب القديمة كأبراج الهجوم والمجانيق وأدوات الهدم وآلات التخريب. وكانت سرعة تحركاته مضرب الأمثال. ولا ريب في أن أعماله أذهلت الغال، وهو ما كان يرمي اليه. فلما فشلت محاولاتهم اليائسة لانقاذ أنفسهم من دخول حظيرة الامبراطورية، استسلموا مكرهين. واننا اذ نعطف على كفاحهم المجيد من أجل الحرية أو نلوم قيصر على قسوته التي لا مبرر لها في بعض الأحيان، ينبغي ألا ننسى أن أخطاءهم هي التي أدت الى ضياع استقلالهم. فقد كان لديهم الوقت الكافي للعمل على تنظيم صفوفهم وحماية بلادهم، ولكن المنازعات الدامية بين قبائلهم الكبرى استفحلت بمرور الزمن حتى طغت على الجهود الضئيلة التي بذلت لتدعيم الوحدة القومية بينهم. ولعل الغزو الروماني لم يكن كله نقمة عليهم لأنه أنقذ حضارتهم من يد الجرمان البرابرة ومهد الطريق لانتشار الحضارة الرومانية بينهم واستقرار السلام الروماني (Pax Romana) في ربوعهم. ولا ينبغي أن ننسى أن ذلك الاقليم الممتد من نهر الراين حتى المحيط الأطلسي، سيصبح منذ ذلك الحين عاملا هاما في تقدم الحضارة الأوروبية.

لكن خط الدفاع في الواقع كان لا يزال به ثغرة. كانت هذه

(1) انشئت الولاية عام ١٠١ ق م وسميت كذلك نسبة الى مينائها الهالم وعاصمتها ناربو *Narbo* في جنوبها الغربي وقد =

الثغرة توجد عند الطرف الشرقى من جبال الألب . فكيف السبيل الى حمايتها من خطر الغزو؟ وكان السور الهائل ، كما رأينا ، سور جبال الألب يبلغ أقل ارتفاع له عند هذه المنطقة ، التى كانت تقطن وراءها جموع لا حصر لها من البرابرة . وقد أصبح نهر الدانوب بمرور الزمن هو حدود الامبراطورية هناك . وبعدئذ وُصِل بحدود نهر الراين . غير أن هذا العمل الجليل لم يتم الا بعد نصف قرن شاء حظ ايطاليا ألا تتعرض أثناءه لأى غزوات . وكان تيبريوس الذى حكم الامبراطورية بعد أوغسطس جنديا عظيما ووُضِع تحت امرته ، قبل ارتقائه العرش ، جيش لا يقل ولاء له عن جيش قيصر ، فاستطاع بعد جهد طويل متصل أن يوطد نفوذ روما فى تلك المنطقة (١) . وفى وسعنا أن نقول ان الامبراطورية الرومانية — وبالتالى الحضارة الغربية بوجه عام — كانت تدين بوجودها قرونا عدة ، من وجهة النظر العسكرية ، لجهود پومپى وقيصر وتيبريوس وجيوشهم المدربة تدريبا رائعا ومهندسيهم الخبراء المهرة .

هذا العمل الباهر ذو الأثر المستديم ، ونقصد به الغزو وتثبيت خط الدفاع عن الامبراطورية ، لم تقم به الدولة ولا يعزى الى الفضائل القومية القديمة كالشعور بالواجب أو التمسك بالنظام ، بل قامت به الجيوش المدربة خير تدريب والموالية لقادتها كل الولاء . وكان من البديهى اذن أن تطالب الجيوش وقادتها — كما طالب سُلاّ من قبل — بحقها فى الاشراف على شئون الدولة التى انتابها الضعف . ذلك باختصار هو أصل نظام الحكم الامبراطورى الذى قام فيما بعد . وقد حدث نفس الشىء فى انجلترا على أيام كرومويل عندما آلت مقاليد الحكم الى يد الجيش ، لأن ذلك الجيش كان يعبر (وان كان فى حالة انجلترا

(١) ما بين عامى ١٢ ق. م . ٩٠ م .

= اسست كمستعمرة رومانية Colonia فى عام ١١٨ ق.م . وتعرف غالة الناروبونية "احيانا باسم "الولاية" فقط أى باسم (غير رسمى) هو " غالة توجاتا " Gallia Togata لاصطباغها سريعا بالصبغة الرومانية .

لفترة قصيرة) عن أسمى مطالب الأمة وأهدافها . ولكن المشكلة تركزت حينئذ فيما اذا كان فى وسع قائد من قواد هذه الجيوش الرومانية أن يوحد مصالحه ومصالح الدولة الحقيقية فيصبح هو الأداة لاقامة حكومة حازمة رشيدة فى عالم البحر المتوسط . وقد رأينا كيف أخفق سُلَّا فى هذا الصدد لأنه كان يفتقر الى الخبرة اللازمة والعطف الكافى على الجماهير . وأتيحت الفرصة لپومپى بعد عودته من الشرق فى آخر عام ٦٢ ، ولكنه سرح جيشه وأسقطه من حسابه . وكان پومپى من وجوه كثيرة رجلا نافعا واداريا ممتازا ولكن كانت تعوزه الحنكة السياسية ، ثم أتيحت الفرصة ليوليوس قيصر بعد الحروب الطويلة فى بلاد الغال فاغتنمها دون تردد .

الفصل الخامس

مقدمات الحرب الأهلية

(٥٨ ــ ٥٠)

العاصمة فى غياب قيصر

الخلاف بين پومپى وكراسوس

ما كاد قيصر يغادر ايطاليا حتى بدأ النزاع يدب بين زميليـه فى « الائتلاف الثلاثى » ، إذ كانت العداوة قديمة بين پومپى وكراسوس. لكن قيصر استطاع أن يوفق بينهما ويقنعهما بضرورة التعاون لمناهضة نفوذ السناتو . فلما رحل عن العاصمة لم ير أى منهما ما يبرر استمرار التحالف بعد أن حقق كل منهما أغراضه . وكان كراسوس يعمل دائما على الحط من قدر پومپى والانتقاص من شأنه ، وأما پومپى فقد بدأ يشعر بانصراف الناس عنه ، فأراد أن يصفى ما بينه وبين الحـزب الارستقراطى ، ويسترضى شيشرون لشعوره بالخجل من موقفه نحوه وسكوته على نفيه . لذلك أخذ يسعى لاعادة الخطيب الكبير من منفاه فى سالونيك (Thessalonica) . لكن هـذا المسعى أثار ثائرة كلودبوس (١) ، نقيب سنة ٥٨ الشهير ، الذى لم يغفر لشيشرون شهادته ضده . وكان كلوديوس زعيما ديماجوجيا موهوبا فاجتذب الغـوغاء اليه باستصدار قانون يقضي بتوزيع القمح عليهم مجانا ، وقانون آخر باعادة إنشاء النوادى أو الجمعيات (collegia = sodalicia) الخاصة

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٧٨ ــ ١٨٠ .

بهم (١) . وقد برع فى تنظيم العصابات المسلحة والمظاهرات الصاخبة نبدأ يهاجم پومپى كلما ظهر فى المناسبات العامة ويوعز الى رجاله بالسخرية منه حتى اضطر القائد الكبير أن يلزم بيته . وقد أضعف مركزه رحيل جنوده المسرحين عن العاصمة . ولم يكن فى وسع الحكام أن

---

(١) أو sodalitates وجميع النوادى أو الجمعيات الرومانية كانت فى الاصل ذات طابع دينى حتى لو لم تكن العبادة هى القصد من انشائها . وكانت تسمى باسماء آلهة او آلهات مثل ديانا (Diana) وانتينوس (Antinous) وايسكولابيوس (Aesculapius) وهرقل (Hercules) . ويعرف اعضاؤها باسم cultores ، وكثيرا ما كانت هذه النوادى تعقد اجتماعاتها فى المعابد ، وقد تحمل الدور الخاصة بها (scholae) اسماء آلهة ايضا . وقد تمتع الرومان حتى القرن الاخير من عصر الجمهورية بحرية كاملة فى إنشاء النوادى والجمعيات . لكن السلطات كانت تتدخل اذا ارتابت فى اغراض الجمعية مثلما حدث فى عام ١٨٦ عندما اصدر السناتو قراره الشهير بحل جمعيات اتباع الاله باكخوس (ديونوسوس) (S. C. de Bachanalibus) المعروفين باسم Bacchanales . لكن فى عصر شيشرون — الذى نحن بصدده — بدأت النوادى تقحم نفسها فى الشؤون السياسية ، واستغلها بعض الزعماء لاثارة الشغب والاضطراب . لذلك صدر فى عام ٦٤ قانون بالغاء كثير من هذه الجمعيات . لكن كلوديوس — كما هو مذكور اعلاه — اباح تكوينها من جديد . ولما تولى كراسوس القنصلية بالاشتراك مع پومپى المرة الثانية فى سنة ٥٥ استصدر قانونا بفرض عقوبة على من يستغلون النوادى سياسيا لمساعدة المرشحين للمناصب (lex Licinia de sodaliciis) . ثم عاد يوليوس قيصر واصدر تشريعا بالغاء معظمها . وفى عصر الامبراطورية لم يكن من الجائز تكوين النوادى او الجمعيات الا بعد الحصول على ترخيص من الامبراطور أو السناتو .

وكثير من هذه النوادى او الجمعيات كانت نقابية او مهنية اى تتألف من أعضاء يشتغلون بحرفة واحدة ، كالحدادين وصانعى الابسطة والنجارين والبحارة ، ويقومون بدفع اشتراكات شهرية . لكن ليس لدينا ما يؤيد انها كانت تستهدف الدفاع عن مصالح اعضائها او تحسين حالتهم الاقتصادية . وكان الغرض الظاهرى منها فى معظم الاحوال هو التكفل بدفن الموتى من الاعضاء الفقراء (collegia funeraticia) . واما الغرض الحقيقى فكان توطيد اواصر الصداقة وتقوية الروابط الاجتماعية بين الاعضاء ، والترويح عن النفس من سأم الحياة ورتابتها ، والالتقاء فى مناسبات كاعياد الميلاد وتناول الطعام سويا . وكانت توجد نوادى شباب (iuvenes) لممارسة الرياضة ، واخرى خاصة بالمحاربين القدماء (veterani) . وكان لها رؤساء شرف (patroni) ، وهم ثراة او رجال من طبقة السناتو كانوا يتبرعون لها بهبات من وقت لآخر . واما الرؤساء الفعليون فكانوا يعرفون باسم magistri او curatores . وعن هذا الموضوع انظر : Hammond (editor), Oxford Classical Dictionary[2] (1970), s. v. Clubs.

يفعلوا شيئا لحمايته من هذه العصابات لأن روما ـ كما ذكرنا ـ لم تكن بها قوة بوليسية دائمة حتى تقمع المظاهرات وتعيد الأمن الى نصابه وترد كلوديوس الى صوابه .

وحدث أن فاز فى انتخابات المناصب العامة لسنة ٥٧ حكام معظمهم من أنصار شيشرون ، فتقدم أحدهم الى الجمعية المئوية باقتراح لإعادته من المنفى . ومع أن كلوديوس لم يعد فى عام ٥٧ تقيبا يتمتع بحق النقض ، فقد كان لا يزال مسيطرا على الدهماء وقادرا على اثارة الشغب وعرقلة الاقتراح . وكان بين نقباء ذلك العام رجل قوى الشكيمة مشاغب مثله يدعى ميلو (T. Annius Milo) . وقد وطد هذا النقيب عزمه على أن يقابل العنف بالعنف فاستأجر عصابات من المجالدين لمقاومة عصابات كلوديوس . وسرعان ما أصبحت شوارع روما مسرحا للمصادمات اليومية بين أتباع الزعيمين ، وتخضبت بالدماء وامتلأت بالجثث . وناشد پومپى الايطاليين استصدار قرارات فى مجالسهم البلدية للمطالبة بعودة شيشرون والحضور الى العاصمة للاقتراع على مشروع اعادة الخطيب من المنفى ، فتمت الموافقة عليه فى الجمعية المئوية (١) ، وعاد شيشرون الى الوطن فى سبتمبر من عام ٥٧ حيث استقبلته البلاد الايطالية والعاصمة استقبالا حماسيا .

وقد انتهز أنصار پومپى فرصة حدوث قحط فى الغلال فتقدموا للسناتو فى نفس الشهر الذى عاد فيه شيشرون باقتراحين أحدهما يقضى بتعيينه مشرفا على التموين (curator annonae) لمدة خمس سنوات ،

---

(١) وذلك بان اصدر السناتو اولاً قرارا باعادته لم يعارضه سوى كلوديوس . ولا ندرى أالغت الجمعية المئوية تلك القرارات السابقة التى صدرت ضد شيشرون أم انها قررت بطلانها استنادا الى ان النفى لا يكون قانونيا الا بعد محاكمة قضائية سليمة .

مع تخويله سلطة الامپريوم الپروقنصلية (imperium proconsulare) فى ايطاليا وفى خارجها ، مع حق الرقابة على الموانى والأسواق وتجارة القمح فى الممتلكات الرومانية ، أى تخويله ، فى الواقع ، قيادة غير عادية والآخر بجعل هذه السلطة أعلى (imperium maius) من سلطة حكام الولايات (١) ، مع وضع أسطول وجيش تحت تصرفه . وأقرت الجمعية المئوية الاقتراح الأول ، ولم يجد السناتو ما يبرر الاقتراح الثانى فرفضه حتى لا يضع فى يده سلاحا يهدده به . وقام پومپى بالمهمة خير قيام وخفت وطأة المجاعة فى العاصمة . ولم يفقد أنصاره الأمل فأخذوا يتحينون الفرصة لتدعيم مركزه العسكرى . وقد سنحت هذه الفرصة عندما ثار مواطنو الاسكندرية على ملكهم الخائن بطلميوس « الزمار » فى عام ٥٨ لتفريطه فى قبرص وتعسفه إياهم ، وأرغموه على مغادرة المدينة فالتجأ الى روما ليناشد أصدقاءه من ذوى النفوذ مساعدته على استرداد عرشه (٢) . وأكرم پومپى وفادته واستضافه . لكنه لم يكد يستقر حتى حضر الى العاصمة الرومانية وفد كبير أرسله الاسكندريون ليشكوه الى السناتو ويناشدوه ألا يعيده اليهم . واحتدمت المناقشات فى السناتو حول « المسألة المصرية » التى استغلتها الأحزاب الرومانية المتطاحنة لخدمة مآربها . وقرر السناتو أن يسند الى لنتولوس اسپنثر (P. Cornelius Lentulus Spinther) قنصل عام ٥٧ ، الذى كان يتأهب للرحيل الى ولاية كيليكيا ، مهمة اعادة « الزمار » الى عرشه . لكن

---

(1) maius imperium in provinciis quam sit eorum qui eas obtineant (Cicero, ad Att. IV, 17).

(٢) عرّج « الزمار » وهو فى طريقه الى روما بجزيرة رودس حيث قابل كاتو (الذى كان ذاهبا للانتقال الى قبرص لتصفية أملاك بطلميوس) ليسأله المشورة فنصحه بالعودة الى بلاده واسترضاء شعبه وعدم الزج بنفسه فى معترك السياسة الرومانية حتى لا يقع فريسة فى يد الجشعين من زعمائها الديمقراطيين فيفقد ثروته ولا يفوز بطائل . ولكن بطلميوس لم يعمل بهذه النصيحة وتابع رحلته الى روما تحت الحاح رجال حاشيته . والزمار هو بطلميوس الثانى عشر (٨٠ — ٥١ ق ٠م٠) وقد ظل طريدا فى المنفى من عام ٥٨ (بعد ٧ سبتمبر) حتى عام ٥٥ (قبل ٢٢ ابريل) وهو ابو كليوباترا الشهيرة .

أنصار پومپى بذلوا قصارى جهدهم لنقض هذا القرار وتحويل المهمة اليه حتى تتاح له فرصة قيادة أحد الجيوش الرومانية . ولما وجدوا أن الحزب الارستقراطى يقف حائلا دون تحقيق هدفهم ، بحثوا عن وسيلة أخرى . وحدث أن نزلت صاعقة بتمثال الاله چوپيتر اللاتينى (١) فى يناير من عام ٥٦ ، وهى ظاهــرة كانت تعتبر من نذر الشر المستطير . فعهد السناتو الى جماعة الكهنة الخمسة عشر باستشارة كتب النبوءات السيبوللية (Libri Sibyllini) (٢) فيما ينبغى عمله . وأوصت النبوءة بمساعدة بطلمبوس ولكنها حذرت من استعمال الجيش عند مساعدته. وعندئذ أرغم نقيب للعامة من الموالين لكراسوس جماعة الكهنة(٣) على اذاعة النبوءة دون اذن من السناتو خلافا للعرف المتبــع . وبديهى

---

(١) Iuppiter Latiaris (او Iuppiter Latialis) الذى كان يقام له عيد سنوى (Feriae Latinae)عند جبل ألبا .

(٢) نسبة الى سيبوللا (Sibylla) وهى كلمة او اسم مجهول الاصل . وقد اطلق على امرأة كانت تتنبأ بالغيب ورويت عنهــا أساطير مختلفة ، وتجولت فى بلاد كثيرة . وقد اصبح اسمها يطلق على النسوة اللاتى ينطقن بالنبوءات (Sibyllae) فى اى مكان . وكان عددهن يتراوح بين ٢ ، ١٠ ، ويختلف فى مكان عنه فى آخــر . ومن أشهرهن نبية كوماى (Cumae) على مقربة من نابلى .وقـــد حكى أن تاركوينيوس بريسكــوس (Tarquinius Priscus)ــ وهو احد ملوك روما القدامى ــ اشترى مجموعــة من كتب النبوءات (او كتب القدر libri fatales وهى منظومة شــــعرا فى الوزن السداسى التفاعيل hexametron باللغـــة اليونانية واودعها فى معبد الكابيتول وعهد بها الى جماعة الكهنة المختصة بالعبادات الاجنبية(انظر الحاشية التالية) . وكان لا يرجع الى هذه الكتب المقدسة الا باذن من السناتو فى وقت الطوارىء أو الازمات .

(٣) وهى جماعة الكهنة المختصة بالكتب المقدسة ولا سيما كتب النبوءات السيبوللية والمراسم الدينية الخاصــــة بالآلهة الاجنبية المعترف بها أو المسموح بعبادتها فى روما . وقد زيد عدد اعضاء هذه الجماعة من ٢ الى ١٠ ، وبعدئذ الى ١٥ فى أيام سلا ، ومن ثم عرفت باسم Quindecimviri Sacris Faciundis (راجــع ص ٨٦ ، ص ٨٧ حاشية) ثم زاد قيصر عــددها الى ١٦ عضوا . وقد تحولت هــذه الجماعة فى القرن الاخير من عصر الجمهورية الى اداة فى يد الساسة الرومان . وكانت هذه الجماعة هى احــدى الاربع او الجماعات الدينية الكبرى الاربع (quattuor amplissima collegia) فى روما . والجماعات الثلاث الاخرى هى :

=

أن كراسوس هو الذى حمل الكهنة على اختلاق النبوءة وأن المناورة الدينية كان يقصد بها إبطال قرار السناتو واستبعاد لنتولوس وتزهيد بومپى فى المهمة بعد أن فقدت صفتها العسكرية . لكن أنصاره نادوا

=

(ا) جماعة الكهنة (Pontifices) التى كانت تتألف فى أول الأمر من ٣ ثم ١٥ واخيرا ١٦ عضوا على أيام قيصر . وكانت هذه الجماعة تنتظم ، الى جانب الكهنة أنفسهم ، الكهنة المختصين بتقديم القرابين للآلهة المختلفة والمعروفين باسم Flamines والذين بلغ عددهم ١٥ ، وكان أهمهم ثلاثة كبار (maiores) وهم كاهن جوبيتر (flamen Dialis) ، وكاهن مارس (flamen Martialis) ، وكاهن كويرينوس (flamen Quirinalis) أى كاهن « رومولوس » ، مؤسس روما ، بعد تأليهه ؛ وكذلك عذارى فستا (Virgines Vestales) ، وأخيرا ملك القرابين Rex Sacrorum (راجع ص ٨٦ ، حاشية ٢) . وكان يرأس جماعة الكهنة (collegium pontificum) الكاهن الأعظم (Pontifex Maximus) وهو الرئيس الأعلى للديانة الرسمية فى الدولة . وكان فى حقيقة الأمر حاكما منتخبا كبقية الحكام (magistratus) ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون بريتورا أو قنصلا فى الوقت نفسه . ولكنه كان يتولى منصبه مدى الحياة ، ولا زميل له . ومع أنه لم يعد يتمتع فى أواخر عصر الجمهورية بأى سلطة فيما يختص بالقانون المدنى ، إلا أنه كان — الى جانب اختيار الـ flamines وعذارى فستا وملك القرابين — كان يرأس جمعية الأحياء القديمة (Comitia Curiata) لاقرار هذا الاختيار ، والنظر فى مسائل التبنى (كانتقال كلوديوس من عشيرة من الأشراف الى عشيرة من العامة عن طريق التبنى transitio ad plebem ، راجع ص ١٧٩ هامش ١) والتصديق على الوصايا . وكان الكاهن الأعظم يفتى فى المسائل الدينية باسم الجماعة كلها التى كان أعضاؤها بمثابة مستشارين له . وكان مقره الرسمى هو قصر الملك القديم المعروف باسم رجيا Regia (راجع ص ١٧٩ هامش ١) والقائم بجوار السوق أو الميدان العام Forum . والحق أنه كان ذا مقام رفيع فى الدولة ، ولم يكن يعلوه مقاما سوى رئيس مجلس الشيوخ (Princeps Senatus) الذى يتصدر قائمة المواطنين . وفى كثير من الأحيان كان يشغل هذين المنصبين رجل واحد .

(ب) جماعة العرافين (Augures) التى كانت تتكون من ٣ أعضاء ارتفع عددهم الى ١٦ . وهى جماعة قديمة قوية النفوذ كجماعة الكهنة وكانت تعمل منها كلجنة دائمة للسناتو تحال عليها المسائل ذات الطابع الدينى . وقد تمتعت جماعة العرافين لاختصاصها بمسائل استطلاع مشيئة الآلهة (auspicia) بنفوذ سياسى أكبر من نفوذ جماعة الكهنة فى الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية .

(جـ) جماعة تنظيم المآدب الدينية (Epulones) وبخاصة وليمة جوبيتر (epulum Iovis) وغيرها من الولائم التى كانت تقام فى الأعياد الدينية العامة . وكانت تتألف فى أول الأمر من ٣ ، وبعد ذلك من ٧ عرفت باسم (Septemviri Epulones) ، واستمرت تحمل هذا الاسم حتى بعد أن زاد قيصر عدد أعضائها فصاروا عشرة .

بأنه طالما أن الحملة العسكرية قد تحولت الى سفارة دبلوماسية فليس هناك من هو أجدر منه برئاستها نظرا لمكانتـه وسمعته فى الشرق ، وزعموا أن بطلميوس نفسه - الذى غادر روما فى ٥٦ الى إفسوس (بآسيا الصغرى) - أرسل يقول انه يفضل أن تتم عودته على يديه(١) وكاد بومپى - الذى تظاهر بعدم الاكتراث بالموضوع - يظفر برئاسة البعثة الى الاسكندرية لولا معارضة السناتو ومناوءة كلوديوس الزعيم الديماجوجى الذى وقف له بالمرصاد وأوعز الى الغوغاء فى أن يطالبوا بإسناد المهمة الى كراسوس. وأبديت آراء أخرى بشأن «المسألة المصرية». فاقترح فريق تأليف وفد من ثلاثة سفراء متساوين فى السلطة لانجاز المهمة ، ونادى فريق آخر بعدم معاونة بطلميوس اطلاقا . وقد تزعم هذا الفريق فاڤونيوس (M. Favonius) ، صديق كاتو والمعبر عن رأيه ، والذى لا نعلم عنه سوى أنه تولى منصب الكويستورية قبل عام ٥٩ ؛ وعارض قانون يوليوس الخاص بتوزيع قطائع الزراعية على جنود بومپى المسرحين ورفض مثل كاتو أن يقسم اليمين على احترام ذلك القانون ولم يرضخ الا بعـد الالحاح والتهديد . وجدير بالذكر أن شيشرون كان من أنصار اسناد المهمة الى لنتولوس اسپنثر الذى اقترح وهو قنصل فى عام ٥٧ اعادته من المنفى . ولما كان بومپى قد تظاهـر بعدم الاعتراض على لنتولوس فقد كتب شيشرون الى لنتولوس بعد أن رحل الى كيليكيا ليتولى حكمها ، كتب اليه فى مايو عام ٥٦ يقول

---

(١) ترجع علاقة « الزمار » ببومپى الى أيام حملة الاخير فى سوريا وفلسطين عام ٦٣ (راجع ص ١٣٠) . ففى ذلك الوقت اتصل به بطلميوس وعرض عليه خدماته وامـده بكتيبة من ٨٠٠٠ فارس على أمل أن يكسب رضاه فيعينه على شعبه الذى ثار عليه لتهاونه مع الرومان فى حق بلاده برغم ما أبداه زعماؤهم من نوايا سيئة ازاء مصر (راجع ص ١٤٦) فضلا عن أن بطلميوس بعرضه الاخير على بومپى تنازل ضمنا عن ممتلكات مصر فى فلسطين وسوريا التى طالما خاض اسلافه الحرب من أجلها ضد آل سليوكوس . وقـد كان فى استطاعة بومپى أن يجد فى أوائل عام ٦٢ فرصة للزحف إلى مصر لتوطيـد مركز بطلميوس وتأديب شعبه المتمرد ، ولكنه آثر عدم التدخل .

ان پومپى يرى أنه ليس هناك ما يمنع من استخدام الجيش لاعادة النظام الى مصر ، وبعدئذ اعادة الزمار الى عرشه بدون استخدام الجيش عملا بما جاء فى النبوءة السيبوللية . وازاء هذا التضارب الشديد وضيق الوقت أرجأ السناتو البت فى « المسألة المصرية » . وهكذا اتضح أن كراسوس كان لايزال يحقد على پومپى ، ويطمع فى الظفر بالمهمة من دونه ، وأن الوفاق بين عضوى « الائتلاف الثلاثى » لم يكن تاما بأى حال . (١)

وقد ألجئنا الى حقد كراسوس على پومپى ودسائسه وكيده له أثناء غيابه فى الشرق (٢) . ولم يكن كراسوس ديمقراطيا (Popularis) بالمعنى الصحيح ، اذ كان ، خلاف پومپى ، سليل أسرة نبيلة تولى كثير من أفرادها منصب القنصلية . وكان — كما ذكرنا — فاحش الثراء ، فاسد الذمة ، كثير الأتباع (clientes) ، لايتورع عن استخدام اى وسيلة لتحقيق أغراضه السياسية . وكان يستعين أحيانا بنقباء العامة ويستغل الجمعية القبلية — التى تعاون هو وپومپى على دعم مركزها فى عام ٧٠ — لاصدار تشريعاته . ولهذا السبب يمكن أن نعده « ديمقراطيا » . غير أنه اعتمد أيضا اعتمادا كبيرا على أعضاء السناتو الذين اشترى ذمتهم بالقروض والرشا ، وتأييد ترشيحهم للمناصب والدفاع عنهم فى المحاكم . كما كان كراسوس يتمتع بنفوذ بين طبقة الفرسان التى كانت تربطه بها طبيعة أعماله التجارية ومصالحه المالية . وكان پومپى هو خصمه الأول لأنه أضعف نفوذه بين الفرسان وسلبه — كما سلب أقطاب الحزب الارستقراطى —

---

(١) عن علاقة مصر بروما والمسألة المصرية ، راجع :

H. Winkler **Rom und Aegypten im 2. Jahrhundert v. Chr.** Diss. Leipzig, 1933.

E. Olshausen, **Rom und Aegypten von 116 bis 51 v. Chr.** Diss. Erlangen-Nürnberg. Kiel, 1963.

(٢) راجع ما تقدم فى ص ١٤٥ وما بعدها .

بعض مجده العسكرى بمشاركته فى شرف النصر على اسبرتاكوس .
وكان كراسوس — مثل پومپى — يعارض لوكللوس الذى أعاد تنظيم شئون ولاية آسيا بما يكفل عدم استغلالها على يد الفرسان ، ولكن كراهيته لپومپى وخوفه من ازدياد قوته دفعاه الى التعاون مع الحزب الارستقراطى فى معارضة القوانين الخاصة باسناد قيادات استثنائية اليه . وقد صاهر أبناه أسرتين من الأسر الارستقراطية العريقة ، فتزوج الأكبر ابنة ميتللوس « الكريتى » ، وتزوج الأصغر ، وهو پوبليوس كراسوس (P. Crassus) . — الذى التقيناه وهو يعمل ضابطا تحت امرة قيصر فى بلاد الغال (١) — تزوج كورنيليا (Cornelia) ابنة ميتيللوس ناسيكا (Q. Metellus Scipio Nasica) . والأخير سليل اسكيپيو ناسيكا قنصل عام ١٣٨ الذى تزعم أعضاء السناتو فى الحركة التى أودت بحياة تيبريوس جراكوس فى عام ١٣٣ ، وقد تبناه ميتيللوس پيوس قائد الحملة ضد سرتوريوس فى أسبانيا . ورغم تشجيع كراسوس بعض حركات الانقلاب فقد أيد السناتو اقتراحه بتعيين كليورنيوس پيسو حاكما على «أسبانيا القريبة» مع تخويله سلطة استثنائية (٢) . لكن كراسوس لم يستطع أن يحمل الحزب الارستقراطى على تأييد مشروعين اقترحهما أعوانه من نقباء العامة لمناوءة پومپى ، وأحدهما هو مشروع فرض الجزية على مصر ، والآخر هو مشروع روللوس الخاص بلجنة الاصلاح الزراعى . ولا شك فى أن فشل المشروعين يرجع الى تعاون أنصار پومپى مع الحزب الارستقراطى فى هاتين المناسبتين . كما اصطدم مع كاتولوس الزعيم الارستقراطى وزميله فى الكنسورية عام ٦٥ الذى أطاح بمشروعه الخاص بمنح الجنسية لسكان شمال الپو (٣) . ومن هذا كله يتضح أن كراسوس

---

(١) راجع ص ١٨٧ .
(٢) راجع ص ١٤٥ .
(٣) راجع ص ١٤٨ .

لم يثبت قط على مبدأ سياسي واحد ، بل كان متجاوزاً للمزجس مستعداً للتعاون مع أي من الطبقات والأحزاب لتحقيق أطماعه الشخصية .

مؤتمر لوكا

وقد بلغت قيصر أنباء هذه الخلافات وهو في بلاد الغال فساوره القلق من مصير « الائتلاف الثلاثي » ، وخشي أن يضطر پومپي الى التخلي عنه أثناء غيابه ، وبخاصة أن شيشرون كان يسعى للتوفيق بينه وبين حزب السناتو ؛ أو بعبارة أخرى كان يسعى للايقاع بينه وبين قيصر ، وأخذ يندد بقانون الأخير الخاص بأراضي كمپانيا وينادي باعادة النظر فيه (١) ، ويهاجم عميليه كلوديوس وڤاتينيوس(٢) . وقد زاد من مخاوفه أن خصمه دوميتيوس أهينو باربوس (L. Domitius Ahenobarbus) الذي اعتزم ترشيح نفسه للقنصلية ، أعلن أنه سيعمل ، في حالة فوزه ،

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١٧٤ .

(٢) هاجم شيشرون كلوديوس في معرض دفاعه الرائع عن سستيوس (pro Sestio) وكان سستيوس (P. Sestius) كويستوراً في عام ٦٣ ، وعاون شيشرون أثناء قنصليته في القضاء على مؤامرة كتيلينا . وقد انتخب تربيونا للعامة في سنة ٥٧ فبذل جهوداً كبيرة لاعادة الخطيب من المنفى ونظم عصابة لمقاتلة رجال كلوديوس . واتهمه أنصار الأخير في عام ٥٦ باستعمال القوة للاخلال بالأمن (de vi) وكذلك بالرشوة (de ambitu) . وتولى الدفاع عنه شيشرون وغيره من كبار المحامين وقضت المحكمة ببراءته (مارس ٥٦) . كما هاجم شيشرون كلوديوس في خطبته التي دافع فيها عن كايليوس (pro Caelio) . وكان كايليوس روفوس (Caelius Rufus) شاباً مستهتراً منحلاً تعاون مع كيلينا في مؤامرته . وقد أحب كلوديا (Clodia) ، أخت التربيب كلوديوس ، التي اشتهرت حتى قبل وفاة زوجها في عام ٥٩ بأنها أكثر نساء الطبقة الارستقراطية خلاعة وفجوراً . وكان الشاعر الغزلي الكبير كاتوللوس (Catullus) قد هام بها وتغزل بها في قصائده المنشورة مشيراً اليها باسم لسبيا (Lesbia) . وحدث بينهما قطيعة فعشقها كايليوس روفوس ولكنه قطع صلته بها في عام ٥٧ وحنقت عليه كما حقد عليه أخوها كلوديوس . وقد وجه اليه خصومه تهمة الاخلال بالأمن وتهمة القتل بالسم (de veneficis) ، وبخاصة اغتيال ديون (Dion) ، رئيس الوفد الاسكندري الذي جاء روما للرد على اتهامات بطلميوس الزمار (راجع ص ٢٠٢) . وبالرغم من سيرته المشينة وتعاونه مع كتيلينا فقد تطوع شيشرون للدفاع عنه نكاية في كلوديوس وقضت المحكمة ببراءته . وأما ڤاتينيوس فقد هاجمه شيشرون لتقدمه كشاهد ضد سستيوس في خطبة عنيفة (in P. Vatinium testem interrogatio) حرص فيها على عدم تجريح سيده قيصر .

على انهاء قيادته فى بلاد الغال (١) ، مع أن قيصر كان يحتاج الى وقت طويل لتدعيم فتوحاته هناك . وأما كراسوس فكان يطمع فى احراز مجد عسكرى كالذى أحرزه زميلاه ، ولكنه أيقن أنه لن يظفر من السناتو بما يحقق غرضه ، مع أنه كان على استعداد لأن يدفع أى ثمن من أجل الشهرة . ورأى قيصر أن الظروف مهيأة للتفاهم فدعا زميليه الى الاجتماع به فى بلدة لوكا (Luca) الواقعة فى شمال اتروريا على الحدود الجنوبية لولاية « غالة القريبة » . وفى المؤتمر الذى عرف باسم «مؤتمر لوكا » ، جلس الأقطاب الثلاثة فى أبريل من عام ٥٦ — ومعهم ما لا يقل عن ٢٠٠ عضو من أعضاء السناتو وجمع غفير من أتباعهم — جلسوا لكى يرأبوا الصدع الذى أصاب ائتلافهم ويصفوا خلافاتهم ويجددوا المواثيق ويرسموا سياسة للمستقبل . وتم الاتفاق بينهم على أن يرشح بومبى وكراسوس نفسيهما قنصلين لعام ٥٥ ، وأن يسند الى الأول — بعد انتهاء قنصليته — حكم ولايتى أسبانيا لمدة خمس سنوات ، والى الثانى حكم ولاية سوريا لنفس المدة ، وأن تطال مدة قيادة قيصر فى بلاد الغال خمس سنوات أخرى ، على ألا تثار مسألة تعيين من يخلفه قبل أول مارس من عام ٥٠ (٢) . وبعدئذ عبر قيصر الألب عائدا الى بلاد

---

(١) كان لوكيوس دوميتيوس اهينوباربوس عديل كاتو وقريب بيبولوس وابن جنايوس دوميتيوس (Cn. Domitius) نقيب العامة الذى استصدر فى عام ١٠٤ قانونا لاضعاف سيطرة الاشراف على الجماعات الكهنوتية (راجع ص ٥٧ — ٥٨) ، والذى تولى القنصلية بعد ذلك فى ٩٦ . وقد ورث عن أبيه ثروة طائلة وضياعا فسيحة واتباعا كثيرين . وكان على غبائه وحماقته يتمتع بالحظوة لدى جمهور كبير من العامة . وقد ناصب قيصر العداء الشديد حتى انه اخذ يدعو منذ عام ٥٨ عندما تولى البريتورية ، ان لم يكن قبل ذلك ، الى انهاء قيادته فى بلاد الغال ، واعلن فى عام ٥٦ أنه سيسعى فى حالة انتخابه قنصلا الى استدعائه من تلك البلاد(وان كنا لا نعرف هل فى الميعاد القانونى او قبله) . ولعل سخطه على قيصر يرجع الى أنه كان يعتقد انه احق منه بحكم « غالة الناربونية » لان جده جنايوس دوميتيوس اهينوباربوس ، قنصل سنة ١٢٢ ، كان صاحب الفضل الأول فى فتح تلك الولاية وتنظيمها (راجع ص ٤٦ ، هامش) .

(٢) بين الباحثين خلاف شديد حول هذا التاريخ الذى سنتعرض له مرة اخرى .

الشمال بينما عاد زميلاه الى روما ليقوما بتنفيذ قرارات المؤتمر ويوجها سياسة الدولة .

قنصلية پومپی وكراسوس الثانية

وعندما عاد پومپی وكراسوس الى العاصمة كان ميعاد الترشيح للقنصلية قد فات ورفض القنصل — وهو رجل من طبقة الأشراف كان يعارض الائتلاف — أن يدرج اسميهما فى جداول الانتخابات . وعندئذ أوعز الزعيمان الى بعض شباء العامة من أنصارهما بعرقلة اجراء الانتخابات (comitia) فى عام ٥٦ متذرعاً بظهــور طالع نحس (obnuntiatio). (١) فلمــا أقبل عام ٥٥ دون انتخاب قنصلين جــديدين عين حاكم مؤقت (interrex) (٢) موال لهما وأجريت الانتخابات فى يناير تحت اشرافه، ففــاز پومپی وكراسوس بالقنصلية بعــد أن أرغمــا منافسيهما على الانسحاب (٣) . وقد رشح كاتو نفسه للپريتورية وكادت الجمعية المئوية تنتخبه لولا أن پومپی بوصفه عرافا (augur) فض الجلسة محتجاً بحدوث برق فى السماء . فلما عادت الجمعية الى الانعقــاد منع كاتو بالقوة من دخولها وانتخب ڤاتينيوس پريتورا بدلا منه . وسالت الدماء كذلك فى معركة انتخاب الأيديليس (المحتسبين) . وكانت هذه المرة فى الحقيقة هى الوحيدة التى استعمل فيها پومپی القوة لارهاب الجمعية الشعبية وهى منعقدة لاجراء الانتخابات . واستصدر نقيب للعامة يدعى

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٧٩ .

(٢) فى الأصل حاكم كان السناتو يعينه عند وفاة الملك (فى عهــد الملكية) ليزاول السلطة بصفة مؤقتة حتى يتولى الحكم ملك جديد . وفى عصر الجمهورية كان الســناتو يعينه من بين أعضائه الأشراف عند وفاة أو مرض أو استقالة القنصلين فى وقت واحد ، وذلك لمــدة خمسة أيام فقط تجرى أثناءها انتخاب القنصلين . فاذا حدث ما يحول دون ذلك ، عين حاكم مؤقت آخر ، وهكذا دواليك حتى يتم انتخاب القنصلين . راجع أيضــا ص ٨٢ — ٨٣ .

(٣) كان أحد المنافسين هو دوميتيوس اهينوباربوس (راجع ص ٢٠٩ وهامش ١) . وعن قنصليتهما الأولى ، راجع ص ١١٨ .

تريبونيوس (C. Trebonius) قانونا عرف باسمه (lex Trebonia) ويقضى باسناد الولايات التى تم الاتفاق عليها فى « مؤتمر لوكا » الى القنصلين اللذين استصدرا بدورهما قانونا آخر يحمل اسمهما (lex Pompeia-Licinia) [1] ويقضى باطالة مدة قيادة قيصر خمس سنوات أخرى (quinquennium) فى بلاد الغال [2] . وبعدئذ احتضن پومپى وكراسوس تشريعات تستهدف الاصلاح فى ظاهرها ، واضعاف شوكة الارستقراطيين فى حقيقتها [3] . وهكذا ثبت للمرة الثانية أن « الائتلاف الثلاثى » هو الحاكم الفعلى فى الجمهورية . ولما كان شيشرون يدين لپومپى بعودته من المنفى ، فقد اضطر الى تأييد الائتلاف أو الكف عن

---

(١) اى قانون پومپى وليكينيوس (والاخير اسم عشيرة كراسوس M. Licinius Crassus) ويستحسن تعريفه باسمه الكامل lex Pompeia — Licinia de provincia Caesaris تمييزا له عن القانون الذى استصدراه فى قنصليتهما الاولى عام ٧٠ بشأن السلطة التريبونية lex ' icinia — Pompeia de tribunicia potestate (راجع ص ١١٩) .

(٢) فى رأى بعض المؤرخين ان القانون صدر خاليا من شرط عدم اثارة مسألة تعيين خلف لقيصر فى حكم بلاد الغال قبل اول مارس من عام ٥٠ (راجع ص ٢٠٦) .

(٣) استصدر پومپى قانونا للحد من سلطة الحكام كالپريتور المدنى فى اختيار المحلفين بان قصر اختيارهم على ذوى أعلى نصاب مالى فى الطبقات الثلاث (أعضاء السناتو والفرسان « وترابنة الخزانة » ، راجع ص ١٢٠) ، على اعتبار ان هؤلاء اقوى من غيرهم على مقاومة اغراء الرشوة . ولا يتبين لنا بوضوح هدفه من ذلك القانون . ولعله كان يأمل فى التأثير على الرقيبين (censores) اللذين كانا يعدان فى هذه الحالة قوائم المحلفين وفقا للثروة . غير ان رقيبى ذلك العام اعتزلا الخدمة قبل الانتهاء من عملية الاحصاء . ولاضعاف سيطرة الارستقراطيين على الانتخابات — حسبما يعتقد المؤرخ الالمانى الكبير مومسن (Th. Mommsen) — استصدر كراسوس فى العام نفسه قانونا يحمل اسمه (lex Licinia de sodaliciis) للحد من تكوين النوادى او النقابات فى داخل القبائل ، ولا سيما الريفية ، لان هذه النوادى كانت تساعد — بفروعها الداخلية المعروفة باسم decuriae — على توزيع الرشا بين الناخبين فى كل قبيلة . وقضى القانون بمنع استغلال هذه النوادى فى الدعاية السياسية للمرشحين واعتبار ذلك جريمة تستوجب العقاب (قارن ص ٢٠٠ هامش ١) وقد نص على انه فى المحاكمات الخاصة بهذه الجريمة والجرائم المماثلة يكون للمدعى حق تعيين اربع قبائل يختار من بينها المحلفون ، وليس للمدعى عليه ان يرد (يرفض) سوى واحدة منها . وكان القصد من ذلك عدم تمكين المتهم من شراء ذمة جميع المحلفين .

مناوءته بالابتعاد عن ميدان السياسة (١) . ولم يبق هناك خصم عنيد سوى كاتو الذى عاد الى روما فى ربيع سنة ٥٦ وأصر — كما رأينا — على ترشيح نفسه للپريتورية ، ووجد فيه الحزب الأرستقراطى رجلا جريئا جديرا بزعامته .

مصرع كراسوس وانحلال « الائتلاف الثلاثى »

وبمقتضى « قانون تريبونيوس » الذى صـــدر فى أوائل عام ٥٥ وأعطى القنصلين — بعد انتهاء خدمتهما — حق اعلان الحرب وابرام الصلح وجمع القوات العسكرية لا فى ايطاليا وحدها بل فى الولايات كذلك ، رحل كراسوس الى سوريا مع الفرق التى استطاع أن يحشدها — رغم اعتراض نقباء العامة — فى منتصف نوفمبر من نفس العام عاقدا العزم على أن يحرز مجدا عسكريا بغزو بلاد البارثيين (٢) . وقد استنكر

(١) اضـــطر شيشرون الى الدفاع عن مصلحة قيصر فنادى بعدم اعفائه من منصبه فى بلاد الغال قبل انقضاء مدته القانونية فى خطبة القاها امام السناتو فى يونيو من عام ٥٦ عن الولايات القنصلية (de Provinciis Consularibus) . كما دافع عن بالبوس ، (L. Cornelius Balbus) وهو رجل اصله من بلدة قادس (Gades) باسبانيا كان پومپى قد منحه الجنسية الرومانيـــة (راجع ص ٢٠٩) ، ثم حضر الى روما حيث اصبح من ذوى النفوذ فيها . وقد اكتشف قيصر مواهبه فعينه وكيلا له وعهد اليه برعاية مصالحه أثناء غيابه فى بلاد الغال . وقد اتهمه خصوم « الائتلاف الثلاثى » فى عام ٥٦ بانه اكتسب الجنسية بطريق غير مشروع ، واستندوا فى دعـــواهم الى قانون پاپيوس (lex Papia) الذى كان يجيز ابعاد غير المواطنين عن العاصمة الرومانية (وهـــو قانون رد به السناتو على مشروع كراســـوس بمنح الجنسية لسكان غالة الواقعة شمال البو — ص ١٤٨) . وقد قضت المحكمة ببراءة بالبوس فظل مقيما بروما حيث ازداد نفوذه عن ذى قبل حتى انه تولى القنصلية فى الشطر الاخير من عام ٤٠ (consul suffectus) فكان اول رجل من اصل غير رومانى يصل الى هذا المنصب .

(٢) ليس من المستبعد أن يكون الاتفاق على غزو پارثيا قد تم فى مؤتمر لوكا وأن قيصر هو الذى اقترح الفكرة فسارع كراسوس الى الترحيب بها . وفى راى بعض الباحثين ان كراسوس كان ينشد من الحملة السيطرة على تجارة الحرير لان الاستيلاء على سلوقية — التى تقع على الدجلة فى مواجهـــة طيسفون Ctesiphon (المدائن) — عاصمة البارثيين — كان يتيح له ان يتحكم فى السلع الواردة من الصين او الهند . ومع أننـــا لا ننكر ان ثروة پارثيا استهوت لب كراسوس الا ان هدفه الرئيسى انصب على الغزو واحراز الشهرة العسكرية .

الحزب الأرستقراطى هذه الحملة واحتج بأن پارثيا لم تقم بأى عمل استفزازى يبرر العدوان عليها . وعبثا حاول بعض نقباء العامة عوق الحملة عن الرحيل ، فلم يملك أحدهم الا أن استنزل اللعنات على قائدها . وكان البارثيون شعبا ايرانى الأصل ، وقع تحت حكم الفرس وبعدئذ تحت حكم السليوكيين ، ثم استقل بنفسه وأقام مملكة تنتظم الولايات الواقعة فى شرقى الفرات وكانت من قبل تابعة للامبراطورية السليوكية (١) . وقد انتاب الضعف مملكة بارثيا فترة من الزمن فى مستهل القرن الأول ، فاغتنم الفرصة تجرانيس ، ملك أرمينيا ، وانتزع منها أديابينى وجوردوينى وما حول نصيبين (فى شمالى بلاد ما بين النهرين) . غير أن فراتيس الثالث أعاد النظام داخل مملكته حوالى عام ٧٠ واستعد لاسترداد أراضيه الضائعة . وكان ارتياب روما فى نوايا مثراداتيس وتجرانيس قد دفعها الى انشاء علاقات ودية مع بارثيا منذ حوالى عام ٩٢ عندما عرض أحد ملوكها عقد محالفة معها . ومع أن ملكى بنطوس وأرمينيا حاولا ضم فراتيس الى جانبهما فى عام ٦٦ فان ملك بارثيا انحاز الى جانب پومپى على أمل أن يعينه على استرداد كل الممتلكات التى فقدتها بلاده فى شمال شرقى ما بين النهرين . لكن پومپى حنث بوعده بعد استسلام تجرانيس وقسم الأراضى المتنازع عليها بين الملكين . وبهذا التحول الفجائى الذى لم يكن هناك ما يبرره ، وضع پومپى — كما أسلفنا — بذور النزاع الذى استحكم بين روما وبارثيا مدة طويلة (٢) . وقد زاد من حدة التوتر بين الدولتين سياسة جابينيوس ، مساعد پومپى ، وقنصل عام ٥٨ ، الذى عاد الى الشرق

---

(١) الاشكانيون هم الذين وضعوا نواة مملكة بارثيا (وتعرف فى العربية باسم بارتيا او فارطيا او البرت) . وتنسب الاسرة الحاكمة فيها الى جد يسمى ارشك (Arsaces) وكان البارثيون يتكلمون لهجة فارسية تعرف بالبهلوية الاشكانية . وللاستزادة انظر : كريستنسن « ايران فى عهد الساسانيين » (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب) ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص ٥ وما بعدها .

(٢) راجع ص ١٢٩ ، ١٤١ .

فى ٥٧ كحاكم على ولاية سوريا (١) ، وعبر فى العام التالى نهر الفرات ليمد يد المساعدة لشقيق ملك بارثيا الذى استنجد به لينتزع له العرش من أخيه الأكبر (٢) . ومع أن ملك بارثيا الشرعى استطاع أن يتخلص بسهولة من أخيه المدعى ، فان مسلك جابينيوس كان خليقا باثارة الأحقاد وجعل كل من الدولتين تتحفز للانقضاض على الأخرى .

ولم يجد كراسوس ذريعة لاشهار الحرب على بارثيا سوى الادعاء بأنها تهدد الولايات الرومانية المتاخمة لها فى الشرق . غير أن السبب الحقيقى فى التعجيل بالحرب هو طموحه الشخصى وتلهفه فى أواخر حياته على احراز شهرة عسكرية تطاول شهرة پومپى وقيصر . وقد

---

(١) وذلك بمقتضى قانون استصدره النقيب كلوديوس فى ٥٨ ونص على منح جابينيوس ولاية سوريا بدلا من كيليكيا التى خصصت له فى اول الامر ، وان يمنح فى الولاية بسلطة غير محدودة (imperium infinitum) .

(٢) اخمد جابينيوس عقب وصوله الى الشرق ثورة قام بها ارسطوبولوس ، واعاد تنظيم مملكة يهوذا ونصب عليها انتيپاتر (Antipater) . وقد توترت علاقته مع الملتزمين الرومان (publicani) فى سوريا لانه كبح — فيما يبدو — جماحهم ، ولكن القراصنة عاثوا فسادا فى ساحل الولاية فاضطربت احوالها . ولذلك اخذ شيشرون يهاجمه منذ اوائل عام ٥٦ ويطالب بعدم اطالة مدة حكمه . وتراءى لجابينيوس ان يمد يد المساعدة لشقيق ملك بارثيا الذى كان يسعى الى اغتصاب العرش من اخيه ، فعبر الفرات فى عام ٥٦ ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك واقدم على مشروع آخر . فقد اتصل به بطلميوس « الزمار » المطرود من بلده ووعده بمبلغ ضخم (١٠٫٠٠٠ تالنت) اذا هو اعانه على استرداد عرشه . واستجاب جابينيوس لطلبه وترك ولايته دون اذن من السناتو وغزا مصر فى ربيع عام ٥٥ متجاهلا قرار عدم استخدام القوة فى ارجاع بطلميوس الى عرشه (راجع ص ٢٠٣) ، ومتذرعا بحجة ان الملكة التى ولاه الاسكندريون عليهم كان تدبر غزو ولاية سوريا . وبلغ جابينيوس پيلوزيون (الفرما) وبرفقته ماركوس انطونيوس (M. Antonius) الذى كان يتولى قيادة الفرسان (praefectus equitum) ؛ واستسلمت له الحامية اليهودية دون مقاومة فسار الى الاسكندرية حيث استرد بطلميوس عرشه الذى افتقده عدة سنوات لكن سرعان ما عاد جابينيوس الى ولايته التى اختل فيها الامن ونشبت الاضطرابات اثناء غيابه . وقد ترك وراءه فى مصر حامية من بضع كتائب مؤلفة من جنود رومان وجرمان وغال لتشد ازر بطلميوس (انظر :
Dio Cassius, XXXIX 55-63; Cicero, in Pisonem, 48-50
وعن الاتهامات التى وجهت الى جابينيوس بعد عودته الى روما فى عام ٥٤ ، انظر ص ٢١٩ فيما بعد ، حاشية ١ .

تجمعت لديه سبع فرق كاملة فضلا عن فصيلة من الفرسان الغال والمشاة خفيفي العدة ، واعتمد على أبجر ملك أسروهيني العربي[1] ، وتوقع المساعدة من ملك أرمينيا . وبدأ كراسوس حملته في عام ٥٤ بغارة على شمال بلاد ما بين النهرين استولى فيها على بضع مدن تقع على الفرات وداخل ثنيته العليا . لكنه سرعان ما انسحب الى سوريا لأسباب مجهولة تاركا وراءه حاميات بالمراكز التى استولى عليها . وفى العام التالى (٥٣) عبر الفرات ثانية عند بلدة زيوجما Zeugma[2] (بيراجيك الحالية) ، بقصد التوغل فى أراضى البارثيين . وكان كراسوس كغيره من قواد عصر الجمهورية رجلا باسلا عنيدا على قدر من الكفاءة لا يحيد عن الأسلوب التقليدى فى القتال ويضع ثقته العمياء فى الفرق الرومانية عند التحام مع العدو . لكنه لم يكسب ولاء جنوده ولم يعرف كيف يكسبه . ومن سوء حظه أنه لم يلم الا الماما طفيفا بأساليب البارثيين فى القتال وطبيعة أراضيهم ولم يقدر قوتهم أو صعوبات الحرب فى الصحراء تقديرا صحيحا . وبدلا من أن يسير حول جبال أرمينيا ويتخذ من هذه البلاد قاعدة لعملياته الحربية أو يزحف جنوبا بمحاذاة الفرات ، شق كراسوس طريقه عبر صحراء ما بين النهرين مباشرة . ولم يكد يتوغل فيها حتى تصدت له القوات البارثية التى تولى قيادتها سورين (Surenas) ساعد ملك بارثيا الأيمن ، وهو شاب جرىء واسع الحيلة كان يعرف مواطن الضعف فى أعدائه .

كانت نواة الجيش البارثى تتألف من رماة مهرة يتقنون ركوب الجياد ، وترافقهم قوافل من الابل تحمل ذخيرة احتياطية من السهام لتساعدهم على متابعة القتال مدة طويلة ، وتعززهم كتيبة من حملة الرماح الذين تكسو الدروع أجسامهم وخيولهم (cataphracti) كفرسان العصور الوسطى . وانتظر البارثيون حتى اقترب كراسوس من ضفة

(١) استقلت عن السليوكيين (السلوقيين) حوالى ١٣٢ ق.م. وهى مملكة صغيرة صارت " منطقة حاجزة " بين البارثيين والرومان وابجد المذكور هو ابجد الثانى (٦٨ — ٥٣) كان معظم سكانها آراميين ولغتهم السريانية والعاصمة اديسا (الرها = اورفه حاليا) .

(٢) بأقصى جنوب شرق تركيا ومعنى الاسم نقطة الاتصال او المعبر .

أحد الأنهار الصغيرة ثم شنوا الهجوم عليه (١) . وعندئذ سار ابنه كراسوس (P. Licinius Crassus) ، الذى التقينا به فى بلاد الغال وهو يعمل ضابطا تحت إمرة قيصر (٢) ، على رأس فصائل الفرسان المؤلفة من الغال لملاقاة العدو ومطاردته حتى يتيح لأبيه فرصة استكمال تنظيم قواته . وتجنح الفرسان البارثيون التقهقر أمامه واستدرجوه حتى ابتعد عن فرق المشاة الرومان ، ثم طوقوه وأبادوا قواته وسقط صريعا هو نفسه . وبعدئذ انهالوا بسهامهم على الفرق الرومانية من كل جانب وأفنوا منها عددا كبيرا . وارتد كراسوس الى بلده كرهاى (Carrhae) حيث اعترض البارثيون طريق انسحابه وحاصروه وأوقعوا به الهزيمة فى يونيو عام ٥٣ . وقد حطمت الهزيمة روح رجاله المعنوية فأرغموا على قبول المفاوضة مع الأعداء . وذهب كراسوس — وهو يساوره شعور بأنه يدنو من نهايته — سار مع فريق من ضباطه الى مكان الاجتماع بسورين قائد البارثيين ووقع فى الشرك المنصوب له ، وان لم يعرف أحد قط كيف لقى مصرعه . ودفع جيشه ثمن عصيانه فهلك جنوده ووقعوا أسرى ولم ينج من عدده البالغ ٤٠٫٠٠٠ سوى ١٠٫٠٠٠ رجل عادوا الى سوريا حاملين نبأ الكارثة .

ومع أن « كرهاى » (٩ يونيو ٥٣) كانت من الهزائم الكبرى التى منى بها الرومان الا أنها لم تحدث فى العاصمة دويا كبيرا أو ذعرا شديدا . ولعل ذلك يرجع الى أن الحملة على بارثيا كانت مغامرة شخصية فلم ير الرومان فى اخفاقها امتهانا لكرامتهم أو خطرا مباشرا يهدد كيانهم مثلما شعروا عقب هزيمتى كنّاى وأراوسيو . وقد بلغ من تفاقم الفوضى وتراخى الحكومة الرومانية وقتئذ أنها لم ترسل الامدادات الى الشرق على وجه السرعة . ومن حسن الحظ أن البارثيين

---

(١) هذا النهر يقع بين بلدة اخناى (Ichnae) بالقرب من الفرات وبلدة كرهاى Carrhae (حرّان الحديثة) فى جنوب اسرهينى (مملكة الرها) .

(٢) راجع ص ١٨٧ .

توانوا فى استغلال انتصارهم فلم يغزوا ولاية سوريا على الفور ، مما أتاح للكويستور كاسيوس (C. Cassius Longinus) فرصة الاستعداد والدفاع عنها . ومع هذا فقد أصيبت هيبة روما فى الشرق بضربة قاصمة . وظلت بارثيا تهدد ولاياتها الشرقية طوال القرون الثلاثة التالية.

ولعل أهم ما ترتب على معركة كرهاى من نتائج هو موت كراسوس نفسه وتدمير جيشه اذ عجل موته بوقوع الصدام بين بومبى وقيصر اللذين اتسعت شقة الخلاف بينهما بعد أن زالت الرابطة الأسرية بوفاة جوليا ، زوجة بومبى وابنة قيصر[1] . وانفصمت عرى « الائتلاف الثلاثى » فوجد كل من الزعيمين نفسه وجها لوجه أمام الآخر . وقد أدرك بومبى أنه لن يستطيع وحده مقاومة قيصر وأنه لا مناص له من أن يتلمس معونة السناتو .

غير أن السناتو شعر هو الآخر بأنه محتاج الى تأييد بومبى . ذلك أن أعمال قيصر فى بلاد الغال أثارت ارتياب الدوائر الرومانية فى العاصمة وبخاصة الأرستقراطيين الذين ساورهم الخوف من أن يستعين بجيوشه للقضاء عليهم بعد عودته . وكانت انتصاراته فى تلك البلاد قد أكسبته من الشهرة والمجد ما جعل من العسير تحريض جنوده على التخلى عنه والانضواء تحت لواء قائد آخر الا اذا كان هذا القائد يضارعه شهرة ومجدا . وفى الحق ان الحزب الارستقراطى كان فى مأزق حرج اذ كان عليه أن يختار بين شرين ، فاختار أهونهما ، و[illegible] فى آخر الأمر ـ نحو بومبى . غير أن عقبات كثيرة اعترضت طريق التفاهم لأن النبلاء لم ينسوا تماما عداءه القديم لهم ، واحتضانه المشروعات الشعبية ، وهدمه دستور سلا . وقد ارتابوا فى نواياه وخشوا أن يسخرهم لمآربه ثم يلفظهم أو يخذلهم ويعود الى التحالف مع زميله من جديد . وزاد من شكوكهم أن بومبى كان بطبيعته رجلا مترددا ، فلم يشأ أن يجاهر قيصر بالعداء ويقطع صلته به الا بعد أن يستوثق من تأييد السناتو .

(١) راجع ص ١٧٨ توفيت ـ اثناء الوضع ـ عام ٥٤ وهى ابنة قيصر من زوجته (الثالثة) كاليورنيا ٨٣ . تزوج بومبى من بعدها (فى ٥٢) كورنيليا ، ارملة يوبليوس كراسوس .

قنصلية پومپی الثالثة

لم يرحل پومپی بعد انتهاء قنصليته الثانية فى آخر عام ٥٥ الى أسبانيا ليتولى الحكم فيها كما جرت العادة ، بل بقى فى ايطاليا — كما فعل بعد قنصليته الأولى فى عام ٧٠ — بحجة الاشراف على تموين روما بالغلال. وأرسل بعض ضباطه المساعدين (legati) لينهضوا بأعباء الحكم فى ولايتيها نيابة عنه ، كما سيفعل الأباطرة فيما بعد . ولم يكن هذا المسلك فى الحقيقة عملا غير مشروع لأن القانون لم يلزم الحاكم بالرحيل الى ولايته فى وقت معين . غير أن بقاء پومپی فى ايطاليا طوال مدة حكمه كان سابقة خطيرة تنطوى على انتهاك للدستور . وقد قصد ببقائه خدمة أغراضه لأن هذا الوضع كان يمكنه من تعبئة القوات بدعوى الحاجة اليها فى أسبانيا ، واستخدامها فعلا لتدعيم مركزه فلا يستطيع السناتو أن يعالج أى أزمة دون الاستعانة به . ولما كان محظورا عليه أن يزاول سلطة الامپريوم الپروقنصلية داخل سياج المدينة المقدس (Pomerium) (١) فقد أخذ يرقب الأحداث عن كثب على أمل أن يستجد من الأمور ما يرغم الحزب الارستقراطى على الاستنجاد به وقبول زعامته . وفى الواقع أن وجوده فى ايطاليا عاق السناتو عن حفظ الأمن والنظام لأن هـذا المجلس لم يجرؤ على أن يأذن للقنصلين أو غيرهما من الحكام بتعبئة أى قوات مخافة الاحتكاك بالقائد الكبير . وترتب على ذلك أن عجزت الحكومة عن قمع الشغب وتفريق المظاهرات ومكافحة الرشوة فى ذلك

---

(١) لم يكن من الجائز ان يحتفظ احد بالامپريوم الپروقنصلى (imperium proconsulare) وهو فى داخل المدينة الا فى ايام مواكب الانتصار . غير ان پومپى منح حق اجتياز البوميريوم (وهو الحد الفاصل بين نطاق السلطة المدنية ونطاق السلطة العسكرية) دون التنحى عنه ، ولكنه لم يكن فى وسعه ان يزاوله قانونا .

العام — عام ٥٤ — الذى تميز بكثرة المحاكمات التى جرت أثناءه (١)

---

(١) وكان معظم المتهمين من أعوان رجال « الائتلاف الثلاثى » . ومن امثلة ذلك محاكمة جابينيوس الذى عاد من سوريا فى ذلك العام (٥٤) وواجه حملة عنيفة اثارها عليه شيشرون الذى لم ينس ان جابينيوس كان قنصلا فى نفس العام الذى نفى هو فيه من روما (٥٨) . وقد وجهت اليه فى اكتوبر تهمة الخيانة العظمى (maiestas) لتركه ولايته (سوريا) ودخوله مصر بقوات عسكرية دون اذن من السناتو (راجع ص ٢١٤ ، حاشية ٢) منتهكا قانون سلا فى هذا الصدد (راجع ص ٨٩) . وقد برىء من هذه التهمة ولكنه تعرض بعد شهر واحد لتهمة اخرى هى الابتزاز (repetundae) . ومع ان شيشرون اضطر فى هذه المرة ازاء الحاح بومبى الى الدفاع عنه الا ان المحكمة ادانته وقضت عليه بغرامة كبيرة عجز عن دفعها فرحل الى المنفى . واما تهمة الرشوة (ambitus) فقد بذل كل من بومبى وبطليموس ما فى وسعه لاسقاطها عنه ، راجع المقال التالى عن سيرة جابينيوس :

Eva M. Sanford, "The Career of Aulus Gabinius," TAPA 70 (1939), 64-92.

وارضاء لقيصر دافع شيشرون عن رابيريوس بسطوموس (Rabirius Postumus) وهو ثرى من الفرسان كان يشتغل بالمضاربة فى الاسواق التجارية والاعمال المصرفية ، ويمت بصلة القرابة لرابيريوس (C. Rabirius) الذى اتهم بقتل ساتورنينوس (راجع ص ١٦٠ هامش) . وكان بطلميوس « الزمار » قد اقترض منه مبالغ طائلة اثناء اقامته فى روما ليشبع بها نهم الزعماء ويشترى الانصار فلما استرد عرشه لحق به رابيريوس فى الاسكندرية ليحصل دينه مع الفوائد وبقية المبلغ الذى وعد الملك به جابينيوس . ولم يجد بطلميوس مخرجا من مازقه الا بتعيينه وزيرا للمالية (dioikêtês) . واستعان رابيريوس بجنود الحامية التى تركها جابينيوس فى تحصيل الضرائب من السكان بالقوة وارهقهم ارهاقا شديدا فهبوا ثائرين . وعندئذ زج به الملك فى السجن ليحميه من بطشهم ثم يسر له — فيما يبدو — طريق الفرار من مصر . ولما عاد رابيريوس الى روما وجهت اليه تهمة الرشوة لاستيلائه على المبلغ الذى كان من المفروض ان يحصله باسم جابينيوس . ويبدو ان المحكمة قضت ببراءته لاننا نلتقى به كعضو فى مجلس السناتو فى عام ٤٩ وكاحد انصار قيصر . ولعله هو الذى تبادل وشيشرون بعض الرسائل تحت اسمه الاصلى بسطوموس كورتيوس (Postumus Curtius)

كما ارغم شيشرون على الاضطلاع بمهمة ثقيلة اخرى ، وهى الدفاع عن خصمه اللدود فاتينيوس ، صنيعة قيصر ، الذى كان يبغضه وسبق ان هاجمه (راجع ص ٢٠٨ هامش ٢) وكان قد اتهم بالرشوة فظفر لشيشرون بحكم البراءة . وعن علاقة شيشرون بقيصر فى عام ٥٤ (عام المحاكمات) راجع الكتاب التالى :

F. Lossmann, **Cicero und Caesar im Jahre 54** (Hermes, Einzelschriften 17). Wiesbaden, 1962.

وترافع شيشرون فى نفس العام عن بلانكيوس (Cn. Plancius) — وهو كويستور كان قد عقد معه اواصر الصداقة وواساه ايام محنته فى منفاه بمقدونيا عام ٥٨ — ورد شيشرون له الجميل فدافع عنه فى قضية اتهم فيها باستغلال النوادى فى داخل القبائل استغلالا غير مشروع فى الدعاية الانتخابية (راجع ص ٢١١ هامش ٢) . كما دافع

=

وليس أدل على استفحال الرشوة والفساد من أن قنصلي ذلك العام ، اللذين كانا يمارضان « الأئتلاف الثلاثي » وصنائعه ، اتهما أثناء اشرافهما على انتخابات القنصلية للعام التالي بعقد اتفاق مشين مع مرشحين لمساعدتهما على الفوز بالمنصب من بعدهما مقابل مبلغ معين (١) .

=

شيشرون عن اسكاوروس ، الكويستور في جيش بومبي أثناء حملته في الشرق الاوسط (راجع ص ١٢٩) ، والذى انتخب أيديلا في ٥٨ وبريتورا في ٥٦ ثم عين حاكما على سردينيا في ٥٥ ، واتهم بعد عودته الى روما في ٥٤ بالابتزاز في ولايته ، ولكن المحكمة التى كان يرأسها كاتو برأته بأغلبية ٥٧ صوتا ضد ٨ أصوات . ولم يقتصر نشاط شيشرون على ميدان المحاماة فعكف في تلك السنة على كتابة بحثيه القيمين في السياسة أو الدولة (de Republica) وفي القوانين (de Legibus) وهما بحثان سنعود اليهما بعد قليل (انظر ص ٢٢٨ وما بعدها هوامش ، فيما يلي) .

كما كان من بين أعوان « الائتلاف الثلاثي » الذين قدموا للمحاكمة وقتئذ مسيوس (C. Messius) نقيب سنة ٥٧ الذى تقدم بمشروع تعيين بومبي مشرفا على تموين روما بالغلال ومنحه اعتمادات مالية ضخمة وتخويله سلطة أعلى من سلطة حكام الولايات (راجع ٢٠١) . وقدم أيضا للمحاكمة جايوس كاتو C. Porcius Cato (وهو غير كاتو الزعيم الارستقراطي) ، نقيب عام ٥٦ الذى تواطأ مع كراسوس وأرغم جماعة الكهنة المختصة بالكتب المقدسة على اذاعة النبوءة السيبولية للحيلولة دون اسناد قيادة جيش الى لنتولوس اسبنثر أو بومبي لاعادة « الزمار » الى عرشه (راجع ص ٢٠٢) . وكان قد أيد « الائتلاف الثلاثي » بعد مؤتمر لوكا ، ثم وجهت اليه تهمة عرقلة الانتخابات ، ولكن المحكمة برأت ساحته .

ولعل ما حدث لبومبتينوس (C. Pomptinus) ينهض دليلا على مدى التطاحن الحزبي وتأزم الامور . كان بومبتينوس قد انتخب بريتورا في عام ٦٣ ثم عين في عام ٦٢ ، بوصفه بريتورا سابقا ، حاكما على ولاية « غالة الناربونية » ، والحق في عامي ٦٢ ، ٦١ الهزيمة بالالوبروجيس الثائرين (أنظر ص ١٨٤) . ثم طالب في عام ٦٠ باقامة موكب له احتفالا بانتصاره (triumphus) ، ولكن السناتو رفض مطلبه ، فظل مقيما خارج روما ست سنوات لا يريد دخولها حتى لا يفقد حقه في الموكب . ولم تتحقق أمنيته الا في عام ٥٤ بعد أن بذل حاكمان من أصدقائه قصارى جهدهما لانتزاع قرار من السناتو يقضى بتحويله المدينة في موكب نصر .

(١) كان هذان القنصلان هما دوميتيوس اهينوباربوس ، خصم قيصر (راجع ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ هامش ١) ، وابيوس كلاوديوس بولكر (Ap. Claudius Pulcher) شقيق نقيب العامة الديماجوجي كلوديوس (P. Clodius Pulcher) ، وهو من طبقة الاشراف . وكان الاثنان قد فازا بالقنصلية لعام ٥٤ ، كما فاز كاتو بالبريتورية لنفس العام . ولم يحاول بومبي وكراسوس اللذان اشرفا على الانتخابات في منتصف عام ٥٥ اسقاطهم كما فعلا في العام السابق (راجع ص ٢١٠) ، حتى لا يثير الرأى العام الذى بدأ يستنكر أساليبه

=

وترتب على ذلك أن تعطل اجراء الانتخابات أكثر من مرة ، فبقيت

=

« الائتلاف الثلاثي » ويتأثر بالدعاية التي قام بها الارستقراطيون ضده . واذا كان شيشرون قد رضخ لرجال الائتلاف واضطر — كما رأينا — الى الدفاع عن المتهمين من أعوانهم ، فقد كان هناك — الى جانب الساسة كاتو وبيبولوس وهيتسيوس وفاربوس وبروتوس وكوريو — رجال آخرون لم يكفوا عن مهاجمة الائتلاف الثلاثي وصنائعه . وكان في مقدمتهم الاديبان الموهوبان كالفوس (C. Calvus) الذي لم يكن شاعرا فحسب بل خطيبا أيضا وزعيم مدرسة « الأسلوب الأتيكي » ، وهو أسلوب سهل ممتنع يمتاز بالايجاز والوضوح ، والآخر هو صديقه كاتوللوس (C. Catullus) الشاعر الغزلي الكبير وعشيق لسبيا (راجع ٢٠٨ هامش ٢) . وقد كتب الاول عدة خطب لاذعة تند فيها بفاتينيوس مطية قيصر . ومع انه لم يستطع ادانته الا أن خطبه كان لها وقع كبير في نفوس الناس . ومن المؤسف أن أشعاره التي هجا فيها بومبي وقيصر ضاع معظمها . غير أن القصائد التي نظمها كاتوللوس وصلتنا كاملة . وكان كاتوللوس ابن احد وجهاء فيرونا (Verona) ، وهي احدى المدن الرئيسية في غالة القريبة . وقد هجا هذا الشاعر الغنائي الذي اشتهر شعره بالرقة والرشاقة والجمال ، هجا قيصر هجاء مقذعا فاحشا ، ولم يسلم من لسانه رجال قيصر ، فهجا فاتينيوس وربما لابينوس (راجع ص ١٨٨) ومامورا (C. Mamurra) ، رئيس المهندسين (praefectus fabrum) في جيش قيصر ، الذي جمع أو نهب ثروة طائلة في بلاد الغال ، واشتهر بالبذخ المفرط والاستهتار الشديد . ومع هذا فقد استطاع قيصر في النهاية أن يستميل الشاعرين الى جانبه بلباقته ودماثته . ولكن القدر لم يمهل كاتوللوس حتى ينعم بهذه الصداقة الجديدة فمات وهو شاب في سن الثلاثين (٨٤ — ٥٤) راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ، ص ٤٩ — ٥١ .

وأما المرشحان اللذان تواطأ معهما قنصلا عام ٥٤ على تزوير الانتخابات من أجلهما ، فهما دوميتيوس كالفينوس (Cn. Domitius Calvinus) وجايوس مميوس (C. Memmius)

وكان الأخير هو الذي أفشى — لسبب لا نعرفه — سر الاتفاقية المخزية أمام السناتو في أوائل سبتمبر من سنة ٥٤ . ومع هذا انتخب الأول قنصلا ولكنه لم يتقلد منصبه بسبب الفوضى والاضطرابات الا في يوليو من عام ٥٣ وظل يشغله حتى نهاية ذلك العام . وكان قد بدأ حياته السياسية كخصم لقيصر وعارض وهو تريبيون في عام ٥٩ مشروعه الاول الخاص بتوزيع الاراضي على جنود بومبي . وقد انحاز في آخر الامر الى قيصر بعد مؤتمر لوكا وقاتل الى جانبه في الحرب الأهلية . وأما مميوس الذي تزوج فاوستا (Fausta) ، ابنة الدكتاتور سلا الخليعة المستهترة (والتي تزوجها من بعده ميلو) ، فقد تولى البريتورية في عام ٥٨ وكتب خطبا لاذعة طعن بها في دستورية تشريعات قيصر ، ثم عين حاكما على ولاية بثونيا وبنطوس في عام ٥٧ . وقد رافقه في رحلته الشاعر كاتوللوس الذي ذهب لزيارة قبر أخيه في منطقة طروادة . واهدى اليه لوكريتوس (T. Lucretius Carus) الشاعر الفيلسوف الكبير ، قصيدته الطويلة في طبيعة الاشياء de Rerum Natura (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » ص ٤٦) . وقد استطاع قيصر أن يستميل مميوس أيضا الى جانبه بعد مؤتمر لوكا .

الدولة دون قنصلين حتى شهر يوليو من عام ٥٣ . وقد أثار هذا الشغب كل من كلوديوس وميلو عندما رشح الأول نفسه للبريتورية ورشح الثانى نفسه للقنصلية فى ذلك العام . وكان ميلو كبير الأمل فى النجاح لأن السناتو كان يشد أزره .

ويبدو أن پومپى خشى أن يؤدى فوز ميلو بالقنصلية الى تعزيز مركز السناتو فرأى أن يتخلى عنه ويتعاون مع كلوديوس ، خصمه القديم ، الذى عاد الى الظهور على رأس عصاباته المسلحة ليعكر صفو الأمن ويحول دون اجراء الانتخابات . ولم يقف ميلو مكتوف اليدين فاستعان هو الآخر بعصاباته ، واحتدمت المعارك فى شوارع العاصمة وتعذر انعقاد الجمعية المئوية ، ولم يدر السناتو ماذا يفعل ، وبلغ من سوء الحالة أن أقبل عام ٥٢ دون أن يتم انتخاب كبار الحكام مثلما حدث فى مستهل العام السابق . وكان فى وسع پومپى أن يعيد الأمن الى نصابه ، ولكنه ترك الحالة تتدهور حتى يضطر السناتو الى منحه سلطات استثنائية جديدة . وحدث فى يناير من نفس العام أن نشبت معركة بين أتباع ميلو وأتباع كلوديوس على طريق أپيوس (Via Appia) وانجلت عن مقتل كلوديوس . وما كاد نبأ مصرعه يسرى فى العاصمة حتى نزلت عصاباته الى الشوارع تعيث فسادا ونهبا وتقتيلا ، ونقلت جثته أولا الى منصة الخطابة (Rostra) وبعدئذ الى دار السناتو (Curia) التى أضرمت فيها النيران . ولم يعد فى وسع السناتو أن يسكت فأصدر « قراره النهائى » ، ودعا الحاكم المؤقت (interrex) ونقباء العامة والپروقنصل لانقاذ الموقف . وتخلى پومپى عن تردده المعهود وحشد قواته وتأهب لدخول المدينة . وعندئذ اقترح بيبولوس نفسه ، وهو من أشد أعضاء الحزب الارستقراطى تمسكا بنصوص الدستور ، انتخاب پومپى وحده قنصلا . وأيد كاتو الاقتراح . ولم يشأ السناتو أن يعينه دكتاتورا فأخذ برأى بيبولوس وأوصى الجمعية

بانتخابه وحده قنصلا على أن يختار هو زميلا له اذا شاء . وأسندت اليه مهمة اعادة النظام واستئصال الفساد واصلاح شئون الدولة . وسرعان ما دخلت قواته المدينة وفرقت المظاهرات وقضت على الفوضى والشغب واستتب الأمن وساد النظام . وبمقتضى السلطات الاستثنائية التى خولت له استصدر پومپى قانونين صارمين أحدهما بأثر رجعى يسرى من عام ٧٠ لتشديد عقوبة الرشوة (de ambitu) والآخر لتشديد عقوبة الاخلال بالأمن (de vi) . وقد شفع هذين القانونين بمواد تنص على تبسيط الاجراءات القضائية لسرعة الفصل فى الدعاوى، فحدد عدد المحلفين الذين اختارهم پومپى من بين ذوى السمعة الحسنة فى الطبقات الثلاث (أعضاء السناتو والفرسان وترابنة الخزانة) ، واختير رؤساء هذه المحاكم (quaesitores) لا من بين البريتوريين ، بل من بين القناصل السابقين . وتقرر الاكتفاء بمحام واحد عن كل متهم ، مع تقصير مدة المرافعة ، والاستغناء عن شهود الأخلاق (laudatores) ، وهى شروط كانت تنذر بوأد حرية الخطابة القضائية . وسرعان ما قدم ميلو — مع فريق من أنصاره — للمحاكمة فى ابريل عام ٥٢ بتهمة استعمال العنف والاخلال بالأمن . ومع أن الحزب الارستقراطى حاول حمايته وتطوع شيشرون للدفاع عنه فان المحكمة أدانته فرحل الى المنفى فى مرسيليا .

لقد بلغ پومپى حينئذ ذروة مجده السياسى فأصبح حتى قبل أن تنقضى عشر سنوات على قنصليته الثانية فى ٥٥ ، قنصلا بمفرده (consul solus) وهو مركز لا يختلف فى واقع الأمر عن مركز الدكتاتور، الذى كان يعين قديما فى وقت الأزمات لانجاز مهمة معينة . ولكنه كان يناقض الدستور وكافة السوابق ومعنى المنصب ذاته . كان مشرفا على تموين روما بالغلال ، وحاكما على ولايتى أسبانيا ، وجمع بذلك بين القنصلية والپروقنصلية فى وقت واحد ، وهو أمر لا تجيزه القوانين.

لقد أصبح هو السلطة الرئيسية فى العاصمة لأن السناتو كان بدونه عاجزا لا حول له . ولعل ذلك هو ما حدا بمعاصريه الى وصفه فى هذه الفترة بالمواطن الأول أو « الرئيس » (Princeps) ، الذى مهد مركزه الطريق لرئاسة أغسطس (Augustus) مؤسس الامبراطورية الرومانية(١). ومع هذا فان پومپى لم يرغب بل لم يفكر فى قلب نظام الحكم الجمهورى، واقتصرت مطامعه على أن يكون هو الرجل الذى لا تستطيع الدولة الاستغناء عنه والدعامة التى ترتكز عليها الحكومة ، مع تمتعه بالسلطات وألقاب الشرف اللائقة بمركزه (٢) . ولم يعد پومپى يحتمـــل وجود منافس ينافسه أو يحرص على مصـــالح قيصر أثناء غيابه . وكان من البديهى أن يدفعه وضعه الجديد الى الانحياز تدريجيا الى معســـكر الارستقراطيين الذين أثار قيصر القلق فى نفوسهم بما أحرزه من جاه ونفوذ وشهرة فباتوا يخشونه كخصم خطير .

النزاع السياسى بين پومپى وقيصر

كان قيصر يدرك وهو فى بلاد الغال أن خصومه يتربصـــون به

(١) راجع :

Edward Meyer, **Caesars Monarchie und das Principat des Pompejus**, Stuttgart und Berlin, 1918 [cf. however, F. E. Adcock, **CAH**, IX (1932), 718 ff.; R. Syme, **The Roman Revolution** (1939), Ch. IV; Id. **JRS** (1944), 99 ff.; H. Last, **JRS** (1944), 119 ff.]

(٢) راجع ص ١٦٩ هامش ٢ . ولم يشأ پومپى أن يحتفظ بالقنصلية وحده حتى آخر العام فعمل على انتخاب زميـــل له شاركه المنصب فى الشهور الخمسة الأخيرة من السنة (٥٢) . وقــد وقع اختياره على ميتيللوس اسكيپيو نازيـــكا (راجـــع ص ٢٠٧) الذى كان قد رشح نفسه للقنصلية فى أواخر عام ٥٣ ، ولــكن الانتخابات لم تتم بسبب الفوضى والاضطرابات . وقد اتهم بالرشوة ولكن پومپى استخدم نفوذه لتبرئته من التهمة . وتزوج پومپى ابنته كورنيليا Cornelia (أرملة كراسوس الاصـــغر) . واستصدر ميتيللوس اسكيپيو قانونا يقضى بارجاع السلطة الكاملة « للرقيبين » فيما يتعلق بحذف أسماء مرتكبى المخالفات أو ذوى السمعة السيئة من قائمة أعضاء السناتو ، وهى سلطة كان نقيب العامة كلوديوس قد قيدها فى عام ٥٨ بأن جعل استبعاد العضو غير جائز الا اذا وجهت اليه تهمة علنية محددة واتفق « الرقيبان » على ادانته .

الدوائر . فقد بلغ مكانة أوغرت صدورهم منه . وأيقن أن زعماء الحزب الأرستقراطي سوف يكيلون له التهم جزافا بمجرد تنحيه عن سلطة الامبريوم ولذلك حرص على ألا يضع نفسه تحت رحمتهم، ووضع نصب عينيه أن يفوز بالقنصلية للمرة الثانية وهو في بلاد الغال بعد انتهاء مدة قيادته مباشرة . ولذلك أوحى الى نقباء عام ٥٢ باستصدار قانون — يعرف باسم قانون النقباء العشرة (lex Decem Tribunorum) — يجيز له أن يرشح نفسه للقنصلية وهو متغيب عن روما (in absentia) . وقد فهم قيصر من هذا القانون أنه يطيل ضمنا مدة قيادته الى ما بعد انتخابات عام ٥٠ . غير أن قانون ڤيلليوس (lex Villia annalis) (١) لم يكن — على مايرجح — يسمح له بأن يتولى القنصلية مرة ثانية إلا بعد انقضاء عشر سنوات منذ نهاية قنصليته الأولى ، أي في أول يناير من عام ٤٨ . ولما كانت فترة قيادته في بلاد الغال تنتهي في أول مارس من عام ٥٠ (٢) ، فقد كان عليه أن

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٦ — ٨٧ وعن هذا القانون ، انظر الآن :
A. E. Astin, "The Lex Annalis before Sulla," **Collection Latomus** 32 (Bruxelles 1958).

(٢) راجع ص ٢٠٩ . وفي رأي آخر أن قيادته كانت تنتهي في أول مارس ٤٩ . وهذا الخلاف يرجع الى عدم الاتفاق حول بداية مدة قيادة قيصر الثانية في بلاد الغال وهي خمس سنوات (quinquennium) وهل كانت تبدأ من حيث تنتهي مدة قيادته الأولى أي من أول مارس ٤٩ كما يعتقد المؤرخ Mommsen أم كانت تبدأ منذ صدور قانون پومپي وليكنيوس في أوائل عام ٥٥ (راجع ص ٢١١) وتستمر حتى عام ٥٠ (في أول مارس كما يعتقد الاستاذ Marsh أو ١٣ نوفمبر كما يعتقد الاستاذ Adcock أو في يوم يقع بين أول أغسطس وأول اكتوبر كما يعتقد الاستاذ Stevens) . وقد ظل رأي مومسن سائدا فترة طويلة ، غير أن معظم الباحثين يميلون الآن الى الرأي الذي اخذنا به استنادا الى ما ورد من قرائن لدى بعض المؤرخين مثل كاسيوس ديو وأپيانوس وشيشرون ومع هذا فقد ظهر منذ سنوات بحث جديد يؤيد رأي مومسن . انظر :
G. R. Elton, "The Terminal Date of Caesar's Gallic Proconsulate" **J.R.S.** 36 (1946), 18-42.

وعن هذا الموضوع ، انظر أيضا المصادر والمراجع الآتية :
Cicero, ad fam. III, 8, 4-9; 11, 3; **ad Att.** VII, 7, 6; 9, 3.

=

يتنحى عن سلطته البروقنصلية ويعود الى روما كمواطن عادى مجرد من الحصانة ثم يرشح نفسه فى انتخابات منتصف عام ٤٩ قنصلا لعام ٤٨ . ولكن هذا الوضع كان يجعله عرضة لهجمات خصومه . لذلك حاول أن يسد الثغرة بين هذين التاريخين (مارس ٥٠ ، يناير ٤٨) بأن يحتفظ خلالها بالامپريوم ، إما باطالة مدة قيادته فى بلاد الغال الى مابعد يوم انتهائها القانونى (legis dies) ، أو بالتعجيل بترشيح نفسه غيابيا فى عام ٥٠ ليتولى منصب القنصلية فى أول ٤٩ ، أى قبل الميعاد القانونى بسنة واحدة . وكانت حجته فى المطالبة بترشيح نفسه قبل الميعاد هى أن قنصلية پومپى الثالثة فى عام ٥٢ كانت هى الأخرى انتهاكا لقانون ڤيلليوس . وكان قيصر كبير الأمل فى أن حكم بلاد الغال سوف يسند اليه فى أول يناير من عام ٤٨ بعد انتهاء مدة قنصليته فى ٤٩ . وقد بنى أمله على قانون سمپرونيوس الخاص بالولايات القنصلية (١) . ولما كان هذا القانون ينص على تعيين أسماء الولايات المزمع اسنادها الى القنصلين قبل ظهور نتيجة الانتخابات ، وكانت مسألة تعيين خلف لقيصر لا تجوز اثارتها قبل أول مارس من عام ٥٠ (٢) ، فلم يكن من

=

F. B. Marsh, **The Founding of the Roman Empire** (1927), 275 ff.
F. E. Adcock, **Class. Quart.** (1932), 14 ff.
C. E. Stevens, **AJP** (1938), 169 ff.
R. Sealey, **Class. et Mediaev.** (1957), 75 ff.
P. J. Cuff, **Historia** (1958), 445 ff.

(١) lex Sempronia de provinciis consularibus وهو القانون الذى استصدره جايوس (سمپرونيوس) جراكوس فى عام ١٢٢ (راجع ص ٣١) .

(٢) راجع ص ٢٠٩ . غير ان الرأى يتجه الآن الى ان قانون پومپى وليكينيوس لم يتضمن شرطا (sanctio) بهذا المعنى لأن المسألة اثيرت اكثر من مرة قبل ذلك التاريخ (راجع ص ٢١١ وهامش ٢) . ومع هذا فلا يستبعد انه كان أمرا متفقا عليه فى مؤتمر لوكا عام ٥٦ طالما توترت العلاقة بين پومپى وقيصر وبدأ خصوم الأخير يثيرون مسألة استدعائه من =

المستطاع اسناد حكم أى ولاية فى بلاد الغال لقنصلى عام ٥٠ ، لأن السناتو يكون قد عين لكل منهما ولايته قبل ظهور نتيجة انتخابهما فى عام ٥١ .

لكن اذا كان قيصر قد عقد أمله على اطالة مدة قيادته فى بلاد الغال بهذه الطريقة ، فقد خيب پومپى أمله باصدار قانونين فى عام ٥٢ ، ينص أحدهما على منع الغـائبين عن روما من ترشيح أنفسـهم للمناصب (lex de iure magistratuum) . وكان هذا معناه حرمان قيصر من الامتيـاز أو الاستثناء (privilegium) (١) الذى اكتسـبه مؤخرا بمقتضى قانون النقباء العشرة . ولذلك اعترض أنصاره عليه اعتراضا شديدا مما اضطر پومپى الى الاعتذار بأن ما حدث كان سهوا وأنه لم يتعمد الغاء امتياز قيصر ، وأضاف بخط يده الى القانون بعد صدوره مادة تستثنى قيصر من أثره . ومن العسير أن تقطع بحسن نية پومپى الذى لم يكن قد جاهر بعد بعدائه ليقصر ، أو أن تقطع بأن تعـديل القانون بعد صدوره لم يكن اجراء باطلا عرضة للطعن . وأما القانون الآخر (lex Pompeia de provinciis) فينص على أن يكون اختيار حكام الولايات ، لا من بين القناصـل والپريتوريين بعـد انتهاء مدة خدمتهم السنوية مباشرة ، بل من بين القناصـل والپريتوريين الذين

الغال فى أوائل عام ٥١ اتصل قيصر بپومپى شخصيا أو عن طريق مندوب عنه فى اغسطس أو سبتمبر من نفس العام وذكره بوعده القديم فى لوكا بألا تناقش مسألة تعيين خلف له فى بلاد الغال قبل أول مارس من عام ٥٠ ، راجع :
J.P.V.D. Balsdon, JRS 29 (1939), 57 ff.

(١) ومعناها اعفاء شخص من اثر قانون معين وذلك بمقتضى قرار من السناتو . وكان كورنيليوس (C. Cornelius) احد نقباء نقباء سنة ٦٨ قد اقترح — دون جدوى — مشروعا بجعل الاعفاء من حق الجمعية الشعبية وأخيرا ووفق على الاقتراح بعد تعديله وذلك بأن يمنح السناتو الاعفاء بشرط الا يقل عدد الحاضرين فى الجلسة عن ٢٠٠ عضو (راجع ص ١٤٣) .

مضت على الاول خمس سنوات على اعتزالهم المنصب (١) . وكان ذلك

---

(١) ان بومبى ، الذى وضع القانون استثنى نفسه من اثره ، فكانه — على حد قول المؤرخ تاكيتوس Annal. III. 28 — كان هادما لقوانين انشأها هو نفسه : (suarum legum auctor idem ac subversor) . وبمقتضى هذا القانون عين بعض القناصل السابقين ، ممن لم تسبق لهم الخدمة فى الخارج ، حكاما على الولايات وكان من بينهم بيبولوس (الذى عين حاكما على سوريا) واهينوباربوس (الذى عين على غالة البعيدة ولكنه لم يتقلد منصبه) وشيشرون الذى عين حاكما على ولاية كيليكيا بآسيا الصغرى (راجع ص ١٥٥ هامش ١) . وقد ضرب المثل فى العدالة والنزاهة واحرز بعض الانتصارات وحياه الجنود بلقب امبراطور (imperator) وكان يطمع فى ان يقرر له السناتو موكبا احتفالا بانتصاره (triumphus) ، ولكن هذا اللقب ؟ راجع ص ١٠ .

وجدير بالذكر انه اتم قبل رحيله الى الولاية فى شهر مايو من عام ٥١ كتابة بحثيه « فى الدولة » (de Re Publica) « وفى القوانين » (de Legibus) اللذين بدأهما فى صيف عام ٥٤ (راجع ص ٢٢٠ هامش) وعرض فيهما برنامجا سياسيا لانتشال الدولة من التدهور . وكان بومبى قد غادر روما الى الريف الايطالى تاركا السيطرة على السناتو فى يد الارستقراطيين الذين شعروا بحرية لم يشعروا بها منذ سنوات . وقد شاطرهم شيشرون هذا الشعور . وكان شيشرون قبل رحيل بومبى عن العاصمة قد قام لاول مرة ، منذ قضية فريس ، بدور المدعى فى قضية كان المتهم فيها احد مرابئة عام ٥١ الموالين لبومبى وقد ادى ذلك الى مشاجرة هو والقائد الكبير مما اثلج صدر الارستقراطيين الذين قابلوا الخطيب الكبير بصيحات الاستحسان . واحس شيشرون انهم ينظرون اليه ثانية على انه واحد منهم . ولعل هذه الحرية هى التى حمسته على ان ينشر بحثه او حواره من « الدولة » بعد ان عكف عليه ثلاث سنوات ليملأ فراغه ويسلى نفسه فى محنته ويتخلص من شعوره بالذلة والمهانة . وقد خطر له أولا ان يجعل الحوار يدور فى زمنه على ان يقوم هو نفسه بالدور الرئيسى فيه ، ولكنه ادرك انه قد اصبح بعد رضوخه للائتلاف الثلاثى رجلا مجرحا ، فعدل عن الفكرة وآثر ان يدع اسكيبيو ايميليانوس Scipio Aemilianus (راجع ص ١٧) يدير الحوار ، وعاد بتاريخه الى بداية عصر الثورة عقب مصرع تيبريوس جراكوس ، وهو ايضا عصر كانت الدولة فيه متدهورة تحتاج الى الاحياء والاصلاح . راجع : H. H. Scullard, "Scipio Aemilianus and Roman Politics," JRS 50 [1960], 59-74.

وفى هذا البحث الذى يخرج فيه الى محاكاة « جمهورية » افلاطون يتناول شيشرون الدستور المثالى والحاكم المثالى . وهو لا يدعو الى دستور مثالى فى دولة وهمية لم تقم يوما ما بين البشر (Utopia) ، بل الى الدستور الذى تركه السلف ، دستور العصر السابق لتيبريوس جراكوس ، الذى اثار اعجاب المؤرخ بوليبيوس Polybius (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ص ٥٧ — ٥٨) لانه يجمع بين افضل عناصر الملكية والارستقراطية والديمقراطية . ويتحدث على لسان اسكيبيو ايميليانوس ما بين هذه النظم الثلاثة من توازن يتمثل فى الدستور الرومانى بين القنصلين والسناتو والشعب ، او بالاحرى بين

=

يعنى فى حقيقة الأمر ابطـال قانون سمپرونيـوس الخاص بالولايات القنصلية الذى عقد قيصر أمله عليه ، لأن القـانون الجديد كان يجيز

=

الـ potestas consularis (=imperium) والـ auctoritas (patrum) والـ libertas (اى بين السلطة القنصلية وهيئة السناتو والحرية) ويدع شيشرون رجلا حكيما آخر من المحافظين وهو لايليوس (C. Laelius) — صـديق اسكيپيو ورفيقه فى حملته التى دمر فيهـا قرطاجنة فى الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦ وقنصل عام ١٤٠ وعضو « حلقـة اسكيپيو الادبية » واحد اتباع المدرسة الرواقية — يدعه يعقب على ذلك فيقول انه لاستمرار هذا التوازن لابد من وجود رجل واحـد يرعاه ويحميه ، وهـو المواطن الاول فى الدولة (princeps) . وقد جاء على شيشرون وقت كان يامل فيه ان يكون « الوئام بين الطبقتين » (Concordia Ordinum) او « إجماع رأى كل العناصر الفاضلة » consensus omnium bonorum فى الدولة (راجع ص ١٥٣ — ١٥٤) ، هـو الاداة لحفظ هـذا التوازن . لكن يبدو انه تخلى عن هذا الرأى واخذ يتطلع الى رجل واحد يطلق عليه لقب rector rei publicae او moderator او gubernator ، اى مرشد سفينة الدولة ومنظم شئونها وحاكمهـا المصلح . وفى رأى بعض المؤرخين ان پومپى هو الرجل الذى كان يجول بخاطر شيشرون . كان شيشرون — كما ذكرنا — قد بدأ كتابة هذا البحث فى صيف عام ٥٤ ولكنه لم ينهه الا قبيل رحيله الى كيليكيا فى صيف عام ٥١ ، وفى خـلال تلك الفترة تغير رأيه فى پومپى بعد أن بدر منـه ما خيب أمله فيه . فقد التجأ الى القـوة لاعادة النظام واستعمل العنف فى الانتخابات (انظر ص ٢١٠) ولم يعد فى نظر الخطيب الكبير أهلا لان يكون هو الزعيم الذى يسوس أمور الدولة بالحكمة . فليس فى معنى كلمـة moderator — كما فهمها شيشرون — ما يوحى بانه حاكم مزود بالسلطة العسكرية بل هو سياسى وفيلسوف . فمن هـو اذن ذلك الحاكم المثالى الذى دار بخلد شيشرون ؟ أهو شيشرون نفسه أم كاتو أم رجل الحكم المثالى على الاطلاق ؟

ولا مراء فى أن مقترحات شيشرون لاصلاح الدولة والتى بسطها فى بحثه عن القوانين (de Legibus) بصورة أكثر وضوحا وتحـديدا ، انما تمثل أو تعبر عن الهـدف الاسمى الذى كان يصبو اليه الحزب الارستقراطى تحت زعامة كاتو . فقد ناضـل رجال هذا الحزب نضالا مستمرا للاحتفاظ بالوضع الراهن (status quo) ، غير ان ما كانوا يتوقون اليه هو دستور عصر ما قبل تيبريوس جراكوس ، أو دستور سـلا ، عندما كان السناتو هو صاحب السلطة العليا فى توجيه السياسة العامة . وكان حزب كاتو يوصف او يوصم حينئذ بانه factio اى جمـاعة تمثل الاقلية . واهتمام شيشرون بتحـديد معنى هذه الكلمة امر له مغزاه . فهو يصف الـ factio بانها شرذمة ارستقراطية منحلة فاسـدة تستاثر بسلطة أولجركية ويقارنها بحكومة الطغـاة الثلاثين فى أثينـا (عام ٤٠٤) . ومن المعتقد انه يدافع بلباقة عن الارستقراطيين (Optimates) وينفى عنهم تهمة انهم اولجركية ، ويحثهم فى الوقت نفسه على أن يسلكوا سلوكا قويما ويظهروا بمظهر الارستقراطيين الأصلاء .

ايفاد الحكام الى الولايات فى أى وقت من أوقات السنة . ولعل پومپى كان صادق الرغبة فى اصلاح أداة الحكم فى الولايات لأن قانونه كان يستهدف منع المرشحين للمناصب من اقتراض مبالغ ضخمة على أمل تسديدها من مغانم الولايات التى تسند اليهم عقب انتهـاء خدمتهم السنوية مباشرة . لكن ذلك لا ينفى — برغم اعتراض بعض الباحثين — أن القانون الجـديد كان قصد به أيضـا الاضرار بقيصر لأنه كان يسمح بتعيين حاكم غيره على بلاد الغال بعـد أول مارس من عام ٥٠ مبـاشرة . وعندئذ كان يضـطر الى العودة الى روما ليرشح نفسـه للقنصلية كمواطن عادى لا صفة رسمية له (privatus) مجرد من الحصانة فيكيل له خصومه الاتهامات لمـا مارسـه من أعمال غير دستورية فى قنصليته عام ٥٩ كاستخفافه بحق الاعتراض وانتهاكه حق استطلاع مشيئة الآلهة واستخدامه الرشوة فى الانتخابات ، أو قـد يتعرض لتهمة الابتزاز فى الولايات أو حتى لتهمة الخيانة العظمى . ولم يعد فى وسعه إلا أن يعتمد على أنصـاره من نقباء العـامة لعرقلة أى مشروع يرمى الى تعيين حاكم يخلفه على بلاد الغال ، لأن قانون پومپى الجديد كان — من حسن حظه — على نقيض « قانون سمپرونيوس » لا يمنع من استعمال حق الاعتراض لوقف القرارات الصادرة طبقا له(١) . ومع هذا فقد تحرج مركز قيصر وتهدده الخطر بينما وطد پومپى مركزه وأمّن مستقبله باستصدار قرار من السناتو باطالة مدة قيادته فى ولايتى أسبانيا أربع أو خمس سنوات أخرى .

وقد أصبحت مسألة تنحية قيصر عن قيادته الپروقنصلية واستدعائه من بلاد الغال محور الصراع فى حلبة السياسية الرومانية طوال السنتين التاليتين (٥١ — ٥٠) . وكان الفشل فى ايجاد حل وسط للنزاع الذى ثار حولها هو السبب المباشر فى نشوب الحرب الأهلية من جديد . فقد

---

(١) راجع ما . . . : ٩٠٤ .

أدرك قيصر بعد اخماد الثورات فى بلاد الغـال عام ٥١ (١) أن تدعيم فتوحاته يتطلب بقاءه هناك سنة أخرى أو سنتين . ولذلك عدل — فيما يبدو — عن ترشيح نفسه للقنصلية فى عام ٥٠ وطالب باطالة مدة قيادته حتى نهاية عام ٤٩ . وقد قصد بذلك أن يرشح نفســه وهو غائب فى انتخابات عام ٤٩ دون أن يتنازل عن سلطته البروقنصلية . فاذا ما فاز فيها عاد الى روما فى أول يناير من عام ٤٨ ليتولى القنصلية فلا يستطيع أعداؤه توجيه الاتهامات له وهو متمتع بحصانة المنصب . ومن المرجح أنه استند فى دعواه الى أن « قانون النقباء العشرة » الذى أعفاه من الحضور شخصيا لترشيح نفسه كان يعنى ضمنا تمديد قيـادته فى بلاد الغال الى ما بعد موعد انتهائها القانونى . وسواء أكان هذا اليوم هو أول مارس من عام ٥٠ كما يعتقد بعض الباحثين أم أول مارس من عام ٤٩ كمـا يعتقـد البعض الآخـر (٢) ، فالمشـكلة القـانونية (Rechtsfrage) لم تحتــدم اذن حول ميعاد انتهاء قيادة قيصر فى بلاد الغال بل حول اصراره على التمسك بالسلطة البروقنصلية والاحتفاظ بجيشه أثناء ترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب فى عام ٥٠ (٣) ، حتى يتجنب الحضور الى روما كفرد عادى فى الفترة ما بين أول مارس من عام ٥٠ وأول يناير من عام ٤٩ (٤) عندما يتقلد رسميا منصب القنصلية. غير أن القـانون الجديد الذى أصدره پومپى ونســخ به قانون سمپرونيوس الخاص بالولايات القنصلية قضى على أمل قيصر فى اطالة مدة حكمه قضاء مبرما لأنه — كما أشرنا — كان يسمح بتعيين حاكم غيره على بلاد الغال بعد أول مارس مبـاشرة . كما أصبح الاستثناء

---

(١) راجع ص ١٩٤ .

(٢) راجع ص ٢٢٥ هامش٢ . ويفهم من كلام قيصر (Bellum Civile 1, 9, 2) ان الاستثناء (privilegium) الذى منحه اياه قانون النقباء العشرة كان لعام ٤٩ . ولكن هذا لا يخفى انه كان ينوى فى الاصل ترشيح نفسه فى عام ٥٠ .

(٣) او فى عام ٤٩ بعد ان عدل عن رأيه كما يعتقد بعض الباحثين .

(٤) او بين أول مارس ٤٩ وأول يناير ٤٨ وفقا لرأى البعض الآخر .

الذى ظفر به لترشيح نفسه وهو غائب عديم القيمة . وحدث ما كان يخشاه فبدأ خصومه يثيرون مسألة تعيين خلف له منـذ عام ٥١ حتى لا يدّعوه يستفيد من الامتياز الذى حصل عليه بمقتضى قانون النقباء العشرة . وتقدم القنصل ماركوس ماركللوس (M. Claudius Marcellus) فى شـهر أبريل من عام ٥١ باقتراح إلى السناتو يفيـد ذلك بدعوى أن الحرب قد انتهت فى بلاد الغال . غير أن زميله القنصل وبعض نقباء العامة اعترضوا عليه . ولم يؤيد پومپى نفسه الاقتراح اما بسبب تردده أو عزوفه عن مجاهرة قيصر بالعداء . ولما تقدم ماركوس ماركللوس بنفس الاقتراح فى شـهر سبتمبر رفض پومپى تأييده للمرة الثانية قائلا انه متمسك بحرفية القانون وغير مستعد لاثارة المسألة حتى يحل اليوم الأول من مارس عام ٥٠ . وأصدر السناتو فى اليوم الأخير من سبتمبر قرارا بمناقشة موضوع القيادة فى بلاد الغال فى أول جلسة يعقدها بعد نهاية شهر فبراير من العام التالى . لكن بعض نقباء العامة اعترضوا على هذا القرار .

وفى انتخابات التريبونية لسنة ٥٠ كان معظم الفائزين من أنصـار قيصر . وحدث أن أدين واحد منهم بالرشوة فألغى انتخابه وفاز بمكانه شـاب يدعى كوريو (C. Scribonius Curio) (٢) . وكان كوريو قد دخل المعركة الانتخابية على أنه من أنصار الحزب الأرستقراطى ولكنه سرعان ما خذله وانحاز الى قيصر عندما اشترى الأخير ذمته بتأدية جميع ديونه . وقد أثبت هذا النقيب ــ الذى قال عنه شاعر انه يتحوله

---

(١) بلغ من عداوة هذا القنصل لقيصر انه أمر بجلد رجل من مستعمرة Novum Comum الجديدة بغالة الواقعة عبر نهر البو ليعرب عن عدم اعترافه بحق الجنسية الرومانية التى منحه قيصر لسكان تلك المنطقة .

(٢) راجـع ص ١٧٧ هامش ٢ وكان أبوه جايوس كوريو C. Curio (راجع ص ٢٢١ هامش) خصما لدودا لقيصر حتى أنه نشر فى عام ٥٥ عدة خطب لاذعة نسب اليه فيها تهما كثيرة بقصد التشهير به والدعاية ضده .

من الحزب الارستقراطى الى جانب قيصر قد حول مجرى التاريخ — (١)
أنه خطيب مفـوه وسياسى بارع خبير بأسـاليب الدعاية والمناورات
الحزبية . وتقدم بوصفه « ديمقراطيا » بعدة مشروعات شعبية كتوزيع
قطائع زراعية على الفقراء وبيع الغلال لهم بأسعار زهيدة . كما أثبت
أنه أقوى أعوان قيصر فاستطاع أن يحبط جميع المحاولات التى بذلها
خصومه خلال عام ٥٠ لتنحيته عن القيادة فى بلاد الغال . وحل اليوم
الأول من مارس دون أن يستطيع السناتو تعيين حاكم بدلا منه بسبب
اعتراض ذلك النقيب الذى راح يزعم أنه جمهورى مخلص لا يستهدف
سوى تحرير السناتو من شعوره بالخوف من القوة العسكرية . وكان
من رأيه أن الدولة ستكون تحت رحمة پومپى اذا بقى فى ايطاليا على
رأس جيشه وسرح قيصر جيشـه ، وستكون تحت رحمـة قيصر اذا
احتفظ بسلطته البروقنصلية وتخلى پومپى عنها . فلا سبيل اذن الى
حل المشكلة أو الخروج من المأزق إلا اذا استرد السناتو السيطرة الفعلية .
ولتحقيـق ذلك ينبغى أن يتنحى كل من پومپى وقيصر عن قيـادته
الاستثنائية فى وقت واحد . وبذلك وضع پومپى فى مركز حرج لأنه لم
يكن فى وسـعه أن يقبل اقتراحا يفرض عليه أن يتخلى عن سـلطته
البروقنصلية دون أن يستوثق من أن قيصر سيقتدى به ، ولا كان فى
وسعه أن يجاهر برفض هذا الحل الوسط الذى أبدى كثير من أعضاء
السناتو استعدادهم لقبوله اذ كان هناك بين النبلاء والفرسان كثيرون
كشيشرون لا يخشون قيصر بقدر ما يخشون الحرب الأهلية ، وكانوا
على استعداد ليفعلوا أى شىء فى سبيل تجنبها . كما أن ظهور كوريو
بمظهر المواطن المحايد الغيـور على المصلحة القومية كان يسـتهوى
جمهور العامة .

---

(١) Lucanus, Pharsalia IV, 819-820

وعن هذا الشـاعر لوكانوس وملحمته « فرساليا » أو « الحرب الأهلية » ، راجع
كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص٥٢ — ٥٤ .

وفى اليوم الأول من ديسمبر عام ٥٠ أحبط كوريو فى السناتو مناورة قام بها القنصل جايوس ماركللوس (C. Claudius Marcellus) [1] لتعيين حاكم على بلاد الغال بدلا من قيصر . وأصر كوريو على أن يقترع المجلس على اقتراحه بأن يتنحى كل من پومپى وقيصر عن القيادة الاستثنائية ويسرح قواته . وأقر السناتو الاقتراح بأغلبية ساحقة (٣٧٠ ضد ٢٢ صوتا) . وأسقط فى يد القنصل فشهر سلاح « النقض » وأبطل القرار بعد صدوره ناعيا على السناتو رضوخه لقيصر . وفى تلك الآونة تواترت شائعة بأن قيصر قد شرع فى الزحف إلى روما فساد الهلع أنحاء المدينة . واستغل ماركللوس الفرصة هو وفريق المتطرفين فى الحزب الارستقراطى وقاموا بمحاولة أخيرة لارغام السناتو على أن يقف من قيصر موقفا حازما ويتخذ ضده اجراء حاسما. وكان قيصر قد أرسل الى ايطاليا فى بداية ذلك العام فرقتين من جيشه ، احداهما كان پومپى قد أعارها له عندما كان على وفاق معه ، والأخرى طلبها منه السناتو لاستخدامها هى والفرقة الثانية فى الحرب ضد البارثيين . لكن الموقف تحسن فى الشرق فظلت الفرقتان مرابطتين عند كاپوا تحت تصرف پومپى . واقترح ماركللوس اسناد قيادتهما الى پومپى ليتولى الدفاع عن ايطاليا . ولم يقف كوريو مكتوف اليدين فكذب الشائعة واعترض على اقتراح القنصل وأفسد عليه خطته . وعندئذ أعلن ماركللوس أنه سيأخذ على عاتقه مسئولية حماية الدولة ، وذهب مع القنصلين المرشحين للعام التالى وقابلوا پومپى خارج المدينة وناشدوه أن يتولى قيادة الفرقتين ويحشد قوات جديدة ، وفوضوه مهمة الدفاع عن الجمهورية ضد قيصر . ومع أن هذا التفويض — وهو بمثابة اعلان الحرب — لم يكن له سند دستورى لأن السناتو لم يقره الا أن پومپى قبله واستجاب له . وقد نلتمس له العذر

---

(١) وهو ابن عم ماركوس ماركللوس قنصل العام السابق (٥١) الذى نادى بانهاء مدة قيادة قيصر فى بلاد الغال (انظر ص ٢٣٢) .

لأنه لو رفضه لوضع نفسه تحت رحمة أنصار مهادنة قيصر فى السناتو الذين كانوا يؤثرون الاستسلام على القتال . لكن پومپى بانسياقه وراء فريق المتطرفين فى السناتو ، وهم أقلية ، بدا كأنه هو البادىء بالعدوان وأتاح لخصمه فرصة التنديد به وتحميله وزر الحرب الأهلية. ولم يدع قيصر الفرصة تفلت من يديه فسعى الى توريطه فى الخطأ لالقاء التبعة عليه . ولذلك أعلن عن استعداده للامتثال لقرار السناتو لو حذا پومپى حذوه . ثم ذهب الى أبعد من ذلك فأعلن عن استعداده لقبول أى حل وسط اذا تعذر تنفيذ قرار السناتو من جراء رفض پومپى التنحى عن قيادته . ولو كان السناتو يملك حينئذ حرية التصرف لرحَّب بهذا الاقتراح ، ولكنه كان مغلول اليدين مسلوب الارادة اذ طوَّقت قوات پومپى أسوار المدينة ، وسيطرت أقلية متطرفة فى الحزب الارستقراطى على المجلس سيطرة تامة . واضطر السناتو تحت الضغط الشديد أن يوافق فى اليوم الأول من يناير عام ٤٩ على اقتراح تقدم به ميتيللوس اسكيپيو (ناسيكا) بأن يتنحى قيصر عن قيادته فى بلاد الغال ويسرح جيشه فى يوم معين . فإذا لم يمتثل القرارَ يُعَدّ خارجا على القانون خائنا للوطن (١) . لكن ماركوس أنطونيوس (M. Antonius) الذى انتخب نقيبا لعام ٤٩ (٢) ، اعترض هو وزميله كاسيوس (Q. Cassius) على هذا القرار . وعندئذ تملك الغضب فريق المحافظين فى السناتو فطردوا النقيبين من المجلس وأنذروهما بالموت . ولكى يبطل السناتو حق النقباء فى الاعتراض أصدر فى يوم ٧ يناير من

(١) Caesar, Bell. Civ. 1, 2, 6: uti ante certam diem Caesar exercitum dimittat; si non faciat eum adversus rem publicam facturum videri.

(٢) خدم ماركوس انطونيوس فى جيش جابينيوس ، حاكم سوريا ، كقائد للفرسان بين عامى ٥٧ ، ٥٥ (راجع ص ٢١٤ هامش ٢). وبعد عودته الى روما انتخب كويستورا لعام ٥٢ وخدم فى جيش قيصر ببلاد الغال ، ثم عاد الى روما فى عام ٥٠ حيث انتخب عرافا (augur) وبعدئذ فاز بمنصب نقيب لسنة ٤٩ .

عام ٤٩ » قراره النهائى « ودعا القنصلين الجديدين (١) والقناصل السابقين ومن بينهم پومپى لاتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على سلامة الدولة ، وأعلن أن قيصر عدو للوطن . ولم يلبث أنصاره من أعضاء السناتو ونقباء العامة أن فروا من روما ملتجئين الى معسكره فى غالة القريبة حيث كان يرقب مع جزء من جيشه تطورات الموقف . فلما بلغه نبأ طرد النقباء وهم ممثلو العامة والمدافعون عن حقوقهم ، وأحاط علما « بالقرار النهائى » الذى اتخذه السناتو ضده ، اختلى بنفسه فترة قصيرة ليتدبر الأمر ، وبعدئذ رد على خصومه بعبور نهر روبيكون (Rubico) ، وهو الحد الفاصل بين غالة القريبة وايطاليا ذاتها . ولم يعد هناك سبيل للتراجع ، فقد بدأت الحرب الأهلية .

---

(١) كان احد هذين القنصلين يدعى ايضا جايوس ماركللوس (C. Claudius Marcellus) وهو غير جايوس ماركللوس قنصل عام ٥٠ ، ولكنه يمت له بصلة القرابة . وكلاهما قريب لماركوس ماركللوس قنصل عام ٥١ .

الحرب الأهلية
بين قيصر والسناتو
(٤٩ — ٤٥)

مسئولية اثارة الحرب

رأينا كيف بدأت الحوادث تتوالى بسرعة منذ عام ٥١ حتى انتهت بتلك الأزمة الحادة التى أدت الى قيام الحرب الأهلية . ويُعدُّ قيصر ، من الناحية القانونية الشكلية ، هو المسئول عن اثارة تلك الحرب . ففى عام ٥٩ الذى تولى فيه القنصلية لأول مرة ، انتهك الدستور باستعمال القوة المسلحة لتحقيق أهدافه السياسية . وفى عام ٥٢ طالب باطالة مدة قيادته فى بلاد الغال ، وترشيح نفسه للقنصلية وهو متغيب حتى لا يحضر الى روما مجردا من الحصانة فيتعرض للاتهامات . وكان هذا المطلب يتعارض والدستور ويشكل سابقة غير حميدة . وأخيرا عبر نهر روبيكون فى يناير من عام ٤٩ متخطيا حدود ولايته ، واقتحم أرض الوطن على رأس جيشه ، مرتكبا بذلك جريمة الخيانة العظمى (maiestas) . غير أن مطلبه فى الواقع ، لم يكن شاذا بالقياس الى مطلب بومبى الذى حصل بمقتضاه على اطالة مدة قيادته فى أسبانيا أربع أو خمس سنوات أخرى . كما أن خصومه ، بالحاحهم على بومبى أن يضغط على السناتو بقواته العسكرية ، وضدّهم نقباء العامة عن مزاولة حقهم المشروع فى الاعتراض ، وحرمانهم اياه من امتياز ترشيح نفسه وهو غائب — وهو امتياز حصل عليه بمقتضى قانون أصدره

الشعب — انتهكوا هم الآخرون الدستور الجمهورى الذى زعموا أنهم حُماته .

واذا نظرنا الى المسألة من زاوية أكبر أو درسناها دراسة أعمق ، نتضح لنا أن يوليوس قيصر ليس هو المسئول عن الحرب الأهلية . واذا كان قيصر قد اجتاز الحدود الى ايطاليا على رأس جيشه ، فانه قاد هذا الجيش ضد السناتو الذى أصبح پومپى حليفا له ، بل قاده ، على حد قوله ، ضد شرذمة الارستقراطيين ، هؤلاء الرجال الذين اتحدوا كلهم مرة ضد پومپى ، وبعدئذ ضده وضد پومپى معا ، وأخيرا ضده وحده مستهدفين اداته وهدمه . وعندما انتهت معركة فرسالوس نظر الى ساحتها المليئة بالقتلى من أعدائه وقال « لقد أرادوا ذلك . ولو لم أستعن بالجيش عليهم ، لقضوا على أنا نفسى بالموت برغم ما قمت به من أعمال جليلة » (١) . وتتضمن هذه العبارة خلاصة الموقف كله . فقد كان على قيصر فى عام ٤٩ ، كما كان على سلا فى عام ٨٣ ، أن يختار اما الدفاع عن نفسه أو تسليم نفسه . ولو أنه عاد الى روما وقدم نفسه للمحاكمة ، لما كان هناك شك فى أن المحلفين سيرغمون على اداته . ولم يكن من المعقول أن يسعى الى حتفه بظلفه أو أن يسلم عنقه للجلاد بمحض ارادته . وفضلا عن ذلك ، فان قيصر يؤكد فى رسائله الى السناتو اضطراره الى الدفاع عن كرامته أو هيبته أو مركزه (dignitas) ، تلك الكرامة المرتبطة بكرامة الشعب الذى احتضن هو قضيته . لقد انتقص الأولجركيون من تلك الكرامة عندما جردوه من امتيازه الذى كفله له قانون النقباء العشرة وحاولوا تنحيته عن مركزه . ولما كانت مصلحته هى مصلحة الشعب نفسه فقد زحف بجيشه

(1) Suetonius, Div. Iul. 30 "Hoc voluerunt; tantis rebus gestis Gaius Caesar condemnatus essem, nisi ab exercitu auxilium petissem."

ليحرر نفســه والشعب الرومانى من طغيان شرذمة قليلين (factio paucorum) (١) . ولو أن السناتو كان طليق اليدين فى عام ٤٩ لأصدر قرارا شبه اجماعى بتسوية الخلاف مع قيصر مثلما أصدر فى عام ٥٠ قرارا بأن يتخلى كل من الزعيمين عن قيادته ويسرح جيشه . وعلى ذلك فان أعضاء الحزب الارستقراطى المتطرفين فى السناتو الذين أصروا على استدعاء قيصر فى الحال ، كانوا فى حقيقة الأمر يصرون على اضرام نار الحرب الأهلية . فالخصومة مع قيصر كانت فى نظرهم هدفا أعلى من مصلحة الدولة . ومن العسير أن نحكم على الدور الذى قام به پومپى قبيل نشوب الحرب . فقد أبدى من التردد والتقلب والمراوغة ما أثار حيرة معاصريه أنفسهم . ومع أننا نفتقر الى الدليل الكافى لاتهامه بأنه انحاز الى أعداء قيصر لأسباب شخصية تافهة ، فـانه من العسـير أن نقول انه كان أكثر ولاء للدولة منه لحلفائه السياسيين . ولقــد كانت المحالفة بينه وبينهم محالفة منكرة بالنسبة للطرفين . ذلك أن پومپى ، وقد أكلت الغيرة قلبه فلم يحتمــل أن يرى أحدا كفوا له ، تخلى عن حليف كان هــو نفســه قــد حرضه على انتهــاك الدســتور . وأما الارستقراطيون ، حماة الدستور القديم ، فانهم بمقاومتهم الرجل الذى حسبوه أكبر خطر على الدولة ، قد اعتمدوا على زعيم ، وان تمسك شكلا بالدستور كان يعتبر نفسه فوق كل القوانين . ومن سخرية القدر أن هذا الرجل الذى كان بيده عام ٤٩ أن يحشد الجيوش ويسرحها ، و بيده تبعا لذلك أن يقرر السلم والحرب ، لم يعرف أى طريق ينبغى أن يسلكه ، وانقاد فى النهاية لأسوأ نصحائه (٢) .

(١) Bell. Civ. I. 22. 5 : cf. Res Gestae I. 2: Rempublicam dominatione factionis oppressam in libertatem vindicavi.
M. Cary, A. History of Rome (1949), p. 396

(٢) انظر
Kurt von Fritz, "Pompey's Policy before and after the Outbreak of the Civil War of 49 B.C.", TAPA 73 (1942), 145-180.
=

انسحاب پومپی من ايطاليا

لم يبق أمام قيصر بعد أن أرغمه على القتال فريق المتطرفين فى حزب السناتو الا أن ينتصر أو يهلك . وكان يتفوق على خصومه من نواح

=

ومن بين النصوص الهامة التى تلقى ضوءا باهرا على النزاع الحزبى حينئذ تلك الرسالة التى يرجع الآن أن المؤرخ سللوستيوس Sallustius (راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ١٣ — ١٥ هامش) وجهها الى قيصر فى سنة ٥١ . وهذه الرسالة المسماة « رسالة الى قيصر الشيخ فى اصلاح الدولة » Epistula ad Caesarem Senem de Re Publica، من النوع الذى يعرف فى الأدب اليونانى باسم symbouleutikon وهو ما يسدى فيه الكاتب النصائح لرجل السياسة وتشبه الرسائل البلاغيــة التخيلية (Suasoriae) التى كتبها المؤرخ نفسه . كان سللوستيوس ينتمى الى الحزب الديمقراطى ، ويعتبر من أنصار قيصر . وقد تولى منصب التريبونية فى سنة ٥٢ وحمل على الارستقراطيين فى خطبة حملة شعواء . ويستهل رسالته قائلا : ان اصلاحات پومپی فى العام السابق (٥٢) قد وضعت مقاليد الأمور فى يد الأقلية (factio) ويعنى بها الحزب الارستقراطى (Optimates) ، لذلك يوصى قيصر باجراء عدة اصلاحات مضادة . ويبدأ بالشعب فيصفه بأنه فقير خامل مستعبد ، وعاجز عن أن يقوم بدور فعال فى الشئون العامة . ويقترح لبعثة من رقاده وايقاظ روح الحرية فى صدره ادماج مواطنين جدد فى صفوفه وايفاد كثيرين من المواطنين القدامى والجدد للسكنى سويا فى مستعمرات جديدة . ومن الواضح أنه كان يعنى بذلك منح الجنسية لسكان غالة الواقعة شمال البو . وهو لا ينكر أن قيصر سوف يتهم — كما اتهم نقيب العامة ليڤيوس دروسوس الأصغر (ص ٦٢) — بأنه يحاول اقامة حكم فردى أو استبدادى (regnum) اذا هو توسع فى منح الجنسية الرومانية . ومع هذا فهو يوصيه بانتهاج هذه السياسة طالما ستعود على الدولة وعليه بالخير .

ثم يقترح على قيصر اصلاحا جوهريا آخر وهو اضعاف نفوذ المال بين الشعب ، ويقول ان هناك اجراءين لتحقيق ذلك ، أحدهمــا ادماج أفراد أقل ثراء فى هيئة المحلفين والآخر ازالة الفوارق بين الطبقات الخمس فى الجمعية المئوية وبعبارة أخرى خفض النصاب المــالى اللازم توافره فى المحلفين باختيارهم لا من بين ذوى أعلى نصاب بين الفرسان (الحد الأدنى لنصابهم ٤٠٠,٠٠٠ سسترتيوس) وأعضاء السناتو (الحــد الأدنى لنصــابهم كنصاب الفرسان على الأقل) وترابنة الخزانة (الحد الأدنى لنصابهم ٣٠٠,٠٠٠ سسترتيوس) ، بل من جميع أفراد الطبقة الأولى فى الجمعيــة المئوية (الحد الأدنى ٥٠,٠٠٠ أو ١٠٠,٠٠٠ سسترتيوس) . وبديهى أنهما اجراءان موجهان ضد محاكم المحلفين والجمعية المئوية ، وهمــا المعقــلان اللذان تتركز فيهما قــوة الحزب الارستقراطى . وقد رأينا كيف استصــدر پومپی وكراسوس أثناء قنصليتهما الثانية فى ســنة ٥٥ بعض قوانين لاضــعاف نفــوذ الارستقراطيين فى هاتين الهيئتين (راجع ص ٢١١ حاشية ٣) . ولا يذكــر سللوستيوس شيئا عن الجمعية القبلية . ولعل ذلك يرجع الى أنه لم ير ضرورة اجراء أى اصلاح فيها

=

كثيرة ، اذ كان تحت امرته جيش موال له مدرب على القتال متأهب لخوض المعركة فى الحال . وقد كسب الى جانبه كثيرا من الأنصار فى كمپانيا بفضل قوانينه الخاصة بالاصلاح الزراعى . وتعلق به جمهور

=

وهى الجمعية التى احرز قيصر عن طريقها نجاحا سياسيا كبيرا نظرا لبعدها عن سيطرة الاقلية المتعصبة فى الحزب الارستقراطى . وبعدئذ يتناول السناتو . ومما يسترعى الانتباه انه — على الرغم من كونه « ديمقراطيا » واعتقاده بان قيصر ممثل الشعب — يعتبر السناتو حصن الدولة المكين . فرفاهية الدولة — فى رأيه — هى موضع اهتمام اولئك الذين احرزوا بمؤهلاتهم الممتازة الثروة والشرف والمناصب العامة . فهو لا يقترح القضاء على نفوذ المال فى السناتو ، بل القضاء على سيطرة الاولجركية الارستقراطية . ويعتقد ان ذلك يمكن تحقيقه بزيادة عدد أعضاء المجلس وجعل الاقتراع فيه سريا . ويختتم سللوستيوس رسالته بمناشدة قيصر احياء الجمهورية المنهارة واعادة الحرية المسلوبة . وواضح من سياق الرسالة انه يلقى على الطائفة الاولجركية الارستقراطية (factio) تبعة هدر الحرية وهدم الجمهورية .

ولا يتعرض الكاتب لپومپى الا بوصفه شخصا هوى الى درك سحيق فوضع السلاح فى يد أعدائه اما لمكابرته وضلاله أو لرغبته فى ايذاء قيصر . هذا مع أن اعداء قيصر (hostes) هم اعداء پومپى ، وهم الاولجركيون فى الحزب الارستقراطى ، الذين يصفهم بانهم طغاة الدولة ، فهم على قلة عددهم يسيطرون على الخزانة ويضعون انصارهم فى المناصب ويستعبدون الشعب وينهبونه ويستخفون بالقوانين كانهم فى مدينة اسيرة . وهم يسيطرون كذلك على المحاكم . ويغالى فيقول انهم يصدرون احكاما تفوق فى قسوتها احكام سلا ، وترتب عليها تجريد عدد كبير من أعضاء السناتو المسنين والشبان اللامعين من حق المواطنة ارضاء لكاتو ولدوميتيوس وغيرهما من الارستقراطيين المتعصبين . ولعله يشير هنا الى المحاكمات التى جرت طبقا للقوانين الجديدة التى أصدرها پومپى فى قنصليته المفردة عام ٥٢ ، واستمرت حتى عام ٥١ . ويتابع سللوستيوس حديثه فيقول ان الارستقراطيين يعتزمون توجيه الاتهامات لقيصر فى المحاكم . « وهؤلاء الجبناء مستعدون للتضحية بانفسهم فى سبيل القضاء عليك ، ويفضلون أن تهدر الحرية بسقوطك على أن تصبح الامبراطورية عظيمة على يديك » .

ويرسم الكاتب صورة قاتمة للاولجركية الارستقراطية المتحكمة فى شئون الدولة ويصف رجالها بانهم شديدو التراخى (inertissimi) قادرون على الكلام عاجزون عن العمل . ويخص بالذكر منهم أعداء قيصر الالداء : كاتو وزمرته : بيبولوس ولدوميتيوس وفاڤونيوس (انظر ص ١٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨) ويعدد نقائصهم ويلمهم جميعا ما عدا كاتو الذى يعترف بانه ذو مواهب جديرة بالاكبار كالفصاحة والفطنة والدهاء . ولكنه يعزو هذه المواهب الى ثقافته اليونانية . ويضيف بان الفضيلة واليقظة والجد ليست من صفات الاغريق ، وليس من المعقول ان تقوم حكومة على أكتاف قوم — كالاغريق — اضاعوا استقلالهم بتراخيهم . ولما كان كاتو يؤمن بتعاليمهم فهو على شاكلتهم رجل كلام ، لا رجل عمل ، وسياسى أريب ولكن ليس له مبدأ .

العامة فى المدينة لسخائه ، كما وقف سكان غالة القريبة فى صفه اعترافا بجميله وعدم ضنه عليهم بالجنسية الرومانية (lex Roscia & lex Rubria) . وانحاز الرأى العام الايطالى الى جانبه لما أظهره من روح تنم عن الاعتدال والرغبة فى التفاهم ونجاحه فى توريط خصمه . وأما أعداؤه فلم تكن لديهم فى ايطاليا فرق مدربة أو حتى قوات كافية . يضاف الى هذا أن پومپى لم يكن فى استطاعته أن يبت فى الأمور بسرعة لاضطراره أحيانا الى استطلاع رأى القنصلين وأعضاء السناتو البارزين الذين فروا معه .

كان من الواضح اذن أن من مصلحة قيصر التعجيل بالهجوم وارغام أعدائه على القتال قبل أن يتمكنوا من استدعاء قوات من أسبانيا والشرق وحشدها ضده . لذلك قرر أن يزحف من راڤنا (Ravenna) دون تباطؤ على رأس فرقة واحدة بعد أن أمر الفرق التسع المرابطة وراء الألب أن تلحق به على وجه السرعة حتى يأخذ خصومه على غرة . وبعد أن عبر نهر روبيكون فى اليوم العاشر من يناير عام ٤٩ (١) اقتحم أومبريا

= والرأى السائد أن سللوستيوس يعلن فى هذه الرسالة برنامج قيصر الزمع تنفيذه . غير أننا نشك فى صحة هذا الرأى لان قيصر لم يكن قد وضع حينئذ برنامجا محددا . وعندما آلت اليه مقاليد الأمور ، أخذ برأى المؤرخ فيما يتصل بالتوسع فى منح الجنسية الرومانية وزيادة عدد أعضاء السناتو ، ولكنه أغفل بقية نصائحه ، بل قام بأعمال تناقضها تماما . ولذا نرجح أن الرسالة لا تعبر الا عن رأى سللوستيوس الذى تأثر فيها ببرامج الخطباء الشعبيين وانها من وحى تفكيره السقيم الملتوى ، لا من وحى تفكير قيصر السليم الواضح . وعن هذه الرسالة والاخرى التى ينسبها البعض اليه ، راجع :
Lily R. Taylor, **Party Politics in the Age of Caesar** (Berkeley 1949), 154 ff., 185 ff., 232 ff. Cf. however. F. E. Adcock, **JRS** (1950), 139; E. Fraenkel, **JRS** (1951) 192 ff.; R. Syme, **Mus. Helv.** (1958), 46 ff.

(١) قال قيصر عند عبوره نهر روبيكون عبارته المشهورة التى ذهبت مثلا : «iacta alea est» ، وترجمتها الحرفية «لقد القى بالنرد» ، والمعنى هو انه قد خاطر واقتحم المعمعة ولم يعد هناك سبيل للتراجع ، انظر : Suetonius Div. Iul. 32

ثم پيكينوم ، وهو اقليم عـرف بولائه لپومپى (١) . وفتحت البـلاد الايطالية أبوابها له ، وانحازت اليه القوات التى حشدها ضباط پومپى ثم تركوها مولين الادبار . وأصبح الطريق مفتوحا أمامه الى روما . وعرض قيصر للمرة الثانية أن يسرح قواته لو حذا پومپى حذوه ولكن اقتراحه قوبل بالرفض .

وعندما بلغت روما الأنباء أن قيصر قد عبر الروبيكون واستولى على أريمينوم ، ساد الذعر أنحاء العاصمة لأن القوات المرابطة بها لم تكن كافية للدفاع عنها . ولم يخف أعضاء السناتو جزعهم من سـوء الموقف ولا شعورهم بالمرارة من عدم استعداد زعيمهم . واقترح فريق منهم ايفاد الرسل الى قيصر لفتح باب المفاوضات . ولم يجد پومپى مناصا من الانسحاب جنوبا الى كاپوا حيث يستطيع تركيز جيشـه . غير أنه فطن الى أن قواته الجديدة غير المدربة لن تسـتطيع مواجهة جنود قيصر ذوى الخبرة الطويلة . ولم يكن فى وسعه أن يعتمد على الفرقتين اللتين كانتا فى الأصل جزءا من جيش خصمه . لذلك عقد نيته على الانسحاب من ايطاليا الى بلاد اليونان علّه يستطيع أن يجمع هناك شتات جيشه ثم يركز هجومه على شبه الجزيرة الايطالية من جميـع الجهات — وهى خطة كان من اليسير تنفيذها لأن البحر الأدرياتيكى كان تحت سيطرته . ولا شك أيضا فى أنها كانت خطة سليمة من الناحية العسكرية . ولكنها أثارت دهشة أنصاره بل أثارت حنقهم لأنها كانت مفاجأة لم يتوقعوها بعد أن ملأ پومپى قلوبهم ثقة ومنـاهم بالنصر . وقد استنكر شيشرون فراره من روما ولم يفهم ضرورته ، فلما علم أنه ينوى الفرار من ايطاليا كلها ، تملكه الجزع وتردد فى اللحاق به وكتب

---

(١) تخلى لابينوس (T. Labienus) — أكفأ ضباط الجيش الرومانى فى بلاد الغال (راجع ص ١٨٨) — عن قيصر وفر من جيشه وانحاز الى پومپى . وفى رأى احد الباحثين ان لابينوس كان دائما على صلة طيبة مع پومپى لأنه كان مثله من اقليم پيكينوم .

الى صديقه الحميم أتيكوس (T. Pomponius Atticus) يقول فى احدى رسائله الخالدة « لقد كنت أعلم من قبل أنه أقل الساسة دهاء ، والآن أعلم كذلك أنه أقل القواد كفاءة » (١) . وتعذر التفاهم بين أعوانه اما لأنهم لم يفهموا خطته أو لم يوافقوه عليها . وكان الجانب الأكبر من قواته ، غير القوات التى تحت امرته ، يرابط عند بلدة كورفينيوم تحت قيادة دوميتيوس أهينوباربوس ، الحاكم الجديد لولاية غالة البعيدة . وقد صمم هذا القائد على الوقوف فى وجه قيصر ومقاومته مخالفا بذلك پومپى الذى نصحه بالانسحاب قبل أن يقطع العدو الطريق عليه (٢) . وحدث ما كان متوقعا فحوصرت قواته ولم يتمكن پومپى من ارسال النجدة اليه . واستسلم جنوده لقيصر وسلموه له . لكنه عفا عنهم جميعا وأدمجهم فى جيشه مثيرا بتسامحه ورأفته دهشة الرأى العام الايطالى .

وانسحب پومپى من كاپوا الى ميناء برنديزى على الساحل الشرقى حيث احتشدت السفن لنقل قواته عبر البحر الأدرياتيكى الى اقليم ابيروس على الساحل الغربى لبلاد الاغريق . وكان قيصر قد فطن الى خطة العدو فبذل قصارى جهده لكى يلحق به وينهى القتال بسرعة ، غير أنه وصل بعد فوات الفرصة واقلاع الأسطول حاملا پومپى وجيشه وغالبية أعضاء السناتو (١٧ مارس ٤٩) . ولما رأى أنه لا يستطيع أن يقتفى أثره لافتقاره الى السفن ، عاد أدراجه الى روما بعد أن أصبح سيدا على ايطاليا فى مدة لم تتجاوز الشهرين الا بأيام

(١) ad Att. VIII, 16: quem ego hominem apolitikôtaton omnium iam ante cognoram, nunc vero etiam astratêgetotaton. : فورمياى Formiae فى ٤ مارس ٤٩)

(٢) عن الرسائل الطريفة التى تبودلت فى ذلك الوقت بين پومپى واهينوباربوس : Cicero, ad Att. VIII, 11. Cf. D.R.S. Bailey, JRS (1956), 57 ff.

قليلة . لكنه كان على يقين - بأنه سيخوض معارك أخرى لأن الحرب الحقيقية لم تكن قد بدأت بعد . وقد التقى فى طريقه بشيشرون ، الذى لم يتمكن من الرحيل مع پومپى ، وحاول أن يقنعه بالانضمام اليه ، ولكنه رفض عرضه شاكرا حتى لا يرمى بالجحود أو التنكر لمبادئه . ولم يلبث الخطيب الكبير بعد أن اقتنع بعــدم جدوى الوساطة بين الزعيمين أن سنحت له الفرصة فرحل الى ابيروس حيث لحق بجيش الحزب الارستقراطى فى أوائل يونيه .

وعند ما بلغ قيصر العاصمــة حاول أن يراعى نصوص الدستور بقدر استطاعته . ولما لم يكن فى وسعه أن يدخل المدينة وهو مزود بسلطة الامپريوم البروقنصلية ، فقد دعا النقباء من أعــوانه أعضاء السناتو المتخلفين للاجتماع به خارج حدود المدينة . وهناك خطب فيهم قيصر مدافعا عن تصرفاته وأعلن أنه ما يزال راغبــا فى التفاوض مع پومپى (١) . وشرع فى تنظيم أداة حكومية مؤقتة لتضطلع بشــئون الحكم . ولما كان فى حاجة ماسة الى المال فقد وضع يده على الرصيد الاحتياطى المودع بالخزانة العامة (Aerarium) ، وهو ما تركه أنصار پومپى ســاعة فرارهم من المدينــة على عجل . وبديهى أنه لم يعبأ بنقيب العامة الذى حاول الاعتراض على هذا الاجراء . على أن مركز قيصر كان دقيقا من الناحية العسكرية لأن پومپى فر الى بلاد الاغريق مع جانب من جيشه على أمل أن يعززه باستدعاء الفرق المواليــة له من أسبانيا والشرق الأوسط . ولما كان قيصر لا يملك أسطولا يتيح له عبور البحر الى بلاد الاغريق فقد قرر أن يتجــه الى أسبانيا لكى يقضى أولا على الفرق الموالية للارستقراطيين ويقطع الامدادات عن

---

(١) عن المفاوضات التى دارت للتوصل الى الصلح فى اللحظات الاخيرة ، راجع الى جانب رسائل شيشرون وكتاب قيصر « الحرب الاهلية » ، المقال التالى :
K. von Fritz, TAPA 72 (1941), 125 ff.

خصمه . وعهد بشئون روما الى البريتــور ليبدوس (M. Aemilius Lepidus) الذى عينه قائدا للمدينة (praefectus urbi) ، ونصب أنطونيوس (M. Antonius) الذى كسب ثقته ببسالته الفائقة فى بلاد الغال ، نصبه قائدا أعلى للقوات فى ســائر ايطاليا مع أنه كان يشغل حينئذ منصب نقيب للعامة . وبعد خمسة عشر يوما غادر المدينة على وجه السرعة قائلا لأصدقائه « إننى ذاهب لملاقاة جيش بلا قائد وسأعود لملاقاة قائد بلا جيش » (١) . وفى تلك الأثنــاء كان ضبــاطه — وفى مقدمتهم كوريو — قــد تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا وصقلية وعبروا البحر الى افريقيا ليضعوا أيديهم على موارد الغلال اللازمة لتموين العاصمة الرومانية .

الحملة الأسبانية الأولى : إيلردا

واجتاز قيصر جبال الألب الغربية ودخل ولاية « غالة الناربونية » وضرب الحصــار على مرسيليا التى تمردت عليه وأغلقت أبوابهــا فى وجهه . ولم يشأ أن يضيع الوقت فتركها محاصرة بثلاث فرق تحت قيادة تريبونيوس (C. Trebonius) (٢) ، وأسطول صغير تحت قيادة دكيموس بروتوس (D. Iunius Brutus Albinus) ، وأسرع الخطى على رأس ست فرق أخرى الى أسبانيا ، مجتازا جبال البرانس . وكان يوجد بأسبانيا سبع فرق (غير القوات الأسبانية الاضافية) موالية لبومبى موزعة بين ولايتيها ويتولى امرتها قواد محنكون سبق لاثنين

---

(١) Suetonius, **Div. Iul.** 34: professus ante inter suos, ire se ad exercitum sine duce et inde reversurum ad ducem sine exercitu.

(٢) انظر ص ٢١١ .

منهم أن شهدا معارك كثيرة (١) . ولم يقم هؤلاء القواد بأى محاولة للدفاع عن حدود أسبانيا الشمالية : بل اختاروا أن يلاقوه عند بلدة ايلردا (Ilerda) فى شمال نهر الابرو بأسبانيا القريبة . وقد صدوا هجماته الأولى وضيقوا عليه الخناق وكادوا يظفرون به . لكنه خرج من المأزق بفضل شجاعة الفرسان الغال وطارد أعداءه الذين انسحبوا الى جنوب النهر . وبعد مناوشات استغرقت بضعة أيام استطاع قيصر أن يطوقهم ويمنع عنهم الماء والمؤونة . وأخيرا استسلم له القواد بعد أن وعد بالصفح عنهم لو سرحوا قواتهم . وانضم بعض الأسرى الى جيشه وعاد البعض الآخر الى أوطانهم . وقد أحدث انتصاره كما أحدثت رأفته تأثيرا كبيرا فى نفوس سكان أسبانيا البعيدة حتى أنهم أرغموا القائد الموالى لپومپى على القاء السلاح ثم سلموه لقيصر الذى أنهى الحملة الأسبانية نهاية موفقة (يونيه ٤٩) . وعاد قيصر الى ايطاليا سالكا نفس الطريق ومر بمرسيليا التى قاومت ضباطه مقاومة عنيفة ولكنها استسلمت غداة وصوله . وقد أعفاها من التدمير ولكنه اقتص منها فأرغمها على أن تمد جيشه بالمؤونة وانتزع منها معظم أراضيها وسلبها مؤقتا استقلالها الذاتى . وبعدئذ تابع سيره الى روما . وهناك وجد أنه قد عين بايعاز من البريتور ليپدوس دكتاتورا بمقتضى قانون خاص أصدرته الجمعية المئوية أثناء غيابه . وقد أبدى من التسامح ما أثار اعجاب خصومه ، وقام باصلاحات مالية خاصة بتخفيف وطأة الديون :

---

(١) كانت ثلاث من هذه الفرق مرابطة فى أسبانيا القريبة تحت قيادة افرانيوس (L. Afranius) الذى قاتل ضد سرتوريوس واشترك فى حملة پومپى على الشرق ، واثنتان فى القسم الشرقى من أسبانيا البعيدة تحت قيادة پتريوس (M. Petreius) الذى دحر كتيلينا ؛ واثنتان فى القسم الغربى من الولاية الأخيرة تحت قيادة فارو (M. Terentius Varro) العلامة الرومانى المشهور . وقد عفا عنه قيصر وعينه امينا للمكتبة فى عام ٤٧ ق . م فعكف بعد الحرب الاهلية على دراساته المتنوعة فى الادب واللغة والتاريخ . وكان غزير الانتاج فالف عددا ضخما من الكتب نعرف عناوين خمسة وخمسين كتابا منها . غير انه لم يصلنا منها سوى اجزاء من كتابين احدهما هو بحثه فى اللغة اللاتينية (de Lingua Latina) والآخر فى الشئون الريفية (de Re Rustica) ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٢٦ — ٢٧ .

ورد حقوق المواطنة لأبناء ضحايا سلا (١) ، وأعاد المنفيين الذين صدرت ضدهم أحكام بمقتضى قوانين پومپى (٢) ، وأدخل بعض اصلاحات على نظام الحكم فى الولايات . وبعد قليل أجريت الانتخابات تحت أشرافه ففاز فيها بالقنصلية لعام ٤٨ هو وسرڤيليوس الاساورى (٣) . وعندئذ تنحى عن الدكتاتورية بعد أن تقلدها أحد عشر يوما . وبعد أن احتفل بالعيد اللاتينى ، وقبل أن يتولى القنصلية رسميا ، كان قيصر يشق طريقه جنوبا الى برنديزى .

القتال فى بلاد اليونان : فرسالوس

كان پومپى فى تلك الأثناء قد تجمعت لديه تسع فرق سحبها من ايطاليا نفسها وبلاد الاغريق وكريت وكيليكيا ، ثم عززها بفرقتين أخريين أحضرهما من سوريا ، حتى بلغ عدد قواته حوالى ٤٤٫٠٠٠ مقاتل وقام بتدريب جنوده فى مقدونيا واستعد للمعركة . لكنه كان يدرك أن جيشه ليس ندا لجيش قيصر الذى حنكته معارك بلاد الغال فصار شديد المراس لا تلين قناته . ولما كان قيصر يثق فى تفوق جيشه ، ولا سيما مشاته ، فقد تلهف على منازلة العدو فى أقرب فرصة . وكان رجاله قد بذلوا أثناء غيابه فى أسبانيا كل ما فى وسعهم لبناء الناقلات والسفن اللازمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا منها ما يكفى لنقل جميع قواته — وهى اثنتا عشرة فرقة — الى بلاد الاغريق

(١) راجع ص ١٢٨ ، ١٧٢ حاشية ١ .

(٢) سبق لقيصر عندما تولى الكويستورية فى عام ٦٩ (؟) أن اتخذ خطوة مشابهة فأيد مشروعا تقدم به نقيب للعامة يدعى پلاوتيوس (Plautius) فى عام ٧٠ ويقضى باعادة أنصار لپيدوس ، زعيم فتنة عام ٧٧/٧٨ ، (راجع ص ١٠٢) الذين فروا الى اسبانيا للانضمام الى سرتوريوس ، ورد حقوق المواطنة اليهم (lex Plautia de reditu Lepidanorum) ، وعن هذا القانون ، راجع : CAH, IX, 896.

(٣) وهو ابن سرڤيليوس الاساورى قنصل عام ٧٩ وقائد الحملة ضد القراصنة فى عام ٧٧ (راجع ص ١١١) .

فى رحلة واحدة . وبرغم سيطرة پومپى على البحر ، فقد جازف قيصر وأقلع بحوالى نصف قواته من برنديزى وعبر الأدرياتيكى ونزل بساحل ايپيروس فى نوفمبر من عام ٤٩ بعد أن أفلت من الحصار الذى ضربه بيبولوس ، قائد أسطول پومپى ، وزميله من قبل فى قنصليته الأولى .

كان پومپى قد اتخذ من بلدة دوراخيوم (Dyrrachium)[1] الواقعة على الساحل مستودعا لمؤونته ونقطة اتصال بينه وبين أسطوله المرابط فى الأدرياتيكى . وعندما بلغه خبر نزول قيصر فى ساحل ايپيروس ، واستيلائه على أپولونيا (Apollonia) — التى تقع على مصب نهر أيسوس عند نهاية طريق اجناتيوس Via Egnatia — وشروعه فى الزحف شمالا لمهاجمة دوراخيوم ، غادر مقدونيا — حيث كان يدرب قواته — واتجه غربا ليقطع عليه فى الوقت المناسب طريق التقدم . فاضطر قيصر الى وقف هجومه حتى تصله بقية قواته من ايطاليا . وأخيرا بلغته الأنباء بأن ماركوس أنطونيوس استطاع أن يفلت من الحصار البحرى وينزل فى ساحل ايپيروس ولكنه نزل بمكان الى الشمال من دوراخيوم بحيث كان فى وسع پومپى أن يحول دون التقائه به . واستغل قيصر توانى خصمه وبطء تحركاته ، ولم ينجح فقط فى الاتصال بأنطونيوس بل احتل أيضا ذلك اللسان من الأرض الذى لا يمكن بلوغ دوراخيوم الا عن طريقه . وبذلك حال دون اتصال خصمه بقاعدته العسكرية ومركز امداداته . وعندئذ قرر پومپى اعتمادا على تفوق قواته العددى وسيطرته على البحر أن يتحصن ويقف موقف الدفاع فى پترا (Petra) ، وهى بلدة تقع الى جنوب دوراخيوم مباشرة . ولم يقف قيصر مكتوف اليدين فقام بمحاولة كادت أن تنجح لمحاصرة خصمه فى مكانه . غير أن ضآلة قواته بالقياس الى طول خط دفاع پومپى جعلته عاجزا عن اختراق ذلك الخط . وحدث فى الوقت

(١) الاصل مستوطنه يونانيه باسم ابيدامنوس (Epidamnus) وغلب عليها اسم دوراخيوم (بعد عام ٣٠٠ ق م) وهى تقابل الان دورازو (Durazzo) فى البانيا الحديثه

الذى بدأ بومبى يعانى فيه من قلة المئونة أن اكتشف ثغرة فى خط العدو فاخترقها من فوره، وأنزل خسائر فادحة بقوات قيصر الذى يعترف فى « مذكراته عن الحرب الأهلية » (١) أنه كان قاب قوسين من الهزيمة الماحقة .

وتبدأ المرحلة الأخيرة من هذه الحرب بهروب بومبى من بترا . ويبدو أن قيصر أدرك حينئذ أنه لن يستطيع أن يظفر بخصمه الا اذا استدرجه بعيدا عن قاعدة عملياته الحربية على الساحل ونقل مسرح القتال الى الداخل . وكان بومبى يتوقع أن تصله من سوريا بعض الامدادات مع وحدات من الفرسان الأشداء تحت قيادة حميه ميتيللوس اسكيبيو (ناسيكا) عن طريق مقدونيا . ولذلك أرسل قيصر فرقتين تحت قيادة دوميتيوس كالڤينوس (٢) لتعترض طريق هذه الامدادات . وعندما تحرج مركز هاتين الفرقتين اسرع قيصر السير الى ثساليا (Thessalia) لانقاذهما .

وخلا الجو لبومبى وأصبح أمامه أن يختار أحد أمرين فاما أن يترك خصمه فى بلاد الاغريق ويعود هو — كما اقترح عليه أحد

---

(١) Commentarii de Bello Civili وتقع فى ثلاثة كتب . ويتضح من هذه المذكرات ومذكراته الاخرى عن الحرب الغالية (راجع ص ١٩٥ ، هامش ١) ، ان قيصر لم يكن فقط قائدا وسياسيا ومصلحا وخطيبا من الطراز الاول ، بل كان مؤرخا يعتد به . ولا تصرفه الدعاية لنفسه عن وصف الحرب وصفا رائعا اصبح موضع دراسة القواد فى الاجيال التالية . ويشهد شيشرون نفسه ان اسلوبه يمتاز بالوضوح والايجاز والبساطة والبعد عن التكلف . والفاظه سهلة منتقاة بعناية . ويعتبر قيصر الكاتب من أتباع مدرسة الإسلوب الاتيكى (راجع ص ٢٢١ ، هامش) انظر الى جانب كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٢١ — ٢٣ ، الكتب الآتية :
M. Rambaud, **L'Art de la déformation historique dans les commentaires de César**, 1953 (Cf. however, J.P.V.D. Balsdon, **JRS**, 1955, 161 ff.; **Greece and Rome**, 1957, 19 ff.). F. E. Adcock, **Caesar as a Man of Letters**. 1956.

(٢) راجع ص ٢٢١ ، هامش .

ضباطه — الى ايطاليا ويغزوها — كما غزاها سلا — ويستولى على روما دون عناء أو أن يتعقب قيصر الى سهول ثساليا ويناز لـه . فى معركة فاصـلة . ولم يكن غزو ايطاليا أمرا شـاقا بعد أن جلت عنها القوات العسكرية . غير أن ذلك لم يكن لينهى الحرب الأهلية . فقد أدرك پومپى أنه لن يستطيع أن يسترد أسبانيا الا بالسيطرة أولا على بلاد الغال ، وهو أمر عسير التحقيق لأن هذه البلاد كانت تقف الى جانب قيصر . وكان الاحتفاظ بقوات ضخمة فى ايطاليا تحت السلاح عبئا ثقيلا .وكان من المحتمل أن ينشغل زعمـاء السناتو عن الحرب بالانغماس فى الأعمـال الانتقامية . كما أن عودته الى ايطاليـا كانت تظهره بمظهر الهارب من ميدان القتـال . وقد أيقن أنه لا سبيل الى استقرار السلام الا اذا هزم قيصر ودمر جيشه . ولذلك زحف شرقا الى ثسـاليا حيث التقى الامدادات التى تجمعت فى بلدة لاريسـا (Larissa) .

وفى تلك الأثناء كان قيصر قد رابط مع جميع قواته على مقربة من بلدة فرسالوس (Pharsalus) الواقعة الى جنوب لاريسا . وقد ظل پومپى مترددا فترة طويلة ولم يشأ أن يخوض معركة فاصـلة ضد العـدو الذى كان يتميز عليه بمشاته المدربين ذوى الخبرة الطويلة . لكن زعماء الحزب الارستقراطى ألحوا عليه فى التقدم الى فرسالوس لملاقاة خصمه ، واضعين ثقتهم فى تفوق فرسانه . ولم يبدأ القتال حتى بعد أن أصبح الجيشان أحدهما فى مواجهة الآخر . فقد احتل پومپى موقعـا مرتفعا عسير المنال ، ولم يستطع قيصر ازاحته عنه ، وتظاهر الأخير بالتقهقر لاستدراجه ولكن ذلك لم يحمـله على التخلى عن موقعه الممتاز . ولم يجد قيصر مناصا من التأهب لمهاجمة العدو ولكنه خشى أن تطوق فرسان پومپى القوية جناحه الأيمن ثم تطبق عليه من الخلف أثناء انهماك قلب جيشه فى القتال . ولذلك وضع أقوى فرقه ، وهى الفـرقة العاشرة ، فى ميمنة جيشـه وعززها بالفرسـان وبقوة

احتياطية من المشاة ، وأسند قيادتها كلها الى سلا (L. Sulla) ابن شقيق الدكتاتور [1] . ووقف هو نفسه الى جانبه فى مواجهة پومپى على رأس قوات أخرى . وأما قلب الجيش فقد وكل أمره الى دوميتيوس كالڤينوس ، وتولى ماركوس أنطونيوس قيادة الجناح الأيسر ، وعندما بدأ القتال صمد مشاة پومپى أمام هجمات مشاة قيصر ، بينما حمل فرسانه فى الميسرة على فرسان العدو وردوهم على أعقابهم وشرعوا فى القيام بحركة التفاف حولهم للاجهاز عليهم وانهاء المعركة . لكن حدث فى تلك اللحظة أن تغير الموقف فجأة بفضل بسالة الكتائب المساعدة التى وضعها قيصر فى ميمنة جيشه ، اذ حملت هذه الكتائب المختارة على فرسان پومپى ومزقت شملهم وأرغمتهم على الفرار ، ثم اكتسحت أمامها رماة العدو وانهالت على الجانب الأيسر لمشاته طعنا وتقتيلا . وفى الوقت نفسه أمر قيصر كل قواته بالتقدم . وكان الاعياء قد نال من فرق پومپى بعد أن قاومت طويلا هجمات العـدو الأولى ؛ ثم تخلى عنها الفرسان والمشاة خفيفو العتاد ، وتعرضت آنئذ للهجوم من الأمام والجانبين . وسرعان ما انهارت وولت الأدبار . وتعقبها جنود قيصر برغم اشـتداد القيظ واستمروا فى مطاردتها دون أن يتوقفوا لجمع الأسلاب والغنائم من معسكر پومپى . ولم تشرق شمس اليوم التالى حتى كان من بقوا على قيد الحياة ، وعددهم حوالى ٢٤٫٠٠٠ جندى ، قد ألقوا بسلاحهم مستسلمين للقائد الظافر . وكان لابينوس ، الذى أقسـم ألا يبرح ميدان القتـال الا منتصرا ، هو أول من حمـل نبأ الهزيمة الى دوراخيوم . وقد هلك فى المعركة دوميتيوس آهينوبأربوس ولاذ عدد قليل من أعضاء السناتو بالفرار . ولما بلغ قيصر لاريسا أحرق

(١) وهو رجل ثرى من الاشراف انتخب قنصلا لعام ٦٥ ولكنه أدين هو وزميله بالرشوة فبطل انتخابهما . وكان له ضلع فى المؤامرة الأولى الفاشلة التى دبرها كتيلينا فى أواخر عام ٦٥ لقتل القنصلين (راجع ص ١٤٩ — ١٥٠ هامش ١) . وقـد اتهم فى عام ٦٢ بالاشتراك مع كتيلينا فى مؤامرته الثانية الشهيرة . لكن شيشرون نفسه دافع عنه فى خطبة وصلتنا بعنوان (pro Sulla) وظفر له بحكم البراءة .

مراســلات پومبى مع ميتيللوس سكيپيو دون قراءتها ، مثلما فعل پومبى نفسه عام ٧٢ عندما وقعت فى يده مراسلات سرتوريوس مع بعض الأقطاب الرومان .

نهاية پومبى

هكذا انتهت معركة فرسالوس (٩أغسطس ٤٨) أولى المعــارك الثلاث التى قررت مصير العالم الرومانى فى تلك الحقبة (١) . وقد فر پومبى عقب هزيمته الى ساموس وبعدئذ الى كيليكيا وقبرص . ولم يجد فى جزر بحر ايجه أو آسيا الصغرى أو فى سوريا أصدقاء أقوياء يمكنه الاعتماد عليهم . ولم يعد أمامه سوى مكانين يستطيع الالتجاء اليهما ، وهما افريقيا ومصر . وكان من الجائز أن يسترد فى افريقيا — حيث سيطر أنصــاره على الموقف — بعض نفــوذه العسكرى ، ويستخدم أسطوله فى تعبئة جيش جديد ويتابع تهديده لايطاليا حتى يرغم خصمه على قبول الصلح . غير أنه قرر ألا يرحل الى افريقيا . ولعل كبرياءه منعه من أن يضع نفسه تحت رحمة چوبا (Juba) ، ملك

---

(١) هذه المعارك الثلاث هى فرسالوس(Pharsalus)التى نشبت بين پومبى وقيصر فى اغسطس عام ٤٨ باقليم تساليا فى بلاد الاغريق ؛ والثانية هى فيليپى(Philippi) التى نشبت فى مقدونيا عام ٤٢ وهزم فيها ماركوس انطونيــوس كلا من بروتوس وكاسيوس فى معركتين ؛ والتالثة هى اكتيوم (Actium)البحرية التى نشبت عام ٣١ عند المدخــل الجنــوبى لخليج امبراكيا على الســـاحل الغربى لبلاد الاغريق وهزم فيها اوكتافيانوس (اغسطس) ماركوس انطونيوس وكليوبطرة.وعن معــركة فرسالوس راجع ملحمة الشاعر لوكانوس « فرساليا » أو « الحرب الاهلية »فى كتابنا « مصــادر التاريخ الرومانى » ، ص ٥٢ — ٥٤) ؛ وللاستزادة انظر ايضا :

M. Rambaud, Historia III (1955), 346 ff.;
W. E. Gwatkin, Jr. "Some Reflections on the Battle of Pharsalus," TAPA 87 (1956), 109-124.

نوميديا ، الذى كان رغم عداوته لقيصر (١) ، رجلا سلفا متغطرسا . وأيا كان الباعث فقد عقد عزمه فى تلك اللحظة العصيبة من حياته على أن يبحر الى مصر . وكان ابنـــه جنايوس پومپى (Cn. Pompeius) قد استطاع فى العام السابق أن يحصل منها على خمسين سفينة ومدد من القمح وقوة قوامها ٥٠٠ جندى . ولعل ما حمل الحكومة البطلمية على تقديم هذه المساعدة هى صلة الصداقة التى كانت تربط پومپى بالبيت المالك أو اعتقادها حينئذ بأن كفته راجحة . وكان پومپى يأمل أن يجد فى مصر ملاذا فى ساعة الشدة لدى ابنى بطلميوس « الزمار » الذى كان قـــد احتضن قضيته وأوعز الى جابينيوس بمساعدته على استرداد عرشه (٢) .

كان بطلميوس « الزمار » قد مات قبل فرسالوس بثلاثة أعوام (أوائل ٥١) موصيا بأن تعتلى العرش من بعده ابنته الكبرى كليوبطرة (السابعة) التى بلغت من العمـــر ثمانية عشر ربيعا ، وابنـــه الأكبر بطلميوس (الثالث عشر) الذى بلغ الثانيـــة عشرة من عمـــره ، وأن يولى الشعب الرومانى تنفيذ هذه الوصية . وقد أحاطت بالملك الصغير حاشية من المغامرين ذوى الأطماع كان فى مقدمتهم الخصى پوثينوس مربيه ، وثيودوتوس معلم البـــلاغة ، وأخيللاس قائد قـــواته . وكان يحمى العرش جيش الاحتلال الصغير الذى تركه جابينيوس وراءه (٣) . ولما كان عدد كبير من رجال هذا الجيش قد خدم من قبل تحت لواء پومپى ، فقد توقع أن يشدوا من أزره ، اذا كان الملكان الجديدان قد نسيا فضله على أبيهما الراحل . وكان قد نشب قبل فرسالوس بشهور قليلة نزاع شديد بين الأخوين على السلطة انتهى بثورة الاسكندريين

---

(١) ترجع هذه العداوة الى عام ٥٠ عندما اقترح النقيب كوريو صنيعة قيصر مشروعا بضم مملكة نوميديا الى الشعب الرومانى .

(٢) راجع ص ٢٠٥ ، حاشية ١ .

(٣) راجع ص ٢١٢ ، حاشية ٢ .

على كليوبطرة وفرارها من المدينة . ولم يكن من المتوقع أن تذعن امرأة طموح مثلها ورثت عن بنات جنسها مضاء العزم وقوة الشكيمة لأخيها الصغير أو حاشيته التى تآمرت على ابعادها خوفا من اشتداد بأسها وازدياد مطامعها . وسرعان ما استطاعت أن تحشد عند حدود مصر الشرقية جيشا من الأعراب وغيرهم ورابطت فى مواجهة جيش أخيها على مقربة من بلوزيوم ، وتأهبت للزحف على الاسكندرية لاسترداد حقها .

وفى تلك الأثناء بلغ معسكر بطلميوس نبأ اقتراب پومپى من السواحل المصرية . وقد أثار ذلك اضطرابا بين أفراد حاشيته لأنهم خشوا أن يرحبوا بالقائد الرومانى فيتعرضوا لغضب قيصر ، وخشوا كذلك الاعراض عنه فيقتص منهم اذا حالفه الحظ فى النهاية . وتراءى لهم أن أسلم السبل للخروج من المأزق هو التخلص من پومپى حتى لا يجد قيصر عند قدومه تكأة لدخول مصر . ولذلك عهدوا الى أخيللاس وضابطين رومانيين فى خدمتهم باغتياله وهو يهم بالنزول الى الى الشاطىء من الزورق الذى أعدوه له . ونفذت الجريمة البشعة وخر القائد الرومانى صريع طعنات من حسب أنهم يرحبون بمقدمه .

هكذا قتل پومپى غدرا بعد أن قام بدور كبير فى العالم الرومانى دون أن يكون هو نفسه رجلا كبيرا . ومن العسير أن نحكم عليه حكما صائبا لأن الحظ أسهم بنصيب كبير فى معظم انتصاراته . كان قد أدى لسلا خدمات جليلة ولكنه لم يظهر وقتئذ من المواهب العسكرية ما يفوق به كراسوس لأن حملته فى صقلية وافريقيا التى أحرز بفضلها أول موكب انتصار ولقب الكبير أو العظيم (Magnus) كانت موجهة ضد أعداء ضعاف لا يبرر الانتصار عليهم منح هذا اللقب الضخم (١) .

(١) راجع ص ١٠٢ .

وقد اغتيل پومپى فى ٢٨ سبتمبر عام ٤٨ (وفقا للتقويم الرومانى القديم (= ٢٤ يوليو ٤٨ وفقا لتقويم يوليوس)

ولم يكن اخماد فتنة ليبدوس يتطلب مقدرة فذة (١) . وكان سرتوريوس أول قائد قدير واجهه پومپى ، وقد أوشك أن يظفر به لولا انزال ميتللوس پيوس الهزيمة بضباط الزعيم الثائر (٢) . ولم يخمد پومپى الثورة الأسبانية الا بعد مصرع سرتوريوس . وفى حملاته فى الشرق جنى ثمرة انتصارات لوكللوس (٣) . وأما تطهير البحر من القراصنة فلم يتطلب سوى عناية فائقة فى تنظيم القوات الهائلة التى وضعت تحت تصرفه (٤) . فلما التقى بقائد من الطراز الأول مثل قيصر ، منى بالهزيمة لأول مرة ، ولو أن الهزيمة لا تعزى الى أخطائه العسكرية بقدر ما تعزى الى انحطاط مستوى جنوده . فليس هناك اذن من الأسباب القوية ما يدعونا الى وصفه بأنه قائد عظيم على الرغم من الشهرة العريضة التى أحرزها . ومع هذا فلا جدال فى أنه كان منظما بارعا ، وقائدا ماهرا فى ادارة العمليات الحربية ، جمع بين الحذر والجرأة فى وضع الخطط العسكرية . فهو لم تعوزه الخبرة الفنية أو سلامة التقدير أو سعة الحيلة ، بل أعوزه امتزاج قوة الادراك بسعة الخيال ، وهو ما يميز العبقرية من الموهبة .

لكن اذا كان هناك خلاف حول پومپى القائد ، فليس ثمة خلاف كبير حول پومپى السياسى . كان پومپى تعوزه اللباقة والكياسة والكفاءة فى معالجة المسائل السياسية . وكان محبا لذاته ملتوى الحديث لا يمل سماع المديح . على أن نقطة الضعف الأساسية فيه هو أنه لم يكن حازما بقدر ما كان طموحا . لقد دفعه طموحه الى السعى وراء مركز يتعارض والدستور ، فانتهك روحه وان تمسك بنصه بوازع من ضميره . ولم يكن ليحجم عن تقوية مركزه بطريق غير مشروع لو تحمل غيره مسئولية خرق القانون . ولعل افتقاره الى الحزم هو ما جعله

(١) راجع ص ١٠٤ — ١٠٥ .
(٢) راجع ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٣) راجع ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ .
(٤) راجع ص ١٢٤ — ١٢٥ .

لا يقدم على هدم الدستور الجمهورى . لكن ينبغى ألا ننسى أن بعض هذه المثالب هى ترديد لانتقادات شيشرون الذى جرح بومبى شعوره بتجاهله ما قام به من عمل جليل فى احباط مؤامرة كتيلينا . ولا مراء فى أن بومبى كان حريصا على اصلاح أداة الحكم ومستعدا لبذل أى خدمات للدولة فى مقابل الثقــة به والثناء عليه . ومن الانصاف أن نقول إنه لم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل ازاء الظروف التى أحاطت به ، اذ حاول عبثا أن يحمل السناتو بعد عودته من الشرق على اقرار السياسة التى شعر بأنه ملتزم بتنفيذها ، وذهبت جهوده سدى لاقناع الجمعية الشعبية بالتصديق على تنظيماته (١) . وعندئذ اضطر الى قبول عضوية « الائتلاف الثلاثى » لكى يفى بوعوده لجنوده المسرحين . ولعل عدم كياسته وانطواءه على نفسه وترفعه عن المهاترة كانت من العوامل التى أفضت الى هذه النتيجة ، غير أنه كان من المستبعد أن يرحب أعضاء السناتو بالرجل الذى أطاح بدستور سلا (٢) . واذا كان بومبى قد انتهك الدستور ، فقد فعل ذلك لأنه لم يجد أمامه سوى هذا الطريق . ويبدو أن الاستياء الشديد الذى أثارته قنصلية قيصر الأولى قد أذهله أو أخــذه على غرة ، غير أن تعنت الارستقراطيين الشديد أرغمــه على أن يدع زميله يتمادى ويقطع شــوطا أبعد مما كان متفقا عليه ، ولم يلبث أن تورط معه فتعذر عليه التراجع واضطر الى التشبث بموقفه . فلما تغيرت الظروف بموت كراسوس وجد نفسه وجها لوجه أمام قيصر ، فزين له المتطرفون فى الحزب الارستقراطى أن يناوىء حليفه القديم ويزيحه عن طريقه قبل أن يستفحل خطره . ومن الجائز أنه لو ترك لنفسه لوصل الى اتفاق مع قيصر . لكنه وقد تحالف فى آخر الأمر مع السناتو انساق الى الحرب تحت ضغط فريق من النبلاء المتهورين الذين لم يحالفوه الا لأنه كان فى نظرهم أقل

---

(١) راجع ص ١٧٠ — ١٧٢ .

(٢) راجع ص ١١٩ .

خطرا من قيصر . ولو انتصر لعملوا على اسقاطه . وقد ترتب على تحول كوريو الى جانب قيصر (١) — وهو تحول مفاجىء لم يكن من المستطاع التكهن به — أن عجز پومپى عن عزل خصمه من القيادة خلال عام ٥٠ . ولو استطاع أن يملك زمام أنصاره ، لكان من الجائز أن يجد ذريعة أقوى لاشهار الجرب ، اذا لم يكن هناك سبيل الى تجنبها . لكن الزمام أفلت من يديه فخسر عطف الرأى العام لأن خصمه أظهره بمظهر البادىء بالعدوان . وأخيرا ، فمع أنه كثيرا ما استفز السناتو وأثار حنقه فان مطامعه كانت معتدلة بوجه عام . وقد سنحت للنبلاء أكثر من فرصة ليكسبوا صداقته . ولو فعلوا ذلك منذ البداية واستجابوا لشيشرون الذى لم يدخر وسعا لاقناعهم بمصادقته ، لما تعرضت الجمهورية للخطر على الأقل أثناء حياته . فاذا كانت قد سقطت فى النهاية ، فان ذلك لا يعزى الى أخطائه بقدر ما يعزى الى أخطاء السناتو (٢) .

وكان قيصر قد غادر بلاد الاغريق متعقبا خصمه فسار الى الدردنيل وعبره الى آسيا الصغرى . وهناك سمع بأن پومپى شوهد فى قبرص ، فاستخلص أنه اتجه الى مصر . لذلك انتقل الى رودس ومنها أبحر بأسطول صغير يتألف من عشر سفن رودسية وبضع سفن أخرى آسيوية ، وترافقه الفرقة السادسة وحوالى ٨٠٠ فارس من الغال والجرمان . وقد الحقت به فرقة أخرى استدعاها من آخيا وهى الفرقة السابعة والعشرون . ولم يزد عدد جنود الفرقتين على ٣٢٠٠ رجل . واستنادا الى الصيت الذى أحرزه بانتصاراته الأخيرة ، أقلع قيصر مع هذه القوات الضئيلة ، وبلغ ساحل مصر فى ٢ أكتوبر من عام ٤٨ بعد موت غريمه بأيام قليلة (٣) . فلما علم بمصرعه حزن عليه وتألم لمصيره . ولا يخامرنا الشك فى صدق

---

(١) راجع ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) Cf. M. Gelzer, **Pompeius** (1949) ; J. van Ooteghem, **Pompée le Grand** (1954).

(٣) = ٢٧ يوليو ٤٨ حسب تقويم يوليوس .

شعوره . غير أن اختفاء پومپى من الميدان يسر مشاكله لأنه كان خليقا اذا امتد به الأجل أن يثير المتاعب فى وجهه . لقد كان پومپى فى نظر الرأى العام رجلا كبيرا لا سبيل الى تجاهله أو الاستخفاف به . ولم يكن من المحتمل أن يقنع بدور التابع لغيره . وعلى أى حال فقد اختفى بموته أقوى منافس لقيصر .

حرب الاسكندرية

غير أن ذلك لم يمنع قيصر من أن يدخل الاسكندرية كما لو كانت مدينة مقهورة ، ويسير فى شوارعها يسبقه حملة شارات سلطته القنصلية (fasces). وقد أثار دخوله المدينة على هذه الصورة بعض الاضطرابات لأن الاسكندريين اعتقدوا أنه افتأت على سلطة الملك البطلمى . ونجح قيصر فى اخماد هذه الاضطرابات الأولية . غير أن الاسكندريين لم ينسوا أن قيصر كثيرا ما أيد مشروعات ضم مصر الى ممتلكات الجمهورية ، وأنه ربما حضر ليحصل المبلغ الذى كان "الزمار" قد وعد به رجال الأئتلاف الثلاثى نظير الاعتراف به ملكا شرعيا على مصر . وسرعان ما أدى احتشاد الجماهير الى نشوب عدة معارك فى أيام متوالية قتل فيها عدد من جنوده فى أنحاء متفرقة من المدينة . واستشعر قيصر الخطر لضآلة قواته ، أو تعذر عليه الرحيل عن مصر لاشتداد هبوب الرياح التجارية فى ذلك الوقت من السنة ، كما يزعم مؤلف كتاب « حرب الاسكندرية » فى محاولته تبرير بقاء قيصر . ولذلك أرسل الى ضابطه دوميتيوس كالڤينوس طالبا اليه أن يمده بالفرق التى جمعت من فلول جيش پومپى فى آسيا الصغرى .

وقد أعلن قيصر بعد نزوله بالقصر الملكى أنه يعتزم ، بوصفه قنصلا ، أن يتوسط باسم الشعب الرومانى لحل النزاع القائم بين الأخوين بطلميوس (الثالث عشر) وكليوبطرة (السابعة) . وأضاف أن واجبه يحتم عليه ذلك ، وبخاصة أن روما عقدت فى أثناء قنصليته

الأولى (عام ٥٩) محالفة مع أبيهما الراحل بمقتضى قانون أصدرته الجمعية وأقره السناتو . ولذلك طالب كلا من الملكين بتسريح جيشه والحضور الى المدينة . وجاءه بطلميوس مع بوثينوس (Pothinus) ، كبير أوصيائه ، دون أن يسرح جيشه الذى تركه عند بلوزيوم تحت قيادة أخيلاس (Achillas). وكان بوثينوس قبل مجيء قيصر هو الحاكم الفعلى فى البلاد ، اذ كان يشغل منصب وزير المالية (dioikêtês) ، وكبير الأوصياء، وهو الذى ألب الاسكندريين على كليوبطرة متهما اياها بالرغبة فى الاستئثار بالسلطة دون أخيها ، مما أرغمها على الفرار من المدينة . وقد أوجس خيفة من أن يصفى قيصر ما بين الأخوين فتعود كليوبطرة الى العرش وتنتقم من خصومها . ولذلك أخذ يثير العراقيل فى وجه القائد الرومانى ويكيد له بغية التخلص منه . ولم تخف نواياه على قيصر فأخذ حذره منه وراقب حركاته . ولم تلبث كليوبطرة أن جاءت هى الأخرى الى الاسكندرية خفية عن طريق البحر ، وتسللت الى القصر الملكى حيث التقت بقيصر . ولم تكن كليوبطرة فى ربيعها الحادى والعشرين جميلة بقدر ما كانت جذابة لبقة الحديث حاضرة البديهة رخيمة الصوت . فلا عجب أن فتنت قيصر الذى كان فى الخمسين من عمره وسلبت لبه حتى لم يعد فى وسعه أن يعدل بينها وبين أخيها . وقد اجتاحت بطلميوس الصغير عند مشاهدة أخته موجة من الغضب الشديد ، فغادر القصر وهو يرغى ويزيد ويصرخ مستنكرا الخيانة وملقيا بتاجه على الأرض . غير أن الجنود الرومان هدأوا من ثورته وأجبروه على العودة . وقد بلغ صراخه مسامع بعض الاسكندريين فاحتشدوا وهاجموا القصر من جميع جهاته ، وكادوا يقتحمونه لولا أن قيصر أطل عليهم وخطب فيهم واعداً بتحقيق مطالبهم .

ودعا قيصر الى اجتماع حضره كل من بطلميوس وكليوبطرة وقرئت عليهما وصية أبيهما الراحل التى كان أصلها قد أودع

بالاسكندرية ، بينما أرسلت صورتها الى روما وسلمت لپومپى عندما تعذر ايداعها بالخزانة العامة . وقد نصت الوصية على أن يتزوج بطلميوس بأخته جريا على تقاليد الأسرة ، وأن يعتليا العرش سويا ، تحت حماية الشعب الرومانى . وأضاف قيصر أنه وقد أصبح دكتاتورا (١) ، يتمتع بكامل السلطة لتنفيذ الوصية . وتبعا لذلك نصب الأخوان ملكين على مصر ، ووعد قيصر باهداء قبرص — التى أصبحت جزءا من أملاك روما — لأرسينوى (Arsinoe) أختهما الصغرى وبطلميوس أخيهما الأصغر . وبذلك هدأت الأحوال على الأقل بعض الوقت . ورضخ الملك الصغير أو تظاهر بالرضوخ لحكم قيصر . وأقيم فى النهاية حفل ابتهاجا بالصلح .

غير أن هذا الصلح لم يكن فى مصلحة پوثينوس الذى أحس بالخطر من عودة كليوبطرة الى العرش بمساعدة قيصر . وقد أيقن أنها سوف تصبح الحاكم الفعلى وأن بطلميوس لم يشرك معها الا اشراكا شكليا مؤقتا ، وسرعان ما تنفرد بالسلطة وتحاسبه حسابا عسيرا سواء على معاداته لها أو على تصرفاته كوزير للمالية ، ثم تنكل به . واستبد به القلق لا على سلطته فحسب بل على حياته أيضا فسعى الى دس السم لقيصر . وعندما أخفق فى التخلص منه بالخديعة لجأ الى القوة السافرة ، فأرسل الى أخيللاس ، قائد الجيش البطلمى فى بلوزيوم (٢) ، يدعوه سرا للزحف بقواته الى الاسكندرية . وعندئذ طلب قيصر من بطلميوس أن يأمر قائده بالكف عن مهاجمة المدينة . فبعث اليه برسولين ،

---

(١) عين قيصر دكتاتورا للمرة الثانية فى اواخر اكتوبر من عام ٤٨ بعد وصول الانباء بانتصاره فى معركة فرسالوس ، انظر :

T. R. S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic, II (1952), p. 272.

P. Graindor, La Guerre d'Alexandrie (1931), p. 35, n. 3.

(٢) بيلوزيون فى اليونانية وهى « الفرما » .

قبض عليهما أخيلاس وقتل أحدهما وجرح الآخر جرحا بليغا . وبذلك بدأت الحرب الشهيرة فى التاريخ باسم حرب الاسكندرية (Bellum Alexandrinum) (١) .

وترك اخيلاس فى بلوزيوم حامية على حدود مصر الشرقية ثم سار مع بقية جيشه إلى الاسكندرية . وقد بلغ عدد جيشه ٢٠٫٠٠٠ رجل من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان الذين حنكتهم المعارك . وكانت قواته تتألف من جنود الحامية الرومانية التى كان جابينيوس قد تركها فى مصر لتشد من أزر « الزمار » عام ٥٥ (٢) . وضرب الحصار على قوات قيصر المرابطة فى بروخيوم (Brucheum) ، وهو الحى الملكى الذى يتاخم الميناء الكبير Portus Magnus (الشرقى) وكانت تقع فيه معظم القصور وملحقاتها (٣) . ولم يعد فى وسع القائد الرومانى الا أن ينحصن داخل القصر الملكى ويتخذ موقف الدفاع . واكتفى بارسال بعض كتائبه لمنازلة العدو فى الشوارع المؤدية الى القصر حتى يصده

---

(١) جميع الاحداث السالفة الذكر رواها قيصر نفسه فى آخر الكتاب الثالث من مذكراته عن الحرب الاهلية (Commentarii de Bello Civili III, 106-112) . واما الأحداث التالية فقد وردت فى كتاب « حرب الاسكندرية » الذى الفه ضابط من ضباط قيصر يرجح انه هيرتيوس (A. Hirtius) ؛ راجع ص ١٩٥ ، هامش ١ .

(٢) كان هؤلاء الجنود قد استوطنوا الاسكندرية منذ ذلك الوقت فالفوا المعيشة السهلة وشغفوا بالفوضى ونسوا صرامة النظام العسكرى ، واتخذوا لهم زوجات واصبح لكثير منهم أسر . وقد انضم اليهم مرتزقة كثيرون بعضهم لصوص او قطاع طرق وفدوا من سوريا او كيليكيا والاقاليم المجاورة ، وبعضهم الاخر مجرمون عتاة هاربون من وجه العدالة أو منفيون او عبيد آبقون التجأوا الى الاسكندرية حيث انخرطوا فى سلك الحامية ليضمنوا قوتهم . وقد تحكم هذا الجيش فى المدينة ، فكان يطالب باعدام اصدقاء الملوك انفسهم وينهب ممتلكات الاثرياء ، ويحاصر قصر الملك لارغامه على زيادة زيادة رواتبه ، ويطرد ملكا ويولى آخر مكانه وفقا لتقليد داوم عليه الجيش البطلمى منذ القدم . وقد حنكت معارك الاسكندرية الكثيرة جميع رجال هذا الجيش الذين اعادوا بطلميوس الزمار الى عرشه . وقتلوا ولدين من ابناء بيبولوس ، حاكم سوريا ، عندما جاءا فى طلبهم ، كما حاربوا الاهالى المصريين (راجع Bell. Civ. III, 110) .

(٣) فى هذا الحى كانت تقع دار العلم (Museum) والمكتبة (Bibliotheke) والمسرح (Theatrum) ومدافن الأسرة الملكية ، وربما أيضا قبر الاسكندر (Séma) .

عنه ويفقده ميزة تفوقه العددي . ويبدو أن أخيلاس أخطأ بتفريق قواته وعدم تركيز الهجوم على هدف معين واحد . وقد نشبت في الوقت نفسه معركة عنيفة عند الميناء الكبير ، إذ حاول الاسكندريون أن يبلغوا سفنهم الراسية فيه ليدمروا بها أسطول قيصر ويستولوا على الميناء والشريط الساحلي المتاخم له ويمنعوا عنه المؤونة والامدادات . ولم يجد قيصر مناصا من أن يحرق جميع هذه السفن البطلمية وغيرها مما كان راسيا في أحواض الترميم حتى يحرم أعداءه من الانتفاع بها ويحمي أسطوله الصغير ويؤمن طريق امداداته . وقد امتدت ألسنة اللهب الى المخازن (apostaseis) الملاصقة* برصيف الميناء الكبير ودمرت حوالى ٤٠٠٠٠ كتاب ، أو بعبارة أدق لفافة بردية مخطوطة (biblia) كانت مودعة بها توطئة لتصديرها الى الخارج . وقد أدى ذلك الى رواج القصة القائلة بأن مكتبة الاسكندرية الكبيرة - التى كانت تحتوي على ما لا يقل عن ٧٠٠ر٠٠٠ مخطوط (١) - دمرت في ذلك الحريق . بيد أنها قصة غير صحيحة لأنه لم يرد لها ذكر عند قيصر أو صاحب كتاب حرب الاسكندرية ، أو شيشرون أو أي كاتب آخر معاصر (٢) . وبضربة خاطفة استولى قيصر على جزيرة صغيرة تقع عند أقصى الطرف الشرقي من جزيرة فاروس Pharos (هي رأس التين) ، وتتحكم في مدخل الميناء الكبير . وعلى هذه الجزيرة الصغيرة (وتعرف أيضا باسم فاروس) كانت تقوم المنارة الشهيرة التي تقوم مكانها الآن .

---

(١) فاذا أضفنا الى هذا الرقم ٤٠٠٠٠ مخطوط أهداها أنطونيوس الى كليوبطرة يبلغ أقصى عدد احتوته مكتبة الاسكندرية من اللفائف البردية المخطوطة ٩٠٠ر٠٠٠ . وينبغي التنبيه الى أن هذه اللفائف لم تكن كتبا بالمعنى المألوف للكلمة ، وانما كانت حوالى تسع منها تعادل كتابا متوسط الحجم من ٣٠٠ صفحة ، وعلى ذلك يكون عدد الكتب التي احتوتها المكتبة في عصر كليوبطرة ١٢٢ر٨٧٠ كتابا على وجه التقريب .

(٢) عن حريق مكتبة الاسكندرية الكبرى ، راجع :
E. A. Parsons, The Alexandrian Library (London, 1952), 288-319; 413-425.

دكتور محمد عواد حسين « المسألة المصرية في السياسة الرومانية » ، حوليات آداب عين شمس ، المجلد الرابع (يناير ١٩٥٧) ص ٢٤ - ٣٩ .

وانظر ايضا :
دكتور مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية القديمة (مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٧٧)

قلعة قايتباى (قايد بك) (١) . ولما كان الاسكندريون يسيطرون على الجسر الكبير أو الهپتاستاديوم (Heptastadium) (٢) الذى يصل الشاطىء بجزيرة فاروس ، فقد استطاعوا أن يبنوا أسطولا جديدا فى ميناء ايونستوس (Eunostos) الذى يقع فى غرب الجسر الكبير . وفى الوقت نفسه أمر جانوميديس (Ganymedes) مربى أرسينوى ، الذى خلف أخيللاس فى قيادة القوات البطلمية ، بايصال ماء البحر الى القنوات بقصد تلويث مياه الشرب التى كانت مخزونة فى صهاريج يتزود منها العدو . وقد أثار هذا الاجراء الهلع بين جنود قيصر فسرت بينهم موجة من التذمر الشديد . لكن القائد الحازم أمرهم من فوره بالحفر طوال الليل ، ولم ينبلج الصباح حتى كانوا قد عثروا على آبار بها مياه صالحة للشرب .

ولم تلبث أن لاحت فى الأفق السفن التى جاءت من موانى آسيا الصغرى وسوريا حاملة جنود الفرقة السابعة والثلاثين . وكان قيصر قد استنجد بكالفينوس للمرة الثانية ، فأرسل اليه هذه الفرقة وفرقة أخرى عن طريق البحر . لكنه لم يستطع أن يبرح آسيا الصغرى لانشغاله بالقتال ضد فرناكيس (Pharnaces) . وناشد قيصر أيضا مالخوس (Malchus) ملك النبط ، أن يمده بوحدات من فرسانه الأشداء . وسرعان مالبى هذا الملك نداءه لأنه كان يحقد على البطالمة ولم ينس أن پومپى هو الذى أرغم سلفه الحارث (Arethas) على الجلاء عن فلسطين . كذلك عهد الى مثراداتيس البرجامى أن يحشد

---

(١) عن هذه المنارة ، أنظر : دكتور ابراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرة ، ١٩٥٩) ص ١١ — ١٦ .

(٢) الكلمة معناها سبعة استاديات . ولما كان الاستاديوم (stadium) يساوى ٢٠٠ ياردة أى نحوالى ١٨٥ مترا ، فان طول هذاالجسر كان يبلغ ١٢٩٥ مترا . وكان يبدأ فى الجنوب عند مكان يقابل الآن كوم الناضورتقريبا وسط المنطقة التى يشغلها الآن ميدان التحرير (محمد على سابقا) وحى الميناوالجمرك .وينتهى عند مكان يقابل الآن شارع ابو وردة .

قوات من كيليكيا وسوريا وفلسطين ويزحف بها الى مصر (١) . وكان أنتيباتر الادومى(٢) الذى يحكم فى أرض يهوذا باسم هركانوس ، الكاهن الأعلى ، هو أول من بادر بعرض خدماته على مثراداتيس ، فأمده بفرقة من ثلاثة آلاف جندى يهودى مزودين بالسلاح الثقيل . ولعل الباعث على اهتمامه هو أنه كان يدين بمركزه لپومپى ثم تحـول الى جانب قيصر بعد أن بلغه نبأ انتصاره فى فرسالوس . وفضـلا عن ذلك فان اقتحام پومپى أورشليم عنوة كان لا يزال ماثلا فى أذهان اليهود . وقبل انتهاء عام ٤٨ كان مثراداتيس البرجامى يقترب بسرعة من بلوزيوم ، مفتاح دخول مصر من ناحية الشرق .

كان قيصر قد جازف حينئـذ بترك جنـود الفرق لحراسـة المواقع الساحلية وأبحر مع سفنه الى مدخل الميناء الكبير . وقد أراد بذلك أن يحمى الامدادات من هجوم أسـطول العدو ويفسـح أمام ناقلات الجنود الطريق لبلوغ الساحل . وأفضى ذلك الى اشتباكه والأسطول الاسـكندرى فى معركة انتصر فيها الرومان بفضـل بسالة ملاحى سفن رودس ، وفى مقدمتهم الضابط البحرى الشجاع يوفرانور Euphranor (أكتوبر ٤٨) . ومع هذا فقـد أبدى الاسكندريون نشاطا كبيرا فأخذت مراكبهم تجتاز معبرى الجسر الكبير ، قاذفة باللهب سفن الرومان الراسية بالميناء الكبير (٣) . واستطاعوا أن يبنـوا على عجل أسطولا صـغيرا آخر أزعجوا به أعداءهم واعترضـوا به طريق مراصلاتهم البحرية . ولم يعد فى وسع قيصر أن يسكت على هجماتهم المتكررة ورأى أنه لابد من أن ينتزع منهم السيطرة على مياه الميناءين .

---

(١) وهو ابن احد أثرياء برجامون كان قد تبناه مثراداتيس الأكبر (يوپاتور) وفى رواية اخرى انه كان ابنه من احدى محظياته. وكان واسع الخبرة بالحرب شجاعا شديد الولاء لقيصر .

(٢) فى اليونانية انتيپاتروس (Antipatros)

(٣) كان بالجسر الكبير (Heptastadium) منفذان او معبران يصـلان بين الميناءين احدهما على مقربة من جزيرة فاروس والآخر على مقربة من الساحل .

ولذلك أبحر مع سفنه ودار حول جزيرة فاروس لمقاتلة الأسطول البطليمى فى الميناء الغربى . واستطاع يوفرانور الجرىء أن يمرق مع بعض سفنه عبر ممر ضيق وسط الشعاب الصخرية وأن يفسح الطريق بمناورة بارعة أمام بقية السفن الرومانية . وقد اقتحمت هذه السفن الميناء الغربى والتحمت وأسطول العدو فى معركة حامية انجلت عن هزيمة الإسكندريين وفرارهم للاعتصام بالجسر الكبير أو بمبانى الميناء المزودة بمعدات الدفاع .

غير أن هذا الانتصار كان كسابقه انتصاراً غير حاسم ، إذ بقى على قيصر أن يستولى على الجسر نفسه . ولذلك قام من الشمال الغربى بهجوم مفاجىء استولى به على كل جزيرة فاروس . وفى هذا الهجوم قتل عدد كبير من سكان الجزيرة وأسر حوالى ٦٠٠ رجل ونهبت منازلهم أو دمرت . كما استولى فى الوقت نفسه على الطرف الشمالى للجسر وسيطر على الطرف المتاخم للجزيرة . ورأى قيصر ألا يستغل انتصاره بسرعة فقام فى اليوم التالى بهجوم على الجسر نفسه بمعاونة الأسطول . وقد استطاع رجاله أن يرغموا بواسطة الآلات القاذفة (tormenta) المدافعين عن القنطرة الواقعة بين الجسر والساحل على الارتداد الى المدينة ، ونزلوا ثلاث كتائب على الجسر ، بينما تأهبت القوات الأخرى الواقفة على ظهور السفن للنزول فى أية لحظة . وأقام قيصر التحصينات عند مدخل الجسر من ناحية الاسكندرية وشرع جنوده فى سد الممر الواقع فى أسفل القنطرة . وعندئذ تدفق الاسكندريون من المدينة لمهاجمة الرومان وأخذت سفنهم تهاجم الجسر الكبير من الجانبين . وغمر الحماس عدداً من الملاحين والمجدفين الرومان فتركوا سفنهم وصعدوا الى الجسر لمساعدة زملائهم والاشتراك فى المعركة . وقد استطاعوا أن يرغموا السفن البطلمية على الابتعاد عنه . غير أن انتصارهم لم يطل أمده لأن فريقاً جريئاً من الاسكندريين

تمكن من التسلل الى ذلك الجزء من الجسر الذى يقسم بين فاروس والجانب الأيمن من الساحل المواجه للميناء الغربى ، حيث احتشدت قوات الرومان . وقد أحدثت حركة الالتفاف هذه اضطرابا شديدا بين صفوف الملاحين الرومان الذين صعدوا الجسر منذ فترة قصيرة وحملتهم على الانسحاب بسرعة الى سفنهم فى غير نظام . وتشجع الاسكندريون فغادرت جموع غفيرة منهم السفن وصعدت الى الجسر . واشتد الذعر بين الرومان عندما شاهدوا سفنهم وهى تبتعد عن الجسر بسرعة حتى لا تقع فى أيدى الأعداء . ولما سمع جنود الكتائب الثلاث أنات زملائهم الجرحى ورأوهم يفرون أو يقذفون بأنفسهم الى البحر ، وأدركوا أن العدو قد أوشك أن يطوقهم ، تخلوا عن الاستحكامات التى أقاموها عند رأس القنطرة وهرعوا بدورهم الى أقرب السفن اليهم . وقد غرقت بعض هذه السفن من ثقل حمولتها . وأما من ترددوا فى القرار أو ثبتوا للمقاومة فقد لقوا حتفهم على أيدى الاسكندريين . ومع هذا فقد تمكن بعض جنود الفرق الرومانيـة من النجـاة اما بالاعتصـام بالمراكب التى كانت فى انتظارهم أو بالسباحة الى الزوارق القريبة . وطفق قيصر يحث جنـوده على القتـال والدفاع عن الاستحكامات والقنطرة حتى أدرك أن الموقف قد ساء وأن لا جدوى من الصمود . وعندئذ قرر أن يلتجىء الى السفينة التى تقلته . غير أن بعض جنوده اندفعوا فى اثره وركبوا معه فلم تستطع السفينة الابتعاد عن الجسر ، وسرعان ما مالت على أحد جنبيها وأوشكت أن تغوص فى المـاء . وكاد قيصر نفســه أن يهلك لولا أنه بادر الى القفز الى البحر والسباحة الى سفينة أخرى قريبة . وقد بلغت خسائره فى هذه المعركة ، ما عدا السفن التى لا نعرف عددها ، حوالى ٨٠٠ مقاتل رومانى نصفهم من جنـود الفرق الذين كان يعتز بهم ويحتاج اليهم أشـد الاحتياج . ولم يلبث الاسكندريون أن طهروا معبر الجسر المتـاخم للساحل من الأحجار وأخذت سفنهم تتنقل بين الميناءين دون عائق ، بل أخذت أيضا تعترض

وتأسر السفن التى تمد العدو بالمؤونة .ولم يجد قيصر الذى عاد الى موقف الدفاع مناصا من الاشتباك وأسطول العدو فدارت رحى معركة بحرية أحرز فيها الرومان انتصارا رجح كفتهم ، اذ استطاع يوفرانور الردوسى أن يوقع بعض قطع الأسطول البطلمى فى كمين عند مصب الفرع الكانوبى ، وان كان هذا الضابط الجرىء قد دفع حياته ثمنا لهذا الانتصار .

كان الاسكندريون أو بعضهم قد بدأوا حينئذ يسأمون الحرب ويتزعجون من ركود الحالة التجارية فى المدينة ويضيقون ذرعا بقسوة جانوميديس وتعسف أرسينوى التى كانت قد فرت من القصر الى معسكر الجيش البطلمى وتخلصت من قائده أخيللاس بمعاونة مربيها. ولذا أبدى الاسكندريون رغبتهم فى التفاوض مع قيصر اذا هو خلى سبيل ملكهم الصغير . وقد اعتقدوا أن عودته اليهم قد تكسبهم قوة وتحد من شوكة أرسينوى أو أنه قد يتوسط لهم فى عقد الصلح مع العدو اذا ما تعذر اجلاؤه بعد أن تبلغه الامدادات . ومع أن قيصر لم ينخدع بكلامهم الا أنه استجاب لمطلبهم وأطلق سراح بطلميوس مناشدا إياه أن يرد قومه الى صوابهم ويقنعهم بوقف القتال وأن يبقى على ولائه للشعب الرومانى ويثبت أنه أهل للثقة التى وضعها قيصر فيه . وليس من المستبعد أن قيصر كان يأمل فى أن ينشب النزاع بين الملك وأخته بعد التقائهما . وفى رأى مؤلف كتاب « حرب الاسكندرية » أن قيصر لم يستجب لمطلب الاسكندريين الا لأنه رأى أن من الأليق به أن يقاتل ملكا من أن يقاتل شرذمة من الافاقين اللاجئين والعبيد الآبقين (١). ومع أن بطلميوس تظاهر بعدم الرغبة فى مبارحة القصر وبايثاره البقاء الى جانب قيصر ، وبكى عند مفارقته ، الا أن دموعه — كما يقول المؤرخ نفسه — لم تكن سوى دموع الفرح لاطلاق سراحه (٢) . فلم

(١) Bell. Alex. 24, 6.
(٢) Bell. Alex. 24, 1.

بكد يعود الى جيشه حتى استأنف القتال ضد الرومان بصورة أعنف مما كانت من قبل .

وفى تلك الأثناء كان مثراداتيس البرجامى قد بلغ الحدود الشرقية واستولى على بلوزيوم بعد قتال عنيف (أواخر فبراير عام ٤٧) . وانحدر جنوبا — كسائر غزاة مصر الأقدمين — و(فرع النيل البيلوزى أو الشرقى) حتى يتجنب شبكة قنوات الدلتا ومستنقعاتها . وتابع مسيره حتى بلغ ليونتوبوليس (Leontopolis) حيث كانت تقيم جالية كبيرة من اليهود منذ عهد بطلميوس السادس (فيلوميتور) (١) . وقد حاول اليهود أن يتصدوا له ويعرقلوا زحفه ، ولكنهم ما لبثوا أن كفوا عن مقاومته عندما أبلغهم أنتيپاتر أوامر هركانوس ، الكاهن الأعلى ، بأن يمدوا الرومان بالمساعدة والمؤونة (٢) . وبعد أن بلغ منف سار شمالا و(الفرع الكانوبى حتى بلغ مكانا على مقربة من بحيرة مريوط (Mareotis) . وعندما نمى الى بطلميوس نبأ وصول مثراداتيس ، أرسل جانبا من قواته لوقف تقدمه ، وزحف هو مع بقية جيشه جنوبا بمحاذاة الفرع الكانوبى ليقضى عليه قبل أن يتمكن من الاتصال بقيصر . وكان الأخير قد بلغه خبر وصول الامدادات ، فأقلع بسفنه شرقا لتضليل العدو ، ثم قفل راجعا الى الغرب فجأة حيث أنزل قواته عند رأس على الساحل تعرف باسم «خرسونيسوس» أى شبه الجزيرة (وهى الدخيلة) ، وبعدئذ دار حول الشاطىء الجنوبى لبحيرة مريوط زاحفا بسرعة ليتصل بجيش مثراداتيس الذى تحرج مركزه (٣) .

---

(١) وهى تل اليهودية قرب شبين القناطر .

(٢) من الجائز ان هركانوس نفسه كان يرافق مثراداتيس فى حملته : انظر :
P. Graindor, **La Guerre d'Alexandrie**, p. 135, n. 3.

(٣) هذه الرأس التى كانت تقع وفقتئذ عند أقصى الطرف الغربى لبحيرة مريوط كانت بعيدة عن النقط الى فرع النيل الكانوبى ، ولكن بحيرة مريوط تمتد قديما الى الغرب مثلما تمتد اليوم .

كان الملك البطلمى قـد رابط فوق ربوة مرتفعـة ووزع قواته توزيعا ملائمـا . فكان الفرع الكانوبى — حيث احتشـدت كثير من سفنه — يحمى جانبا من موقعه ، والمستنقعات تحمى جانبا آخر بينما كان الارتفاع نفسه يقى الجانب الثالث الذى ضرب فيه معسكره ، وأما الجانب الرابع فكان مكشوفا غير عسير المنال . ولذلك وضع فيه صفوة جنوده . وأقام الملك حصنا فى قرية متاخمة لمعسكره . وفضلا عن ذلك فان قناة أو فرعا صغيرا من فروع النيل كان يفصـل بينه وبين موقع الرومان . ومع هـذا فقد تمكن الفرسان الجرمان فى جيش قيصر من عبور هذه القناة ، وسرعان ما لحق بهم جنود الفرق الذين عبروا القناة فوق قنطرة بنوها من جذوع أشجار النخيل . ودحرت القوات الرومانية طلائع الجيش البطلمى وردتها على أعقابها ، وان كان معسكر الملك قد صمد أمام المهاجمين . وحدث عندئذ أن تدفقت القوات البطلمية المرابطة فى المؤخرة بأعلى الربوة الى الامام لتشد من أزر مقدمة الجيش التى تعرضت للخطر . غير أن ذلك كشف المؤخرة وأضعفها . واكتشف قيصر بسرعة نقطة الضعف وهو فى مكانه المطل على ساحة المعركة ، فأرسل كارفولينوس (Carfulenus) وهو ، أحد ضباطه الأكفاء ، على رأس ثلاث كتائب ، لمهاجمة هذه الثغرة . وقام كارفولينوس بواجبـه خير قيام ، وأثار هجومه المفاجىء ذعرا شديدا بين صفوف جنود بطلميوس فـولوا هاربين . وتدفق الجنـود الرومان من كل جانب ، وطاردوا أعداءهم الذين هدموا استحكاماتهم المجاورة للنهر لكى يبلغوا السفن الراسية فيه وينجو بحياتهم . وقد قتل بعضهم أثنـاء الفرار ، وغرق البعض الآخر . وكان الملك الصـغير نفسـه بين الهالكين[1] . واستسلم

(١) مات (بطليميوس الثالث عشر) قبل ١٥ يناير ٤٧ ، وهو فى سن ١٦ (اذ ولد فى ٦٣) بينما ولدت كليوبطرة فى عام ٦٩ . وامـا اخوها الاخر (ص ٢٧١) فقد ولد فى عام ٥٩ .

الاسكندريون لقيصر فى ١٥ ينـاير من عام ٤٧ ق وفقا « لتقـويم يوليوس (١) » .

وعاد يوليوس قيصر الى الاسكندرية عودة الظافرين فخرج اليه مواطنوها حاملين تماثيل آلهتهم لتشفع لهم عنده . وقد صفح عنهم بما عهد فيه من تسـامح ورأفة (clementia) . وحمل الى كليوبطرة نبأ موت أخيها ، وأرسل أختها العنيـدة أرسينوى الى روما لتلقى جزاء عداوتها للرومان . وعمل على تنفيذ وصية «الزمار» فتزوجت كليوبطرة بأخ آخر أصغر سنا ، وهو بطلميوس الرابع عشر ، وارتقت العرش معه حفاظاً على تقاليد الأسرة البطلمية . وليس من المستبعد أن الدكتاتور قد حصل باسم « الائتلاف الثلاثى » بقيـة الدين الذى كان فى عنق الملك الراحل ، ومن الجائز أيضـا أنه منح بعض الامتيـازات للجالية اليهودية بالمدينة ، وان كان من العسير تحديدها أو معرفة طبيعتها . ولم تجد كليوبطرة أى صعوبة فى اقناع قيصر بالبقـاء الى جانبها فى مصر بعض الوقت ، ولعله رافقها فى رحلة نيلية الى مصر العليا (*) . ولم يشأ أن يعلن مصر ولاية رومانية لأنه خشى أنه اذا أقام واليا رومانيا على بلد غنى مثل مصر فان هذا الوالى قد يدفعه الطموح الى الاستقلال بهـا والتمرد عليه (٢) . ولذلك آثر أن يدع السلطة فى يد كليوبطرة الموالية

(١) أو ١٢ يناير او ٦ فبراير وفقا لآراء بعض الباحثين : ويقـابل ١٥ يناير يوم ٢٦ مارس فى التقويم الرومانى القـديم قبل اصـلاحه على يد يوليوس قيصر فى ٤٦ ق م انظر :

T. C. Skeat, **The Reigns of the Ptolemies** (Münchener Beiträge zur Papyrusforschung, Heft 39), 1954, p. 41 & n. 18.

(٢) راجع :

Suetonius, **Div. Iul.** 35, 1: veritus provinciam facere, ne quandoque violentiorem praesidem nacta novarum rerum materia esset.

(*) عـاشرها قيصر — دون زواج — وانجبت منه — بعد رحيله عن مصـر فى اثنـاء صيف عام ٤٧ ، ابنـا اسمته بطـليموس قيصر الذى لقبـه السكندريون " قيصرون " CAESARION

له ، تاركا وراءه حامية من ثلاث فرق رومانية لتدعيم مركزها (١) . وقد غادر قيصر مصر بحرا مع الفرقة السادسة فى مايو أو يونيو من عام ٤٧ (٢) .

الحملة فى آسيا الصغرى : زيلا

كان الموقف العسكرى قد تحرج فى آسيا الصغرى حيث ظهر عدو جديد اذ استغل فرناكيس الثانى ، ابن مثراداتيس الأكبر ، فرصة الحرب الأهلية ، وزحف من القِرم (Crimea)(٣) وغزا كپادوكيا وأرمينيا الصغرى ، ثم انسحب من المنطقة الأولى ولكنه رفض الجلاء عن الثانية . وقد أنزل عند نيقوبوليس بأرمينيا فى أوائل عام ٤٧ الهزيمة بدوميتيوس كالڤينوس الذى تضاءلت قواته بعد ارساله فرقتين من جيشه لنجدة قيصر فى الاسكندرية . وأسكرته خمر الانتصار فاجتاح پنطوس واستولى على مدنها الواحدة تلو الأخرى ، ونهب أراضيها ونكل بالأسرى الرومان تنكيلا رهيبا . وبلغ قيصر پطولمايس آكى Ptolemais Ace (عكا) على ساحل فينيقيا ، ولحقت به قوات مثراداتيس البرجامى والفرقة الثانية التى كان كالڤينوس قد أرسلها

---

(١) هذه الفرق هى السابعة والعشرون والسابعة والثلاثون وفرقة مجهولة الاسم لعل قيصر كونها من جنود جابينيوس الذين أسرهم وغيرهم من الاسرى ، واعطاها رقم التاسعة والثلاثين (راجع Graindor, op. cit., p. 164) وقد وضعها كلها تحت قيادة روفيو (Rufio) أو روفينوس (Rufinus) وهو ابن احد عتقائه كما ورد عند سويتونيوس (Div. Iul. 76) .

(٢) وصل قيصر الاسكندرية فى اوائل اكتوبر من عام ٤٨ وغادرها فى عام ٤٧ . لكننا لا نعرف فى أى شهر على وجه الدقة . ويقول ابيانوس فى « الحرب الاهلية » (II, 90) انه مكث بمصر تسعة اشهر . ولما كانت الحرب قد استغرقت ستة اشهر ، فانه يكون قد مكث مع كليوبطرة ثلاثة اشهر ، وترك مصر نهائيا فى يونيو من عام ٤٧ (انظر ، جراندور ، ص ١٦٣) غير ان الاستاذ لورد يرى ان اغراء كليوبطرة لم يصرفه عن واجباته هذه المدة الطويلة ، ويرجح ان قيصر غادر مصر فى تاريخ يقع بين ١٥ ابريل ، ٥ مايو على الاكثر انظر مقاله بعنوان :

L. E. Lord, "The Date of Julius Cassar's Departure from Alexandria," JRS 28 (1938), 19-38.

(٣) الاسم القديم لشبه جزيرة القرم هو شبه الجزيرة التاورية "Chersonesus Taurica" .

اليه ولكنها استقرت بسوريا . وهناك كافأ قيصر اليهود على ولائهم فألغى تنظيمات جابينيوس وأعاد أورشليم الى سابق مركزها ، واعترف بهركانوس كاهنا أعلى ، وترك ادارة بلاد يهوذا فى يد أنتيباتر . كما سمح باعادة بناء أسوار المدينة المقدسة ، وأعاد ميناء يافا (Ioppa) لليهود ، وأعفاهم من عبء ايواء القوات الرومانية فى الشتاء ، وأعفاهم كذلك اعفاء مؤقتا من الجزية . ومع أن هذه التنظيمات أحيلت على السناتو ليقرها بصفة رسمية ، وعدلها قيصر نفسه فيما بعد ، فقد وضعت فى الحال موضع التنفيذ ، وأكسبته رضاء يهود الشتات (Diaspora) الذين كانوا ما يزالون يهتمون بمصير وطنهم الأصلى .

وانتقل قيصر بعد ذلك الى أنطاكية حيث أتم تنظيم شئون سورية وعهد بالولاية الى أحد ضباطه . ثم أبحر من سلوقية الى طرسوس (Tarsus) حيث استقبل سفراء مدن كيليكيا . ووفد عليه كاسيوس (C. Cassius) فصفح عنه . وبعدئذ زحف بسرعة على رأس الفرقة السادسة الى الشمال ، وبلغ حدود بنطوس حيث التقى بالفرقة السادسة والثلاثين وفرقة كالثينوس وغيرهما من قوات المشاة والفرسان التى أمده بها ديوطاروس ، أمير جلاتيا . وأما فرناكيس فقد تنازعه عاملان : الرهبة من خصمه والرغبة فى الاحتفاظ بما كسبه . لذلك أرسل الى القائد الرومانى سفراء اما للتفاوض أو لكسب الوقت . وأشار قيصر بالاستسلام ودفع التعويضات حتى يعفو عنه ، موهما اياه بأنه أكثر رغبة فى الرحيل عن آسيا الصغرى الى ايطاليا منه فى القضاء عليه . غير أن فرناكيس ازداد ثقة بنفسه ودهائه فرابط عند زيلا (Zela) فى اقليم بنطوس وتأهب للقتال . ودنا قيصر من فريسته واستطاع بحركة خاطفة تحت جنح الظلام أن يحضر فرقة الى مكان لا يبعد سوى ميل واحد عن موقع خصمه . وحسب فرناكيس أن اللحظة مواتية لمهاجمة الرومان، فحمل عليهم بعجلاته الحربية قبل أن ينظموا صفوفهم . غير أنهم ردوه

بجرابهم الثقيلة على أعقابه ، ولم يلبثوا أن انقضوا على مشاته ، واخترقت الفرقة السادسة خطوط جيشه فشاع فيه الاضطراب وتقهقر دون نظام . واجتاح الرومان معسكره فلاذ بالفرار ناجياً بحياته . ولم تستغرق معركة زيلا التى دارت فى أوائل أغسطس سوى خمسة أيام كتب بعدها قيصر الى أحد أصدقائه فى روما رسالته المشهورة أو — ان جاز التعبير — برقيته المقتضبة التى يقول فيها « أتيت ورأيت وانتصرت veni, vidi, vici (١) . وشرع فى اعادة تنظيم شئون آسيا الصغرى فأقر ديوطاروس على عرش جلاتيا وان كان قد حمله على التنازل عن الجانب الشرقى من مملكته لمثراداتيس البرجامى ، وعن حقه فى أرمينيا الصغرى لأريوبرزانيس ، ملك كپادوكيا (٢) . وترك لدوميتيوس كالڤينوس استكمال تنظيم شئون ولاية آسيا ، ثم عهد بالفرقة السادسة وفرقة بنطوس لأحد مساعديه (legatus) وجمع الغرامات من المدن المقهورة على وجه السرعة ، ثم أبحر فى نهاية أغسطس من عام ٤٧ عائداً الى ايطاليا .

ولما عاد قيصر الى روما وجد أنه قد عين بعد معركة فرسالوس أى

---

(١) كان من بين الاشياء المعروضة فى موكب انتصار قيصر على فرناكيس ملك بنطوس عام ٤٥ نقش يحمل هذه الكلمات التى ترمز الى سرعة انهائه تلك الحرب ، راجع : Suetonius, Div. Iul. XXXVII, 2 .

(٢) ورد فى خطبة القاها شيشرون دفاعاً عن الملك ديوطاروس (pro rege Deiotaro, V. 15 ff.) انه تآمر على حياة قيصر . ولا سبيل الى التحقق من هذه الرواية . وقد اتهم فى عام ٤٥ بالتمرد على قيصر فتولى شيشرون الدفاع عنه نظرا للصداقة التى نشأت بينه وبين ابن ديوطاروس اثناء مدة حكم الخطيب الكبير فى كيليكيا . وبعد مصرع قيصر استرد ديوطاروس ممتلكاته . . وقد انحاز فى معركة فيليبى (Philippi) عام ٤٢ الى جانب بروتوس وكاسيوس ، ولكنه تخلى عنهما فجأة وانضم الى ماركوس انطونيوس فى الوقت الملائم ، وبذلك احتفظ بمملكته . وعند ما ظهر له منافس تخلص منه وسيطر على كل جلاتيا . وتوفى فى عام ٤٢ . وكان ديوطاروس قد درب مشاته وفقاً لأساليب القتال الرومانية . وبعد ان اصبحت مصر ولاية رومانية فى عام ٣٠ ق م . كانت احدى الفرق الرومانية الثلاث التى تركها اغسطس فى البلاد تحمل اسم فرقة ديوطاروس الثانية والعشرين (legio XXII Deiotariana) .

منـــذ أواخر أكتوبر عام ٤٨ دكتاتورا لعـــام ٤٧ مرة ثانية (١) ، وأن ماركوس أنطونيوس قد نصب منذ ديسمبر رئيسا للفرسان (magister equitum) أى مســـاعدا له استجابة لرغبته . وكان بعض النبـــلاء الشـــبان من حـــزب قيصر ممن تراكمت عليهم الديون قـــد أثاروا الاضطرابات فى المـــدينة عام ٤٨ بســـبب ما كانوا يعانونه من ضيق اقتصادى ناجم عن الحرب . وكان قيصر ـــ كما أشرنا ـــ (٢) قد حاول تخفيف وطأته فى عام ٤٩ باصـــدار منشور يقضى بتخويل المـــدينين تأدية ديونهم بالعقارات المنقولة وغير المنقولة مقومة بأسعارها قبل الحرب مع خصم الفـــوائد التى كانوا دفعوها من أصل الدين (٣) . وقد تزعم هذه الحركة البريتور كايليوس ((Caelius Rufus) الذى حاول رغم معارضـــة زملائه أن يستصدر قوانين بوقف اســـتحقاق الفوائد والايجارات والديون ، فنحاه القنصل سرڤيليوس عن منصبه ، ثم لقى حتفه عندما حاول أن يثير الفتنة فى جنوب ايطاليا بمعاونة ميلو الذى عاد من المنفى . وتزعم الحركة من بعده دولابللا (P. Dolabella) أحـــد نقبـــاء العامة ، وصهر شيشرون ، الذى حاول هو الآخـــر أن يستصدر قانونا فى أوائل عام ٤٧ بالغـــــاء الديون (novae tabulae) وتخفيض ايجارات المساكن . ولقى ماركوس أنطونيوس عناء كبيرا فى حفظ النظام بالمدينة بل وجد نفسه عاجزا وحده عن معالجة الموقف .

(١) راجع ص ٢٦١ . وعن المرة الاولى ، راجع ص ٢٤٧ .

(٢) راجع ما تقدم فى ص ٢٤٧ .

(٣) Caesar, **Bell. Civ.** III, 1 : cum fides tota Italia esset angustior neque creditae pecuniae solverentur, constituit, ut arbitri darentur; per eos fierent aestimationes possessionum et rerum; quanti quaeque earum ante bellum fuisset, atque hae creditoribus traderentur. Cf. also Suetonius, **Div. Iul.** XLII, 2 : decrevit tandem, ut debitores creditoribus satis facerent per aestimationem possessionum, quanti quasque ante civile bellum comparassent, deducto summae aeris alieni, si quid usurae nomine numeratum aut perscriptum fuisset; qua condicione quarta pars fere crediti deperibat.

فلما بلغ قيصر العاصمة فى سبتمبر عام ٤٧ اتخذ من الاجراءات العاجله ما قضى به على الفوضى وأعاد الأمن الى نصـــابه ، اذ أصـــدر قرارا بوقف سريان الفوائد منذ بداية الحرب الأهلية الأخيرة (١) وباعفاء المستأجرين فى روما من دفع ايجـــار عن مدة عام بحـــد أقصى قدره ٥٠٠ دينار ، وفى ايطاليا بحد أقصى قدره ١٢٥ دينارا (٢) . ولم يلبث أن واجه حركة تمرد خطيرة بين جنود الفـــرقة العاشرة التى كان قد أعادها الى ايطاليا بعد معركة فرسالوس . فقد أخـــذ هؤلاء الجنود المعتزون بخـــدمتهم المتـــازة يطالبون بتسريحهم بسرعــــة ومنحهم مايستحقونه من مكافآت ماليةوقطع زراعية . وسرعان مازحفوامن كمپانيا الى روما لتنفيذ مطالبهم بالقوة . وأدركهم قيصر عند ساحة مارس فى الوقت المناسب وواجـــه حشودهم بجرأته البالغـــة مندداً بعصيانهم الذى لا يليق بالعسكريين (٣) . واذ كان ــ كمـــا يشـــهد شيشرون ــ خطيبا مفـــوها فانه لم يجـــد عناء فى ردهم الى صوابهم واسترداد ولائهم .

الحملة الافريقية : ثاپسوس

كان جيش پومپى قـــد تشتت بعد هزيمته فى فرسالوس ، ولكن تباطؤ قيصرفىحملتهبالشرق أتاح لرجال الحـــزب الارستقراطى وقتا كافيا ليحشدوا فلوله من جديد . وقد تجمعت لديهم حوالى عشر فرق وعدد

(١) Caesar, **Bell. Civ.** III. 20 : legem promulgavit, ut sexenni die sine usuris creditae pecuniae solvantur.

(٢) Cf. also Suetonius, **Div. Iul.** XXXVIII, 2 : annuam etiam habitationem Romae usque ad bina milia nummum, in Italia non ultra quingenos sestertios remisit.

(٣) خاطب قيصر هؤلاء الجنود باسم Quirites ، وهى كلمة مجهولة الاشتقاق كانت تعنى قديما المواطنين الرومان بوجه عام (كما فى عبارة populus Romanus Quiritium) ولكنها صارت تعنى المدنيين فقط . وفى ذلك تعريض بهم وتوبيخ لهم لانهم فى نظره اصبحوا بتمردهم غير جديرين بالزى العسكرى ؛ Cf. Suetonius, **Div. Iul.** LXX.

كبير من وحدات الفرسان فى ولاية افريقيا . وكان كوريو ، نقيب العامة فى عام ٥٠ الذى التحق بجيش قيصر ، قد غزا هذه الولاية فى عام ٤٩ بفرقتين من الفرق الأربع التى أسندت قيادتها اليه ، لكنه لم يلبث أن هزم ولقى مصرعه على يد أنصار پومپى . وشرع هؤلاء فى غزو ايطاليا من الساحل الافريقى .

وعندما شعر قيصر بخطورة الموقف جازف رغم العواصف الشتوية بنقل قواته الى شمال افريقيا حيث استطاع أن ينزل جانبا من هذه القوات بالقرب من بلدة لپتيس الصغرى (Leptis Min)[1] وبات ينتظر وصول بقية جيشه عام ٤٦ . وتمكن ميتيللوس سكيپيو (ناسيكا) ، حمو پومپى ، الذى أسندت اليه قيادة جيش السناتو ، من تعويق زحفه بمعاونة أربع فرق أمده بها چوبا (Juba) ، ملك نوميديا ؛ كما استطاع لابينوس ، زميله القديم فى معارك غالة والذى انشق عليه غداة قيام الحرب الأهلية ، أن يضيق عليه الخناق بالقرب من بلدة روسپينا ((Ruspina)) . وظل مركز قيصر متحرجا فترة من الزمن ولكنه استطاع بالرغم من ضآلة قواته وتفوق العدو فى سلاح الفرسان، أن يخرج من مأزقه دون أن يتكبد خسائر كبيرة ، ولم يلبث أن تحصن فى التلال المتاخمة . وكان من حسن حظه أن انضمت اليه قوات بوجود (Bogud) ، ملك موريتانيا ، وقوات سيتيوس ((P. Sittius)) ، وهو ضابط مغامر كان من قبل أحد أنصار كتيلينا . وأخيرا لحقت به بقية فرقه فشرع يستدرج العدو الى معركة فاصلة . وسرعان ما تهيأت له الفرصة ، اذ تقدم عبر برزخ ضيق لمحاصرة بلدة ثاپسوس (Thapsus) التى تقع على ساحل ولاية افريقيا الشرقى جنوب لبتيس الصغرى، فبادر سكيپيو الى نجدتها وحشد قواته فى مؤخرة جيش قيصر حتى يقطع عليه طريق الانسحاب . وعندئذ استدار قيصر فجأة — وقد استند جناحا جيشه الى البحر — وشن هجوما خاطفا على حشود العدو التى

(1) وتقع على الساحل الشرقى لجمهورية تونس جنوبى سوسه وللاسم صورة اخرى هى : " Lepcis Minor "

انحصرت فى قطاع ضيق لا يسمح باستخدام فصائل الفرسان . فلما حدث الالتحام تشتت جيش السناتو ولاذ فرسان نوميديا بالفرار . وطارد قيصر أعداءه بلا هوادة وانقض جنوده عليهم يفتكون بهم دون رحمة . لقد سئموا طول القتال ولم يفلح قائدهم نفسه فى كبح جماحهم وانجلت المعركة الرهيبة عن مقتل حوالى ٥٠٫٠٠٠ رومانى ومصرع كبار قواد الحزب الارستقراطى ما عدا لابينوس وابنى پومپى ، جنايوس وسكستوس ، الذين نجوا من المذبحة ، وأما كاتو الذى أنيط به الدفاع عن بلدة أوتيكا (Utica) فلم يشأ أن يرغم سكانها الموالين لقيصر على المقاومة بل انه حماهم من انتقام جنود حزبه الهاربين من وجه الجيش المنتصر ، وآثر هو أن ينتحر على أن يقع فى يد ألد خصومه (١) .

نهاية كاتو والجمهورية :

لقد كانت الحرب الافريقية (Bellum Africum) آخر صراع خاضه الجمهوريون ضد يوليوس قيصر لأن الحرب التالية التى دارت رحاها فى أسبانيا لم تكن فى حقيقة الأمر سوى صراع بين قيصر من ناحية وبين لابينوس وابنى پومپى من ناحية أخرى . ولم يكن لكاتو مكان فى حزب پومپى ، ولا كان فى وسعه أن ينكص على عقبيه . لقد قاتل دفاعا عن الجمهورية ، فلما رآها تحتضر على يد قيصر آثر أن يموت معها . وقد أضفى عليه انتحاره هالة من المجد وجعل منه بطلا فى نظر الأجيال التالية ، وشهيدا فى نظر الفلاسفة الرواقيين تجسدت فيه فكرة الجمهورية . ومن حق القارىء أن يسأل ما هى فكرة هذا الرجل عن الجمهورية ؟ لقد كانت الجمهورية (res publica)

---

(١) ومن ثم جاءت تسميته بكاتو الاوتيكى (Cato Uticensis) تمييزا له عن سلفه كاتو الرقيب (Cato Censorius) راجع ص ١٦٧ هامش ١ . ومن مشهد انتحار كاتو الاوتيكى راجع پلوتارخوس ، سيرة كاتو الاصغر ، ٦٦ — ٧٢ .
وتقع اوتيكا (= اوتيك الحالية) على بعد حوالى ٣٠ ميلا الى الغربى من قرطاجة قرب الساحل الشمالى لتونس .

ـ كما يتضح من اللفظ اللاتيني ـ شيئا عاما يمتلكه الشعب (res populi) ، أي دولة تقع مسئولية حكمها على عاتق الشعب ، على الأقل من الناحية النظرية . غير أن الشعب الذي كان له وزن في نظر كاتو لم يكن سوى جمهور طبقته ، أي جمهور طبقة النبلاء الوراثية : (nobiles) التي كان أفرادها بوصفهم حكاما أو أعضاء في مجلس الشيوخ ، يمثلون الشعب . وقد انتحر كاتو لأن الحكم أصبح عندئذ مسئولية رجل واحد أي أصبحت الدولة شيئا في حيازة فرد واحد (res unius) وكأنها ملكية خاصة . وقد عرض كاتو آراءه في المسئولية العامة في خطب كثيرة ألقاها في مناسبات عديدة ، لكنها ضاعت كلها تقريبا . ولعل الخطبة الوحيدة التي وصلتنا صورة منها هي تلك الخطبة التي ألقاها في مجلس الشيوخ أثناء مناقشة مصير المتغلين من أنصار كتيلينا وقلها الينا المؤرخ سللوستيوس (١) . غير أن شيشرون يمدنا أيضا بمعلومات وفيرة عن كاتو وخطبه . ومنها نعلم أن آراءه في اصلاح شئون روما تشبه آراء شيشرون الواردة في كتابي « الجمهورية » و « القوانين » ، ومؤداها العودة الى الدستور الذي كان قائما قبل أيام الأخوين جراكوس عندما كان رجال على شاكلة سلفه كاتو « الرقيب » يديرون دفة الحكم وفقا لمبادىء أخلاقية منقولة عن الفلسفة الرواقية التي تعلمها من أساتذته الاغريق . وكان كاتو الأوتيكي كثير الحديث عن المعاني الخلقية المجردة كالاقدام والمثابرة والصرامة والنزاهة وضبط النفس . ولم يكن غافلا عن مشكلات زمانه ، فكان أعمق فهما من أقرانه الارستقراطيين لمسئوليات روما بعد أن غدت امبراطورية وأكثر منهم دراية بأثر الامبراطورية في انحلال المواطنين (٢) . كان يرى أن لروما رسالة فحواها نشر

---

(١) Bellum Catilinae, 52 وراجع أيضا ما تقدم في ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

(٢) عن موقف كاتو من مشكلات الامبراطورية ، راجع :
M. Gelzer, "Cato Uticensis." Die Antike, X (1934), pp. 59-91.

السلام فى ربوع العالم والسيطرة عليه . غير أنه كان يصر على أن تكون هذه السيطرة متسمة بطابع العدالة والاعتدال فى معاملة الحلفاء والشعوب المقهورة . ولم يحدث أن أدلى بصوته فى السناتو موافقا على اقامة موكب انتصار لأحد الا بعد فحص أعماله والتحقق من أن القائد المنتصر قد سلك مع الأعداء سلوكا ينم عن الانصاف والنزاهة (١) . وقد عرف عن كاتو أنه كان طوال حياته رجلا نزيها جريئا لا يخشى فى الحق لومة لائم . ولم يحدث — فيما يروى — أن خالف ضميره سوى مرة واحدة عندما وافق على رشوة الناخبين لمساعدة صهره بيبيلوس على الفوز بالقنصلية عام ٥٩ (٢) . لكن لعله لم يكن مثالى الخلق كما صوره المعجبون به بعد مماته . فقد وافق أيضا على اقامة صلوات شكرا للآلهة (supplicatio) بمناسبة انتصار صغير أحرزه بيبيلوس ، بينما أنكر هذا الشرف على قواد آخرين أحرزوا انتصارات كبيرة . لقد كان لا يتحرج اذن أن ينحرف عن مبادئه من أجل أفراد أسرته . وكان كاتو عنيدا . ومع هذا فقد أسلس قياده مرة لقيصر وكلوديوس واشترك معهما فى انتهاك الدستور ، بل انه كان على استعداد لأن يسلم ببعض مطالب قيصر حتى فى عام ٤٩ . ولا مراء فى أن جانبا من تبعة الهزيمة فى ثابسوس يقع على عاتقه لأنه أصر على اسناد القيادة الى اسكيبيو بوصفه صاحب أعلى منصب رسمى بدلا من اسنادها الى لابينوس ، وهو أكفأ ضابط فى الجيش . ولا ينبغى أن ننسى أنه كان ضيق الأفق صلف الطبع شديد الاعتداد بنفسه . واذا كان الرواقيون قد خلدوا ذكراه لأنه كفر — فى رأيهم — عن كل سيئاته بايثاره الانتحار على الاستسلام لقيصر ، فانه فى رأى كثير من المحدثين لم ينتحر الا بدافع الصلف والعناد ، وكلاهما لا يسوغ احراز المجد أو الاندراج فى سجل العظماء .

(١) Cicero, ad Fam. XV, 3-6.

(٢) Suetonius, Div. Iul. XIX, 1.

راجع أيضا ص ١٧٢ — ١٧٣ .

ومع هذا فقد كان كاتو رجلا عظيما ووطنيا غيورا فى عصر انتشر فيه الفساد ودب الانحلال . ولم يكن سياسيا كبيرا ، اذ أخفق فى أن يقرن نفسه بالدولة أو بالأحرى أن يفنى ذاته فى الدولة ، وهو ما نسبه اليه المعجبون به . وناصب رجال المال والايطاليين العداء دون وجه حق فى بعض الأحيان . وكان واسع الحيلة فى عرقلة المشروعات وهدمها ، بينما كان يفتقر هو نفسه الى ملكة الابتكار والانشاء . وكانت صلابته ونزاهته عقبة كئودا فى وجه الحزب الارستقراطى الذى كان هو أبرز أعضائه ، بل كان فى حياته مصدر ضعف لهذا الحزب . ولم يكن غافلا — على نحو ما ذكرنا — عن مشكلات زمانه ، ولكنه لم يعرف كيف يواجه تلك المشكلات . لقد عاش سنواته الأخيرة بلا أمل تقريبا ، يائسا من الأوضاع السائدة . وقد لمس بنفسه أنانية زملائه النبلاء وجشعهم ، وفطن الى خطر التحالف مع پومپى . ويحدثنا سينيكا (Seneca) الفيلسوف بأنه كان يترقب الموت فى حالة انتصار قيصر والنفى الاختيارى فى حالة انتصار پومپى (١) . ويروى أنه أبى أن يحلق لحيته وشعر رأسه أو أن يزين جبينه فى المآدب بأكاليل من الزهر حدادا على قيام الحرب الأهلية . ولعل القصة مختلقة كغيرها من القصص الكثيرة التى رويت عنه أثناء الحرب . ومع هذا فلا ريب أن كاتو خاض تلك الحرب بوعى الرجل الذى يدنو من نهايته فى جمهورية تدنو من نهايتها .

وكان كاتو أعظم فى مماته منه فى حياته . لقد أحدث انتحاره فى نفوس الارستقراطيين أثرا أعمق مما أحدثه انتصار قيصر . واذ كان الدكتاتور قد صفح عن كثيرين من رجال تلك الطبقة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فكفل لهم قسطا من الحرية للتعبير عن آرائهم ، اذ أخذ بعضهم يتكلم عن الجمهورية ويكتب عن دستورها فى الماضى عندما

---

(1) Epist. Mor. CIV, 32.

كانت مسئولية الحكم فى يد الشعب . ولم تلبث روح كاتو التى لم تقهر أن غدت رمزا للجمهورية والحرية . وكان شيشرون نفسه يغبطه فى شهرته ويتمنى أن يوهب شجاعته ليموت ميتته . وقد كتب فيه مديحا استجابة لرغبة بروتوس . ولم يلبث هذا المديح أن صار نواة لأسطورة كاتو التى شقت طريقها الى عصر الامبراطورية . ويعتبر ضياع هذا الكتاب خسارة لا تعوض . ومن المرجح أن شيشرون عالج الموضوع بشىء من الحذر والتردد لأنه كان يعلم انه لو وفى كاتو حقه من الثناء لأثار غضب أنصار قيصر الذين كان الخطيب قد هادنهم حينئذ ؛ فهو يقول لصديقه أتيكوس فى احدى رسائله « لقد تنبأ (كاتو) بحدوث ما حدث ، وقاتل ليحول دون حدوثه ، ومات حتى لا يرى تحققه بعينيه » (١) . ولم يكن شيشرون وحده هو الذى كتب مديحا فى كاتو فقد امتدحه أيضا بروتوس وأقطاب آخرون .

غير أن كتاب شيشرون عن كاتو هو الذى حفز قيصر على أن يكتب وهو ما يزال فى حملته الأخيرة فى أسبانيا رسالة بعنوان « ضد كاتو (Anticato) » يرد فيها عليه . ولعل ما حفزه أيضا شعوره بصحة الاتهامات التى وجهها اليه كاتو . وقد كان يكرهه منذ سنوات طويلة حتى لم يعد فى وسعه أن يغتفر له أعماله أو أن ينظر اليها بعين التسامح التى نظر بها الى أعمال خصومه الآخرين . وقد ضاعت رسالة قيصر التى هاجم فيها كاتو ، غير أن موقفه منه يتضح من « مذكراته عن الحرب الأهلية » حيث يعلل معارضة كاتو بعداوته الشخصية القديمة له وحقده عليه بسبب هزيمته فى انتخابات القنصلية عام ٥١ (٢) . وقد

(١) ad Att. XII, 4, 2 : quod ille ea, quae nunc sunt, et futura viderit, et, ne fierent, contenderit, et, facta ne videret, vitam reliquerit.

(٢) Caesar, Bell. Civ. 1, 4 : Catonem veteres inimicitiae Caesaris incitant et dolor repulsae.

كان كاتو قد تولى البريتورية عام ٥٤ .

صيغ « هجاء كاتو » فى أسلوب خطابى ، وروج كالمنشورات السياسية عند الرومان ، فى شكل دعوى قضائية . هكذا نرى قيصر نفسه الذى أقسم كاتو أثناء حياته ان يقدمه للمحاكمة ، يوجه الاتهام لعدوه بعد مماته . ولا نعرف شيئا عن طبيعة التهمة التى كالها قيصر له . لعلها كانت تهمة الخيانة العظمى (maiestas) أى الخيانة والغدر بالدولة ، وهى جريمة يبدو أن كاتو كان قد توعد بان يتهم بها خصمه . وكان قيصر يبتغى من رسالته استرضاء شيشرون الذى حظى فنه الأدبى بأعظم الثناء من معاصريه ، واثبات زيف مثالية كاتو التى بدأت حينئذ تتجسم فى أذهان الجمهوريين . وقد انتهج فيها — على ما يبدو — أسلوب الخطابة الهجائية المقذعة فتناول حياة كاتو الخاصة ، ولا سيما ادمانه الخمر . ولم ينكر أصدقاء كاتو الذين اعتاد أن يقضى معهم أمسياته فى السمر والحوار الفلسفى أنه كان مغرما بالنبيذ . غير أن قيصر صوره فى شكل سكير لا يفيق من الشراب . ولعله وماه كذلك بالجشع الذى من أجله طلق كاتو زوجته لكى تتزوج هورتنسيوس الثرى ، ومن أجله أعادها الى عصمته بعد أن أصبحت أرملا ثرية . وليس من المستبعد أن يكون قد ألصق به أيضا تهما أخلاقية فاضحة . غير أن جميع هذه التهم الباطلة التى ابتغى بها قيصر امتهان ذكرى كاتو وتشويه سمعته والحط من شأنه أتت بعكس المقصود منها فزادت من شهرته وأسهمت فى اذكاء الروح الجمهورية فى روما . وأذكتها أيضا سياسة قيصر نفسها التى سلكها فى الأشهر الستة الأخيرة من حياته بعد عودته ظافرا من أسبانيا . وانتهت — كما سنرى بعد قليل — الى القضاء على الدستور القديم وسقوط الجمهورية .

ولم يكن فى وسع أغسطس (١) ، بعد أن آلت اليه مقاليد الأمور ، أن يتجاهل مشاعر الجمهوريين فأعاد تكوين السناتو كأنه باعث الجمهورية ، وملأ كثيرا من مقاعد ذلك المجلس بأعضاء من أبناء الأسر الارستقراطية

---

١) اغسطس (= صاحب الفخامة او صاحب الجلالة) هو لقب اكتافيانوس (منذ ٢٧ ق.م) موسس نظام الحكم الامبراطورى .

الذين رتب لهم اعانات مالية مستديمة . ومع أن كثيرين منهم كانوا أبناء أقطاب لقوا حتفهم فى حركة الاغتيالات التى دبرها هو نفسه ، فـان معظمهم ارتضوا حكمه وتفانوا فى خدمته . وفى ظل هذا العاهل الذى زعم أنه أرجع الجمهورية أصبح كاتو ــ وهو رمز الجمهورية القديمة ــ بطلا فى أعين النبلاء والشعراء ومؤرخى العهد الجديد . وبينمادوى صوت كاتو ورفع الى مصاف الآلهة بدأ الصمت يرين على ذكرى قيصر ، ذلك الطاغية الذى أطاح بالجمهورية. ونجد سللوستيوس حينئذ ــ أى بعد مقتل قيصر ــ يعدل عن رأيه فى كاتو ولا يسبه كما فعل من قبل . لقد باعد الزمن بينه وبين معترك السياسة الذى خاضه كأحد أنصار قيصر ، فعاد بذاكرته الى الماضى واتضح له أن الزعماء القدامى فى كلا الحزبين الارستقراطى (Optimates) والديمقراطى (Populares) كانوا يسعون بوجه عام الى تحقيق مطامعهم الشخصية فىدولة استشرى فيها الفساد وأعوزها ذلك الطراز من الرجال الذين بنوا عظمة روما . لكنه يقرر أنه كان هناك على أيامه رجلان يتكافآن فى الشهرة ويبزان غيرهما فى الفضائل : قيصر وكاتو . ويعقد المؤرخ بينهما مقارنة طريفة فيشيد بسخاء قيصر (لاجتذاب الدهماء) وحيويته الدافقة و رأفته وسماحة طبعه وايثاره الغير على نفسه . غير أن الصورة التى يرسمها لكاتو أوقع فى النفس وأطرف : فهو الرجل القويم الخلق المتقشف الزاهد فى عَرض الدنيا الذى لا يشاء أن يبدو فاضلا بل أن يكون فاضلا.واذا كانقيصر ملاذا للبؤساء ، فان كاتو كان للأشرار سوط عذاب . وهو النزاهة والصرامة والحزم مجسدا . وما أشبه هذه الصورة بالصورة المثالية التى وردت فى الأساطير . لقد انطمست فى ذهنه صورة كاتو الحزبى (وقد كان كاتو رجلا حزبيا) والذى كان قد ندد بأخلاقه منذ سنوات مضت فهو لا يزج به فى معترك

السياسة الحزبية بل يجعله فى منأى عن الأحزاب (١) .

ولتتبع تطور أسطورة كاتو عند كبار الكتاب اللاتين : ففرچيل يتمثله مشرعا للخير فى العالم الآخر ، وهوراتيوس يفسح له مكانا فى موكب أبطال الجمهورية ، ويصفه بالرجل المستقيم الذى لا تلين قناته أمام تهديد الطاغية والذى استعصت روحه الأبية على من رضخت له الدنيا بأسرها (٢) . ويقول ليڤيوس فى فقرة من كتاب ضائع ان المدح لم يزد من شهرة كاتو ولا الذم قلل من شهرته (٣) . هذا بينما لا يشير ڤرچيل فى ملحمته التى يمجد فيها آل يوليوس الا اشــارة عابرة الى الرجل الذى رفع صيت هذه العشيرة فوق غيرها من العشائر الشريفة ، بل ان هذا البيت الذى لم يتم قد يُشْتَمُّ منه أن الشاعر يلوم قيصر على قيامه بالحرب ضد بلاده (٤) . ويتساءل ليڤيوس عما اذا كان مولد قيصر نعمة أم نقمة على الدولة الرومانية (٥) . ونجد حديث الشــعراء عنه لا يدور بوجه عام الا حول جسامة وزر المتآمرين الذين اغتــالوه ، وصــعود روحه الى الســماء وتحولها الى نجم — هو نجم يوليوس sidus Iulium — الذى يجلب الخصب لروما ويغمــر بالبركات ابن قيصر ووريثه (أكتاڤيانوس) (٦) . وأما عن موقف أغسطس نفسه من كاتو فيتبين من قوله لرجل نهش ذكراه ان من يعارض التغيير فى الدولة

---

(١) Sallustius, Catilina, 53-54; cf. T.R.S. Broughton, T.A.P.A. 67 (1936), pp. 34-46.

(٢) Aen. VIII, 670; Od. I, 12, lines 35-36; III, 3, lines 1-8; II, 1, lines 23-24: et Cuncta Terrarum subacta praeter atrocem animum Catonis.

(٣) Hieronymus, in Hoseam 2, prol.

(٤) Aen. VI, 832; cf. R. Syme, The Roman Revolution (1939), p. 317.

(٥) Apud Seneca, Quaest. Nat. V, 18, 4.

(٦) تبنى يوليوس قيصر فى وصيته اكتافيوس (ابن بنت اخته) وبعد موته حمل اكتافيوس اسم ابيه بالتبنى مضافا اليه اســم اكتافيوس ، ثم لقب اغسطس .

يعد مواطنا صالحا ورجلا فاضلا (١) .وكان لدى أغسطس من الأسباب حينئذ ما يجعله يعارض التغيير فى الدولة . غير أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأنه شعر فى السنوات الأخيرة بالخطر على نظام الحكم الجديد من تمجيد كاتو ، حتى قيل إنه كتب فى أواخر أيامه رسالة عارض بها رسالة بروتوس فى مدحه (٢) . ولعل ما دفعه الى ذلك توالى المؤامرات لقلب نظام حكمه ، وبخاصة تلك المؤامرات التى تزعمها رجال من الأسر النبيلة القديمة . وكان أغسطس نفسه قد أحيا نفوذ تلك الأسر فى أوائل عهده . لكن بمرور الزمن خبت فى صدره الروح الجمهورية فكف عن سياسة احتضان أبناء البيوتات العريقة وبدأ يعهد بالقنصلية لرجال جدد . ولعله أدرك أن تقديس كاتو قد يؤدى الى قيام حزب مناوىء له من الجمهوريين المتعصبين ، وأنه ينبغى مكافحته قبل أن يستفحل خطره .

غير أن رأى الناس فى كاتو وقيصر كان قد تكوّن فى السنوات الأولى من حكم أغسطس . ولم يطرأ على هذا الرأى تغيير كبير فى الأجيال التالية . لقد كان النسيان نصيب قيصر فى أغلب الأحيان ، ولعل الامبراطور نفسه — كما لاحظ بعض الباحثين — كان له يد فى طمس ذكراه (٣) . ولم يكن قيصر بل أغسطس هو الذى تصدّر قائمة الأباطرة الذين كان الناس يقسمون بهم عند الشهادة . وكان أغسطس لا قيصر هو الذى نسجت حوله أسطورة . وفى الوقت نفسه استمرت أسطورة كاتو فى الازدهار . وحتى عندما أصبح ايمان « المواطن الأول » بالجمهورية صوريا زائفا فى عهد نيرون كان من المشرف امتداح كاتو

---

(١) Macrobius, II. 4. 18 : quisquis praesentem statum civitatis commutari non volet, et civis et vir bonus est.

(٢) Suetonius, Aug. LXXXV, 1

(٣) L. R. Taylor, **Party Politics in the Age of Caesar** (1949), p. 180.

أسوة بما فعله كتاب العصر الأغسطى . ولم يعد كاتو يمثل فقط فكرة الجمهورية والحرية بل أصبح أيضا نموذجا للفضيلة ومثلا أعلى عند الرواقيين استرشد به كبـــار القوم وتطلعوا اليه فى الأيام الحالكة من عصر أسرة يوليوس ـ كلوديوس . ولم يقف أثر كاتو عند هذا الحد . فقد أعانت سيرته الكثيرين على مقاومة الأباطرة الطغاة وملاقاة الموت على طريقته . وعندما غضب نيرون على سينيكا وأحس الفيلسوف بدنو أجله انشغل بالتفكير فى موت كاتو ثم واجه الموت فى شجاعة الرجل العظيم الذى اتخذه قدوة له (١) . وكان المثل الذى ضربه كاتو نبراسا لرومانى آخر ، لعله كان أعظم من سينيكا ، ألا وهو ثراسيا پايتوس (Thrasea Paetus) الذى يحدثنا تاكيتوس بأن قضـــاء نيرون عليه كان بمثابة القضاء على الفضيلة ذاتها (٢) . وقد كتب پايتوس ترجمة لحياة كاتو ، وهى المصدر الرئيسى الذى استقى منه پلوتارخوس مادته فى كتابة سيرة كاتو الرائعة .

غير أن لوكانوس (Lucanus) ، قريب سينيكا ، هو الذى صور فى ملحمته عن الحرب الأهلية (Pharsalia) ، شخصية كاتو الأسطورية التى أضفاها عليه موته النبيل ، وهى شخصية تناقض شخصية قيصر كل المناقضة . فبينما يمثل كاتو الفضيلة والحرية ، يمثل قيصر الرذيلة والطغيان (٣) ؛ « فهو أبو الوطن الحقيقى الجدير بأن تشاد له المعابد والذى لن تستنكف روما أبدا من أن تقسم له بيمين الولاء » (٤) . ولم

(١) Cf. W. H. Alexander. "Cato of Utica in the Works of Seneca Philosophus." **Trans. Roy. Soc. of Canada,** 40 (1946), Sec. II, 59-74.

(٢) **Ann.** XVI, 21: Nero virtutem ipsam excindere concupivit interfecto Thrasea Paeto...

(٣) Cf. B. M. Marti, "The Meaning of the Pharsalia," **Am. Jour. Philol.** LXVI (1945), 352-376.

(٤) **Pharsalia,** IX, 601-602.

راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٤٩ .

يكن لكاتو فى عصر الامبراطورية حزب بالمعنى الصحيح لأن قيام مثل هذا الحزب كان أمرا مستحيلا . غير أن كاتو كانت له عبادة (sanctus Cato) يمارس النبلاء وأعضاء السناتو شعائرها فى بيوتهم . وكان هؤلاء يحملون أسماء غريبة لم يكن ليعرفها لو أنه بعث حيا . وقد أصبحوا نبلاء بعد أن تقلدوا مناصب عامة سامية بفضل سياسة قيصر وخلفائه الذين أدخلوا أيضا فى السناتو أعضاء من ايطاليا والولايات . هؤلاء النبلاء الجدد كانوا يتطلعون الى « عصر كاتو » حين كان الحكام الرومان وذوو المرتبة القنصلية يتمتعون بوصفهم ممثلين للجمهورية بنفوذ وهيبة (١) . وقد مجدوا ذكراه لأنه آثر أن يموت على أن يشهد بعينيه انهيار ذلك النفوذ وضياع تلك الهيبة . وقد رأينا كيف ألهمت سيرته رجلا مثل ثراسيا پايتوس — وهو من أفضل النبلاء — أن يعتز بكرامته ويتشبث بحريته فى زمن تفشت فيه الذلة والخنوع ، فلما حان أجله ، أعانته على ملاقاة الموت بشجاعة منقطعة النظير (٢) .

الحملة الأسبانية الأخيرة : موندا

وبعد أن فرغ قيصر من تنظيم شئون ولاية افريقيا عاد الى روما فى صيف عام ٤٦ ، وأقيم له موكب نصر (triumphus) بالغ الفخامة ، لم تشهد العاصمة مثيلا له من قبل ، ولم يشر فيه الى انتصاره على الرومان من بنى جلدته ، لأن مواكب النصر لا تقام احتفالا بانتصار رومانى على رومانى (٣) وانما أقيم ذلك الموكب لمدة أربعة أيام احتفالا

---

(١) Seneca, **Dial.** IX, 7, 5.

(٢) عن ماركوس پوركيوس كاتو « الاوتيكى » (M. Porcius Cato) راجع :
A. Afzelius, **Classica et Mediaevalia** (1941), 100-203.

(٣) Cf. Scullard (ed.), **Oxf. Class. Dict.**[2] s. v. **Triumphus.**

انتصاره على غالة ومصر وبنطوس وأفريقيا (١) . وأمام عجلته الحربية التى تجرها أربعة جياد اقتيد بعض الأسرى وفى مقدمتهم فركنجيتوريكس ، زعيم غالة الوطنى ، الذى أخرج من غياهب السجن ليرى النور لآخر مرة ، وأرسينوى العنيدة ، الأميرة البطلمية وأخت كليوبطرة (السابعة) ، وجوبا ملك نوميديا . وبينما كان قيصر يصعد درجات السلم المؤدى الى معبد چوپيتر فوق الكاپيتول ليضع فى مذبحه ، كما جرت العادة ، أكاليل الغار تحية للاله ، سيق فركنجيتوريكس الى ساحة الاعدام . لقد كان قيصر قاسيا متحجر القلب ازاء أعدائه البرابرة بقدر ما كان متسامحا رحيما بخصومه من الرومان . وخلف عجلته سار جنود فرقه القدامى ينشدون أغانى بذيئة أو ماجنة متناكهين فيها بصلعة قائدهم المحبوب ، وسرب من العربات المحملة بالذهب والتيجان الذهبية والأسلاب والمكافآت التى وعدوا بها : لكل جندى ٥٠٠٠ دينار ، وضعفها لكل قائد سرية (centurio) ، و ١٠٠ دينار لكل واحد من المتفرجين . وبعد انتهاء الموكب أقيمت مأدبة صفت فيها ٢٢٫٠٠٠ مائدة . وصحب الدكتاتور الى منزله ركب من حملة المشاعل فوق الأفيال . وأقيمت أيضا حفلات تمثيلية ومهرجانات رياضية ومعارك بحرية صورية ومبارزات بين أسرى الحرب والمجرمين ترفيها عن الشعب وتمجيدا لذكرى چوليا ، بنت قيصر وزوجة پومپى الراحلة . وبهذه المناسبة بنى بهوا (Basilica Iulia) وسوقا (Forum Iulium) يحمل كل منهما اسم عشيرته (يوليوس) ، ومعبدا لڤينوس ربة التناسل ، والأم التى تنحدر هذه

---

(1) Suetonius, **Div. Iul.** XXXVII: Primum et excellentissimum triumphum egit Gallicum, sequentem Alexandrinum, deinde Ponticum, huic proximum Africanum...

ويضيف سويتونيوس بانه احتفل ايضا بانتصاره على اسبانيا فيما بعد على اعتبار ان من اثاروا هناك الحرب ضده كانوا رومانيين خونة ؛ راجع : C.A.H. IX, p. 704

العشيرة من نسلها (Venus Genetrix) (١)

ولم يلبث قيصر بعد أشهر قليلة قضاها فى تنظيم شئون الحكم ، أن غادر العاصمة فى نوفمبر عام ٤٦ ليقوم بآخر حملاته ويحرز انتصاره الأخير . كان قيصر بعد أن سحق القوات الموالية لپومپى فى أسبانيا عام ٤٩ قد ترك مقاليد هذه البلاد فى يد كاسيوس (Q. Cassius) (٢) . لكنه كان اختيارا غير موفق لأن كاسيوس استبد بحكم أسبانيا وأساء معاملة أهلها فهبوا ثائرين فى وجهه . وقد أرسل غيره ليحل مكانه قبل الحملة الافريقيـــة ، ولكن لابينوس وابنى پومپى الذين التجأوا بعد معركة ثابسوس الى أسبانيا استغلوا قيـــام القلاقل فيها وأذكوا لهيب الثورة.ولما استفحل خطرها رأى قيصر أن لا مناص من أن يذهب هو نفسه لاخمادها على رأس قوة مؤلفة من ثمانى فرق . ولا يعنينـــا من تفاصيل الحرب الأسبانية (Bellum Hispaniense) سوى أن المعركة الأخيرة ، وهى معركة موندا (Munda) التى دارت فى جنوب أسـبانيا (بين أشـــبيلية وملاقة) فى مارس عام ٤٥ ، كانت من أعنف معـــارك الحرب وأن قيصر خرج منها ظافرا بينما لقى فيها أقطاب حزب السناتو حتفهم ما عدا ســـكستوس پومپى (Sex. Pompeius) ، بن پومپى الكبير ، الذى قدر له أن ينجو بحياته ويلجأ الى البحر ليثير فيما بعد مـــاعب جمة فى وجه خلفـــاء قيصر . وبذلك وضعت الحرب الأهلية أوزارها وأصبح يوليوس قيصر سيد العالم الرومانى دون منازع .

كانت الحرب الأهلية (Bellum Civile) فريدة بين حروب العالم القديم فى اتساع نطاقها اذ شملت كل منطقة البحر المتوسط تقريبا ، وفى ارتفاع مستوى خططها العســـكرية ، وفى انتصـــار ضباط أكفاء على ضباط لا يقلون عنهم كفاءة بصورة حاسمة . وقـــد أثبت جنود قيصر

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٤٧ ، حاشية ٣ .

(٢) وهو كوينتوس كاسيوس (لونجينوس) نقيب عام ٤٩ ؛ انظر ص ٢٢٥ .

أنهم أكفأ مشاة فى العالم القديم ، واستغل قائدهم ما توافر لهم من مقدرة وخبرة سواء على احتمال السير أو فى اقامة الاستحكامات الى أقصى حد مستطاع . ولم يحدث فى أى حرب أخرى تشبت قديما بين جيشين متكافئين تقريبا فى السلاح أن دمر المنتصر عدوه تدميرا تاما ومنى بمثل هذه الخسائر الطفيفة . ولم تكن أبرز صفة فى قيصر القائد هى سرعة زحفه التى صارت مضرب المثل (celeritas Caesariana) بل ثقته الشديدة بذكائه وشجاعته ، فلم يحدث أن تردد مرة فى قبـول التحدى من جانب خصمه . وليس معنى ذلك أنه كان متهورا بل كان على العكس قائدا حـذرا فى وسـعه أن ينتظر دون ملل اذا أيقن أن الانتظار هو الطريق الوحيد الى النصر . فاذا ما حانت الفرصة الملائمة كان لا يتوانى لحظة فى تسديد ضربته فى الصميم . وقلما أفلتت منه فرصة مواتية أو سدد ضربته بعد فوات الفرصة . لذلك كان مصـير الجيش الذى ينهزم على يديه التدمير أو الأسر فى أغلب الأحيان . وكان قيصر يفضل دائما أن يحارب بقوات ضئيلة ممتازة التدريب والخبرة . ولم يكن ذلك بسببه صعوبة تموين القوات الضخمة فحسب ، بل ثقته الكبيرة أيضا فى استطاعته الانتفاع بكل جندى وحثه على القتال بعزم واخلاص . لقد كانت شخصيته الفذة وحدها هى سبب انتصاراته حتى قيل انه لم يبتكر شيئا جديدا فى فن الحرب ، فهو من هذه الوجهة لم يكن ندا لماريوس وربما لم يكن أيضا ندا لسبلا . ولا كانت له موهبة پومپى التى أتاحت له أن يجيد القتال فى البر والبحر على السواء ، ولا براعة الاسكندر المقدونى فى استخدام سلاح الفرسان كقوة ضاربة . لقد وجد فى فن الحرب الرومانى ما يكفيه ومارسه بمهارة فائقة وطبقه تطبيقا فعـالا ينم عن عبقريتـه . وأيا كان الأمر فقليـل هم النقـاد العسكريون الذين ساورهم الشك فى أن قيصر هو أبرز شخصية فى تاريخ روما العسكرى .

الفصل السابع

دكتاتورية يوليوس قيصر
واصـــلاحاته

اصلاحاته فى روما وايطاليا والولايات :

ينبغى ألا ننسى عند دراسة أعمال قيصر كرجل من رجال الحكم والسياســة أنه قام بها فى الأشهر القليلة التى تسنى له أن يمضيها فى العاصــمة أثناء اندلاع لهيب الحرب الأهليــة . فلا عجب أن جاءت اصلاحاته مبتسرة غير كاملة لأن الظروف اضطرته الى ارجاء كثير من المشكلات حتى يتفرغ لها فى السلم ولكن يد الموت اختطفته بعد عام واحد من انتهاء الحرب . ومع هذا فقد استطاع فى تلك الفترة التى لم تتجاوز ستة عشر شهرا أن يصدر أو يعد للاصدار طائفة من التشريعات التى تفوق فى كثرتهـا وتنوعهـا كل ما أصـدره الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس وسلا نفسه . فليس هناك فرع من فروع الادارة لم يترك فيه أثرا مستديما ، فضلا عن أن كل مادة من تشريعاته تكشف عن فطنة سياسية وتنتزع الاعجاب وتثير الأسف على أن الأجل لم يمتد به لاتمام اصلاحاته .

لقد رأى قيصر بعد انتصــاره على پومپى والحزب الأرستقراطى وانفراده بالسلطة أن الواجب يحتم عليه اصلاح أداة الحكم التى دب فيها الفساد خلال قرن طويل من التطاحن الحزبى والحروب الأهلية . وكان سلا قد واجه نفس المشكلة فقام ببعض اصلاحات اندثر معظمها

ولم يبق منها سوى القليل . ذلك أن سلا ، على الرغم من تشريعاته الادارية والجنائية القيمة ، كان ضيق الأفق ، مجردا من روح العطف على الجماهير ، شديد التعصب للطبقة الأرستقراطية فلم يفطن الى جوهر مشكلات عصره الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يستهدف من اصلاحاته سوى كسر شوكة خصومه ودعم نفوذ السناتو وتركيز السلطة من بعده فى يد هذا المجلس (١) . وأما قيصر فكان أوسع أفقا وأقل تعصبا وأكثر منه فهما لهذه المشكلات .

كان على قيصر أن يحدد أولا الشروط التى يريد املاءها على الحزب المهزوم . وفى الحق ان ماضيه نفسه قد أملى عليه السياسة التى ينبغى اتباعها ازاء خصومه . ففى مستهل حياته العامة كان دائم التنديد بسياسة سلا الارهابية وانتقامه من أنصار ماريوس . ولذلك حرص منذ عودته الى ايطاليا مع فرقه العسكرية على أن يثبت للرأى العام أنه لا ينتوى الالتجاء الى أساليب سلفه . ونادى منذ بداية الحرب بتأمين فلاحى ايطاليا من المصادرات وأعمال النهب . وعندما وقع جنود من قوات خصومه أسرى فى يديه أطلق سراحهم دون عقاب أو أدمجهم فى فرقه . وعفا بعد فرسالوس دون تباطؤ عن أنصار پومپى الذين سألوه العفو ، بل انه زكى كثيرا منهم لمناصب عامة سامية . وكان من بين هؤلاء ماركوس بروتوس (M. Iunius Brutus) وجايوس كاسيوس (C. Cassius Longinus) اللذان ارتقيا منصب البرتيورية عام ٤٤ (٢) ، كما حصل شيشرون الذى انحاز بعد تردد الى معسكر پومپى فى عام ٤٨ على عفو غير مشروط . واذا كان قد عاقب أتباع پومپى الذين لم يكفوا عن مناوأته بعد معركة ثابسوس بمصادرة أملاكهم وتجريدهم من حماية القانون فانه استجاب للوساطة وأرجع من المنفى نفرا كان من بينهم خصمه اللدود ماركوس ماركللوس

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ٨٣ — ٨٥ .

(٢) وهما زعيما المؤامرة التى أودت بحياة قيصر فى نفس السنة (١٥ مارس ٤٤) .

قنصل عام ٥١ (١) . وقد لقيت سياسة التسامح ترحيبا شديدا من الرأى العام وتركت فيه أثرا طيبا بقدر ما تركت سياسة سلا الانتقامية من قبل أثرا سيئا . وليس أدل على عمق أثرها فى نفوس الرومان من أن السناتو والجمعية الشعبية قررا اقامة معبد تقديسا للرأفة (Clementia) بوصفها ربة ترمز الى تلك الفضيلة التى تحلى بها قيصر .

(ا) اصلاحاته فى روما :

كان من أولى المشكلات التى عنى بها قيصر ازدحام روما بالسكان الذين بلغ عددهم فى زمنه حوالى مليون نسمة وما ترتب على ذلك من صعوبة حفظ الأمن وبخاصة فى الأحياء المكتظة بالفقراء فى قلب المدينة . وبغض النظر عن المنشآت العامة كالمعابد والأسواق والأبهاء الفسيحة التى زين بها العاصمة ، فانه وضع مشروعا لاعادة تخطيط وسط المدينة ليخفف من تزاحم المساكن ، وهو مشروع خرج الى حيز التنفيذ على عدة مراحل فى عهد الأباطرة . ووضع مشروعا آخر لصيانة شوارع روما وضواحيها وتنظيم حركة المرور فيها واستخدام الأراضى الفضاء العامة . ولم يعالج مشكلة حفظ الأمن علاجا حاسما ولكنه أسهم فقط فى علاجها بحل الجمعيات (collegia) والنوادى الخاصة والنقابات (sodalicia) ما عدا القديمة منها التى لا صلة لها بالسياسة كالنقابات المهنية والمنظمات الدينية اليهودية. كما شدد من عقوبة جريمة استعمال العنف (de vi) بحرمان المذنب من « الماء والنار » أى تجريده من حق المواطن (٢) ، وقرر عين العقوبة لمرتكبى جريمة الخيانة العظمى (maiestas) ، واذا صدقت رواية سويتونيوس ، نقلا عن فقرة من شيشرون لم تصلنا ، فانه جعل التجريد من كل الممتلكات عقوبة المتهمين بقتل الأحرار عمدا (أو أقربائه لابيه) والتجريد من نصفها عقوبة

(١) راجع ما تقدم فى ص ٢٣٢ .
(٢) راجعها تقدم فى ص ٥٩ ، ٩٣ حاشية ٣ ، ١٨٠ .

من يقتــل غير هؤلاء (١) . وأهم من ذلك قــرار باستخــدام القوات العسكرية لمساعدة الحراس lictores — وهم القوة البوليسية المدنية الوحيدة بالعاصمة — فى حفظ الأمن بالأسواق . لكنه كان من ناحية أخرى أول سياسى ، بل السياسى الوحيد ، الذى عالج بطريقة فعالة مشكلة الفقراء المتعطلين فى المدينة (plebs urbana) ، وهم أحد عوامل الشغب فيها ، اذ خفض — بمقتضى احــدى مواد قانون يوليــوس بتنظيم البلديات أو الحكم المحلى lex Iulia municipalis (٢) — عدد المتمتعين بالقمح المجانى من ٣٢٠٫٠٠٠ الى ١٥٠٫٠٠٠ (٣) . وألزم المتمتعين بتقديم اقرار بثروتهم أو دخلهم فى حالة زيادته عن الحــد المقــرر للتمتع بهــذه المنحــة (٤) ؛ وأرسل غير المستحقين لهــذه المنحة وعددهم حوالى ١٨٠٫٠٠٠ الى المستعمرات الجديدة التى أنشأها خارج ايطاليا . وبهذه المناسبة تقرر انتخاب محتسبين جديدين للاشراف على توزيع هبــات القمح (aediles Cereales) (٥) . ولتموين المدينة بمقادير كافية من الغلال بصورة منتظمة وضع مشروعا لحفر ميناء واسعة عند أوستيا (Ostia)

(١) Cf. Suetonius, Div. Iul. XLII, 3 : parricidas, ut Cicero scribit, bonis omnibus, reliquos dimidia parte multavit.
والخلاف على كلمة parricida اتعنى من يقتل احداً من قرابته الأدنين ام من يقتل حرا مع سبق الاصرار ؟

(٢) صدر هذا القانون المعروف خطأ بقانون يوليوس الخاص بالبلديات فى عام ٤٥ على ما يرجح ولكنه لم ينفذ الا فى شهر يونيو من عام ٤٤ على يد ماركوس انطونيوس بعد موت قيصر ، ويشار اليه عندئذ باسم قانون أنطونيوس باقرار أعمال قيصر :
Lex Antonia de actis Caesaris confirmandis
وقد وجدناه مدونا على لوحة برنزية فى بلدة هراقليا (Heraclea) بجنوب ايطاليا ويعرف باسم لوحة هراقليا (Tabula Heracleensis) .

(٣) Suet. Div. Iul. XLI, 3: atque ex viginti trecentisque milibus accipientium frumentum e publico ad centum quinquaginta retraxit.

(٤) انظر ترجمة مواد هذا القانون الخاصة بضرورة تقديم الاقرارات للحصول على هبات القمح فى كتاب :
N. Lewis — M. Reinhold, Roman Civilization I, (1951), p. 408 f.

(٥) أو aediles Ceriales .

لتكون بديلا عن مرسى السفن المكشوف الذى أصبح لا يفى بالغرض من الناحية التجارية .

(ب) فى ايطاليا :

كان من بين ما عاد بالنفع على روما وايطاليا تلك القوانين التى أصدرها فى سنتى ٤٩ ، ٤٧ ليخفف من حدة الضائقة المالية التى نشأت عن الذعر غداة قيام الحرب الأهلية . فقد استغل بعض النبلاء حالة الفوضى وقاموا بمحاولات متطرفة لالغاء جميع الديون . وعالج قيصر الأزمة بأن جعل أثمان العقارات عند اعلان الحرب أساسا لتقييم الديون وأوقف سريان الفوائد منذ بداية تلك الحرب ، وأعفى مستأجرى العقارات من جزء من القيمة الايجارية السنوية . وكانت هذه القوانين معتدلة لأنها يسرت على المدينين سداد ما فى ذمتهم ولم تهضم فى الوقت نفسه حقوق الدائنين . وينهض دليلا على اهتمامه بتنمية رخاء ايطاليا الاقتصادى ذلك القانون الذى يتطلب من ثراة المواطنين وأصحاب رؤوس الأموال استثمار جانب من أموالهم فى الأراضى الايطالية أكبر الظن لكى يرفع من قيمتها ويقلل من حدة التناحر الاقتصادى بين النبلاء والفرسان ؛ فضلا عن طائفة من المشروعات العملية للنهوض بالمرافق العامة ، كان من أهمها تجفيف مستنقعات پومپتينى (فى اقليم لاتيوم) وبحيرة فوكينوس (الى الشمال من نهر ليريس ببلاد المارسيين) لزيادة مساحة الأراضى المنزرعة ؛ وشق طريق جديد عبر الأپنين الى الأدرياتيكى . وقد نفذت هذه المشروعات تدريجيا فى عصر الأباطرة الأوائل . كما أصدر قانونا يلزم أصحاب المراعى باستخدام نسبة معينة من الأيدى الحرة (لا تقل عن ثلث العمال) . ولا يعتبر هذا القانون خطوة نحو الغاء الرق فى الضياع الرعوية بالريف الايطالى بل اجراءا وقائيا ضد ثورات العبيد ومؤازرتهم حركات التمرد على الحكومة المركزية . وبغض النظر عن أن توفير العمل للمواطنين الأحرار يعود

دائما بالفائدة على المجتمع والدولة ، فان هذا القانون ساعد على ملء صفوف الفرق العسكرية عند الحاجة برجال من الريف أصحاء البنية شديدى المراس ، وعلى فتح أبواب الرزق للجنود المسرحين ريثما تتم اجراءات توزيع القطائع الزراعية عليهم

ولما عاد قيصر الى روما فى ديسمبر عام ٤٩ استصدر قانونا بمنح الحقوق الرومانية الكاملة بدلا من الحقوق اللاتينية لسكان « غالة عبر البو » (Gallia Transpadana) وهو اصلاح كان ينادى به منذ بداية حياته السياسية ، ولذلك عجّل بتنفيذه تقديرا للخدمات القيمة التى قدمها له جنود هذه المنطقة أثناء حملاته فى « غالة عبر الألب » . و بذلك أصبحت ايطاليا كلها رومانية . وكان من بين اصلاحاته الجوهرية التى ترتبت على هذه الخطوة تنظيم أداة الحكم المحلى فى ايطاليا من جديد أو بالأخرى تنسيق النظم الادارية فى المدن المتمتعة بالحكم الذاتى (municipia) وذلك بوضع قواعد معينة لشغل المناصب العامة، ودخول المجالس المحلية ، واجراء التعداد بطريقة أدق وأكثر انتظاما عن ذى قبل . ومعلوماتنا عن هذا الموضوع مستمدة من « لوحة هراقليا » التى تتضمن طائفة من التشريعات المتنوعة أعدها قيصر ولكن معظمها لم يصدر أثناء حياته بل أدمجها أنطونيوس كلها بعد وفاته فى قانون واحد يعرف الآن خطأ باسم قانون يوليوس الخاص بتنظيم البلديات (lex Iulia municipalis) (١) ولتفصيل ذلك نقول : لقد ترتب

---

(١) راجع ص ٢٩٥ حاشية ٢ . وقد ثار حول هذا القانون جدل طويل . ولا تتناول هذه التشريعات تنظيم البلديات أى الشروط الواجب توافرها فى حكام المدن الايطالية واعضاء مجالسها ، واجراء التعداد فحسب بل تتناول أيضا موضوعات متنوعة غير مترابطة كتوزيع القمح المجانى على المواطنين فى روما ، والقواعد التى ينبغى للمحتسبين تنفيذها لصيانة الطرق والحمامات وحماية الممتلكات العامة وتنظيم حركة المرور فى شوارع العاصمة ... الخ . وفى رأى الاستاذ ... رايذأنه كان ينطبق على روما وايطاليا فقط لا على الولايات . وفى رأيه أيضا أن قيصر لم يضع نظاما موحدا للحكم فى البلديات ؛ ومن نص هذا
=
القانون ، انظر :

على انشاء مراكز مدنية جديدة فى أنحاء الريف الايطالى التى تسودها النظم القبلية أن صارت ايطاليا مقسمة الى مناطق مدنيـة أو بلديات (municipia) تشـتمل كل منها على بلدة ، هى بمثابة العاصـمة ، وأراض زراعية حولها تلحق بها اداريا (territorium) . وقد منح قيصر هذه المناطق المدنية استقلالا ذاتيا ووضع لها نظاما للحكم المحلى راعى أن يكون موحدا بقدر المستطاع ، بغض النظر عما اذا كانت كل منها فى الأصل تتمتع بالحكم الذاتى الكامل أى بلدية بالمعنى الصحيح (municipium) أو بالحكم الذاتى غير الكامل (praefectura) أو مستعمرة (colonia) أو تحمل غير ذلك من الأسماء (conciliabulum) . وصار يتولى الحكم فى كل منطقة مدنيـة مجلس من الحكام ينتخب أعضاؤه انتخابا محليا ويزاولون نفس الاختصاصات تقريبـا فى كل البلديات وان اختلفت ألقابهم فى مكان عنه فى مكان آخر (١) . وكان

= Bruns-Gradenwritz, **Fontes Iuris Romani,** 7th ed. (1909), No. 18; F. F. Abbott-A. C. Johnson, **Municipal Administration in the Roman Empire** (1926), No. 24 (pp. 288-298); S. Riccobono, **Fontes Iuris Romani Antejustiniani** I (1941), No. 13 (p. 140 ff.).

وللترجمة والتعليق على النص ، راجع :

E. G. Hardy. **Six Roman Laws** (1911), p. 149 ff.; J. S. Reid, **The Municipalities of the Roman Empire** (1913). pp. 129-133, 147; Cary, **J.R.S.** XIX (1929), 116 ff.; H. Rudolph, **Stadt und Staat im roemischen Italien** (1935), 113 ff., 217 ff.; M. Cary, "The Municipal Legislation of Julius Caesar," **J.R.S.** XXVII (1937), 48 ff.; A. N. Sherwin-White. **The Roman Citizenship** (1939), 136 ff.; N. Lewis-M. Reinhold, **Roman Civilization** I (1951), 416 ff.

(١) فهم احيانا فى المستعمرات ايديلان او بريتوران او قنصلان او دكتاتور او مجلس من ثمانية حكام (Octoviri) او عشرة حكام (Decemviri) او حاكم باسم (Sufetes) كما كان الحال فى مستعمرة قرطاجنة ، واحيانا اخرى — فى البلديات — حاكمان (Duoviri iure dicundo) يعاونهما ايديلان (duoviri aediles) ، او مجلس من اربعة حكام (Quattuorviri iure dicundo) يعاونهم اربعة ايديليس (quattuorviri aediles) =

يساعدهم ، بوصفهم هيئة تنفيذية ، مجلس تشريعي هو صورة من السناتو الروماني ، يتألف معظمه من الحكام السابقين (١) ومن ثم اتسم الحكم المحلي بطابع أرستقراطي كما هو الحال في العاصمة . وقد أزاح تعميم نظام البلديات في ايطاليا عبئا ثقيلا عن كاهل الحكومة المركزية ، وبخاصة عن كاهل البريتوريين الذين كانوا ينتدبون مساعدين (prefecti) لتصريف العدالة في هذه البلاد ، كما تمهد الطريق لانتشار هذا النظام في الولايات الغربية في الأزمنة التالية . وقد اشترط القانون سنا معينة لكل منصب من المناصب البلدية في تلك المدن مستثنيا من هذا الشرط كل من خدموا مدة ست سنوات في كتائب (مشاة) الفرق الرومانية (legiones) أو مدة ثلاث سنوات في فصائل الفرسان (alae) الملحقة بهذا الفرق أو من تمتعوا بالاعفاء من الجندية ، وحرم هذه المناصب على من يزاولون مهنا معينة كدفن الموتى والدلالة . وحرم عضوية مجالس التشريع البلدية على المتهمين بجرائم معينة وعلى

=

وقد يوجد الى جانب الحاكمين او الحكام كوريستوران لتصريف الشئون المالية وقد يزيد العدد عن اثنين فيصل الى سبعة ، وفي كل خمس سنوات عند اجراء التعداد كان يطلق على الحاكمين في غالة عبر الالب لقب quinquennales (duoviri) وكانا يتقمس مهام الكنسورين في روما . وعند غياب احد الحاكمين (duoviri) فانه قد ينيب عنه حاكما آخر باسم praefectus iure dicundo للنهوض بواجباته وكان يختار من بين اعضاء المجلس التشريعي . واما في البلديات اليونانية بالولايات الشرقية فكان الحكام يعرفون باسماء مختلفة : archontes (في اثينا) او strategoi (في برجامون) او prytaneis (في ميليتوس) او polemarchoi (في طيبة) او tagoi (في تساليا) ... الخ .

(١) ويعرف مجلس البلدية التشريعي وهو مجلس استشاري ، باسم senatus كما هو الحال في روما او باسم ordo (في الولايات الغربية) او باسم curia (في عصر الامبراطورية المتاخرة) ، واما في المدن اليونانية فيعرف عادة باسم boulê او synklétos او synedrion ، ويطلق على اعضائه اسم decuriones (وهي كلمة مشتقة من decuria اى لجنة من عشرة اعضاء وينقسم المجلس الى عشر لجان) واحيانا اسم conscripti . واما في الشرق فكانوا يعرفون باسم bouleutai او synedroi . وكان عدد اعضاء المجلس في مدن ايطاليا والولايات الغربية يبلغ المائة واما في الشرق فيبلغ المائة او اكثر .

المجالدين ومن أشهر افلاسهم وغيرهم من فاقدى الأهلية المدنية . كذلك استبعد القانون المطرودين من الخدمة العسكرية والضالعين فى حركات الاغتيـال والمصادرة غير القانونيـة (proscriptio) ، وان أجازها للمذنبين الذين شملهم العفو واستردوا حقوقهم المدنية . وليس هناك ما يشير الى أنه أوصد باب المناصب البلدية فى وجه المعتقين (liberti). وأخيرا فقد نص على أنه فى حالة اجراء الرقيب (censor) أو أى حاكم آخر التعداد فى روما ، يجرى الحكام كذلك فى كل البلديات الايطالية التعداد ويرسلون النتائج الى السلطات فى العاصمة .

(جـ) فى الولايات :

وقد شغلت أحوال الولايات بال قيصر منذ ظهوره على مسرح السياسة ففى سنتى ٧٦،٧٧ لفت الأنظار اليه باقامة الدعوى على بعض الولاة الجشعين من أتباع سلا (١) . وعندما تولى القنصلية عام ٥٩ ضاعف عقـوبة جريمة الابتزاز (de repetundis) (٢) ، وخفض بعد معـركة فرسالوس (٤٨) ضرائب ولاية آسـيا وربما أيضا ضرائب غيرها من الولايات الشرقية التى أثقلت كاهلها مطالب جنود پومپى وضباطه ، ونقـل حق جبـاية الضرائب من يد الملتزمين الرومان (publicani) الى الحكومات المحلية نفسها ، غير حافل بما قد يثيره ذلك من سخط فى هيئة الفرسان . غير أن هذه الاجراءات لم تكن سوى علاج مؤقت لم يستأصل الفساد فى الولايات من جـذوره . وفى آسـيا وصقلية استبدل بضريبة العشـور (decuma) السـابقة ضريبة ثابتـة على الأراضى ، وهو اصلاح مستديم أفادت منه الخزانة الرومانية أكثر مما أفاد منه سكان هاتين الولايتين . وحدد مدة حكم البريتورين البدلاء فى الولايات بعام واحد ، ومدة القناصل البدلاء بعامين . ولم يكن فى

(١) راجع ص ١١٩ ، حاشية ٢ (السطر الأخير) ص ١٢٠ أول الهامش .

(٢) راجع ص ١٧٥ .

ذلك حريصا على مصلحة الأهالى بقدر ما كان متخوفا من طموح الولاة الذين قد تسول لهم أنفسهم مناوءة الحكومة المركزية . غير أنه أبطل قانون پومپى الخاص باختيار حكام الولايات من بين القناصل والپريتوريين الذين مضت خمس سنوات على اعتزالهم المنصب ، وهو قانون كان يستهدف — كما أسلفنا — اصلاح أداة الحكم فى الولايات ومنع المرشحين للمناصب العامة من اقتراض مبالغ ضخمة على أمل سدادها بالرشا ، والأموال المبتزة من الولايات التى يسند حكمها اليهم عقب انتهاء خدمتهم السنوية فى روما مباشرة(١) . لكن ينبغى أن نقول انصافا لقيصر إن رجال الحزب الارستقراطى ضربوا بهذا القانون عرض الحائط غداة قيام الحرب الأهلية ، وأن الهدف الأخير من القانون كان منع الرشوة التى تضاءل خطرها بعد أن صار تعيين الولاة أكثر ارتهانا بارادة قيصر منه بارادة الشعب الرومانى . ومع أن هذه الاصلاحات لم تمس جوهر النظم الادارية فى الولايات ، الا أن فترة دكتاتورية قيصر كان لها أثر بالغ الأهمية فى حياتها ، اذ تصدعت خلالها لأول مرة تلك الحواجز التى كانت تفصل بين سكان الولايات وبين الايطاليين . وكان الحزب الارستقراطى قد حاول عبثا وقف هجرة الفلاحين الايطاليين والتجار الى الخارج ، ولم يكن ينظر بعين الارتياح الى استيطانهم فى شكل جماعات مستقلة خارج ايطاليا ، وقلما كان يقر انشاء مستعمرات فى أراض أجنبية (٢) . وأما قيصر فقد شجع الهجرة بطريقتين ، اذ كان يبعث الى الولايات بالفائض من فقراء روما المتعطلين للسكنى فى مستعمرات جديدة ذات طابع صناعى أو تجارى ، ويكافىء معظم جنده المسرحين بقطائع زراعية فى أراضى الولايات (٣) ، ولم يمنح سوى قلة منهم قطائع فى ايطاليا نفسها . وقد

(١) راجع ما تقدم فى ص ٢٢٧ — ٢٣٠ .

(٢) راجع موقف السناتو من اقتراح جايوس جراكوس انشاء مستعمرة يونونيا ، ص ٢٥ ، ٣٤ .

(٣) بلغ عدد الجنود المسرحين من قواته التى اشتركت فى حملات غالة عبر الألب وحدها حوالى ٢٠,٠٠٠ جندى .

جعل كل هذه الجماعات الجديدة المقيمة بالخارج فى وضع المستعمرات الرومانية أو اللاتينية ، ومنح مثل هذا المركز المتميز لجماعات ايطالية قديمة استوطنت الولايات(١) . ويقدر عدد مستعمراته فى الولايات بما لا يقل عن عشرين مستعمرة (colonia) وعدد المواطنين الرومان الذين حصلوا على قطائع فى الخارج بما يزيد على مائة ألف مواطن . وكان معظم هذه المستعمرات يقع فى الجانب الغربى من البحر المتوسط . وأما المستعمرات القليلة التى أنشأها فى الولايات فلم يكن لها شأن يذكر ما عدا كورنثة التى كانت — كمستعمرة قرطاجة فى الغرب — تتألف من الفقراء الرومان والعتقاء الذين اكتسب أكثرهم الحرية بفضل الخبرة الفنية أو المهارة الصناعية . وكان قيصر يقصد من بتأسيس المستعمرات الى تحقيق أهداف اقتصادية اذ كان ذلك يوفر على الخزانة أموالا طائلة لأن أراضى الولايات كانت أرخص سعرا من أراضى ايطاليا ، وكان يأمل أيضا أن يخلق منها مراكز زراعية مثل قرطاجنة أو مراكز تجارية — صناعية مثل كورنثة وسينوبى . وعالج بالمستعمرات مشكلة ازدحام ايطاليا وروما بأعداد غفيرة من الذين انسدت فى وجوههم أبواب الرزق أو استمرأوا حياة البطالة اعتمادا على هبات القمح وأصبحوا عبئا ثقيلا على الخزانة . وفى الحق أنه حل أيضا مشكلة سياسية لأن هؤلاء المتعطلين كانوا مصدرا للشغب واختلال الأمن وسلاحا يستغل فى الانتخابات والتطاحن الحزبى . لكن لعله أيضا وضع نصب عينيه هدفا كمساهمة المستعمرين الايطاليين فى نشر الحضارة الرومانية فى الولايات (٢) .

---

(١) كان الايطاليون المستوطنون بالولايات كثيرا ما ينتظمون فى شكل اتحادات سميت فيما بعد conventus civium Romanorum . ولكنها — باستثناء القليل منها — لم تكن تتمتع بامتيازات سياسية بوصفها اتحادات ذات كيان مستقل وإن منحت حقوقا خاصة اخرى.

(٢) عن سياسة قيصر فى انشاء المستعمرات ، راجع :

F. Vittinghoff, **Römische Kolonisation und Bürgerrechtspolitik unter Caesar und Augustus** (1952), pp. 49-95.

وعن الأدلة المستمدة من العملة عن هذه المستعمرات ، انظر :

M. Grant, **From Imperium to Auctoritas**, 1946.

وفى وسعنا أن نقف على اتجاهات قيصر من دراسة دستور احدى هذه المستعمرات . لنتاول مثلا مستعمرة جنيتيفا يوليا (colonia Genetiva Iulia) التى أنشأها عند بلدة أورسو (Urso) بأسبانيا وأسماها باسم عشيرته والربة ڤينوس (١) . من دستور هذه المستعمرة الذى صدر قبيل وفاته يتبين أن بعض المواد منقول عن السلف والبعض الآخر مستحدث من ابتكاره (٢) . ويبدو أنه عين لها أول هيئة حاكمة محتفظا لنفسه بحق اجراء تعيين الحكام فى المستقبل. وقد نص على أنه لا يجوز لعضو من أعضاء السناتو الرومانى أو لأحد من أبنائه أن يكون راعيا (patronus) للمستعمرة الا اذا كان مواطنا عاديا فى ايطاليا غير مزود بسلطة « الامپريوم » ، وأن يوافق على اختياره ثلاثة أرباع أعضاء المجلس التشريعى المحلى (decuriones). ويتضمن الدستور مادة صارمة لعقوبة جريمة الرشوة النقدية أو العينية فى الانتخابات ، لعلها مستوحاة من قانون شيشرون الخاص

---

(١) المستعمرة منسوبة الى يوليوس ، اسم عشيرة قيصر ، والى جنيتيفا ، وهى صفة من صفات ڤينوس ، ربة الحب والتناسل ، بمعنى الوالدة الام (مثل Genetrix) اى الاصل الذى نبتت منه العشيرة (عشيرة يوليوس) لان هذه الربة كانت — كما ورد فى الاساطير — أم اينياس (Aeneas) ، وهو ابو اسكانيوس يولوس (Iulus) الذى روى ان عشيرة يوليوس (gens Iulia) كانت تنحدر من سلالته (راجع ايضا ص ١٤٧ ، حاشية ٢) . ومن هذا النسب انظر ايضا ص ٣٢٢ فيما بعد .

(٢) عن النص نفسه : انظر :

F. F Abbott-A. C. Johnson. **Municipal Administration in the Roman Empire** (1926), pp. 300 ff.: S. Riccobono. **Fontes Iuris Romani Antejustiniani**, 3rd ed. (1941). No. 21 (p. 177 ff.).

وللترجمة والتعليق ، راجع :

E. G. Hardy, **Three Spanish Charters & Other Documents** (1912), 23 ff.; N. Lewis & M. Reinhold, **Roman Civilization** I (1951), pp 420 ff.

بالرشوة(١) . ويكشف عن رغبته الأكيدة فى دعم الصناعة بالمستعمرة وحرصه على مراعاة طقوس الديانة الرسمية تحت اشراف العرافين والكهنة، وعلى تمجيد ثالوث الكابيتول : چوپيتر وچونو ومينرڤا باقامة عيد سنوى لهم يستغرق ثلاثة أيام متوالية ، وعيد يستغرق يوما تمجيدا لڤينوس . وينهض اسم المستعمرة نفسه وتمجيد ڤينوس دليلا على مدى اهتمام قيصر بالربة التى اتخذها راعية له ولآل بيته . وليس فى هذا الدستور ما ينم عن سياسة دينية تتعارض والعادات الدينية المتبعة فى الدولة الرومانية. وأهم من ذلك مادة تنص على أنه لا يجوز الاعتراض على عضوية أحد فى مجلس الشيوخ المحلى بحجة أنه عبد معتق ، وهى مادة تنسخ أخرى كانت تشترط حرية المولد ، واستحدثها قيصر لمصلحة العتقاء (libertini) ولها نظير فى دساتير المستعمرات التى أسسها فى أفريقيا . لقد كان ذلك أمرا طبيعيا فى مستعمرات أنشئت لامتصاص الفائض من فقراء العاصمة الذين كان يوجد بينهم عدد كبير من العتقاء . ولعل قيصر — كما يتبين من لوحة هراقليا — كان يعتزم فى السنة الأخيرة من حياته أن يضع العتقاء فى كل من المستعمرات والبلديات على قدم المساواة مع أحرار المولد (ingenui) . واذا كان تقدم الفكر السياسى عند الرومان يقاس بمعيار معاملة العتقاء فان هذا التشريع دلالة أخرى واضحة على سعة أفقه كرجل من رجال الحكم والسياسة . على أن هذه المستعمرات — بغض النظر عن تلك التى نشأت باستيطان المحاربين القدماء (veterani) بالولايات — كان القصد منها — على نحو ما ذكرنا — أن تحل مشكلة ازدحام العاصمة بالسكان لا أن تكون عوضا عن ايطاليا نفسها أو حوض الپو — الذى منح

---

(١) يعرف هذا القانون باسم lex Tullia de ambitu اى قانون توليوس (اسم عشيرة شيشرون) الخاص بالرشوة ، وقد صدر بايعاز منه اثناء قنصليته عام ٦٣ ، وكان يحرم على المرشح لاى منصب ان يقيم مهرجانا عاما خلال السنتين السابقتين على ترشيحه ويطيل مدة حرمان المدين بالرشوة من تولى الوظائف العامة (طبقا لقانون كلبورنيوس ، راجع ص ١٤٣ وهامش ٢) الى عشر سنوات .

سكانه الجنسية الرومانية — فى تعبئة الجيوش الرومانية . ورواية سويتونيوس بأن قيصر أسكن ٨٠٠٠٠ مواطن عبر البحر وردت فى نص يفهم منه أن هؤلاء كانوا مهاجرين من فقراء العاصمة . ويستطرد المؤرخ قائلا انه منع المواطنين الذين هم فى سن الجندية (ما بين ٣٠ ، ٤٠) من التغيب خارج ايطاليا لأكثر من ثلاث سنوات متتالية ما عدا فى حالة انخراطهم فى سلك الجيش[1] . وكان جنود الجيش الذى حارب تحت لوائه فى بلاد الغال قد جمعوا من ايطاليا ، وان كانوا قد كانوا من تلك المنطقة التى لم تكن قد اكتسبت بعد الحقوق الرومانية الكاملة . وأما فرقة الاوداى (legio Alaudae) الشهيرة التى جندت فى غالة الناربونية ، فيبدو أنه لم يجعلها فرقة نظامية ذات رقم ثابت الا بعد قيام الحرب الأهلية[2] . وقد جرى قيصر على سنة القواد الرومان فى تجنيد الفرسان والمشاة ذوى العتاد الخفيف من خارج ايطاليا . غير أنه ليس هناك ما يحمل على الظن بأن فرقه العسكرية كانت تشتمل على نسبة كبيرة من الجنود غير الايطاليين . واذا كان خصومه قد اضطروا فى أسبانيا وافريقيا الى تجنيد أجانب من سكان الولايات ، فانه لم يقتد بهم لأن ذلك الاجراء كان لا يتوافق وسياسة الدولة الرومانية .

كما خرج يوليوس قيصر عن المألوف بتوسعه فى منح الجنسية الرومانية لسكان الولايات الذين استحقوا هذا الامتياز بما أسدوه من خدمات للجمهورية أو بقبولهم عن طيب خاطر الثقافة الرومانية . وكان القواد الرومان منذ أيام ماريوس قد منحوا فى مناسبات مختلفة الجنسية الرومانية لجنود القوات المساعدة (auxilia) ، ودرج السناتو على أن يقر هذا الاجراء من حيث الواقع لا من حيث المبدأ . غير أن حالات منح الجنسية الرومانية للأجانب كانت بوجه عام قليلة

---

(١) Div. Iul. XLII, 1.

(٢) كلمة Alauda (غالية — كلتيه الاصل) بمعنى قبره أو قنبرة (طائر معروف) وقد اعطيت الفرقة رقم V وصارت الكلمة Alauda تؤدى معنى الجندى الذى يخدم هذه الفرقة .

متفرقة . وأما قيصر فقد استغل حقه الى أقصى حد فى مكافأة الجنود المسرحين بالجنسية الرومانية حتى أنه منحها مرة لفرقة بأسرها ، وهى فرقة الاوداى التى كان قد جمعها عام ٤٧ من غالة الناربونية . ولم يكتف بذلك فأصدر قانونا يقضى بمنح الجنسية الرومانية للأطباء والمعلمين الذين يتخذون روما وطنا لهم ؛ وأعطى الحقوق الرومانية أو اللاتينية لمواطنى كثير من البلديات فى الولايات ، وكان من بينها جاديس (كاديز) فى أسبانيا ، وأوليسيبو (لشبونة) فى البرتغال[1] ، وتولوسا (تولوز) فى فرنسا ، وڤينا فى الإقليم ذاته[2]، ومعظم بلدان صقلية . وذهب الى أبعد من ذلك فأدخل فى مجلس الشيوخ الرومانى عدة ضباط من غالة الناربونية ، ويسر لأسبانى يدعى ساكسا (L. Decidius Saxa) الفوز بمنصب نقيب للعامة . هذه السياسة التى تهدف الى ازالة الفوارق والحواجز بين الايطاليين وسكان الولايات تمدنا بدليل واضح على أن حصافته كرجل من رجال الحكم لا تقل عن كفاءته العسكرية فى ميدان الحرب . وقد أسدى بها خدمة جليلة لفن الحكم الرومانى ، بل كان فيها بمثابة الرائد الذى أنار الطريق لمن جاء بعده من الأباطرة .

السياسة الخارجية :

وما دمنا بصدد الكلام عن اصلاحات قيصر فى الولايات فينبغى أن نقول كلمة عن سياسته الخارجية . ان قيصر وان لم يرسم سياسة محددة لمعالجة مشكلة حدود الامبراطورية ، الا أنه وضع الخطط لتوسيع رقعتها فى عدة قطاعات . وكانت البلقان أولى المناطق التى أولاها عنايته لأن حدود مقدونيا واللوريا كانت أكثر من غيرها تعرضا لاغارات البرابرة . وكان قد فطن منذ عام ٥٨ الى ضرورة مد الحدود الرومانية الى منطقة الدانوب فأنفذ اليها بعد معركة فرسالوس بعض

---

(١) اسمها الرومانى : لوسيتانيا .
(٢) ڤينا المذكورة بلدة فى شمالى غالة الناربونية جنوبى ليون وتسمى الان "Vienne" وهى غير ڤينا عاصمة النمسا الان وقديما "Vindolona"

قواته لصد غارات قبائل الدلماتيين Delmatae (فى البوسنة الحديثة) عن الأراضى المطلة على ساحل الأدرياتيكى حيث كانت تقطن جماعة مستقلة من الرومان والايطاليين (conventus C.R.). وقد عهد الى أولوس جابينيوس (نصير پومپى الذى صفح عنه قيصر واستدعاه من المنفى) بتأديب تلك القبائل فى عام ٤٨/٤٧ ولكن حملته انتهت بكارثة . واستطاع ڤاتينيوس (نقيب العامة فى سنة ٥٩) الذى عينه قيصر حاكما على ولاية إللوريا عام ٤٥ ، ٤٤ أن يرد الدلماتيين على أعقابهم ولكنه لم يتوغل فى أراضيهم بسبب وعورة التضاريس ورداءة المناخ . لكن سرعان ما ظهر عدو أخطر من الدلماتيين فى حوض الدانوب الأدنى ، ففى هذه المنطقة وطد زعيم يدعى بوربيستاس (Burebistas) سيادته العسكرية على الداكيين (Daci) ، وهم قوم من أصل طراقى كانوا قد سكنوا ما نعرفه فى العصر الحديث باسم رومانيا وترانسلڤانيا ، وأسسوا مملكة تمتد من جبال الألب الشرقية الى غرب البحر الأسود . وكان بوربيستاس قد أثار غضب قيصر عندما شرع فى مفاوضة پومپى قبل معركة فرسالوس . ومع أنه أطلق للتجار اليونان والرومان حرية التعامل مع أنحاء مملكته ، الا أنه كان يستمد معظم دخله من أعمال السلب والنهب والغارات التى امتدت الى حدود مقدونيا وإللوريا . ولو طال الأجل بقيصر وتابع فتوحاته لوجه أولى حملاته فى عام ٤٤ ضد ملك داكيا .

غير أن العمليات العسكرية فى البلقان لم تكن الا تمهيدا للحملة الكبيرة التى اعتزم القيام بها ضد البارثيين . ومع أن أوروديس (Orodes) ، ملك پارثيا ، لم يستغل انتصارد فى معركة كرهاى لتقويض نفوذ الرومان فى سوريا (١) ، الا أنه أثار حفيظة قيصر باتفاقه مع پومپى أثناء الحرب الأهلية ، وبمساندة باسوس (Caecilius Bassus) الذى تمرد على سكستوس قيصر (Sextus Caesar) والى سوريا

(١) عن هزيمة كراسوس فى معركة كرهاى (حران) عام ٥٣ ق٠م٠ راجع ص ٢١٤ ـ ٢١٧ ٠

الشرعى فى عام ٤٦ ودبر مقتله أثنــاء الفتنة . ولا ينبغى أن نغفل بين أسباب الحملة رغبة الرومان فى الانتقام لهزيمة كراسوس ، واسترداد هيبة روما التى ضاعت فى الشرق من جراء تلك الهزيمة ، وضرورة تأمين الولايات الشرقية ، فضلا عن غنائم الحرب فى حالة الانتصار على العدو وغزو بلاده . ومع هذا فقد كان من الأفضل ارجاء التفكير فى الحملة وتكريس الجهد لانجاز ما هو أشق من الحرب وأعظم ، ونعنى بذلك اعادة بناء الدولة نفسها . ولا جدال فى أن انتصار قيصر على بارثيا وغسله الاهانة التى لحقت بالشرف الرومانى كان كفيلا بدعم مركزه وتوطيد سلطته . لكن يلاحظ أن اكتافيانوس لم يحذ حذوه اذ انصرف بعد سقوط الاسكندرية عن مشروع الحرب ضد البارثيين وعاد الى روما لمواجهة المهمة الشاقة التى تنتظره مقيما بذلك الدليل على أنه كان للدولة خادما أعظم من قيصر . لكن لعل قيصر ــ كما يرى أحد الباحثين ــ أراد أن يتخذ من الحملة البارثية ذريعة لارجاء مهمة اعادة بنــاء الدولة السياسى ريثما تهــدأ الخواطر التى أثارتها الحرب الأهلية الأخيرة ، أو لعل الحرب ــ كما يرى باحث آخر ــ قد أصبحت هوايته المفضلة فلما بدأت صحته تسوء تملكته الرغبة فى القيام بحملة كبرى أخيرة .

ومهما يكن من شيء فمن الاسراف أن ننكر أنه كانت هناك مبررات قوية للعمليات العسكرية الأخرى التى قام بها توطئة للحملة الكبيرة على الشرق . ولقد رأينا كيف هددت قبائل الدلماتيين المدن الساحلية فى الليريا المواليــة لروما وجيرانها الليبورنيين (Liburni) ، وراودها الأمل فى طرد الرومان من تلك المنطقة . وليس لدينا دليل واضح على أن الدلماتيين تحالفوا مع بوربيستاس ، غير أنهم كانوا ــ وفقا لرواية ابيانوس ــ يخشون أن يهاجمهم قيصر تمهيدا لحملته على داكيا . ومن ثم أرسلوا سفارة الى روما للتفاهم . غير أنه أراد أن يخضعهم اخضاعا

تاما فعين ڤاتينيوس فى آخر الأمر ، حاكما على اللوريا لانجاز هـــذه المهمة ، ومع أن الأخير لم يستطع انجازها ــ كما رأينا ــ على الوجه الأكمل الا أن قيصر قدر أن استعراض القوة الرومانية كفيل بارهاب القبائل الاللورية المعادية وأن ڤاتينيوس ربما استطاع اخضاعها نهائيا وتأمين الولاية فى السنة الثانية من حكمه . وبعدئذ كان فى وسعه أن يضع جيشه تحت تصرف حاكم مقدونيا . ولما كانت حدود هذه الولاية الأخيرة قد تعرضت لغارات الداكيين فقد أصبح من الضرورى محاربة بوربيبستاس لتأمين هذا الركن من الامبراطورية قبل الاقدام على غزو پارثيا . صحيح أن بوربيبستاس لقى حتفه فى مؤامرة لا ندرى أحدثت قبل موت قيصر أم بعد موته . لكن فى وسعنا أن نفترض فى الحالتين أن القصد من الخطة كان القيام بمظاهرة عسكرية ضخمة فى الشمال الشرقى بينما تتخذ التدابير لاسترجاع سوريا . وكان جنود حامية سوريا ممن ظلوا على ولائهم لقيصر أثناء فتنة باسوس قد انسحبوا الى ولاية كيليكيا التى استطاع حاكمها أن يغل يد الثوار حتى حضر الى سوريا حاكم جديد . وقد استطاع هذا الأخير أن يشق طريقه صوب الجنوب ويضرب الحصار على أپاميا (على نهر العاصى) التى أعتصم فيها باسوس وأعوانه . ولم يلبث باسوس أن استنجد بالپارثيين فقاموا بهجوم على سوريا كى يخففوا عنه ضغط القوات الزاحفة . لكن هذا الهجوم توقف بمجىء شتاء عام ٤٥ . ولم يعد لباسوس أمل كبير بعد أن جاء الى سوريا حاكم آخر فى مستهل عام ٤٤ وتحت امرته ثلاث فرق رومانية وانتقلت اليه من بثونيا ثلاث فرق أخرى لتعزيزه . وكانت هذه القوات الضخمة كفيلة بتصفية الموقف فى سوريا خلال عام ٤٤ وبعدئذ تصبح متأهبة للقيام بدورها فى الحملة على پارثيا اذا اقتضت الحال .

وأما الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى فقد انحصرت أهميتها فى استخدامها كقواعد لتموين الحملة الپارثية .

وقد حرص قيصر على أن يحكم الولايات التى كانت تحتاج الى قوات عسكرية كبيرة فى عام ٤٤ رجال يثق بهم . ومن المرجح أنه هو الذى رشح مقدما حكام هذه الولايات لعام ٤٣ ، اذ رشح انطونيوس لمقدونيا ودولابللا لسوريا وتريبونيوس لآسيا . وأما فى الغرب فقد رأى أن يعين ليبدوس حاكما على أسبانيا القريبة فضلا عن غالة الجنوبية ، وأسينيوس پولليو على أسبانيا البعيدة وتحت امرته ثلاث فرق لمواجهة خطر سكستوس پومپى ، وموناتيوس پلانكوس على بقية غالة عبر الألب ، ودكيموس بروتوس على غالة القريبة . وقرر أن يسند حكم بقية الولايات الى من شغلوا البريتورية عام ٤٤ ، وهم رجال كان له يد فى انتخابهم لهذا المنصب . وقد راعى فى توزيع القوات العسكرية حاجات الامبراطورية وحفظ التوازن بين القواد حتى لا ترجح كفة أحد منهم فتسول له نفسه أن يشق عليه عصا الطاعة . لذلك لم يدع أحدا يتولى قيادة قوات ضخمة أو يبقى فى القيادة مدة طويلة . واذ كان قد وعى جيدا الدرس الذى تلقاه كراسوس فى كرهاى ، فقد أعد قوة قوامها ١٠٫٠٠٠ فارس ، وأخرى اضافية من الرماة لمؤازرة الفرق الرومانية فى حملته (١) . وكان ينتوى الزحف إلى بارثيا نفسها عن طريق أرمينيا بدلا من غزو بابل ، وقدر لانهاء الحرب مدة لا تقل عن سنتين .

السياسة المالية :

وحسبنا ان نقول عن سياسته المالية ان الخزانة تكبدت نفقات باهظة بسبب مشروعاته الضخمة ومنشآته العديدة التى زين بها العاصمة مجاراة للدكتاتور سلا ، واعانته لأصدقائه المعوزين الذين هيأ

---

(١) يروى ابيانوس (Bell. Civ. II, 110) ان قيصر أعد للحملة ست عشرة فرقة (legiones) اى حوالى ٨٨٫٠٠٠ جندى ، على اعتبار ان الفرقة الواحدة = ٥٫٥٠٠ جندى ، غير ان الباحثين يرتابون فى ضخامة هذا الرقم .

لهم فرص الاثراء بطريق غير مباشر على حساب الدولة ، واسرافه الشديد وبذخه اذ كان يحرص على الترويح عن جمهور المدينة بالمآدب الفاخرة والمهرجانات الفخمة فى مواكب النصر التى استغرق أحدها أربعة أيام ، وعلى ارضاء المسرحين بالمكافآت السخية ، هذا الى أن احتفاظه بحوالى خمس وثلاثين فرقة عسكرية كان يكلف الدولة نفقات طائلة . وقد زاد من هذه النفقات رفعه راتب جنود الفرق من ١٢٠ الى ٢٢٥ دينارا فى السنة وان كان ذلك قد ساعد على تنمية مدخراتهم أثناء الخدمة وقلل بالتالى من احتياجاتهم عند التسريح . لقد كان الحل السليم هو تسريح هذه الفرق ما عدا الضرورى منها لصيانة السلم وحفظ الأمن فى أرجاء الامبراطورية . وأما عن الاقطاعات الزراعيةالتى كان يترقبها الجنود المسرحون فكان من الميسور شراؤها لهم بالمال دون اللجوء الى مصادرة أراضى أخرى فى الولايات اذا ضمت مصر الى ممتلكات الجمهورية . وكانت مصر لا تزال بلدا غنيا وفى وسع روما أن تستغل جانبا من ثروتها لسد حاجتها لقاء ما تكفله لها من أمن وسلام . ولا مراء فى أن فكرة من هذا القبيل قد جالت بخاطر قيصر ، غير أن الملكة كليوبطرة وقفت حائلا دون زوال أسرتها وبالتالى دون سقوط مصر حينئذ فى يد الرومان : ذلك أنها فتنت الدكتاتور الذى أنجب منها ولدا باسم بطلميوس قيصر . ولم تلبث — على نحو ماذكرنا — أن لحقت به فى روما حيث نزلت بقصر له فى حدائقه عبر التيبر ، وأقام لها تمثالا فى معبد ڤينوس بوصفها الأم (Venus Genetrix) التى انحدرت منها أسرته مثيرا بذلك المسلك امتعاض الأرستقراطيين الرومان . وإنه لأمر عسير أن نتحقق من مدى أطماع كليوبطرة ، وهل كانت تطمع فى مؤازرته لدعم مركزها فى مصر فقط أم لبسط سيادتها على غيرها من الأقطار . وأيا كان الأمر فان مصرع الدكتاتور بدد آمالها وجعلها تقنع بمملكتها الصغيرة على ضفاف النيل .

ومع هذه النفقات فان قيصر لم يعمل على رفع فئات الضرائب العادية أو على تنمية الدخل بتغيير الجهاز الادارى تغييرا جوهريا . لقد بنى سياسته المالية على أساس أن الحرب تغطى نفقات الحرب . غير أنه لم يجد مناصا ، ازاء تتابع الحروب ، من الالتجاء الى أساليب العسف والاكراه فى بعض الأحيان لكى يواجه الأعباء المالية المتزايدة ، فصادر ممتلكات أنصار پومپى الذين تباطأوا فى تسليم أنفسهم بعد معركة فرسالوس ، وفرض غرامات فادحة على المدن الافريقية بعد ثاپسوس ، واستولى فى أسبانيا على أراضى المدن التى ناصرت خصومه . كما حصل على مبالغ ضخمة من بيع « الامتيازات » للممالك والمدن الدائرة فى فلك روما ، ومن جمع « التبرعات » من الرعايا الأثرياء . وقد استغل جانبا من الأراضى المصادرة فى افريقيا لدعم الخزانة بالمال الناتج من بيعها ، غير أنه وزع معظم الأراضى المصادرة فى أسبانيا على المستعمرين الرومان ، فكأن سياسة انشاء المستعمرات كانت غرما على الدولة فى بعض الأحيان . ولعل تخفيض عدد المنتفعين بهبات القمح خفف بعض الشىء من فداحة المصروفات . لكن ينبغى ألا ننسى أن المواطنين الرومان فى ايطاليا كانوا معفيين من الضرائب المباشرة ، وأن منح سكان غالة عبر البو حقوق المواطنة الكاملة عاد بالخسارة على الخزانة . ومع هذا فقد كان فرض المكوس الجمركية فى الموانى الايطالية بعد الغائها فى عام ٦٠ بمثابة ضريبة غير مباشرة على المواطنين ، فضلا عما كانوا يؤدونه من ضريبة على عتق العبيد . واذا كانت ولايات غالة قد استطاعت أن تغطى بجزيتها الضخمة نفقات حكومتها ، فان معظم الولايات الأخرى كانت تعانى وتئن عجزا ماليا شديدا . وكان قيصر قد أعفى طائفة من ولايات الشرق الهللينستى من بعض الضرائب . وخفض المبالغ المستحقة على المدن وعهد الى مجالس هذه المدن بجبايتها دون الاستعانة بالملتزمين الرومان الذين ساءت سمعتهم ، مشددا الرقابة فى الوقت نفسه على الولاة منعا للتعسف . غير أنه كان لابد من انقضاء

فترة من الزمن قبل أن يظهر الأثر الفعال لمنع الابتزاز وتبديد الخزانة .

وتأتى فى ختام قائمة اصلاحاته بعض تشريعات متنوعة متفاوتة الأهمية وفى مقدمتها ما يتصل بالسناتو وتكوينه وهى مشكلة عالجها قيصر بأن زاد عدد أعضائه من ٦٠٠ الى ٩٠٠ عضو محققاً بذلك مشروع جايوس جراكوس وقاضيا على الأولجركية المتعصبة القديمة . وقد أدمج فيه كثيرين من أنصاره وضباطه القدامى وبعض أعيان الغال الذين منحهم الجنسية الرومانية . ودعما للجهاز الادارى ومكافأة لأنصاره فى الوقت نفسه رفع عدد الكويستوريين من ٢٠ الى ٤٠ وعدد البريتوريين من ٨ الى ١٦ ، وزاد عدد أعضاء الجماعات الكهنوتية (١) وغير وضع عدة أسر من العامة بأن إدرجها بين العشائر الشريفة (gentes patriciae) لكى تحل محل بعض الأسر الأخيرة التى انقرضت وبصبح أفرادها الاثقين للمناصب الدينية المقصورة على الأشراف . وأعاد تشكيل محاكم الجنايات مستبعدا « ترابنة الخزانة » من هيئة المحلفين وان كان الباعث على ذلك ما يزال غير واضح (٢) . وشدد فى الوقت نفسه العقوبات الخاصة بالجرائم العامة على نحو ما ذكرنا . وأصدر قانونا للحد من البذخ والترف (كالتزين بالمجوهرات وركوب المحاف والغلو فى زخرفة المقابر) ، وهو قانون كان نصيبه الفشل كقوانين سلا فى هذا الصدد . وفكر قبل الأوان فى تجميع القانون مفتديا بما فعله سلا فى شأن القانون الجنائى ، وهو مشروع يقال ان بومبى فكر فيه ثم عدل عنه ، ولم يقدر له أن ينجز الا بعد انقضاء خمسة قرون (٣) .

وبفضل المدخرات الوفيرة من المعادن الثمينة التى كانت فى حوزته

---

(١) راجع ص ٨٦ هامش ٢ ، ٢٠٣ هامش ٣ .

(٢) راجع ص ١٢٠ ، ٢١١ حاشية ٣ .

(٣) عن المجموعات القانونية الرومانية ، راجع كتابنا « مصادر التاريخ الرومانى » ، ص ٩٧ — ١٠٤ .

سك عملة تسمى الأوريوس aureus (ويعادل ٢٥ ديناراً) ، فكانت أول نقود ذهبية تصدر فى روما بانتظام . وتشجيعا للثقافة وضع مشروع بناء مكتبة تحت اشراف ڤارو (M. Terentius Varro) ، أكبر علماء الرومان فى عصره (١) . وأخيرا قام ، بوصفه كاهنا أعظم ، باصلاح التقويم الرومانى ، وهو أنفع اصلاحاته وأبقاها أثرا . . كان الرومان حتى أيامه يستعملون التقويم القمرى حيث تشتمل السنة على ٣٥٥ يوما ، وكان أول مارس فى الأصل هو رأس السنة الرومانية ، ولكن السلطات عدلت عن ذلك منذ عام ١٥٣ ، وجعلت أول يناير بداية السنة (٢) . وقد جرت العادة على تصحيح السنة القمرية للمطابقة بينها وبين السنة الشمسية على وجه التقريب ، وذلك باضافة « شهر نسىء » يتكون من ٢٢ يوما الى السنة الثانية من كل دورة رباعية ، و « شهر نسىء » من ٢٣ يوما الى السنة الرابعة من هذه الدورة (٣) . لكن حدث أن أغفل الكهنة فى الفترة ما بين سنتى ٥٩ و ٤٦ هذه الاضافات الضرورية لأسباب سياسية أو بواعث شخصية وترتب على ذلك أن صارت السنة الرومانية فى ٤٦ أسبق من السنة الشمسية بأكثر من شهرين ، فأضاف قيصر العدد اللازم من الأيام للسنة الرومانية الموافقة لعام ٤٦ حتى

---

(١) راجع ص ٢٤٧ ، حاشية ١ .

(٢) راجع : C.I.L. vol. I, 2nd ed., p. 231.

(٣) كان الشهر النسىء يضاف بعد اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير الذى كان ينتهى عند ذلك اليوم مرة فى كل سنتين . وهذا الشهر النسىء المكون من ٥ أيام أصلها من فبراير و ٢٢ أو ٢٣ يوما اضافيا ، أصبح هو الشهر الثالث عشر من السنة ويعرف بالشهر الاضافى أو الشهر النسىء (mensis intercalaris) . وكانت السنة العادية المؤلفة من ٣٥٥ يوما تنقسم الى ١٢ شهرا : سبعة يشتمل كل منها على ٢٩ يوما وأربعة على ٣١ يوما ، وواحد (هو فبراير) على ٢٨ يوما [المجموع الكلى = ٣٥٥ يوما فكان كل من مارس ومايو وكوينتيليس (يوليو فيما بعد) وأكتوبر يشتمل على ٣١ يوما ، وبقية الشهور على ٢٩ يوما ، وفبراير على ٢٨ يوما. وبهذه الاضافة أصبحت الدورة الرباعية تتكون من ١٤٦٥ يوما ومتوسط طول السنة ٣٦٦ ١/٤ يوم .

يطابق التقويم الرومانى التقويم الشمسى (١) . ثم وضع تقويما جديدا كان فى الأصل من ابتكار الفلكى الاسكندرى سوسيجنيس (Sosigenès) ، وجرى العمل به من أول يناير عام ٤٥ . وكان هذا التقويم يستند الى السنة الشمسية المصرية التى تتألف من ٣٦٥ ١/٤ يوم ويدخل فى حسابه الدورة الرباعية بمعنى أن كل سنة من السنوات الثلاث الأولى تتكون من ٣٦٥ ، والسنة الرابعة أو السنة الكبيسة ، من ٣٦٦ يوما باضافة يوم نسىء (dies intercalaris) بين اليوم الثالث والعشرين والرابع والعشرين من شهر فبراير (٢) .

دكتاتورية يوليوس قيصر :

(١) مناصبه وسلطاته :

ما يزال الخلاف قائما بين الباحثين حول وضع قيصر وهدفه وهل كان ينتوى اقامة حكم ملكى على أنقاض الحكم الجمهورى . وفى رأينا أن لا سبيل الى حسم هذا الخلاف بصورة قاطعة . لكن لعل دراستنا للمناصب التى شغلها والسلطات والألقاب التى منحت له خلال فترة حكمه القصيرة بعد معركة ثابسوس (أبريل ٤٦) تلقى ضوءا على حقيقة وضعه الدستورى وهدفه السياسى .

---

(١) وبهذه الاضافة بلغ عدد أيام سنة ٤٦ (وهى تقابل عام ٧٠٨ منذ تأسيس مدينة روما) ٤٤٥ يوما . وقد سماها الكاتب مكروبيوس (Macrobius) آخر سنى الاضطراب (ultimus annus confusionis) لأنها اشتملت على ١٥ شهرا (راجع . (Suetonius, Div. Iul. XL, 1

(٢) وبعبارة اخرى يتكرر يوم ٢٤ فبراير . وقد ظل « تقويم يوليوس » معمولا به بعد سقوط الامبراطورية فى انحاء العالم المسيحى حتى أمر البابا جريجورى الثالث عشر بتصحيحه فى ٢٤ فبراير عام ١٥٨٢ م ، فحذفت عشرة أيام آنئذ ، وثلاثة أيام نسىء فى كل ٤٠٠ سنة منذ عام ٤٥ ، لأن السنة كانت حسب تقويم يوليوس تزيد حوالى ١١ دقيقة عن السنة الشمسية الحقيقية ، وعن تقويم يوليوس ، راجع :
N. Lewis-M. Reinhold, Roman Civilization I (1951), p. 511 f. ; OCD[2] (1970), s.v. Calendars (6).

استند قيصر فى حكمه الى تأييد جنوده القدامى الذين حاربوا معه فى غالة وغيرها من الميادين ، والى أنصاره الذين كانوا يدينون له بمناصبهم ، والى القوات العاملة التى أمكنه الاحتفاظ بها تحت السلاح. واستطاع تنفيذ اصلاحاته بفضل مركزه الذى اكتسب صفة قانونية بالمناصب التى أسندت اليه ، والسلطات الاستثنائية التى خولت له ، هذا فضلا عن ألقاب الشرف والتمجيد التى أكسبت وضعه طابعا خاصا . وكانت الدكتاتورية هى أهم تلك المناصب الرسمية . كان قيصر — كما رأينا — قد عين دكتاتورا فى النصف الثانى من عام ٤٩ أثناء غيابه ، ثم تنحى عن المنصب بعد أيام من عودته (١) . وقد عين فى نفس المنصب مرة ثانية بعد انتصاره فى فرسالوس لمدة عام كامل من أواخر أكتوبر ٤٨ الى أواخر أكتوبر ٤٧ على ما يرجح (٢) . وفى أواخر أبريل ٤٦ — فيما يحتمل — تقرر اختياره دكتاتورا لمدة عشر سنوات متوالية ، فشغل المنصب بالفعل سنة واحدة للمرة الثالثة (٣) (أبريل ٤٦ — أبريل ٤٥) واعتبر دكتاتورا مسمّى (dictator designatus) لكل

---

(١) راجع ما تقدم فى صفحات ٢٤٧ — ٢٤٨ ، ٢٧٤ .

(٢) Cf. T. R. S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic II (1952), pp. 272 f., n. 1.

ولعل بعض الناس اعتقدوا ان دكتاتوريته الثانية لم تبدأ رسميا الا فى أواخر عام ٤٧ عندما عاد الى روما بالفعل ، راجع .

A. E. Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," J.R.S. XLIV (1954), p. 70, n. 21 ad fin.

(٣) ناخذ هنا بالرأى القائل بمرور فترة من الزمن بين الدكتاتورية الثانية والدكتاتورية الثالثة ، وان قيصر كان قنصلا فى الفترة مابين يناير ٤٦ وابريل ٤٦ ، راجع :

Broughton, op. cit, p. 285; Raubitschek, ibid, p. 70 f.

ولم تبدأ الدكتاتورية الثالثة رسميا الا بعد عودته الى روما فى يوم ٢٥ يوليو عام ٤٦ حيث انه يوصف فى بعض النقوش بالدكتاتور المسمى (dictator designatus). فى الفترة ما بين ابريل ٤٦ ويوليو ٤٦ ، راجع Raubitschek, ibid, p. 71 .

ومعنى designatus هو المعيّن (او المنتخب) لمنصب ولكنه لم يتقلده رسميا بعد .

سنة من السنوات التسع التالية (١) . ثم شغله بعد ذلك مباشرة للمرة الرابعة حتى تقرر قبل ١٥ فبراير عام ٤٤ بيـوم أو أيام قليلة أن يعين دكتاتورا لمدى الحياة (dictator perpetuus) . وتولى قيصر فى الوقت نفسه القنصلية ، وهو منصب شغله بصفة تكاد تكون مستمرة من ٤٨ حتى ٤٤ (٢) إما وحده أو مع زميل (٣) ، جامعا أحيانا بين الدكتاتورية والقنصلية (٤) . وفى عام ٤٤ تمتع بالحصانة الشخصية أى اعتبرت ذاته محرّمة (sacrosanctus) لا يجوز المساس بها كنقباء العامة ، وان لم يتمتع — فى أغلب الظن — بالسلطة التريبيونية نفسها (tribunicia potestas) كما يذهب المؤرخ كاسيوس ديون . وكان يتولى أيضا منصب الكاهن الأعظم (pontifex maximus) أى كان رئيس الديانة الرسـمية فى الدولة منذ عام ٦٣ . وأجيز له عام ٤٨ أن يكون عضوا فى كل الجماعات الكهنوتية (collegia) المقصورة عضويتها على الأشراف . وفى عام ،

---

(١) Cassius Dio XLIII, 14, 3 (cf. Broughton, op. cit., p. 294 f.)

(٢) ما عدا فى الفترة بين سبتمبر وديسمبر ٤٧ عندما شغل منصب القنصـلية اثنان من اعوانه هما فوفيوس كالينوس وپوبليوس ڤاتينيوس .

(٣) لم يحدث ان تولى قيصر القنصلية بمفرده الا فى عام ٤٥ ، وقد تنحى عن المنصب حوالى اول اكتوبر من نفس العام ، فانتخب كل من فابيوس مكسيموس وجايوس تريبونيوس لشغل المنصب فى المدة الباقية من العام (consules suffecti) وحدث ان توفى مكسيموس قبل آخر السنة بيوم واحد فاوصى قيصر بانتخاب كانينيوس ريبلوس (Rebilus) خلفا له فشغل القنصلية اليوم الاخـير من السنة فقط ، واثار ذلك سخرية شيشرون .

(٤) القنصلية الاولى عام ٥٩ ، والثانية ٤٨ ، والثالثـة ٤٦ . وقد جمع قيصر بين القنصلية الثالثة والدكتاتورية الثالثة (من ابريل ٤٦ — ابريل ٤٥) . واذا كان بعض العلماء قد اعتقدوا ان دكتاتورية قيصر الثانية لم تبدأ رسميا الا فى اواخر ٤٧ عند عودته من الخارج (راجع ص ٣١٦ حاشية ٢) فان ذلك ربما يرجع الى ان احدى العملات التى سكت فى اوائل عام ٤٦ حاملة عبارة (COS. TER) قد فسرت بانه جمع بين القنصلية الثالثة (التى بدأت فى ٤٦) والدكتاتورية الثانيـة التى استمرت فى اعتقادهم حتى اوائل عام ٤٦ ؛ ومن هذه النقطة راجع :
H. A. Grueber, **Coins of the Roman Republic in the British Museum** II (1910), 576: COS. TER. DICT. ITER; Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," **J.R.S.** XLIV (1954), p. 70 & n. 12.

٤٦ خــول سلطات الرقيب (censor) باسم المشرف على الأخــلاق (praefectus moribus) لمدة ثلاث ســنوات ، وبعدئذ لمدى الحيــاة .

وبفضل هذه المناصب لم يعد فى وسع أحد من زملائه من الحكام العاديين أن يعرقل ما يريد اصــداره من تشريعات ســواء عن طريق الجمعيات الشعبية أم بمقتضى سلطته الدكتاتورية التى تخوله ســن القوانين (legibus scribundis) ، ذلك أن « الامپريوم » الذى منح له كان أعلى من « امپريوم » غيره من الحكام كالقناصل والپريتوريين كما أن سلطتــه كدكتاتور لم تقع تحت طائلة اعتراض نقبــاء العامة (intercessio) . صحيح أن النقباء كانوا يمثلون أقوى معارضــة لقيها قيصر أثناء حياته السياسية ، غير أنه لم يكن يتردد ــ مثلما حدث مرة ــ فى الايعاز الى واحد منهم فى تقديم اقتراح الى الجمعية القبلية بعزل المناوئين له وانتخاب آخرين يحلون مكانهم . وقد كان فى وسعه أن يتمتع بالسلطة التريبونية دون أن يكون نفسه نقيبا للعامة (لأنه سليل أسرة من عشيرة شريفة gens patricia) مثلما فعل أغسطس فيما بعد، فيحل بذلك مشكلة دستورية مستعصية ، غير أنه لم يشأ ذلك أكبر الظن لأن سلطته الدكتاتورية التى لا تسرى عليها سلطة اعتراض نقباء العامة جعلته فى غنى عن الثانية . وصحيح أيضا أن السناتو كان فى استطاعته من الناحية النظرية أن يرفض اصدار توصيات (senatus consulta) تحقيقا لرغباته ؛ كما كان يملك دستوريا الحق فى توزيع الولايات على الحكام ، وأصبح ، على نحو ما ذكرنا ، يمد محاكم الجنايات بنصف عدد المحلفين . وفى الحق ان قيصر لم يسلب هذا المجلس سلطاته على الأقل من الناحية النظرية ، فظل يبت فى طائفة من الشئون الخارجيــة ويستقبل السفارات الأجنبية (وبخاصة فى شهر فبراير من كل عام) ،

ويباشر دوره التقليدى فى عقد المحالفات والتصديق على المعاهدات (١). ومع هذا فان قيصر على توقيره لهذه الهيئة التى كان تجاهلها معناه تجريد الحكم من دستوريته تجريدا تاما ، لم يحرص على اشراكها معه فيما كان يصدره من قرارات أو حتى فيما كان يعقده من معاهدات، وأن المجلس بدوره لم يكن يفصل فى أمر هام الا بعد استطلاع مشيئة الدكتاتور والتعرف على رغباته بل كان فى كثير من الأحيان يرجىء النظر فى الموضوع الى ما بعد عودته من ميدان الحرب . وليس هناك ما يؤيد رواية كاسيوس ديون بأن قيصر منح فى عام ٤٨ سلطة اعلان الحرب وابرام الصلح باسم الشعب الرومانى دون الرجوع الى السناتو. غير أن سلطات قيصر الدكتاتور — قياسا على سلطات سلا — أتاحت له أن يرشح عددا كبيرا من أعضاء السناتو مما كان يضمن له الأغلبية فى المجلس فكأنه أصبح فى يده من الناحية الواقعية أمر تعيين حكام الولايات . وكانت صورة السناتو قد تبدلت بعد أن هلك فى الحرب الأهلية بعض أعضائه من خصوم قيصر واعتزل السياسة بعضهم الآخر . وأعاد قيصر بما له من سلطات الرقيب تشكيله بأن طرد منه غير المرغوب فيهم وأدخل فيه عناصر جديدة سواء من ضباطه القدامى أو من سكان غالة البعيدة الذين أثاروا سخرية النقاد بسراويلهم الطويلة أو لجهلهم

---

(١) لم يكن السناتو فى هذا الوقت يملك حق الاعتراض على قوانين الجمعية القبلية او المئوية اذ انه فقد هذا الحق قديما بصدور قانون هورتنسيوس (lex Hortensia) فى عام ٢٨٧ . وبغض النظر عن فترة حكم سلا التى استرد فيها السناتو حقه فى الاعتراض حتى عام ٧٠ — كان فى وسعه ان يفعل ذلك بطريق غير مباشر أى عن طريق القنصلين اللذين كانا يعتبران ممثلين له ومتكلمين باسمه (هذا ما لم يكن أحدهما أو كلاهما من خصومه) اذ صدر حوالى عام ١٥٠ قانونان باسم آليوس وفوفيوس (leges Aelia et Fufia) يخولان القنصلين حق الاعتراض على قوانين الجمعيتين بحجة ظهور طالع obnuntiatio (راجع ما تقدم فى ص ١٧٩) وهو حق تمتع به أيضا نقباء العامة ضد القنصلين ولم يزد من سلطتهم فى الاعتراض بل اكسبها فقط صبغة دينية . غير ان النقيب كلوديوس استصدر فى عام ٥٨ قانونا بتعديل قانونى ايليوس وفوفيوس — وان كان قد طعن فى شرعية قانونه ، ولعله أبطل فيما بعد (راجع ص ١٧٩ وهامش ٤) وانظر أيضا :
L. Homo, **Roman Political Institutions** (1929), p. 151 f.

الطريق الى دار السناتو (Curia) ، أو من الحكام السابقين كالپريتوريين والكويستوريين الذين ضاعف عددهم لا لمواجهة الأعباء الادارية المتزايدة فحسب بل طمعا فى تأييدهم له بعد انتقالهم الى ذلك المجلس. ولما كانت مقاعد السناتو قد امتلأت بعدد كبير من أنصاره وممن توهم أنهم أنصاره فقد أقسم المجلس يمينا بالسهر على حياته . وكان قيصر بوصفه دكتاتورا يملك حق تعيين مساعد له وهو رئيس الفرسان (magister equitum) الذى كان ينوب عنه فى روما وايطاليا أثناء غيابه فى ميدان الحرب . ولتصريف الشئون الداخلية ولمساعدة رئيس الفرسان خول قيصر الحق فى تعيين مديرين أو رؤساء مصالح (praefecti) يحملون شارات منصبه (insignia) ويمارسون سلطة مستمدة من سلطته . وأما فى الخارج فقد أجيز له أن يعين مساعدين أو نوابا (legati) ويمنحهم رتبة الپريتور . هكذا قبض على زمام الدولة قبضا محكما بمقتضى سلطته الدكتاتورية .

وقد قيل فى الدفاع عن قيصر وتبرير مسلكه إن الجمع بين القنصلية والدكتاتورية لم يكن بدعة من صنعه بل من صنع سلا ، وأن تقلده القنصلية سنوات متتالية له سابقة فيما فعله ماريوس ، وأن انفراده بالمنصب الأخير (consul solus) كان مجاراة لپومپى . وكانت قيادة پومپى ضد القراصنة التى أعقبها تنصيبه حاكما على أسبانيا دون مبارحته ايطاليا هى التى أوحت الى غيره أن يفوض على نطاق واسع سلطاته المستمدة من الامپريوم الواحد لطائفة من نوابه ومساعديه (legati) . وقيل أيضا أن حاجيات الجمهورية هى التى حملته على الاتجاه نحو سلطة مركزية كالتى مارسها قيصر . وكان سلا قد خول — بوصفه دكتاتورا — الحق فى وضع القوانين ؛ وسواء استعمل سلا هذا الحق أم لم يستعمله ، فانه كان يتضمن معنى تنازل الشعب الرومانى مؤقتا عن سيادته . وقد تكرر هذا التنازل فى أيام قيصر وإن كان قيصر

لم يستغل — على ما يبدو — هذا الحق فى المسائل الهامة الا مرات قليلة . غير أن الجديد فى الأمر هى تلك السلطات التى لم تكن مستمدة من أى منصب رسمى . وبغض النظر عن رواية كاسيوس ديون بأن قيصر منح سلطة اعلان الحرب وعقد الصلح دون الرجوع الى السناتو — اذ أنها رواية ينفرد بها ذلك المؤرخ — فانه منح من الناحية الواقعية لا القانونية ، الحق فى ادارة انتخابات كبار الحكام ، وخوله السناتو بعد انتصاره فى موندا الحق فى أن يرشح سنويا من يشاء لشغل نصف عدد المناصب العليا فى الدولة . ومع أنه كان يكتفى بتزكيـة أنصاره لدى الناخبين ، الا أن ذلك كان ينطوى على سابقة تجاوزت الحـدود المألوفة فى اقصاء الشعب الرومانى عن حكم البلاد . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فأصدرت الجمعية الشعبية(٢) بايعاز من أحد أنصاره قـرارا (plebiscitum) فى عام ٤٤ يجيز اجـراء انتخابات الحـكام مقـدما للسنوات التالية . واذ كان قيصر قد انتفع بهذا القرار فان تزكيـاته غدت بمثابة توجيه للمواطنين وايعاز اليهم فى انتخاب أنصاره .

ب — الألقاب الدينية :

ويحدثنا كل من سويتونيوس وكاسيوس ديون عن قائمة طويلة بألقاب الشرف والامتيازات التى أغدقت على قيصر حتى تتناسب وهذه المناصب الرسمية والسلطات غير العادية (١) . وقد أغدقت عليه لبواعث مختلفة منها الاعتراف بفضله والاستجابة لرغبته والتزلف اليه والرهبة منه . ولعل بعض هذه الألقاب والامتيازات غير صحيح اختلقه المعجبون به أو المداهنون أو الراغبون فى اثارة السخط عليه . ومع هذا ، وبعد

---

(1) Suetonius, **Div. Iul.** LXXVI: Dio, XLIII 14, 44-45; XLIV, 3-6.

ومن سيرة يوليوس قيصر كما وردت عند المؤرخ سويتونيوس ، راجع :

H. E. Butler & M. Cary, Suetonius, Divus Iulius. 1927.

C. Brutscher, Analysen zu Suetons Divus Iulius und der Parallel-überlieferung. 1958.

(٢) المسماة — تحديدا — Comitia plebis tributa

اذاً ما كان يعرف من قبل بمجلس العامة Concilium Plebis
كانت تنعقد بدعوة من احد نقباء العامة وبرئاسته ، دون حضور
... وصار لقراراتها (Plebiscita) قوة القوانين (منـذ
... ق.م) اما فى حالة انعقادها بدعوة من قنصل أو بريتور يحضرها

اغفال الزائف منها ، فلم يسبق أن تمتع بمثلها حاكم رومانى واحـد ، فضلا عن مجافاة جانب منها للتقاليد الرومانية . لنتناول أولا تلك الطائفة من الألقاب والامتيازات ذات الطابع الدينى والتى ما تزال مثار نقاش بين المؤرخين : اذ يرى فريق منهم أنها نشأت عن سياسة دينية مرسومة ترمى الى تأليهه رسميا ، وأن هذا التأليه كان وسيلة لدعم نظام الحكم الملكى الذى اعتزم اقامته فى روما اقتـداء بما فعله ملوك الشرق الهالينستى ، بينما يرى فريق آخر أن قيصر ، على كثرة ما خلع عليه من ألقاب وامتيازات شبه إلاهية ، لم يؤله رسميا أثناء حياته ، اذ توجد لها سوابق فى التاريخ الرومانى ولا تنطوى بالضرورة على معنى التأليه . ونحن أميل الى الرأى الثانى ونرى أنها لم تكن وليدة سياسة وضعها هو بقصد تأليهه رسميا بل كانت وليدة حماس شديد غمر بعض أنصاره الذين كانوا يسعون جاهدين إلى توطيد سلطته ودعم مركزه واعلاء شأنه . وكان أول ما أصدره السناتو فى هذا الصدد توصية بوضع عجلته الحربية فى مواجهة تمثال چوبيتر بالمعبد القائم فوق الكابيتول ، واقامة تمثال له فى نفس المعبـد تظهر فيه صـورة الأرض (المعمورة) تحت قدميه . وترمز العجلة الحربية الى موكب نصره ، بينما يخلد تمثاله الآخر ذكرى انتصاراته فى طول البحر المتوسط وعرضه . واذا كان هـذا التمثال قد حمل نقشا يوصف فيه قيصر بأنه نصف اله (hemitheos) فقد أمر الدكتاتور بطمسه لا لأن اللقب — كما يعتقد البعض — كان أقل مما يليق به بل لأنه كان أكبر مما يستحقه . وقد تزايدت الألقاب والامتيازات وقاربت ألقاب الآلهة وبخاصة بعد انتصاره فى معركة موندا (أبريل ٤٥) الذى اتفق أن وصل نبأه العاصمة فى يوم عيد الپاريليا (Parilia) ، حيث كان يحتفل دائما بتأسيس روما (٢١ أبريل ٧٥٣). وعندئذ أوصى السناتو بأن تقام مهرجانات الملعب الكبير (Ludi Circenses) تمجيدا لقيصر وكأنه هو مؤسس المدينة . وأعقب ذلك قرار بمنحه لقب المحرر (Liberator) أى محرر الدولة من العبودية بانتصاره على

= العامة والاشراف ، ولها حق اصدار القوانين ، وتعرف عندئذ باسم Comitia populi tributa اى جمعية الشعب القبلية تمييزا لها عن الاولى (جمعية العامة القبلية) .

الأعداء فى تلك المعركة . ولا سبيل الى التيقن من صحة القرار الخاص بتشييد معبد للحرية (Libertas) بوصفها ربة تجسدت فى قيصر لأن مثل هذا المعبد لم يشيد قط كمعبد ربة الوئام (Concordia). الذى قيل ان قرارا صدر ببنائه فى العام التالى تكريما لقيصر الذى بفضله نعم الناس بالسلم والوفاق . ولما كان قد قرن بالمؤسس الأول للمدينة فقد نصب له تمثال فى معبد الاله كويرينوس (Quirinus) وهو من ساد الاعتقاد بأنه هو روميلوس (Romulus) ، مؤسس روما ، الذى رفع الى السماء وأله . ويروى كاسيوس ديون أن هذا التمثال قد نقشت عليه كلمتان معناهما « الى الاله الذى لا يقهر » (١) — وهى عبارة وصف بها الاسكندر الأكبر من قبل ولعلها استعيرت فى وصف قيصر. ومن الجائز أنها أضيفت بعد موته لا أثناء حياته . وحوالى نفس الوقت تقرر أن يدخل على منزله من التعديل ما يجعله فى شكل المعبد فوق تل البلاتين ، وان كنا لا ندرى على وجه التحقيق أصار هذا المنزل مقرا رسميا له بوصفه كاهنا أعظم أم ظل منزلا خاصا به (٢) . وتقرر كذلك أن يحمل تمثاله مع تماثيل الآلهة فى موكب المهرجانات الرياضية التى تقام فى الملعب الكبير (Ludi Circenses) . وعندما أقيمت المهرجانات الرياضية مرة ثانية فى يوليو من نفس العام احتفالا بانتصاره فى موندا حمل تمثاله بجانب تمثال ربة النصر (Victoria) فى الموكب الرسمى ، وهو مشهد — ان صدقت رواية شيشرون — امتعض منه الجمهور حتى أنه امتنع عن التصفيق لربة النصر الأثيرة الى نفسه لوجود قيصر بجوارها (٣) . لكن لعل الأمر اختلط على الناس فلم يعد فى وسعهم التمييز بين تمثال قيصر الانسان وتماثيل الأرباب الذين هم فى صحبته.

---

(١) Dio, XLIII. 45, 3.

(٢) يقول ديون : ان منزلا بنى له على نفقة الدولة فى شكل المعبد . غير أن رواية شيشرون هى الأصح (Phil. II, 43. 110) اذ يقول : ان جملونا (fastigium) اضيف لمنزله . قارن أيضا رواية المؤرخ فلوروس (١١٧ — ١٢٨ م) : Flor. II. 13, 91

(٣) ad Att. XIII, 44, 1.

وأهم من ذلك ظهور صورته فى ذلك العام على العملة الرسمية لأول مرة (١) ، وهى التى لم تكن ترسم عليها عادة سوى صور الآلهة ، ولم يسبق أن سكت وهى تحمل صورة انسان ما يزال على قيد الحياة . هذا الامتياز ، وان لم ينهض — فى رأينا — دليلا قاطعا على تألية قيصر، كان أبلغ من سواه دلالة على أنه لم يعد يحفل بالتقاليد الدستورية ، ولا ندرى أكان فى ذلك منقـادا لأنصـاره أم متشبها بالاسـكندر أم متأثرا بملوك الشرق الهللينستى . وشهد عام ٤٤ طائفة من الامتيازات الرفيعة التى أسبغت عليه. فقد تقرر منحه لقب أبى الوطن (Parens Patriae) مع تخويله الحق فى كتابته على العملة . وليس اللقب بالبدعة اذ سبق أن منحه السناتو لشيشرون اعترافا بفضله فى انقاذ المدينة من خطـر مؤامرة كتيلينا (٢) . ولعله منحه لقيصر لأنه أنقذ الدولة من العبودية بانتصاره فى معركة موندا على نحو ما ذكرنا ، أو ليؤكد رعايته الأبوية للوطن لأنه كان بوصفه كاهنا أعظم يعتبر ممثلا للدولة لدى الآلهة . وأما القرار بأن يحلف الناس اليمين بروحه الحارسة (Genius) (٣) ، والاحتفال بيوم ميلاده واعتباره عيدا تقام فيه الصلوات ، وتقـديم القرابين سنويا من أجل سلامته وطول بقائه ، وتنظيم المهرجانات كل أربع سنوات تكريما له ، واضافة يوم من أجله الى كل عيد رسمى كبير تمجيدا له ، فكلها امتيازات وان تضمنت معنى تشبيهه بالآلهة أو قرنه بهم ، فهى لا تقطع بتأليهه رسميا أثناء حياته . وقد سمى أيضا شـهر كوينكتيليس (Quinctilis) وهو الشـهر الخامس من السنة حسب التقويم الرومانى القـديم (٤) والذى ولد فيه قيصر ، بشـهر يوليو

---

(١) Dio, XLIV, 44.

(٢) راجع ما تقدم فى ص ١٦٥ وهامش ١

(٣) وهى تترجم عادة فى اليونانية بكلمة Tychê ومعناها ربة الحظ أو التوفيـق أو الروح التى تسدد خطا الانسان (راجع ص ٩٨) .

(٤) كان مارس هو أول شهر فى السنة الرومانية حسب التقويم القديم (راجع ص ٣١٤) . وعندما أصبحت السنة تبدأ بيناير صار يوليو هو الشهر السابع .

(mensis Iulius) تخليـــدا لذكره . ولا يعـــدو ذلك أن يكون تكريما مناسبا للرجل الذى أصلح التقويم الرومانى ولا يحمل من معـــانى التأليه أكثر مما تحمله تسمية الشهر السادس (Sextilis) فيما بعـــد بشهر أغسطس تمجيدا لأكتافيانوس . ولم نعثر حتى الآن على ما يؤيد قرار السناتو باطلاق اسم عشيرته على احدى القبائل الرومانية. لكن لا ريب فى صحة القرار الذى صدر باضافة جماعة جديدة تحمل اسم عشيرته (Luperci Iulii) الى الجماعات الكهنوتية القديمة القـــائمة على عبادة الاله پان (Luperci) والتى كانت تحمل أسماء بعض العشائر العريقة كعشيرة فابيوس وعشيرة كوينكتيوس ؛ وهذا شرف كسابقة لا يعنى سوى مساواة عشيرته (gens Iulia) بتلك العشائر (١) .

وليس من المستبعد أن يكون السناتو قد أصدر قرارا بوضع تماثيله فى جميع معابد روما والمدن الايطالية ، ويغالى ديون وأپيانوس فيقولان ان معابد كثيرة تقرر بناؤها له كأنه إله ، وبينما يتفقان فى أن قرارا صدر ببناء معبد له ولرأفتـــه (Clementia) ، وهى أبرز فضـــائله ، يروى پلوتارخوس أن هذا المعبد تقرر بناؤه لرأفتـــه ، عرفانا بالشـكر على صفحه عن خصومه رغم انتصاره (٢) . ولدينا عملة مرسوم عليها معبد وعبارة الى جانبه تقول « لرأفة قيصر » (Clementiae Caesaris) (٣) . والتفسير الصحيح فيما يحتمل هو أن المعبد ـــ الذى يبدو أن بناءه لم يتم ـــ قد تقرر تشييده لا لقيصر نفســـه بل لفضيلة الرأفة التى ألهت وكأنها ربة تجسدت فيه وأن تمثاله تقرر وضعه فى هذا المعبد ليظهـــر فى صورة من يصافح الربة أو يؤدى لها التحية مثلما وضع فى معبـــد

(١) Cicero, Phil. II, 85; XIII, 31.

(٢) Appianus, Bell. Civ. II, 106; Dio, XLIV, 6, 4; Plutarchus, Caes. 57.

(٣) وهى من فئة الدينار ، انظر الصورة فى كتاب :
L. R. Taylor, The Divinity of the Roman Emperor (1931), p. 69.

كويرينوس ومعابد غيره من الآلهة . ولقد أثبت باحث دقيق أن اقامة تمثال انسان فى معبد اله لا ينهض بالضرورة دليلا على أنه كان مؤلها أو يعبد كاله (١) . ويذهب ديون الى أبعد من ذلك مما يجعلنا نرجح ـ ازاء اهتمام اكتاڤيانوس بتأكيد ألوهية قيصر بعد مصرعه ـ أن الناس خلطوا بين ما سبق ١٥ مارس عام ٤٤ وما أعقبه . ويضيف هذا المؤرخ الى قرار السناتو بتأليه قيصر ، أنه رفع الى مرتبة كبير الآلهة فحمل لقب زيوس يوليوس (أى چوپيتر يوليوس) وأن أنطونيوس عُيِّنَ كاهنا له وكأنه كاهن لچـوپيتر (flamen Dialis) (٢) . ويؤيد سويتونيوس الشق الثانى من هذه الرواية فيقول إن قيصر وافق على تنصيب كاهن له (٣) . وتجد الروايتان تعزيزا فيما ورد على لسان شيشرون أثناءحديثه عن قرارات تكريم الدكتاتور قبيل اغتياله ، اذ يقول إن المؤله يوليوس له كاهن هو ماركوس أنطونيوس مثلما يوجد لكل من چوپيتر ومارس وكويرينوس كاهن خاص (flamen)(٤) . ولايسعنا ازاء هذا الاجماع الا أن نسلم بتعيين كاهن لقيصر ، وهو شرف دينى رفيع لأن هذا الكاهن كان يحمل عين اللقب (flamen) الذى يحمله كهنة الآلهة الثلاثة الكبار . ومع هـذا فينبغى التنبيه الى أن الكاهن ـ كما يقرر شيشرون نفسه ـ لم يتقلد منصبه رسميا ، ومن الجائز أنه عين تكريما لقيصر لا لعبادته ، بل ليس من المستبعد أن يكون قد عين

---

(١) A. D. Nock, "Sunnaos Theos" **Harv. Stud. Class. Philol.** XLI (1930), p. 3.

(٢) Dio. XLIV. 6, 4.

(٣) **Div. Iul.** LXXVI: Non enim honores modo nimios recepit: sed et ampliora etiam humano fastigio decerni sibi passus est: templa, aras, simulacra iuxta deos, pulvinar, **flaminem,** lupercos, appellationem mensis e suo nomine.

(٤) **Philip.** II. 43, 110: Est ergo **flamen,** ut Iovi, ut Marti, ut Quirino, sic divo Iulio M. Antonius; cf. XIII, 21, 47.

وسواهم من الآلهة كان لهم كهنة يعرفون باسم pontifices راجع ما تقدم فى ص ٢٠٤ هامش .

لربة الرأفة (Clementia) لا لقيصر نفسه . وأما عن تلقيبه بجوبيتر يوليوس فهى رواية ينفرد بها كاسيوس ديون ولم يؤيدها كاتب آخر . ولما كان شيشرون يعتبر — برغم تحامله على قيصر — حجة أوثق منه فقد حاولت باحثة تفسير ذلك بأن ديون انما رسم كلمة ديڤوس divus (ونطقها الصحيح « ديوس » بمعنى المؤله) بحروف يونانية ولكنها حرفت عند النقل الى كلمة زيوس (١) ، بل انها لا تستبعد أن تكون كلمة divus قد أوحت الى ديون بالصلة بزيوس وجوبيتر ، ولا سيما أنها ترتبط بالاسمين من ناحية الاشتقاق اللغوى (٢) .

هذه الباحثة ومن ينحون نحوها لا تعوزهم القرائن للتدليل على تشبيه قيصر بجوبيتر فى أذهان الرومان . وكانت نظرية تأليه الملوك قد لقيت منذ أيام الاسكندر قبولا فى الشرق الهللينستى واستغلها ملوكه باعتبارها مبررا قانونيا وسندا أدبيا لممارسة السلطة المطلقة ووسيلة لتمييز الحكم الاستبدادى الشرعى من حكم الطغيان . واذ كان ذلك العصر قد آمن بتعدد الآلهة فقد استساغ فكرة تأليه الأبطال بعد مماتهم، واعتنقت طبقاته المثقفة مذهب يوهيميروس (Euhemerus) الذى نادى بأن الآلهة انما هم فى الأصل بشر قاموا أثناء وجودهم على الأرض بجلائل الأعمال أو غمروا الناس بأفضالهم فرفعوهم الى مصاف الآلهة. لذلك لم يحمل تأليه الملوك فى طياته معنى الايمان الدينى أو المساس بالمشاعر الدينية . وقد عرفت روما هذا المذهب كما ورد فى الأصل وعرفته كذلك فى الترجمة منذ أيام الشاعر انيوس (Ennius) (٣) ، واتصل الرومان بملكيات من هذا الطراز فى كل من مصر وسوريا . واذ كان

---

(١) ترسم كلمة divus فى المفعول به divum ، وكلمة Zeus فى المفعول به Dia والمرادف الصحيح لكلمه divus فى اليونانية theios (وأحيانا theos كما فى البردى)

(٢) Lily R. Taylor, **The Divinity of the Roman Emperor** (1931), p. 70.

(٢) عن هذا الشاعر الذى عاش بين ٢٣٩ — ١٦٩ ، راجع كتابنا «مصادر التاريخ الرومانى» ، ص ٣٧ — ٤١ .

هو الطراز الوحيد من الحكم الملكى الذى عرفوه فى القرن الأول ق.م. فقد كان من الطبيعى أن يتأثر به أى حكم فردى يقوم فى روما . لعل قيصر — كما يذهب هذا الفريق من العلماء — قد أدرك التقارب الشديد بين سلطته وسلطة زيوس ، حارس الدولة الرومانية . أوَ لم يقل يوهيميروس إن زيوس كان أول ملك يتخذ من تأليه نفسه وسيلة لمضاعفة سلطته ودعم سلطانه ؟ لقد كان چوپيتر هو الاله الذى قرن به قيصر كنصف اله (hemitheos) فى قرار السناتو الصادر عام ٤٦ (١) ، وبهذا الاله نفسه قرن — على ما يبدو — فى طائفة العملة النحاسية التى ضربت عام ٤٥ وعليها صورة الصاعقة ؛ بل لقد صُنع لقيصر تمثال عليه الدرع (aegis) وفى يده الصاعقة ، وهما الشعاران الرئيسيان لچوپيتر. لابد اذن من أن بعض أتباعه قدفهموا تأليه السناتو اياه بمايعنى مساواته بكبير الآلهة . ولقد رفض قيصر التاج الذى حاول أنطونيوس أن يضعه على رأسه فى عيد اللوپركاليا (Lupercalia) وبعث به الى معبد چوپيتر العلىّ الأعظم قائلا « چوپيتر وحده هو ملك الرومان » (٢) . ولعل ذلك هو ما حدا بأنطونيوس ومن على شاكلته أن يوعزوا الى السناتو بتلقيب قيصر بالمؤلَّه (divus) — وهو لقب قريب من اسم زيوس وچوپيتر . وجدير بالملاحظة أيضا أن الجمهور حاول أن يدفنه بعد موته فى معبد چوپيتر فوق الكاپيتول .

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بتأليه قيصر رسميا وتلقيبه بچوپيتر أثناء حياته . لكن بغض النظر عن هذا اللقب المغالى فيه ، فان رواية شيشرون جديرة بالاهتمام لأنه كما أسلفنا يعد حجة أوثق من كاسيوس . ولو صح كلامه لكان معناه أن قيصر قد لقب أثناء حياته بالمؤله يوليوس (Divus Iulius) . غير أن ذلك يثير مشكلة ، لأن هذا اللقب (divus) — كما نعرف من تاريخ الفترة التالية — لم يكن يطلق

(١) كلمة hemitheos (نصف اله) يونانية ولا نعرف مرادفها اللاتينى .

(٢) Dio, XLIV, 11.

على الأباطرة الا بعد مماتهم اذا قرر السناتو رفعهم الى مصاف الآلهة أى اذا وافق على تأليههم . ومن ثم فقد اتفقت غالبية الباحثين على أن قيصر لم يخلع عليه لقب المؤله (divus) الا بعد مماته (١) ، بل إنه لم يؤله بمناسبة المهرجانات الرياضية التى أقامها أكتافيانوس تمجيدا لذكراه فى يوليو عام ٤٤ . وينبغى ألا ننسى أن شيشرون كان من الحزب المناوىء له فلم يكن راضيا عن مسلكه بل كان متحاملا عليه ، وأن عبارته وردت فى خطبة كتبها للتشهير بصديقه ماركوس أنطونيوس . فمن الحكمة أن نرتاب فى روايته فى هذا الصدد حتى يظهر من الأدلة ما يقطع الشك باليقين . وفى الحق أنه لم يصلنا من روما وايطاليا حتى الآن دليل مادى قاطع بأن قيصر أعتبر من الناحية الرسمية إلهاً أو مؤلهاً أثناء حياته . ولا عبرة بالنقوش التى جاءتنا من بلاد الاغريق وآسيا الصغرى حيث لم يتحرج الناس من تلقيب الحكام بالآلهة وهم على قيد الحياة ، فالتأليه فى نظرهم كان لايعدو أن يكون ضربا من ضروب العرفان بالجميل أو الاعجاب الشديد أو الحماس الفياض . فاذا طرحنا جانبا الألقاب التى لا تتضمن بالضرورة معنى التأليه كالمنقذ (sôtêr) والمحسن (euergetês) والمؤسس (ktistês) ، والنقوش القليلة التى لا تحمل أى تاريخ (٢) ، فلا يتبقى سوى ثلاثة نقوش أحدها رسمى ومؤرخ (٣) والآخران يرجح أنهما رسميان وينسبان اما الى عام ٤٨ بعد فرسالوس (فى أغسطس) كالنقش الأول أو الى عام ٤٦ بعد ثابسوس (فى ابريل) (٤) . فى هذه الوثائق يوصف قيصر أثناء حياته

---

(١) Cf. however, L. R. Taylor, op. cit., p. 69.

(٢) كالنقش المهدى الى جايوس يوليوس قيصر « الإله » ، وقد وجدناه فى لسبوس : Ath. Mitt. XIII (1888), 61.

(٣) C.I.G. 2957=Dittenberger, Syll. 3, 760.

(٤) وهو من كارثيا فى كيوس C.I.G. 2369=I.G. XII 5, 557

Arch. Eph. 1916, 151; op. cit., 1929, 142 (cf. J.R.S. XLIV, 1954, p. 66). (وهو من ديميترياس فى تساليا)

وانظر أيضا النقش (I.G. XII, 2, 165b) وهو من مدينة موتيلينى =

بالاله (theos—deus) لا بالمـؤله ، وفى الأولى بالذات (وهى من افسوس) تصفهمدن وقبائلآسيا (الصغرى) بالاله المتجلى (epiphanês)· منقذ البشر كافة ، سليل أريس (مارس) وأفروديتى (ڤينوس) . واذا صح أن هذه النقوش الثلاثة تنتسب الى عام ٤٨ فهى اذن سابقة على أى محاولة قامت بها السلطات الرومانيـة لرفعه الى مصاف الآلهة . وبعبارة أخرى لا يمكن أن تعدّ هذه النقوش دليلا على تأليهه رسميا فى حياته . ولنقصر اهتمامنا على الأدلة المستقاة من روما وايطاليا حيث عثرنا فعلا على أربعة نقوش لاتينية يوصف قيصر فى ثلاثة منها بالمؤله يوليوس وفى الرابعة بالاله . لكن اثنين منهما يرجعان الى سنة ٤٢ لأنهما يشيران الى قانون باسم روفرينوس (lex Rufrena) ، وهو رجل يرجح أنه كان أحد نقباء العامة فى تلك السنة ، أى بعد مرور سنتين على مقتل قيصر (١) ، بينما لا يحمل النقش الثالث — وهو اهداء « لروح المؤله يوليوس الحارسة وأبى الوطن الذى أدرجه السناتو والشعب الرومانى فى عداد الآلهة » — أى تاريخ وان كان سياق الكلام يوحى بأنه كتب بعد وفاته (٢) ؛ وأما الرابع فهو نقش كتبه ضابط رومانى صـغير (decurio) من مدينة نولا اعترافا بفضل «قيصر الاله» (٣) ، ولايمكن

فى لسبوس واللتى يرجع الى عام ٤٨ (فنصليةقيصر الثانية) ويرجح انه رسمى ، وفيه يوصف قيصر بالاله ، الخير ، المؤسس (اى مؤسس المدينة) .

(١) Dessau, I.L.S. 73 : Divo Iulio iussu populo Romani statutum est lege Rufrena (من مكان غير معروف فى ايطاليا)

Dessau, I.L.S. 73a : Deivo Iulio i[ussu] p. R. [st]atut [um est] lege [Rufrena] (من قرية فى بكينوم)

(٢) Dessau, I.L.S. 74 : Genio deivi Iuli parentis patriae quem senatus populusque Romanus in deorum numerum rettulit.

(وهـو نقش من بلدة آيسرنيـا فى سمنيوم . لكن راجع رأى الاستاذة تيلور التى تقول انه من المحتمل تاريخه بفترة حيـاة قيصر لان الاهداءات للروح الحارسـة نادرة فى حالة الموتى :

L. R. Taylor, **The Divinity of the Roman Emperor**, p. 269.

(٣) Dessau, I.L.S. 6343 : M. Salvio Q. f. Venusto decurioni [be]neficio dei Caesaris.

وكلمة decurio معناها قائد فصيلة من عشرة رجال من الخيالة .

أن ينهض دليلا لسببين أولهما أنه لا يقطع بأن قيصر وصف بأنه اله فى نفس الوقت الذى أنعم فيه بهذا الفضل على كاتب النقش ، وثانيهما أنه على فرض أنه ينتمى الى فترة حياة قيصر فانه نقش شخصى لايقطع بتأليهه رسميا أثناء حياته .(٢)

جـ ـــ لقب « امبراطور » :

ومن بين الألقاب غير الدينية المهمة لقب امبراطور (imperator) وهو لقب شرفى بمعنى القائد الأعلى وبخاصـــة القائد الأعلى المظفر . وكان الجنـــود ـــ كما أسلفنا ـــ يحيون به قائدهم بعد انتصـــاره فى المعركة (١) . وكان امتيازا يكسب صاحبه الحق فى أن تحتفى به الدولة رسميا باقامة موكب نصر (triumphus) يدخل فيه العاصمة بعد عودته الى ايطاليا . على أن حمل اللقب كان موقوتا بمدة تمتع القائد بسلطة « الامپريوم » العسكرية ، أى أنه كان عليه أن يتنحى عن اللقب عند تنحيه عن هذه السلطة . ولم يكن يجوز له أن يحمل اللقب بعد دخوله روما وارتدائه الزى المدنى أى داخل البوميريوم (Pomerium) ، وهى حدود المدينة المقدسة التى تفصل بين نطاق السلطة العسكرية خارجها ونطاق السلطة المدنية داخلها . وفى الواقع أن كل صاحب «امپريوم» ، وهى سلطـــة تتضمن حـــق اصـــدار الأوامر العسكرية ، كان يعتبر « امبراطورا » من الوجهـــة القانونية البحتة طالما كان مخـــولا هذه السلطة . وقد حمل هذا اللقب فى كل مرة أحرز فيها انتصارا على أعدائه مثلما حمله من قبله پومپى وكراسوس وشيشرون وكثيرون غيرهم عقب انتصاراتهم . غير أن اثنين من المؤرخين القدامى يزعمان أن قيصر قد وافق على الحق الذى خوله السناتو له باستعمال لقب «امبراطور» كجزء

---

(١) عن هذه التحية التى تسمى «بالتحية الامبراطورية» (salutatio imperatoria) راجع ما سدم فى ص ١٠٢ وهامش ١ .

(٢) فى الواقع ان قيصر لم يعتبر مؤلها بصفة رسمية الا بعـــد مقتله بحوالى سنتين وذلك بقرار اصدره السناتو فى اول ينايـــر عام ٤٢ : Divus Julius

ثابت فى أول اسمه (praenomen) (١) مثلمافعل أغسطس فيمابعد (٢). لكن هذا الزعم لا تؤيده الأدلة المستقاة من العملة التى ظلت تسك وهى حاملة اسمه الشخصى الأول (جايوس) حتى وفاته . ومن المؤكد أن اسمه الكامل الذى ورثه عنه أكتاڤيوس بمقتضى وصية التبنى لم يتضمن لقب « امبراطور » . وقد أثبت أحد الباحثين بما لا يدع مجالا للشك أن قيصر لم يحمل هذا اللقب بصفة مستديمة (٣) . ولم يحتكره لنفسه اذ كان من حق أى صاحب «امپريوم» مظفر أن ينادى من جنوده بهذا اللقب وأن يطالب بموكب نصر بعد عودته الى ايطاليا . ولا جدال فى أن الفرق الرومانية كلها كانت تطيع أوامر قيصر بوصفه متمتعا بالامپريوم الأكبر أو الأعلى . لكن هذا ليس معناه أن حكام الولايات (من القناصل السابقين) المتمتعين بالامپريوم الذى يخولهم قيادة جيوش الاحتلال فى ولايتهم كانوا مجرد نواب أو مساعدين له (legati) مثلما كان أفرانيوس – مثلا – نائبا لپومپى فى أسبانيا . ولقد دخل كل من پديوس وفابيوس العاصمة فى موكب انتصار وكان ڤاتينيوس ، حاكم االوريا ، يترقب مثل هذا الشرف . لعل قيصر حمل لقب امبراطور مرات أكثر من سواه نظرا لكثرة انتصاراته وبالتالى حمله مدة أطول من غيره . ولا ننكر أنه كان حريصا على أن ينادى بهذا اللقب الذى يرمز الى السلطة العسكرية حرصه على لقب الكاهن الأعظم ، رمز السلطة الدينية (٤) . ولعله أيضا تخطى العرف الجمهورى عندما احتفظ

---

(١) كان الاسم الرومانى يتألف من ثلاثة عناصر : الاسم الشخصى (praenomen) ، واسم العشيرة (gentilicium) (nomen) واللقب أو اسم الاسرة (cognomen) ، مثال ذلك : جايوس يوليوس قيصر ، وتيبريوس سمپرونيوس جراكوس .. الخ (راجع ص ٥ ، حاشية ١) .

(٢) Suetonius, **Div. Iul.** LXXVI; Dio XLIII, 44, 2; cf. LII, 40, 2; 41, 4.

(٣) D. McFayden, **The History of the Title Imperator under the Roman Empire** (1920), pp. 15 ff.

(٤) Cf. A. E. Raubitschek, "Epigraphical Notes on Julius Caesar," **J.R.S.** XLIV (1954), pp. 71, n. 14; 73.

مرة باللقب ، حتى بعد دخوله المدينة (١) . لقد كان أكتافيانوس هو الذى استأثر بلقب امبراطور ، وجعله جزءا ثابتا فى اسمه ، ومن ثم أصبح رمز السلطة العليا ووقفا على رئيس الدولة دون سواه (٢) ، وبمرور الزمن صار ذا مفهوم آخر وهو امبراطور بالمعنى الحديث للكلمة (٣) .

د ــ الامتيازات « الملكية » :

بقى أن نستعرض تلك الامتيازات التى قيل انها جعلت من قيصر ملكا لا حاكما لدولة جمهورية. لعل قيصر زعم أنه سليل الملوك والآلهة : سليل الآلهة لأن عشيرته الشريفة ، وهى عشيرة يوليوس كانت ــ فيما روى ــ تنحدر من صلب يولوس (Iulus) ، بن آينياس الطروادى (وفقا لفرجيل) أو حفيده ، الذى يعلم الجميع أنه ابن أفروديتى (ڤينوس) ، ربة الحب والجمال ، من أنخيسيس ، وسليل الملوك لأن عشيرته قد نسبت نفسها أيضا الى ملوك ألبالونجا الذين يصعد نسبهم الى مارس ، اله الحرب (٤) . فلا عجب أن كان هذا النسب موضع اعتزاز يوليوس قيصر الذى اختص هذين الالهين بالتكريم ، فشاد لڤينوس معبدا بوصفها الربة الوالدة (Venus Genetrix) ، وقرر اقامة معبد لمارس ، بصفته الها منتقما (Mars Ultor) اقتص له من

(١) قبيل اقامة موكب نصره فى عام ٤٦

(٢) ترجم اليونان لقب imperator بكلمة autokratôr بمعنى المنفرد بالسلطة ، وهى ترجمة غير صحيحة.

(٣) استعمل أكتافيانوس اللقب استعمالا مزدوجا فجعله ــ منذ ٣٨ ــ جزءا ثابتا فى أول اسمه (بدلا من اسمه الشخصى جايوس الذى ورثه عن الدكتاتور) بمعنى صاحب السلطة العليا ، واضافه ثانية الى القابه بمعنى المنتصر (كذا من المرات) ، مثال ذلك :

Imp. Caesar divi f. Augustus, pontifex maximus imp. XII, cos. XI, trib. pot. XIV, Aegupto in potestatem populi Romani redacta Soli donum dedit. (Dess. I.L.S. 91)

وهو نقش محفور على قاعدتى مسلتين وجدتا فى الملعب الكبير (Circus Maximus) فى روما ويرجع الى عام ١٠/٩ ق.م.

(٤) Cf. Raubitschek, J.R.S. XLIV, p. 75.

اعدائه ، وان كان بناؤه لم يتم الا فى عهد أغسطس . فلا غرابة اذا كان قد انتعل أحيانا الحذاء الطويل الأحمر الذى قيل ان أسلافه من ملوك البالونجا كانوا ينتعلونه . ومن النسطط أن نعد ذلك شاهدا على مركزه الملكى . وقد أعطى الحق فى أن يزين رأسه باكليل من الغار وأن يلبس عباءة أرجوانية وأن يجلس على كرسى موشى بالذهب والعاج . غير أن هذه الامتيازات لم تكن وقفا على الملوك اذ كانت تمنح للقائد الذى يقام له موكب انتصار (triumphator) . وقد لبس پومپى العباءة الأرجوانية بعد موكب نصره الأخير . ومما يدل على أن هذه الامتيازات كانت من قبيل التكريم فقط دون أن ترمز الى أى وضع دستورى أنها كانت فى أول الأمر قليلة وبعدئذ كثيرة وأخيرا غير محدودة (١) . ولقد روى أيضا أن تمثاله وضع فى الكاپيتول الى جانب تماثيل ملوك روما السبعة كأنه الملك الثامن (٢) . وأعمق من ذلك مغزى قرار السناتو بأن ترسم صورته على العملة الرسمية فى السنة الأخيرة من حياته . ولقد شرحنا معنى هذا القرار من الناحية الدينية . لكنه كان ينطوى أيضا — وبخاصة فى نظر خصومه — على معنى آخر هو التشبه بالدول التى تصدر نقودا عليها صور ملوكها . صحيح أن قيصر لم يكن أول رومانى يسك عملة تحمل صورته ، فقد سك فاوستوس ابن الدكتاتور مثلا عملة تحمل صورة أبيه ، وأصدر أحد كبار الموظفين الرومان فى ولاية أسبانيا نقودا عليها رأس پومپى . غير أن هذا لم يحدث الا بعد وفاة الزعيمين فضلا عن أن العملة الأولى ، وان ضربت فى روما ، لم تكن رسمية ، وأن الثانية ، مع افتراض أنها رسمية ، لم تضرب للتداول فى العاصمة . وحدث بعد سنتين من مقتل قيصر أن أصدر بروتوس عملة تحمل صورته وشعار الحرية (٣) . ومع أنها ضربت فى الولايات الا أنه

---

(١) F. E. Adcock, C.A.H. IX (1932) p. 727.

(٢) يهتم بلوتارخوس بالامتيازات الملكية دون الدينية التى منحت لقيصر ويذكر لنا طائفة كبيرة منها (راجع تراجم العظماء : حياة قيصر) .

(٣) اى تحرير الجمهورية من طغيان قيصر باغتياله .

قصد بها أن تكون عملة رسمية . لقــد كان قيصر أول رومانى تسك أثناء حياته نقود رسمية حاملة صورته بقصد التداول فى روما . ومع هذا فمن الغلو أن نحمل قرار السناتو فى هذا الصدد معنى أكثر من الرغبة فى اطرائه وتكريمه ، أو أن تفسر رسم صورته على العملة بمعنى انتهاء الجمهورية . ان حكم قيصر الأوتوقراطى كحكم سلا قد يصفه من ضاقوا به لتقييده حريتهم أو لتجاوزه العرف الجمهورى بأنه حكم ملكى (regnum) . غير أن هذه الكلمة ليست بالتعريف القانونى أو الدستورى المحدد ، وانما كانت تستعمل أيضا لوصم حكم معين بالاستبداد أو الطغيان (dominatus). وثمة حق آخر تمتع به قيصر ورأى فيه النقاد ما يجافى التقاليد الدستورية . فقد منحه السناتو حقا ــ سبق أن ألمحنا اليه (١) ــ وهو أن يدرج أفرادا جددا فى طبقة الأشراف أو بالأحرى الحق فى أن يرفع أسرا من العامة الى مصاف الأشراف . فقد لوحظ أن عدد الأسر الشريفة كان يتناقص باستمرار . ذلك أن أبناء الزواج المختلط (بين العامة plebs والأشراف patricii) كانوا يعتبرون من العامة . ولما كانت بعض المناصب التى تشغل بالانتخاب (كمنصب تريبونية العامة وأحد منصبى القنصلية ، على سبيل المثال) موصدا فى وجه الاشراف فقد أغرى ذلك بعض ذوى الطموح السياسى بالاندماج فى أسر العامة عن طريق التبنى مثلما فعل كلوديوس (P. Clodius) فى عام ٥٩ (٢) . غير أن عبادة الآلهة وفقا لطقوس الديانة الرسمية كانت تقتضى أن يتولى الأشراف الشبان بعض المناصب الكهنوتية القــديمة : ومن ثم أصبح دعم طبقة الأشراف أمرا ضروريا على الأقل لشغل هذه المناصب الدينية. وكان من الطبيعى أن توكل هذه المهمــة الى الدكتاتور الذى نصب

---

(١) راجع ص ٣١٢ .
(٢) راجع ص ١٧٩ .

لتنظيم شئون الدولة أو اصلاح الدستور (١) . غير أن ألسنة النقـاد انطلقت تقـول ان قيصر أجاز لنفسه حقا ملكيا لأن الملوك القـدامى وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بحق زيادة عدد الأشراف أو تحويل أسر العامة الى أسر شريفة .

وفى رأينا أن قيصر لم يشغل مركزا ملكيا ولم يعمل بالتـالى على دعم مثل هذا المركز بتأليه نفسه اقتداء بحكام الممالك الهللينستية . فهذه الممالك كانت قد شاخت ووهنت وولى مجدها الغابر . وأيا كان الرخاء الاقتصادى الذى حققه ملوك الشرق الهللينستى لرعاياهم فى بعض الأحيان أو الخدمات التى أسدوها للحضارة بوجه عام فان حكمهم قد باء فى النهاية بالفشل السياسى . ولامراء فى أن دستور الجمهورية الرومانية كان قد أصبح منذ وقت طويل غير ملائم لحكم عالم البحر المتوسط ، لأن المهمة كانت أجسم من أن تترك فى يد طوائف السناتو المتعصبة المغرضة أو النبلاء المتنافسين ذوى الطموح الذين استغلوا فترة حكمهم القصيرة فى الولايات لاحراز السلطة واقتناء الثروة ، أو فى يد نقبـاء العـامة الذين أسـاءوا استعمال حق النقض ، أو فى يد قـواد الجيوش المرتجلة الذين تمردوا على الحكومة المركزية ؛ أو أصحاب رؤوس الأموال الذين انصرفوا الى جنى الأرباح الطـائلة من التزام جباية الضرائب . ومع هذا كله فقد أحرز نظام الحكم الرومانى الذى كانت « دولة المدينة » مركز اشـعاعه السـياسى نجاحا كبيرا . وكان قيصر نفسه قد قاد جيوش الغرب الى النصر فى ربوع الشرق واتضح له من الحرب الأهلية أن ايطاليا كانت لاتزال هى مركز الثقل العسكرى فى عالم البحر المتوسط . ولم يكن لقوات الشرق البحرية والبرية وزن كبير فى نظر جندى كان يضع ثقته دائما فى الفرق الرومانية . ولقـد

---

(١) اى عين — كما يرى مومسن — : dictator rei publicae constituendae وان ذهب بعض الباحثين الى انه نصب لادارة دفة الحكم : dictator rei gerendae; Cf. Broughon. **The Magistrates of the Roman Republic** II (1952). p. 284 f n. 1

وهنت قوى الملكيات الهللينستية وأصبحت أشبه ما تكون بالأشباح والأوهام ، فهل كان قيصر ، الذى عرف بنزعته الواقعية ، ليضحى بالسلطة الحقيقية من أجل سلطة جوفاء ؟ من الواضح أنه كان قد اعتزم فى السنة الأخيرة قبيل مصرعه أن يمارس سلطة أوتوقراطية فى المدة الباقية من حياته سواء لمتابعة اصلاحاته أو لتجنيب البلاد أهوال الحرب الأهلية . غير أنه من الخطأ أن يقال ان رجلا مثله على جانب كبير من الفطنة السياسية قد حاول أن يدعم هذه السلطة بالتخلى عن تقاليد الغرب واقتباس تقاليد الشرق الهللينستى .

ولا جدال فى أن عوامل الضعف الذى انتاب الحكومة الرومانية لم تكن لتعالج إلا بنوع من الحكم الأوتوقراطى أو — على الأقل — باسناد حل المشاكل القائمة الى رجل واحد . وكان الفكر السياسى عند الرومان يتجه طوال الجيل السابق نحو تغيير دستورى من هذا النوع وان كانت ذكرى الماضى الذى هيمن السناتو فيه على مقاليد الأمور قد وقفت حائلا دون هذا التغيير . ولقد حاول أغسطس التوفيق بين الفكرتين — فكرة الحكم الفردى وفكرة حكم السناتو — بايجاد حل وسط فى الظاهر . ولم يكن قيصر ممن يرضون بأوساط الحلول . لكن لعله اعتقد أنه قد يستطيع فى السنوات الباقية من حياته أن يبتكر شكلا من أشكال الحكم الأوتوقراطى يوائم فيه بين تقاليد الشرق والغرب . وليس فى وسع أحد أن يتكهن بالشكل الذى كان سيصير اليه هذا الحكم لو امتد به الأجل . « لقد قتل قيصر لما كان عليه لا لما كان من المحتمل أن يكون عليه » . وما لدينا من الأدلة ، وما نعرفه عن أخلاقه ، كلاهما لا يؤيد أنه قد رسم خطة واضحة لمستقبل الدولة الرومانية . فقد عرفناه قائدا يركن الى عبقريته العسكرية فى ايجاد مخرج له من مآزق الحرب . وفى أكبر الظن أنه أرجأ البت فى المشكلة الدستورية الى ما بعد عودته من الحملة البارثية . وثمة شىء له دلالته : وهو أنه لم يعين أحدا ليخلفه من بعده .

الفصل الثامن

سقوط الجمهورية

(٤٤ — ٢٧)

ظهور اكتافيانوس

اغتيال يوليوس قيصر

كان انتصار قيصر فى معركة موندا بأسبانيا عام ٤٥ قد وطد مركزه كحاكم مطلق ، وأتاح له فرصة الحصول على معظم الألقاب الشرف التى سبقت الاشارة اليها . وقد اتضح عندئذ أن قيصر لا ينوى مراعاة تقاليد الحكم الجمهورى ، اذ لم يسمح للسناتو أو للجمعية (القبلية) بحرية التصرف . وكان على الرغم من رفقه وتسامحه مع خصومه سريع الغضب على من يتجاهله أو يتحدى سلطته . وقد أثار بمسلكه الاستبدادى ونزوعه الى الحكم المطلق الحقد الدفين فى صدر الأولجركية الأرستقراطية التى كانت تمسك بمقاليد الحكم من قبله . وقد ضاقت ذرعا بالقيود التى فرضت عليها من جراء سلطته الأتوقراطية . وقد زادها حنقا استخفاف قيصر بالسناتو الذى هبط الى مستوى مجلس استشارى محض . ولم يكن من المتوقع أن تذعن الطبقة الأرستقراطية ذات التقاليد العريقة للأوضاع الجديدة أو أن تروض نفسها على القيام بدور هزيل فى الحياة السياسية ، أو أن تقنع بخدمة حاكم مستبد كان بالأمس واحدا منها . وقد شارك هذه الطبقة فى شعورها كثير من الموالين لقيصر ، وكثير من أنصار الحكم الجمهورى الذين كانوا قد تصافوا معه . وهكذا تجمعت هذه العناصر المتذمرة ودبرت مؤامرة للتخلص من الدكتاتور . وكان على رأس هذه

المؤامرة جايوس كاسيوس أحد أنصار پومپی القدامی ، والذی نصبه قیصر بریتورا لعام ٤٤ (١) . وقد استطاع كاسيوس أن يضم الى جانبه ماركوس بروتوس ، وهو سليل أسرة رومانية عريقة تنحدر من صلب بروتوس الذی یروی أنه كان قد حرر روما قديما من طغيان الملكية الأتروسكية . وكان ماركوس بروتوس قد انحاز الى جانب قيصر بعد موقعة فرسالوس (عام ٤٨) ، وصار موضع رعاية وتقدير الدكتاتور . لكنه رضخ لإلحاح المتآمرين الذين زينوا له أن الواجب يحتم عليه أن يقتدى بسلفه الكبير بروتوس الذى خلص روما من الملكية البغيضة . وكان من بين المتآمرين ذوى المكانة جايوس تريبونيوس ودكيموس بروتوس ، وكلاهما من أنصار قيصر (٢) . وبلغ عدد المشتركين الى المؤامرة حوالى ٦٠ رجلا من أعضاء السناتو . وحددوا اليوم الخامس عشر من شهر مارس (Idibus Martiis) عام ٤٤ كموعد لتنفيذ المؤامرة .

وكان قيصر حينئذ منهمكا فى الاستعداد للحملة التى اعتزم القيام بها ضد داكيا (Dacia) — شمالی نهر الدانوب الأدنى — على أن يتبعها بحملة أخرى على پارثيا (Parthia) التى كانت تهدد ولاية سوريا منذ هزيمة كراسوس . وكان قيصر يتوق الى غسل عار هذه الهزيمة وتأمين الحدود الشرقية للامبراطورية بصفة نهائية . وقد حشد لهذا الغرض جيشا يتألف من ١٦ فرقة (legiones) و ١٠٫٠٠٠ من الخيالة فى بلاد الاغريق . وأوشك بالفعل أن يغادر العاصمة ليتولى قيادة هذا الجيش . وقد روى أنه حذر من وجود مؤامرة على حياته ولكنه لم يكترث بالتحذير ، بل انه صرف حرسه الخاص ، ورفض حرسا مؤلفا من رجال السناتو والفرسان . وفى اليوم المشئوم ذهب قيصر الى دار السناتو حيث كان من المزمع مناقشة مسألة منحه لقب « ملك » من الولايات . وقبل أن يدخل القاعة تظاهر أحد المتآمرين بتقديم مظلمة

---

(١) راجع ص ٢٩٣ .

(٢) راجع ص ٢١٠ — ٢١١ ، ص ٢١٠ .

اليه ، ولم يلبث أن أحاط به بقية المتآمرين واستلوا الخناجر التى أخفوها تحت طيات عباءاتهم وطعنوه عدة طعنات حتى خر صريعا عند قاعدة تمثال بومبى .

لقد مجد الكتاب الرومان الذين تأثروا بالمصادر الموالية للجمهوريين أسماء كاسيوس وبروتوس وشركائهما وأشادوا بدورهم فى قتل قيصر لانقاذ الجمهورية من طغيانه ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه الا باسم الحرية ، ومن ثم فقد خلعوا عليهم لقب المحررين Liberatores ، كما أصبح كاتو الذى آثر الموت على رؤية موكب انتصار قيصر ، أصبح فى نظرهم شهيدا وبطلا ورمزا لمقاومة الطغيان ، على نحو ماسبق تفصيله (١) . غير أن هذا الرأى يشوبه ضيق الأفق والتعصب الحزبى . ذلك أن الجمهورية التى اتهم قيصر بالقضاء عليها لم تكن نظاما ديمقراطيا بل نظاما يتيح لفئة قليلة من النبلاء وأصحاب رؤوس الأموال الرومان أن تستغل الملايين من سكان الولايات لخدمة مآربهم الشخصية واشباع نزوات دهماء العاصمة الذين استمرأوا حياة التسكع والبطالة . ولم يعد نظام الحكم الجمهورى يعبر حتى عن رأى جُلّ المواطنين الرومان . وعجزت السلطات الحاكمة عن تحسين الأحوال وحفظ الأمن . وأصبح من الضرورى القيام باصلاحات جذرية حاسمة . ولم يكن من الميسور تنفيذ مثل هذه الاصلاحات الا بالقوة . ولئن كان قيصر قد لجأ الى الرشوة للفوز فى الانتخابات ، والى العنف لتوطيد مركزه ، والى السلاح لفض النزاع بينه وبين السناتو ، فينبغى أن نحكم عليه أو له بمقياس ما كان متبعا فى عصره .

وكان قيصر صورة حية للعصر الذى عاش فيه ، فشق طريقه الى العلا بوسائل استعملها سابقوه ومعاصروه . ولا مراء فى أنه كان رجلا محبا للسلطة . لكن ذلك لا يمكن أن يكون محلا للوم ، بل انه ليس من الانصاف أن نلومه لاستعماله السلاح دفاعا عن نفسه عندما أراد

---

(١) راجع ص ٢٧٨ — ٢٨٨ .

السناتو التخلص منه بالقوة . ان قيصر يعتبر بحق من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى التاريخ ، فهو فى الطليعة بين الساسة والقواد . كان قيصر فى ساحة الحرب بارعا على السواء فى توزيع القوات ورسم الخطط العسكرية . وكان فى ميدان السياسة بارعا فى وضع برامج الاصلاح العملية العامة مع الالمام التام بتفاصيل الشئون الحزبية . ولم يكن بأى حال رجلا انتهازيا ، بل كان يخطط البرامج السياسية الشاملة مقدما ثم يعمل مثابرا على انجازها . وكان أكثر من غيره فهما للاتجاهات السياسية العريضة فى عصره . وأسهم أكثر من خصومه فى تحديد هذه الاتجاهات والسير بها الى غاياتها . ومع أنه كان عند السعى وراء أهدافه غليظ القلب مجردا من الشعور ، وكان فى جميع علاقاته متزمتا تزمت الأشراف (فهو سليل أسرة من أعرق العشائر الشريفة) ، الا أن شخصيته الجذابة يسرت له خلق روح الزمالة بين جنوده ، واثارة شعور الولاء والتضامن بين أنصاره السياسيين . وقد دفعته الروابط الأسرية وميوله الطبيعية الى الانحياز الى جانب الحزب الديمقراطى (Populares) . لكن ذلك لم يكن معناه تمسكه بالمبادىء الديمقراطية فى الحكم . ان مذهب الحكم المطلق الذى اعتنقه وسعى الى تحقيقه فى أواخر أيامه كان نتيجة منطقية للسلطة الكبيرة وحرية العمل الواسعة التى تمتع بها أثناء فترة قيادته الطويلة غير العادية فى بلاد الغال . وليس أدل على شجاعته الفائقة ، وثقته بنفسه من قبوله تحمل مسئولية قيادة مصائر العالم المتحضر ، ومحاولته الغاء النظام القديم ، واقامة نظام جديد للحكم يكفل السلام والأمن للمواطنين الرومان وسكان الولايات الرومانية . لقد قضى قيصر نحبة قبل أن يستطيع تنفيذ أهدافه ، غير أن الجمهورية نفسها كانت قد قضت نحبها هى الأخرى ، ولم يكن من الميسور بعث الحياة فيها من جديد . ولم يعد هناك مناص من أن يقوم من بعده نظام حكم ملكى أو شبيه بالملكى .

ظهور اكتافيـوس :

لم يقم قيصر بأى ترتيبات بشأن من يخلفه فى مركزه ، وأحـدث مقتله ذعرا هائلا فى روما . وكان المتآمرون يتوقعون أن تؤول السيطرة الى السناتو مرة أخرى . لكن خاب ظنهم لأن الشعب لم يقابل جريمتهم بالترحاب ، ولأن حزب قيصر ، على الرغم من اختفاء زعيمه ، ظل قائما واقفا لهم بالمرصاد . كان الحزب يتألف من ضباط قيصر القدامى ، والمحاربين القـدماء ، ودهماء المدينـة . وكان على رأسـه ماركوس انطونيوس(١) القنصل ، وماركوس ليبدوس ، رئيس الفرسان (magister equitum) . وانعقـد مجلس السناتو فى يوم ١٧ مارس عام ٤٤ ، وكان من الواضـح أن أغلبية أعضائه تؤيد المتآمرين . لكن هـذه الأغلبية كانت تخشى الفرقة العسكرية التى كانت تحت أمره ماركوس ليبدوس ، والمحاربين القدماء ، المناصرين لقيصر فى العاصمة . وتولى أنطونيوس الذى وضع يده على أوراق قيصر وأمواله ، زعامة حزبه وشرع فى مفاوضة خصومه . وتم الاتفاق على العفو عن المتآمرين فى مقابل التصديق على تنظيمات قيصر وحتى مشروعاته التى لم تنفـذ بعد ، واقرار وصيته ، والاحتفال رسميا بجنازته .

وقد ظهر من وصـية قيصر أنه ترك حدائقه على الضـفة اليمنى للتيبر لتكون متنزها عاما ، وأوصى لكل مواطن رومانى بهبة مقدارها ٣٠٠ سسترتيوس ، وتبنى جايوس اكـتافيوس (C. Octavius) وهو ابن آتيا ابنة أخته چوليا وجعله وريثا لثلاثة أرباع ثروته . وقد ألقى ماركوس انطونيوس خطابا رائعا فى تأبين قيصر ، واستطاع أن يلهب به حماس الجماهير ويثير شعورهم ضد قتلة قيصر . وحملت الجماهير جثة الدكتاتور الى السوق العـامة حيث أحرقتها (طبقـا لطقوس الدفن الرومانية) ثم وارت رمادها التراب هنـاك . ولم يجـد المتآمرون فى أنفسهم الجرأة على البقاء فى المدينـة ، فرحل دكيموس بروتوس الى

(١) ولد ماركوس انطونيوس فى عام ٨٣ ، وهو ابن انطونيوس الملقب بالكريتى (راجع ص ١١٢ وحاشية ٢) .

ولايته غالة القريبة ، بينما توارى ماركوس بروتوس وكاسيوس فى مكان غير بعيد عن روما . وأمسك أنطونيوس بزمام السلطة فى روما وسيطر على الموقف واستغل حرسه الخاص المؤلف من ٦٠٠٠ محارب قديم لالقاء الذعر فى قلب خصومه ومعارضيه ، وكبح جماح زميله لبيدوس وأشياع قيصر الذين كانوا ينادون بالانتقام من المتآمرين . وقد انتخب لبيدوس كاهنا أعظم خلفا لقيصر . وغادر روما الى ولايته أسبانيا القريبة ليصد هجوما من جانب سكستوس بومبى الذى عاد الى الظهور فى أسبانيا البعيدة وأنزل الهزيمة بواليها الرومانى .

وكان قيصر قبل مماته قد قرر اسناد حكم ولاية مقدونيا الى أنطونيوس ، واسناد ولاية سوريا الى دولابلا (P. Dolabella) الذى أصبح زميلا لانطونيوس فى القنصلية غداة مصرع قيصر(١) . وقد عدل أنطونيوس هذا الترتيب بقانون لكى يسند الى نفسه حكم ولاية غالة القريبة « وغالة عبر الألب » (٢) لمدة ست (عدلت لخمس) سنوات لا سنتين كما يقضى القانون الذى وضعه قيصر ، على أن يتولى دكيموس بروتوس حكم ولاية مقدونيا . وأسند حكم ولايتى برقة وكريت الى كل من جايوس كاسيوس وماركوس بروتوس فى العام التالى . وقد غادرا ايطاليا بعد شهور قليلة الى الشرق بقصد وضع أيديهما على الولايات هناك قبل وصول دولابلا ، وكانا يأملان فى حشد قوات يتمكنان من الوقوف بها فى وجه أنطونيوس نظرا الى أنه كان يعتبر نفسه الوريث السياسى لقيصر ، وكان ينتوى السير على نهجه للاستيلاء على السلطة المطلقة .

---

(١) كان قيصر قد قرر أن يرشح دولابلا قنصلا ليحل مكانه بعد رحيله الى بارثيا . لكن زميله القنصل انطونيوس عارض ذلك ، لكنه وافق عليه بعد اغتيال قيصر . وأصبح دولابلا قنصلا « مكملا » (consul suffectus) .

(٢) خارج (غالة التاريونية) ، اى " غالة كوماتا " .

غير أن أنطونيوس لم يلبث أن وجد منافساً لم يخطر على باله فى شخص جايوس اكتاڤيوس ، ابن قيصر المتبنى ، والذى كان يبلغ من العمر وقتئذ ١٨ عاما[1] . وكان عند موت قيصر ينزل فى مدينة ابوللونيا بولاية اللوريكوم (اللوريا) مع الجيش الذى حشد هناك استعدادا للحملة على بارثيا . ولم يستمع اكتاڤيوس الى نصيحة أبويه وعاد الى روما وطالب بميراثه[2] . ولم يسترح أنطونيوس الى عودته لأنه كان قد بدد جزءاً من ثروة قيصر ورفض أن يفى بها[3] وعندئذ جمع اكتاڤيوس أموالاً عن طريق بيع ممتلكاته الخاصة وعن طريق الاقتراض ، وأدى للمستحقين نصيبهم طبقا لوصية قيصر . وبذلك استطاع أن يكسب بسرعة رضاء أتباع قيصر . وازاء معارضة أنطونيوس لم يتم تنفيذ الاجراءات الخاصة باعلان اكتاڤيوس ابنا لقيصر بالتبنى الا فى العام التالى . لكنه بدأ يحمل اسمه « جايوس يوليوس قيصر » ، وأضيف اليه نعت مشتق من اسمه عشيرته فصار « جايوس يوليوس قيصر اكتاڤيانوس » ، وان كان معاصروه قد أطلقوا عليه اسم « قيصر » . وقد اشتهر فيما بعد (عام ٢٧) بلقب « أغسطس » (Augustus) .

وقد استخف أنطونيوس بذلك الشاب المعتل الصحة ، وظل لا يعترف به فترة ، لكنه سرعان ما أدرك خطأه . وكان أنطونيوس — على نحو ما رأينا — يتوق الى وضع يده على ولاية غالة القريبة . غير أن دكيموس بروتوس رفض اخلاء الولاية ، فصمم أنطونيوس على طرده منها بالقوة . وحصل على اذن باستدعاء الفرق الأربع من مقدونيا لهذا الغرض . لكن قبل وصول هذه الفرق جمع اكتاڤيانوس — على نفقته الخاصة دون تكليف رسمي — قوة من جنود قيصر القدماء فى كمبانيا ، وانحازت اليه أثناء زحفه من برنديزى الى روما ، فرقتان من الفرق الأربع العائدة من مقدونيا . هكذا انقسم أنصار قيصر فريقين أو حزبين . وبدأ اكتاڤيانوس يتعاون مع الجمهوريين فى السناتو مما شجع الأخيرين على مقاومة أنطونيوس الذى تعذر التفاهم معه . وأما

(١) ولد فى ٢٣ سبتمبر ٦٣ • وهو ابن بنت اخت يوليوس قيصر وابوه كان ثريا من طبقة الفرسان تولى البرترية ، وحكم مقدونيا توفى ٥٨ •
(٢) فى رواية اخرى انه اوفد هناك لاستكمال دراساته وتعليمه

شيشرون الذى لم يشترك فى المؤامرة على حياة قيصر — وان كان قد أبدى ارتياحه لمصرعه — فكان على وشك أن يغادر ايطاليا للانضمام الى بروتوس عندما سمع بتغيير الموقف فى روما ، ولذلك عاد الى العاصمة ليتولى زعامة الحزب الجمهورى . وأقنع شيشرون السناتو بالائتلاف مع اكتاڤيانوس ضد أنطونيوس الذى رحل الى غالة القريبة فى أوائل ديسمبر (عام ٤٤) . وفى خطبه الشهيرة باسم « الخطب الفيليبية » كشف شيشرون عن مدى بغضه لانطونيوس ، مثيرا بذلك حقد الأخير عليه .

معركة موتينا (١٦ أبريل ٤٣)

وفى غالة القريبة رفض دكيموس بروتوس — اعتمادا على مساندة السناتو — أن يسلم الولاية لانطونيوس وقام الأخير بمحاصرته فى مستعمرة موتينا (Mutina) بنفس الولاية . واتخذ السناتو التدابير اللازمة لنجدته ، وأصدر أمره لانطونيوس بمغادرة الولاية . ونصب هيرتيوس وپانسا قنصلين فى يناير عام ٤٣ ، وتوليا القيادة ضده وكانت معاونة اكتاڤيانوس ضرورية لتصفية الموقف ، فمنحه السناتو فى نفس الشهر سلطة بديل البريتور (propraetore) وهى تتضمن الامپريوم ، وخوله حق القناصل فى أولوية التصويت على المشروعات فى المجلس. ولم تلبث القوات المتحالفة أن أنزلت الهزيمة بأنطونيوس فى معركتين على مقربة من موتينا (١) ، وأرغمته على رفع الحصار فلاذ بالفرار الى « غالة الناربونية » .

ولما كان القنصلان هيرتيوس وپانسا قد لقيا حتفهما فى المعركة ، فقد عهد السناتو بالقيادة ومهمة مطاردة أنطونيوس الى دكيموس بروتوس(٢) متجاهلا اكتاڤيانوس . وبدا كأن السناتو قد استرد سلطانه ،

---

(١) الاولى هى معركة "Forum Gallorum" والاخرى هى موتينا ، وإحداهما قريبة من الاخرى .

(٢) راجع ص ٢٤٦

والمقصود بابوية امه ATIA وزوجها (بعد ترملها L. Marcius Philippus

٣) كانت Calpurnia زوجة قيصر قد سلمت اوراقه ومبلغ ٤٠٠٠ ٤ الـنت ، عقب مصرعه لصديقه ماركوس انطونيوس .

اذ تمكن ماركوس بروتوس وكاسيوس من وضع أيديهما على الولايات الشرقية بعد هلاك دولابللا فى احدى المعارك ، كما تمكنا من حشد قوات برية وبحرية ضخمة . وعلى ذلك فقد منحهما السناتو سلطة عسكرية غير عادية (imperium maius) فى الشرق (٢) وأسند القيادة ابحرية الى سكستوس پومپى الذى كان مرابطا وقتئذ فى مرسيليا . واستطاع شيشرون فى آخر الأمر أن يقنع السناتو باعلان أنطونيوس عدوا للدولة (٣) ولم يعد الخطيب الكبير يشعر بالحاجة الى معاونة اكتاڤيانوس . وقد عبر عن موقف الجمهوريين ازاءه بقوله « ان هذا الشاب جدير بالثناء ، جدير بالتكريم ، جدير بالتخلص منه » (١) لكن سرعان ما تبين لشيشرون أنه لم يقدر اكتاڤيانوس تقديرا سليما ، ذلك الشاب الذى لم يكن قط أداة طيعة فى يد السناتو ، بل استعمل هذا المجلس أداة لتحقيق أغراضه .

وقد رفض اكتاڤيانوس معاونة دكيموس بروتوس . وطالب السناتو بترشيحه هو قنصلا ، وبالاحتفال رسميا بانتصاره ، ومنح مكافآت لجنوده . ولما رفض السناتو مطالبه ، زحف إلى روما بجيشه واحتل المدينة . وفى ١٩ أغسطس عام ٤٣ انتخب اكتاڤيانوس قنصلا مع بديوس (Q. Pedius) كزميل له . واستصدر الأخير قانونا (lex Pedia) يقضى بانشاء محكمة خاصة لمحاكمة قتلة قيصر الذين أدينوا أو نفوا من ايطاليا . ووقعت عقوبة التجريد من حماية القانون على سكستوس پومپى غيابيا . وألغى أيضا قرار السناتو باعلان أنطونيوس عدوا للدوله .

الحكومة الثلاثية — نوفمبر ٤٣ :

وفى طريقه الى غالة الناربونية (عبر الألب) قابل أنطونيوس زميله

---

(1) ad Fam. XI, 20, 1 : laudandum adulescentem, ornandum, tollendum.

(٢) اى امبر يوم بروقنصلى اكبر من الامبريوم البروقنصلى الذى يتمتع به حكام الولايات الرومانية .

(٣) اصدر السناتو ضده " قراره النهائى " فى ٢١ ابريل ٤٣ .

القديم ليبدوس الذى كان السناتو قد استدعاه من أسبانيا لنجدة دكيموس بروتوس . لكن ليبدوس كان ينتمى الى حزب قيصر وقد أزعجه نجاح ماركوس بروتوس وكاسيوس ونشاطهما فى الشرق ، ولذلك أمر قواته بالانضمام الى أنطونيوس[1] . وكان دكيموس بروتوس قد شرع فى مطاردة أنطونيوس وأوشك أن يقنع « پلانكوس » (L. Munatius Plancus) حاكم ولاية غالة عبر الألب (كوماتا) بالتحالف معه . لكن حاكم هذه الولاية تخلى عنه عقب سماعه بما حدث فى روما ، وانحاز الى أنطونيوس . كما تخلى الجنود عن دكيموس بروتوس الذى التجأ الى بلاد الغال حيث لقى مصرعه . عندئذ زحف أنطونيوس وليبدوس إلى ايطاليا .

وكان اكتاڤيانوس قد اضطلع بمهمة الدفاع عن ايطاليا وأسرع بالزحف شمالا لصد قوات أنطونيوس وليبدوس . لكن قبيل الصدام أبدى الفريقان استعدادا للتفاهم وتوحيد الجهود للقضاء على العدوين المشتركين ماركوس بروتوس وكاسيوس . وعلى ذلك فقد عقد الثلاثة فى نوفمبر ٤٣ مؤتمرا بالقرب من بلدة بونونيا (Bononia) [2] « فى غالة القريبة » . وسويت الخلافات بينهم ورسمت الخطط للتعاون فى المستقبل . واتفق الثلاثة على تكوين حكومة ثلاثية لتنظيم شئون الدولة (triumviri reipublicae constituendae) وذلك لفترة مداها خمس سنوات ، على أن يتمتع كل منهم بالسلطة العليا القنصلية[3] ، مع حق تعيين الموظفين وتكون أعمالهم نافذة دون حاجة الى موافقة السناتو . كما وزعوا فيما بينهم الولايات الغربية على النحو التالى : —

(ا) تسند الى أنطونيوس الولايات التى سبق أن خصصت له وهى « غالة القريبة » وكل بلاد الغال عبر الألب (ماعدا غالة الناربونية) .

كان ليبدوس حاكما على ولايتين : "أسبانيا الغربية" وغالة النار

(٢) وهى بولونيا Bologna الحديثة فى سهل لومبارديا .

) هكذا تبدو نظريا لكنها فريدة ،وتشبه — واقعيا — السلطة مطلقة التى يتمتع بها مثلا كدكتاتور (راجع ص ٨٣) وان كانت ـبيرة غير محددة زمنيا .

(ب) وتسند الى ليبدوس غالة الناربونية وأسبانيا القريبة .

(حـ) وتسند الى اكتافيانوس ولايات سردينيا وصقلية وافريقيا .

واتفق أيضا على أن يتنحى اكتافيانوس عن القنصلية على أن يتولى بالاشتراك مع أنطونيوس قيادة الحملة ضد جيوش الحزب الجمهورى فى الشرق ، بينما يبقى ليبدوس فى روما لحماية مصالحهما . واكتسبت « الحكومة الثلاثية » صفة شرعية بمقتضى قانون تيتيوس (lex Titia) الذى تبناه أحد نقباء العامة فى ٢٧ نوفمبر عام ٤٣ . وباشر أعضاء الحكومة عملهم رسميا فى أول يناير عام ٤٢ . وكان الائتلاف — على نقيض الائتلاف الثلاثى السرى غير الرسمى بين پومپى وكراسوس وقيصر (١) — عبارة عن لجنة ثلاثية متمتعة بكافة السلطات العليا الرسمية .

وقد بدأت هذه الحكومة بنشر "قائمة سوداء" (٢) بأسماء المغضوب عليهم ومصادرة أملاكهم على غرار ما فعله سلا . وكان الدافع هو الرغبة فى الانتقام الشخصى أو الاستيلاء على الأموال اللازمة لجنودهم. وكان على رأس الضحايا الخطيب شيشرون الذى أصر أنطونيوس على اعدامه . وقد لقى شيشرون حتفه وهو مؤمن بالنظام الجمهورى الذى تفانى فى الدفاع عنه . لكن ينبغى أن لا ننسى أن تفانيه كان من أجل قضية طبقة النبلاء المنحلة . صحيح أنه لم يشترك فى مفاسدها ولكنه أغمض عينيه على هذه المفاسد بل سعى أحيانا الى تبريرها . وفرضت الحكومة الثلاثية ضرائب استثنائية على أرباب الأملاك . وأنشأت للمحاربين القدماء مستعمرات فى أراضى ١٨ مدينة من مدن ايطاليا المزدهرة .

---

(١) راجع ما تقدم فى ص ١٦٩ — ١٧٧ .

(٢) وهو مايعرف اصطلاحا باسم PRORCRIPTIO وقد شملت القائمة حوالى ٣٠٠ من اعضاء السناتو ، ٢٠٠٠ من طبقة الفرسان لكن كثيرين هربوا ، وعفى عن عدد كبير من اعضاء السناتو .

وفى عام ٤٢ أقام اكتافيانوس معبدا ليوليوس قيصر فى السوق العامة حيث ووری رماد جثته، إذ كان السناتو قد اتخذ قراراً برفع قيصر الى مصاف الآلهة الرومانية وتلقيبه بيوليوس المؤله (Divus Iulius)(١).

لكن اكتافيانوس لم يلبث أن وجد صعوبات فى وضع يده على بعض الولايات المخصصة له ، اذ كان سكستوس پومپى - بفضل سيطرته على البحر - قد احتل سردينيا وصقلية ، كما تضاعفت قواته بانضمام كثيرين ممن أرادت الحكومة الثلاثية التخلص منهم ، وغيرهم من المغامرين . وتبين لاكتافيانوس أنه ليس بوسعه طرد سكستوس پومپى من هذه الولايات قبل أن يقضى أولا على ماركوس بروتوس وكاسيوس .

معركة فيليپى (سبتمبر / أكتوبر ٤٣)

كان بروتوس وكاسيوس قد حشدا جيشا قوامه ٨٠٫٠٠٠ رومانى فضلا عن بضع كتائب مؤلفة من جنود الحلفاء . واحتل هذا الجيش موقعا فى طراقيا وظل يترقب هجوم قوات الحكومة الثلاثية . وفى صيف عام ٤٢ نقلت هذه الحكومة قواتها عبر الأدرياتيكى على الرغم من أن أسطول الأعداء كان يرابط فيه . والتقى الجيشان عند مدينة فيليپى (Philippi) التى تقع على الحدود بين مقدونيا وطراقيا . ودارت فى سبتمبر رحى معركة غير فاصلة هزم فيها أنطونيوس غريمه كاسيوس الذى استبد به اليأس فانتحر . غير أن قوات بروتوس دحرت قوات اكتافيانوس الذى أقعده المرض . وقد اضطر بروتوس ازاء الحاح جنوده الى الاشتباك فى معركة أخرى . وفى هذه المرة (٢٣ أكتوبر) منى بالهزيمة الساحقة فانتحر هو الآخر .

(١) تاريخ هذا القرار الخاص هو اول يناير عام ٤٢ ومن ثم صار اكتافيانوس يحمل لقب " ابن يوليوس المؤله " او ابن المؤله Divi filius

تقسيم ادارة الامبراطورية :

وبعد هذا الانتصار أعاد أنطونيوس واكتافيانوس توزيع الولايات الغربية بينهما ، وأما ليبدوس فقد أسقطاه من الحساب لأنهما كانا يرتابان فى نواياه ، بل انهما اتهماه بالتواطؤ مع سكستوس پومپى . وفى التوزيع الجديد لم تمنح غالة القريبة لأي منهما نظرا لأهمية موقعها الاستراتيجى ، ولم تعد تعتبر ولاية[1]. بل أدمجت فى ايطاليا التى صارت حدودها السياسية تطابق حدودها الجغرافية . وأخذ أنطونيوس كل « غالة عبر الألب » . وأخذ أكتاڤيانوس أسبانيا القريبة ، وأسبانيا البعيدة ، وسردينيا ، وكذلك أفريقيا على أن تمنح الأخيرة لزميلهما ليبدوس لو أثبت حسن نواياه فى المستقبل . ومنذ اجتمع الثلاثة فى بونونيا كان أنطونيوس هو الشخصية المسيطرة فى الائتلاف ، وقد ازداد نفوذه نتيجة لانتصاره فى معركتى فيليپى . وقد تقرر فى هذه المرة أن يأخذ أنطونيوس على عاتقه تنظيم شئون الولايات الشرقية ، ويجمع الأموال اللازمة من هناك ، بينما يعود اكتافيانوس الى ايطاليا ، ويعمل على تنفيذ مشروع توزيع القطائع الزراعية على الجنود القدماء ، وهو ما وعدتهم به الحكومة الثلاثية . وقد ترتب على هذا القرار نتائج هامة فيما بعد .

وفى صيف عام ٤١ زارت كليوبطرة (Cleopatra) ملكة مصر أنطونيوس فى مدينة طرسوس بولاية كيليكيا (بآسيا الصغرى)[2]. وقد سارت اليه فى موكب بحرى فاخر ، واستطاعت أن تفتنه بجمالها وذكائها مثلما فعلت من قبل مع يوليوس قيصر ، ولم تجد فى ذلك عناء كبيرا لأن انطونيوس كان بطبيعته مغرما بالبذخ والترف وحياة اللهو

(١) راجع ما تقدم فى ص ٨٨ وحاشية ٣ .

(٢) زارته بدعوة منه لمساءلتها عن سبب تقاعسها عن مساندة رجال حزب قيصر ولعلها قد اشركت معها فى الحكم ابنها "قيصرون" عقب عودتها من روما (بعد ١٥ مارس ٤٤) وتخلصها من اخيها الثانى لفترة قصيرة فى عام ٤١ ، وبعئذ بصفة مستديمة (منذ ٣٦ — ٣٠) راجع "الملحق" الذى اضفناه لكتاب "مصر من الاسكندر" .. (١٩٧٣) ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

والمتعــة . وقــد تبع انطونيوس الملكة الى مصر حيث مكث معهــا حتى عام ٤٠ [١].

وواجه اكتاڤيانوس فى ايطاليا مشكلة توزيع القطائع الزراعية على حوالى ١٧٠٫٠٠٠ من المحاربين القدماء . وقد تبين له أن المــدن الايطالية التى سبق اختيارها لهذا الغرض (وعددها ١٨ مدينة) ليست بكافية ، ولهذا أمر بمصادرة كثير من الملكيات الصغيرة مما أدى الى تشريد أصحابها المعوزين . وقــد دفعت تعويضات لعــدد قليل منهم كالشاعر ڤرجيليوس (P. Vergilius Maro) وهو ڤرچيل [٢] ـ وذلك بفضل وساطة بعض ذوى النفوذ . وأيا كان الأمر فقد كان لهذا الاجراء تأثير سيء على رخاء ايطاليا من الناحية الاقتصادية . وقد لقى اكتاڤيانوس فى تنفيذ مشروعه مقاومة شديدة من جانب أصدقاء أنطونيوس ، وبخاصة من زوجته وأخيه لوكيوس أنطونيوس . وقد أفضى ذلك الى نشوب القتال واضطر اكتاڤيانوس الى محاصرة لوكيوس انطونيوس فى بلدة پيروسيا (Perusia) وأرغمه على الاستسلام ، وأما فولڤيا فقد فرت لتلحق بزوجها أنطونيوس ، ولجأ أنصارهما الى معسكر سكستوس پومپى الذى كان لا يزال مسيطرا على صقلية . لكن أهم من ذلك كله حصول اكتاڤيانوس على بلاد الغــال التى آلت اليه بموت واليهــا نائب انطونيوس . وقد أصبح فى وسعه حينئذ أن يعهد وهو مطمئن بولاية افريقيا الى زميله لبيدوس مع تزويده بحامية قوية . وكان من الدلائل الأخرى على قرب نشوب النزاع بين اكتاڤيانوس وأنطونيوس طلاق الأول من زوجته كلوديا (Clodia) [٣] ، وهى ابنة زوجة أنطونيوس ، وزواجه من سكريبونيا (Scribonia) احــدى قريبات سكستوس پومپى ، الذى كان اكتاڤيانوس يأمل فى كسبه الى صفه (فى ٤٠) ،

---

(١) حملت منه ـ وبعد رحيله انجبت توأمين ، ابنا وبنتا .

(٢) عاش بين ٧٠ ـ ١٩ ق.م. وهو اكبر الشعراء اللاتين ، ومؤلف ملحمة «الاينيادة».

(٣) هى ابنة نقيب العامة P. CLODIVS فى عام ٥٨ . راجع ص ١٧٧ ومابعدها) من زوجته Fulvia (التى تزوجها مــن بعده ماركوس انطونيوس (عام ٤٥) وتزوجها اكتافيانوس عــام ٤٢ وطلقها دون ان يدخل بها وانجب من سكريبونيا (التى تزوجها عام =

اتفاقية برنديزى (٤٠)

وقد حدث فى تلك الأثنـاء أن اكتسح البارثيون ولاية سـوريا ، وزاد الموقف سوءا أن كوينتوس لابينوس (Q. Labienus) ، وهو أحد أتباع بروتوس وكاسيوس ، استطاع بالتحالف مع البارثيين أن يتوغل فى قلب آسيا الصغرى حتى البحر الايجى . عندئذ عاد انطونيوس على وجه السرعة الى ايطاليا لكى يدعم نفوذه الذى تضاءل فى العاصمة ، ويحشد قوات لتوطيد النفوذ الرومانى فى الشرق من جديد . وكان كل من انطونيوس واكتافيانوس مستعدا للقتال . وبدأت المناوشات بنهما بالفعل عند برنديزى التى رفضت أن تفتح أبوابها لانطونيوس . لكن ازاء الحاح جنود الطرفين عقد الصلح بينهما بمقتضى ما يعرف باسم معاهدة أو « اتفاقية برنديزى » . وبمقتضى هذه الاتفاقية أخذ اكتافيانوس ولايات أسبانيا وبلاد الغال وسردينيا وصقلية ودلماتيا ، بينما أخذ أنطونيوس الولايات الرومانية الواقعة شرق البحر الادرياتيكى . واحتفظ لبيدوس بولاية افريقيا . وأما ايطاليا نفسها فبقيت مشاعا بين الأقطاب الثلاثة . ودعما لهذه الاتفاقية تزوج انطونيوس الذى توفيت زوجته باكتافيا (Octavia) أخت اكتافيانوس (بعد أكتوبر عام ٤٠) .

اتفاقية ميسينوم (٣٩)

وفى العام التالى (٣٩) اضطر اكتافيانوس وانطونيوس الى عقـد الصلح مع سكستوس بومبى الذى كان لا يزال مسيطرا على صقلية ، وانتزع سردينيا من يد اكتافيانوس بالاضـافة اليها . وقد يسرت له سيطرته على هاتين الجزيرتين والبحار المجاورة لايطاليا أن يقطع طريق المواصلات على السفن التى تحمل مؤونة القمح الى روما حيث كانت قد حدثت مجاعة . وقد ترتب على ذلك أن اجتمع الثلاثة فى ميسينوم (Misenum) — قرب بوتيولى عند خليج نابلى — حيث تم الاتفاق على

=٤٠) ابنته الوحيدة جوليا (فى عام ٣٩)، وطلق امها فى نفـس السنة ، ولم يلبث ان تزوج فورا (عام ٣٩) ليفيا دروسيلا LIVIA التى كانت متزوجة قبله برجل يدعى تيبريوس كلوديوس نيرون ولها منه ولدان .

أن يتولى سكستوس پومپى حكم ولايات سردينيا وكورسيكا وصقلية وآخيا (أى جنوب بلاد الأغريق) لمدة خمس سنوات ، وأن يرشح قنصلا وينصب عرّافا ، ويتقاضى تعويضا (٧٠ مليون سسترتيوس) عن أملاك أبيه (پومپى الكبير) فى روما ، وأن يعمل فى مقابل ذلك على تأمين البحر ووصول قوافل السفن المحملة بالقمح سليمة الى روما ؛ وأن لا يأوى فى جيشه بعد ذلك عبيدا آبقين . بيد أن هذه الاتفاقية (معاهدة ميسينوم) لم تنفذ . وفى العام التالى (٣٨) اصطدم اكتافيانوس بسكستوس پومپى الذى عاد الى أعمال القرصنة ، ونشبت بينهما الحرب مرة أخرى ، واسترد الأول سردينيا ولكنه عجز تماما عن الاستيلاء على صقلية .

اتفاقية تارنتوم (٣٧)

وفى عام ٣٩ عاد أنطونيوس الى الشرق حيث كان الاللوريون يهددون ولاية مقدونيا ، وكان البارثيون لا يزالون يحتلون آسيا الصغرى وسوريا . وقد أحرز أحد ضباط انطونيوس انتصار ساحقا على الاللوريين ، وطرد ضابط آخر وهو لابينوس البارثيين من آسيا الصغرى ، واسترد سوريا ، وصد هجوما آخر شنه البارثيون . وفى عام ٣٨ رجع انطونيوس الى ايطاليا استجابة لنداء اكتافيانوس الذى أزعجه نشاط سكستوس بومبى المتزايد . لكن اكتافيانوس لم يحضر الاجتماع فى الوقت المناسب ، ولم يشأ انطونيوس أن ينتظره . ومع هذا فقد تم اجتماع الطرفين فى تارنتوم (Tarentum) فى ربيع العام التالى (٣٧) ، لأن اكتافيانوس شعر بحاجته الشديدة ـ بعد هزيمته على يد سكستوس بومبى ـ الى مساعدة انطونيوس ، كما شعر انطونيوس بحاجته الى مزيد من الجنود الايطاليين لاستخدامهم فى

حملته على بارثيا . ولم تكن الثقة متبادلة بينهما . لكن على الرغم من ارتياب كل منها فى نوايا الآخر ، فقد تم الصلح بينهما رسميا بفضل مساعى اكتاڤيا . ونصت « اتفاقية تارنتوم » على أن يمد أنطونيوس زميله بحوالى ١٢٠ سفينة لكى يستخدمها فى حربه ضد سكستوس بومبى، وأن يتعهد اكتافيانوس فى مقابل ذلك بأن يمد زميله بأربع فرق عسكرية من الفرق المرابطة فى افريقيا . وتفذ انطونيوس تعهداته ، ولكن اكتافيانوس لم يمده بالفرق التى وعده بها . ولما كانت سلطة الحكومة الثلاثية قد انتهت رسميا فى آخر ديسمبر عام ٣٨ ، فقد قرر أعضاؤها اعادة تعيين أنفسهم لمدة خمس سنوات أخرى تنتهى فى آخر عام ٣٣ (١) واحتفظ بنفس توزيع الولايات الذى نصت عليه اتفاقية برنديزى عام ٤٠ . وقد تم هذا التعيين كسابقه عن طريق قانون خاص .

وفى تلك الأثناء شدد اكتافيانوس هجومه على صقلية ، وعاونه لبيدوس بمحاصرة مدينة ليليبايوم . وأخيرا استطاع اجريبا (M. Vipsanius Agrippa) (٢) . وهو أقدر ضباط أكتاڤيانوس ، تدمير معظم أسطول سكستوس پومپى فى معركة ناولوخوس (Naulochus) عام ٣٦ (٣) ، وفر الأخير الى آسيا حيث وقع أسيرا فى يد قوات أنطونيوس بعد حوالى سنتين ، وبعدئذ لقى مصرعه . وبعد فرار سكستوس پومپى بدأ لبيدوس ينازع حق اكتافيانوس فى صقلية ، ولكن قواته تخلت عنه وانحازت الى اكتاڤيانوس ولم يجد مفرا من أن يضع نفسه تحت رحمة الأخير . وقد جرد من سلطته ولم يحتفظ الا بمنصب الكاهن

---

(١) حُسِبت الخمس سنوات (quinquennium) بأثر رجعى ابتداء من اول يناير عام ٣٧ وبذلك تنتهى فى ٣١ ديسمبر عام ٣٣ . وفى راى آخر انها حُسِبت ابتداء من اول يناير عام ٣٦ ، وبذلك تنتهى فى ٣١ ديسمبر عام ٣٢ .

(٢) ولد حوالى سنة ٦٣ ومات فى مارس ١٢ ق . م تزوج جوليا ابنة اكتافيانوس فى عام ٢١ وانجب منها ابنين وثلاث بنات .

(٣) فى ٣ سبتمبر وسبقها انتصاره فى معركة ...لاى

الأعظم ، وعاش بقيــة حياته فى احدى المــدن الايطالية الى أن توفى سـنة ١٢ . ووضـع اكتافيــانوس يده على ولاياته . وترتب على هزيمة سكستوس بومبى وعزل ليبدوس أن أصبح اكتافيانوس منفرداً بالسلطة فى النصف الغــربى من الامبراطورية ، واحتــدم بينه وبين أنطونيوس أوار المنافسة التى انقلبت الى خصومة شديدة .

انتصار اكتافيانوس :

رحل أنطونيوس بعد اتفاقية تارنتوم الى سوريا للاستعداد لغزو بارثيا ، وبدأه بالفعل فى عام ٣٦ . وقد تجنب أنطونيوس طريق صحن مابين النهرين ذى الذكريات المشئومة (١) ، وسلك طريقاً شماليا عبر ارمينيا الى « ميديا اتروپاتينى » ، معتمدا على معاونة ملك ارمينيا . لكن الأخير تخلى عنه وغدر به . ونجم عن ذلك أن دمر البارثيون آلات الحصار الرومانية وقضوا على احتياطى مؤونتهم . عندئذ وجد أنطونيوس نفسه مضطرا الى أن ينفض يديه من الحمــلة ، وينقذ جيشه بالانسحاب واستطاع بشجاعته وبراعته فى القيـــادة أن يسحب معظم قواته الى ارمينيا على الرغم من مطاردة الخيــالة البارثيين له ، ولكنه خسر فى عملية الانسحاب هذه حوالى ٢٠٫٠٠٠ جندى ، وتدهورت سمعته لفشل الحملة . وتبين له أن من المستحيل معاودة الحملة على بارثيا دون أن يتلقى امدادات من ايطاليا . وعندما بعث اليه اكتافيانوس بما تبقى من سفن بعد المعارك البحرية حول صقليــة دون أن يمده بالفــرق العسكرية التى وعده بها ، أدرك أن اكتافيانوس يدبر اقصــاءه عن ايطاليا ، وأنه اذا لم يعمل على دعم نفوذه فى الغرب من جديد ، فليس أمامه سوى ترويض نفسه على قبول مركز أدنى من مركز خصمه .

---

(١) عن حملة كراسوس التى انتهت بكارثة « كرهاى » فى تلك المنطقة ، راجع ص ٣١٦.

وعلى أى حال فلم يكن فى وسع انطونيوس حينئذ الا أن يعقد محالفة مع ملك « ميديا اتروباتينى » ، وأن يحتل أرمينيا ، وأن يأخذ ملكها أسيرا عقابا على غدره به .

وقد زادت شقة الخلاف اتساعا بين انطونيوس واكتافيانوس بسبب علاقة الأول بكليوبطرة ، فبينما كان أنطونيوس مقيما فى أنطاكية عام ٣٧ ، عقد زواجه رسميا على الملكة المصرية (١) . وبعد هزيمته فى بارثيا رفض أن تلحق به اكتافيا زوجته الرومانية الشرعية التى كانت وفية له وترغب فى مساعدته . وكان معنى مسلكه هو نبذ صداقته لاكتافيانوس جهارا . ومع أنه من العسير أن تقرر أن انطونيوس قد أصبح أداة طيعة فى يد كليوبطره ، فاننا لا نستطيع أن ننكر انه بدأ يقتنع بمشروعاتها التى تتلخص فى أن يتمسك بحقه فى خلافة يوليوس قيصر وحكم الامبراطورية على أن تكون هى بوصفها زوجته شريكة له فى السلطة مع ادماج مصر فى الامبراطورية عندما تصبح الظروف مواتية . وهكذا تؤمن مستقبلها ومستقبل مملكتها . وقد اتضح أحد هذه المشروعات بجلاء فى الاحتفال الذى أقيم بالاسكندرية عام ٣٤ ، حيث ظهرت كليوباترا فى زى الربة ايزيس ومعها انطونيوس ، وقد جلس الاثنان على عرشين شاهقين من الذهب . وخطب انطونيوس فى الجماهير المحتشدة ، ونادى كليوبطره باسم « ملكة الملوك » وحاكمة مصر وقبرص وكريت وفلسطين ، ونادى بقيصرون (٢) الذى اعترف ببنوته ليوليوس قيصر كشريك لأمه فى الحكم باسم « ملك الملوك » ، وأعلن ابنه الأكبر من كليوبطرة ملكا على أرمينيا وميديا وبارثيا (٣) ، وأعلن ابنه

---

(١) عن علاقة كليوبطرة بانطونيوس فى هذه الفترة ، راجع كتابنا «مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية» ص ٢١ — ٤٠ .

(٢) اسمه الرسمى بطلميوس قيصر ، راجع ص ٣١١ ح .
وكذلك ص ٢٧١ حاشية ٣ . ولد — على مايرجح فى ٢٣ يونيه ٤٧ بعد مغادرة قيصر لمصر .

(٣) الابن الاكبر ، اسمه الاسكندر هيليوس (الشمس) ، البنت الصغرى =

الأصغر ملكا على سوريا وفينيقيا وكيليكيا وأما ابنتهما الصغرى فأعلنت ملكة على برقة . ومع أن انطونيوس لم يلقب نفسه « ملكا » الا أن هذه الاجراءات أثارت عليه الدوائر الرومانية التى أغضبها تقسيمه ولايات روما الشرقية على أمراء أجانب ، وان لوحظ أن بعض هذه الممتلكات التى عرفت باسم « الهبات السكندرية » لم تكن قد وقعت بعد تحت سيطرة الرومان .

وعندما بلغ اكتافيانوس فى عام ٣٣ نبأ اعتراف انطونيوس ببنوة قيصرون ليوليوس قيصر ثارت ثائرته واحتج على ذلك وشكا مر الشكوى من سوء معاملة أنطونيوس لأكتافيا ، ومن ثم فانه لم يعمل على تحقيق مطلبى انطونيوس بخصوص الامدادات من الجنود الايطاليين والقطائع الزراعية لجنوده القدماء . وأخذ الطرفان يتبادلان التهم والسباب ، واشتدت حملة كل منهما على الآخر ، واشترك فى الحملة أنصار الطرفين . وقد شوهت الحقائق فى غمار هذه الحملة الدعائية المحمومة ، وجاءتنا أخبار هذه السنوات فى المؤلفات التاريخية مضطربة متناقضة حتى ليتعذر علينا ، ان لم يكن من المستحيل ، أن نبنى صورة صحيحة واضحة عن الموقف من وجوه كثيرة .

وقد انتهت مدة الحكومة الثلاثية من الناحية القانونية آخر عام ٣٣ وتولى القنصلية فى العام التالى رجلان من مرشحى انطونيوس الذى سعى الى كسب تأييد الرأى العام فى روما فأرسل الى السناتو رسالة يطلب فيها اقرار جميع تنظيماته (acta) التى اجراها فى الشرق ، ويعرض فيها أيضا التنحى عن سلطاته الاستثنائية كعضو فى الحكومة الثلاثية واعادة الدستور القديم . ولم يشأ القنصلان أن ينشرا كل محتويات الرسالة حتى لا تثير مسألة توزيع الممتلكات الشرقية على

= واسمها كليوباطرة سيليني (القمر) هما توأمان ولدا فى عام ٤٠ (راجع ص ٣٥١ هامش ١) واما الابن الاصغر واسمه بطلميوس فيلادلفوس فقد ولد عام ٣٦ .

كليوبطرة وأبنائها غضب الرأى العام عليه ، بل أن أحد القنصلين هاجم اكتافيانوس ، وكاد يتقدم باقتراح بتنحيته عن السلطة العليا فى الحال لولا اعتراض أحد نقباء العامة على ذلك . عندئذ لجأ اكتافيانوس الى العنف وأرهب السناتو بحرسه الشخصى المسلح ، ولم يجرؤ أحد على مقاومته ، ولاذ بالفرار كل من القنصلين وعدد غفير من أعضاء السناتو لاجئين الى معسكر انطونيوس الذى رد على اكتافيانوس بأن أعلن رسميا طلاقه من اكتاڤيا . وكان مغزى ذلك هو إشهار الحرب على أخيها الذى أخرج على الفور وصية انطونيوس المودعة فى معبد الربة فستا ، ونشر منها بعض الأجزاء التى كان يعرف أنها تثير الرأى العام ضده وضد كليوباترا ، ولا سيما ذلك الجزء الذى قيل إن انطونيوس يؤكد فيه توزيع الولايات الشرقية على كليوبطرة وأبنائها ، والذى لا يستبعد انه كان مزيفا أو مدسوسا عليه (١) . وقد ازداد شعور العداء نحو كليوبطرة الى حد أن اكتاڤيانوس استطاع أن يحمل أعضاء السناتو الذى بقوا فى روما ، وسكان المدن الايطالية المتمتعة بالحكم الذاتى ، وسكان الولايات الغربية ، على أن يقسموا له يمين الولاء (coniuratio) . وكانت هذه اليمين هى السند الرئيسى لسلطته فى السنوات القليلة التالية ، حيث أن اكتافيانوس لم يعد يعتبر نفسه عضوا فى الحكومة الثلاثية .

واستنادا الى هذه الثقة التى وضعها فيه الشعب ، استصدر اكتافيانوس قرارا بابطال سلطة انطونيوس العليا ، والغاء ترشيحه قنصلا لعام ٣١ . وبديهى أن انطونيوس لم يعترف بشرعية هذه الاجراءات . وأخيرا أعلن اكتافيانوس الحرب رسميا لا على انطونيوس

---

(١) عن هذه الوصية ، راجع كتابنا « مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية » ، ص ٢٤ وحاشية ١ .

بل على كليوبطرة عدوة الشعب الرومانى ، قاضيا بذلك على أى أمل فى الصلح .

معركة اكتيوم (سبتمبر عام ٣١) :

فى خريف عام ٣٣ استقر أنطونيوس وكليوبطرة فى مدينة أفسوس (على ساحل آسيا الصغرى) وشرعا فى تعبئة القوات اللازمة توطئة للصراع المرتقب . وكان بعض كبـار الرومان فى معسكر انطونيوس يعترضون اعتراضا شـديدا على وجـود الملكة المصرية لأنهم كانوا لا يرغبون فى الظهور كأنهم يقاتلون من أجلها ويشعرون بأن ارتباطها بانطونيوس على هذه الصـورة انما يقـوى من مركز خصمه . لكن كليوبطرة كانت هى التى تمـول الجيش والأسـطول بأموال مصر ، ولذلك بقيت غير حافلة بالاعتراض . وفى غضون العـام التالى (٣٢) حشد انطونيوس جيشـا يتألف من ٨٥٫٠٠٠ أو ٩٠٫٠٠٠ مقـاتل ، وأسطولا قوامه ٥٠٠ سفينة وزحف على رأس هذه القوات نحو الغرب عبر البحر الايجى متجها الى بلاد الاغريق وقيل أنه فكر فى النزول فى اطاليا ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، ولذلك أنزل جيشه على شواطىء خليج أمبراكيا (غربى بلاد الأغريق) ورابط أسطوله فى مياه ذلك الخليج حيث أمضى شتاء عام ٣٢ — ٣١ .

وفى ربيـع عام ٣١ عبر اكتافيانوس ومعـه جيش يضاهى جيش انطونيوس فى العـــدد وأسطول مؤلف من ٤٠٠ سـفينة ، البحـر الادرياتيكى الى ايبيروس (غربية بلاد الأغريق) حيث رابط فى مواجهة العدو الذى احتل خليج اكتيوم (Actium) عند مدخل امبراكيا . واستطاع أجريبا ، وهو من أقدر قواد اكتافيانوس ، استطاع أثنـاء المناورات التى حدثت بعد ذلك ، أن يحاصر أسطول أنطونيوس فى خليج

اكتيوم ، بينما أخفقت محاولات أنطونيوس لارغام خصمه على خوض معركة برية أو منع وصول المؤونة اليه من البر . واستولى اكتافيانوس على كورنثة وغيرها من المراكز الحيوية ، واستغل تفوقه فى سلاح الفرسان لقطع طريق الاتصال بين قوات انطونيوس وداخل بلاد الاغريق حتى بدأت هذه القوات تشعر بنقص المؤونة ووطأة الأمراض . ونشب النزاع بين كليوبطرة وبعض الضباط الرومان وتخلت بعض الشخصيات البارزة عن انطونيوس وانحازت الى اكتافيانوس . وهكذا وجد انطونيوس نفسه فى مركز صعب فاضطر الى خوض معركة بحرية . وليس فى وسعنا الآن أن نتبين نواياه بوضوح ، فلعله كان ينتوى أن يقاتل حتى يحرز نصرا حاسما . لكن يرجح انه كان قد وطد العزم على أن يترك معظم قواته لتدافع عن نفسها فى المعاقل الاستراتيجية ببلاد الاغريق ، بينما ينسحب هو وكليوبطرة مع بقية قواتهما بعد أن يخترقا الحصار . ولو نجحت المحاولة لأصبح فى وسعه أن يجمع شمل الحاميات التى تركها وراءه فى الشرق بحيث يتسنى له مواصلة النضال ضد خصمه . وقد استطاعت كليوبطرة أن تخترق الحصار مع جزء من الأسطول المحمل بالكنز الخاص بها ، وسرعان ما تبعها انطونيوس . لكن أغلب سفنه وقعت فى الأسر أو استسلمت للعدو . وسرعان ما استسلمت أيضا للعدو قواته التى كانت مرابطة على الساحل . وعندما رفضت حاميات الشرق الامتثال لأوامر انطونيوس اضطر الى الانسحاب الى الاسكندرية والاعتماد على ما تيسر له حشده هناك من قوات جديدة .

وتقدم اكتافيانوس على مهل نحو الشرق . وفى صيف عام ٣٠ بدأ غزوه لمصر . وذهبت سدى كل محاولات انطونيوس لتنظيم الدفاع عنها ، اذ تخلت عنه قواته ، وانحازت الى اكتافيانوس الذى احتل

الاسكندرية فى أول الشهر السادس (وهو شهر أغسطس فيما بعد) [1] عام ٣٠ . ولما ترامى الى سمع أنطونيوس أن كليوبطرة انتحرت ، انتحر هو الآخر ، لكن الملكة لم تكن قد انتحرت بل حوصرت وأوشكت أن تقع أسيرة . ولما وجدت أن اكتافيانوس رجل شديد المراس قوى الشكيمة لا تلين له قناة وانه من المستحيل اقناعه باحتفاظها بمملكتها فقط لنفسها أو حتى لأبنائها ، آثرت أن تحذو حذو انطونيوس (الذى حزنت عليه وبكته) على أن تقع أسيرة وتدخل روما فى ثياب الذل مسوقة فى موكب انتصار اكتافيانوس الذى كان يأمل — على ما يرجح — فى أن يتحقق له ذلك . فقد لوحظ أنه عمل على تهويل دور « الملكة المصرية » فى الصراع لكى يجمع حوله الرأى العام الرومانى ، غير أنه لم يشأ أن يتحمل مسئولية مقتلها ، وان أمر بقتل قيصرون والابن الأكبر لأنطونيوس لأن كلا منهما كان نسبه يؤهله لأن يكون منافسا خطيرا فى المستقبل . وتحولت مصر الى ولاية رومانية ، وأسهمت مواردها فى سد نفقات الحملات التى قام بها بعد ذلك ، ومكنته من توزيع المكافآت على جنوده المسرحين .

وبعد أن أعاد اكتافيانوس تنظيم الولايات القديمة والممتلكات الرومانية الأخرى فى الشرق ، عاد الى روما فى عام ٢٩ حيث احتفل لمدة ثلاثة أيام بانتصاراته على الشعوب غير الرومانية فى أوروبا وآسيا وافريقيا ، تلك الشعوب التى قهرها هو أو ضباطه المساعدون أثناء عهد الحكومة الثلاثية .

---

(١) الشهر السادس (mensis Sextilis) على اعتبار ان السنة كانت قديما تبدأ من مارس ، فلما أصبحت (بعد عام ١٥٣) تبدأ من يناير أصبح « الشهر السادس » هو الشهر الثامن . ولكنه ظل محتفظا باسمه القديم الى ان سمى فى عام ٢٧ق.م. باسم «أغسطس» وهو اللقب الذى خلع على اكتافيانوس فى نفس العام (٢٧ ق.م.) راجع كتابنا « مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية » ص ٤١ ، حاشية ١ . وجدير بالذكر ان عام ٢٧ ق.م. هو تاريخ قيام الحكم الامبراطورى .

وهكذا آلت الى اكتافيانوس وهو فى سن الثالثة والثلاثين تركة يوليوس قيصر السياسية بعد أن أثبت جدارته بها . وقد أسدل انتصاره الأخير الستار على قرن مشحون بالنزاع الأهلى كان قد بدأ منذ تريبونية تيبريوس جراكوس ، اذ قضت الحروب وحركات الانتقام على أرواح غفيرة من الرومان والايطاليين ، وأشرفت بلاد الاغريق ومقدونيا وآسيا الصغرى على الدمار . وقد تاق الناس فى الامبراطورية قاطبة الى السلام . فلا عجب أن نادوه فى كل مكان باسم منقذ البشرية ولقبوه بمؤسس عصر ذهبى جديد ، وأبدوا استعدادهم لعبادته كاله .

* * *

محتويات الكتاب

مقدمات الحرب الأهلية

(٥٨ — ٥٠)

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٨٤٧٢/٨٨
الرقيم الدولى ٣- ٧٣٤٠ - ٠٤ - ٩٧٧

مطبعة العمرانية للأوفست
٤٨ شارع زهران بالعمرانية الغربية
العمرانية الغربية — جيزة
ت : ٥٣٧٥٥٠

